الرَّوْضَةُ الزَّكِيَّة

١٩٠٥

للامتحان في اللغة العربيَّة

جمع رزق الله افندي عزُّون مدرّس العربيّة للبورد اوف اكزامنرس
فورت وليم

AR-RAUZATU-Z-ZAKĪYAH

SELECTIONS FOR THE HIGHER STANDARD EXAMINATION IN ARABIC.

COMPILED BY

R. F. AZOO

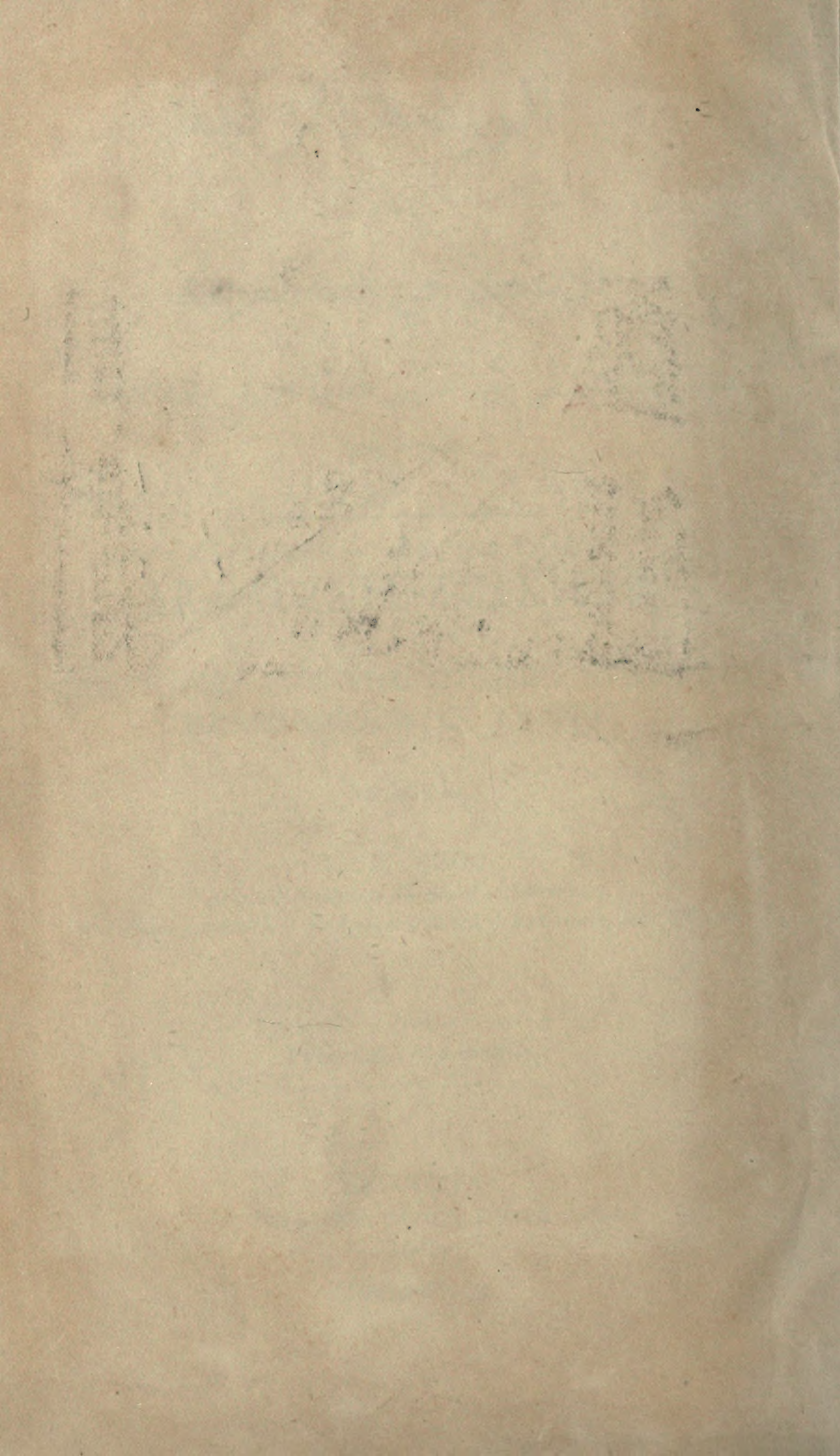
Arabic Instructor to the Board of Examiners.

Under the supervision of the Secretary Board of Examiners, Fort William.

Published by Authority.

CALCUTTA:
PRINTED AT THE BAPTIST MISSION PRESS.
1905.

Price Rs. 5.



الرَّوْضَةُ الزَّكِيَّة

۱۹۰۵

للامتحان في اللغة العربيَّة

جمع رزق الله افندي عزّون مدرّس العربيّة للبورد اوف اكزامنرس

فورت وليم

AR-RAUẒATU-Z-ZAKĪYAH

SELECTIONS FOR THE HIGHER STANDARD EXAMINATION IN ARABIC.

COMPILED BY

R. F. AZOO

Arabic Instructor to the Board of Examiners.

Under the supervision of the Secretary Board of Examiners, Fort William.

Published by Authority.

CALCUTTA:

PRINTED AT THE BAPTIST MISSION PRESS.

1905.

Price Rs. 5.

فهرس

الجزء الاوّل

القسم الاوّل في الامثال

وجه

١ — براعةٌ و قرود (كليلة ودمنة) ١
٢ — السمكات الثلاث („) ١
٣ — تاجر ومستودع عنده („) ٢
٤ — الديك والصقر (عنوان البيان للشبراوي) ٣
٥ — القطاة والغراب („) ٣
٦ — الغلام والثعلب (للابشيهي) ٤
٧ — العصفور والفخ (للشبراوي) ٤
٨ — حمامة وثعلب ومالك الحزين (كليلة ودمنة) ٦
٩ — الفرس والخنزير (للشبراوي) ٧
١٠ — حكاية الطيور والوحوش مع ابن آدم (الف ليلة وليلة) ... ٩
١١ — مثل الحمامة المطوّقة والجرذ والظبي والغراب (كليلة ودمنة) ١٧

القسم الثاني في النوادر والاخبار

١ — عمارة بن حمزة والمنصور (للقليوبي) ٢٦
٢ — المعتصم والحمار (لابي الفرج الملطيّ) ٢٦
٣ — قيس بن سعد والاعرابيّ (للطرطوشي) ٢٦
٤ — حاتم الطائي وملك الروم (لابن عبد ربه) ٢٧
٥ — ايذار ابن مامة الايادي (اخبار العرب لابن قتيبة) ٢٧
٦ — صلاح الدين والمرأة (حسن المحاضرة للسيوطي) ٢٨
٧ — قيس بن عاصم وبنته الموءدة (نفحة اليمن) ٢٨
٨ — ملك الروم والعرب ... ... („) ٢٩
٩ — المنصور ورجلٌ من حاشيته ... („) ٢٩
١٠ — ابو دلامة والسفاح ... ... („) ٢٩
١١ — درواس بن حبيب وهشام (للشريشي) ٣٠
١٢ — الواقدي وصديقاه (لابن خلكان) ٣٠
١٣ — اخبار عن المأمون (مروج الذهب للمسعودي) ٣١
١٤ — النعمان بن المنذر وحنظلة الطائيّ (مجمع الامثال للميداني) ٣٢
١٥ — عمر بن الخطّاب والعجوز (للاتليدي) ٣٥

وجه

١٦ — ابرهيم بن سليمان بن عبدالملك والرجل الكريم (للاتليدي) ٣٨
١٧ — العبّاس صاحب شرطة المأمون والدمشقي (للاتليدي) ٣٩
١٨ — الرشيد والدمشقي (للاتليدي) ٤٣
١٩ — حديث المأمون و بوران (العقد الفريد لابن عبدربّه) ٤٨
٢٠ — الصيد والقنص (للفخريّ) ٥٧
٢١ — فتح الاندلس (للمقّري) ٦٠

القسم الثالث

قصة الفرس الآبنوس (الف ليلة وليلة) ٧٠

القسم الرّابع

١ — رحلة ابن بطوطة الى الصين ومحنته بالاسر ٩٥
٢ — ذكر جزائر ذيبة المهل لابن بطوطة ١٠٠
٣ — حكاية السفرة الثانيــة من سفرات السنــدباد البحري (الف ليلة وليلة) ١٠٥
حكايت السفرة الثالثة ١١٢
حكاية السفرة الخامسة ١٢١
٤ — سفرة ابن جبير الى جزيرة صقلية ١٢٩
٥ — ذكر الشام لابي الفداء ١٣٦

القسم الخامس

نخبــة من رحلــة صادق باشا الى صحــراء افريقيــة العظمــى (معربة بقلم جميل بك العظم) ١٤٤

الجزء الثاني

نخب من كتاب الواسطة في معرفة احوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون اوربّا لاحمد فارس افندي صاحب الجوائب

فصلٌ في هواء مالطة ومنازهها وغير ذلك ١٨٩
فصل في فالتة قاعدة جزيرة مالطة ١٩٥
فصل في عادات المالطيين واحوالهم واخلاقهم واطوارهم ٢٠٧
فصولٌ من كشف المخبّا عن فنون اوربّا ٢٢٠
وصف باريس ٢٦١
الكلام على لندن او لندرة ٢٩٠

القسم الاول من الجزء الاول في الامثال

١ — يراعة وقرود — وهو مثل من لا يتّعظ بكلام غيره فيغامر بنفسه فيعطب

زعموا ان جماعة من القردة كانوا سكّاناً في جبل فالتمسوا في ليلة باردة ذات رياح وامطار ناراً فلم يجدوا - فرأوا يراعة تطير كانها شرارة نار فظنوها ناراً فجمعوا حطبا كثيرا والقوه عليها و جعلوا ينفخون طمعاً ان يوقدوا نارا يصطلون بها - و كان قريباً منهم طائر على شجرة ينظرون اليه وينظر اليهم وقد رأى ما صنعوا فجعل يناديهم و يقول لا تتعبوا فان الذي رايتموه ليس بنار - فلما طال ذلك عليه عزم على القرب منهم لينهاهم عمّا هم فيه - فمرّ به رجل فعرف ما عمد اليه فقال له لا تلتمس تقويم ما لا يستقيم فان الحجر المانع الذي لا ينقطع لا تجرب عليه السيوف والعود الذي لا ينحني لا يعمل منه القوس فلا تتعب - فابى الطائر ان يطيعه وتقدم الى القردة ليعرفهم ان اليراعة ليست بنار واذا بأحدهم تناوله وضرب به الارض فمات *

٢ — السمكات الثلاث — وهو مثل من لا يقنط من الرأي عند الشدة

زعموا ان غديرا كان فيه ثلاث سمكات كيسة و اكيس منهاً و عاجزة - و كان ذلك الغدير بنجوة من الارض لا يكاد يقربه احد و بقربه نهر جار فاتفق انه اجتاز بذلك النهر صيادان فابصرا الغدير فتواعدا ان يرجعا اليه بشباكهما

فيصيدا ما فيه من السمك فسمعت السمكات قولهما - اما اكيسهنّ فلوقتها ارتابت بهما و تخوفت منهما فلم تعرج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل فيه الماء من النهر الى الغدير - و اما الكيسة الاخرى فانها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان فلما رأتهما و عرفت ما يريدان ذهبت لتخرج من مدخل الماء فاذا بهما قد سدّاه - فحينئذ قالت قد فرّطت و هذه عاقبة التفريط فكيف الحيلة على هذه الحال وقلّ ما تنجح حيلة العجلة والارهاق غيران العاقل لا يقنط من منافع الرأي ولا ييأس على حال ولا يدع التدبير و الجهد - ثم انها تماوتت فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة و تارة على بطنها فاخذها الصيادان فوضعاها على الارض بين النهر و الغدير فوثبت الى النهر فنجت - و اما العاجزة فلم تزل في اقبال و ادبار حتى صيدت *

٣ — تاجر و مستودع عنده — وهو مثل من اخذ بثأره بمثل ما ثئر به

زعموا انه كان بارض كذا تاجر وانه اراد الخروج يوما الى بعض الوجوه ابتغاء الرزق وكان عنده مئة منّ حديداً فاودعها رجلا من اخوانه و ذهب في وجهه ثم قدم بعد ذلك بمدة فجاء والتمس الحديد فقال له صاحبه قد اكلته الجرذان فقال قد سمعت انه لا شيء اقطع من انيابها للحديد ففرح الرجل بتصديقه ما قال وادّعى ثم ان التاجر خرج فلقي ولداً للرجل فاخذه وذهب به الى منزله ثم رجع اليه الرجل من الغد فقال له هل عندك علم بابني قال لما خرجت من عندك بالامس رايت بازياً قد اختطف صبياً فلعله ابنك فلطم الرجل على راسه وقال يا قوم هل سمعتم او رأيتم ان البزاة تختطف الصبيان - فقال نعم ان ارضاً تأكل جرذانها مئة منّ حديد ليس بعجب ان تختطف بزاتها الفيلة - قال الرجل اكلت حديدك و هذا ثمنه فاردد عليّ ابني *

٤ — الديك و الصقر

حكي ان ديكا وصقرا اصطحبا مدة ففي بعض الايام قال الصقر للديك اني ما رايت اقل وفاء و لااضيع لحقوق الصحبة منكم معاشر الديكة فقال الديك ما الذي انكرته منا قال لاني ارى الناس يكرمونكم و يحسنون اليكم في المطعم والمشرب وانتم تفرون منهم وتنفرون من قربهم و نحن ياخذون الواحد منا فيعذبونه ويخيطون عينيه ويمنعونه الطعام و الشراب ثم يرسلونه فيذهب الى حيث لا يبقى لهم اليه وصول ولا عليه لهم قدرة ثم يدعونه اليهم فياتي مسرعا و يقتنص الصيد والطير لهم - فلما سمع الديك كلام الصقر ضحك ضحكا عاليا فقال الصقر ما يضحكك ايها الديك فقال عجبت من شدة جهلك وغرورك اما انك ايها الصقر لو عاينت من جنسك جماعة في كل يوم تسلخ جلودهم وتقطع اعناقهم ويقلون على النار ويطبخون في القدور لفررت منهم اشد الفرار ولم يستقر لك بصحبتهم قرار ولو قدرت لطرت الى جو السماء و علمت انه لا فائدة في القرب منهم و ان السلامة في البعد عنهم فعرف الصقر صدق كلامه واقلع عن ملامه *

٥ — القطاة والغراب

حكي ان قطاة تنازعت مع غراب في حفرة يجتمع فيها الماء وادعى كل واحد منهما انها ملكه فتحاكما الى قاضي الطير فطلب بينة فلم يكن لاحدهما بينة يقيمها فحكم القاضي للقطاة بالحفرة فلما راته قضى لها بها من غير بينة والحال ان الحفرة كانت للغراب قالت له ايها القاضي ما الذي دعاك لان حكمت لي وليس لي بينة و ما الذي آثرت به دعواي على دعوى الغراب فقال لها قد اشتهر عنك الصدق بين الناس حتى ضربوا بصدقك المثل فقالوا اصدق من قطاة فقالت له اذا كان الامر على ما ذكرت فوالله ان الحفرة للغراب و ما انا ممن يشتهر عنه خلة جميلة و يفعل خلافها فقال لها و ما حملك على هذه الدعوى الباطلة فقالت سورة الغضب لكونه

منعني من ورودها و لكن الرجوع الى الحق اولى من التمادي في الباطل ولئن تبقى لي هذه الشهوة خير لي من الف حفرة *

٦ — الغلام و الثعلب

كان لرجل من اغنياء التجار ولد نجيب صرّفه من صغر سنه في التجارة ببلده حتى رضي بخبرته فيها - فلما بلغ اشدّه اراد ان يعوده على الاسفار في تجارة الاقطار فجهزه تجهيزاً يليق بامثاله واصحابه ومضى الغلام - فلما كان على مسيرة ايام من المدينة نزل ذات ليلة في بعض المروج و كانت الليلة مقمرة فقام يتمشى و قد مضى جزء من الليل فبصر بثعلب طريح و قد اخذه الهرم والاعياء وضعف عن الحركة - فوقف عنده واخذ يتفكر في امره و يقول كيف يرزق هذا الحيوان المسكين و ما اظن الا انه يموت جوعاً - فبينما هو كذلك اذا هو باسد مقبل قد افترس فريسة فجاء حتى قرب من الثعلب فتناول منها حتى شبع وترك بقيتها ومضى - فعند ذلك تحامل الثعلب على نفسه واخذ يتحرك قليلا قليلا حتى انتهى الى ما تركه الاسد فاكل حتى شبع و الغلام يتعجب من صنع الله في خلقه وما ساق لهذا الحيوان العاجز من رزقه - و قال في نفسه اذا كان سبحانه قد تكفل بالارزاق فلاي شيء احتمال المشاق و ركوب الاسفار و اقتحام الاخطار - ثم انثنى راجعا الى والده فاخبره الخبر و شرح له ما ثنى عزمه عن السفر فقال له يا بنيّ قد اخطأت النظر انما اردت بك ان تكون اسداً تأوي اليك الثعالب الجياع لا ان تكون ثعلباً جائعاً تنتظر فضلة السباع - فقبل نصيحة ابيه و رجع لما كان فيه *

٧ — العصفور و الفخ

حكي ان عصفورا مر بفخ فقال العصفور ما لي اراك متباعداً عن الطريق فقال الفخ اردت العزلة عن الناس لآمن منهم ويأمنوا مني - فقال العصفور فمالي اراك مقيما في التراب فقال تواضعاً فقال العصفور فمالي اراك

ناحل الجسم فقال نهكتني العبادة - فقال العصفور فما هذا الحبل الذي على عاتقك - قال هو ملبس النساك فقال العصفور فما هذه العصا - قال اتوكا عليها فقال العصفور فما هذا القمح الذي عندك قال هو فضل قوتي اعددته لفقير جائع او ابن سبيل منقطع - فقال العصفور اني ابن سبيل و جائع فهل لك ان تطعمني - قال نعم دونك - فلما القى منقاره امسك الفخ عنقه فقال العصفور بئس ما اخترت لنفسك من الغدر و الخديعة و الاخلاق الشنيعة - ولم يشعر العصفور الا و صاحب الفخ قد قبض عليه - فقال العصفور في نفسه بحق قالت العلماء من تهور ندم و من حذر سلم وكيف لي بالخلاص ولاتَ حينَ مناص ثم حدثتهُ نفسهُ بالاحتيال فربما نفع في مضيق الاحوال - فالتفتَ الى الصياد و قال له ايها الرجل اسمع مني كلمات ارجو ان ينفعك الله بها ثم افعل بي ما تشاء - فعجب الصياد من كلام العصفور وقال له قل - فقال له العصفور لا يشك عاقل اني لا اسمن ولا اغني من جوع فان كنت ترغب في الحكمة فاسمع مني ثلاث كلمات من الحكم انفع لك مني واطلقني - واحدة و انا في يدك و الثانية و انا على اصل هذه الشجرة و الثالثة اذا صرت في اعلاها - فرغب الصياد في اطلاقه وقال له قل الاولى - فقال له ما حييت فلا تندم على فائت - فاعجبه مقاله و اطلقه - فلما صار في اسفل الشجرة قال و الثانية ما عشت فلا تصدق بشيء لا يكون انه يكون - ثم طار الى اعلى الشجرة فقال له الصياد هات الثالثة - فقال العصفور ايها الرجل لم ار اشقى منك ظفرتَ بغناك و غنى اهلك و ولدك و ذهب من يدك في ايسر وقت - فقال الصياد و ما ذاك - فقال العصفور لو انك ذبحتني لوجدت في حوصلتي جوهرتين من الياقوت زنة كل واحدة منهما خمسون مثقالا - فلما سمع الصياد مقالة العصفور اعتراه الاسف و عض على اصبعه وقال خدعتني ايها العصفور و لكن هات الثالثة - فقال العصفور كيف اقول الثالثة و انت قد نسيت الاثنتين قبلها في لحظة - الم اقل لك لا تندم على ما فات ولا تصدق بما لايكون انه يكون - و كيف

صدقت ان في حوصلتي جوهرتين زنة كل واحدة منهما خمسون مثقالا و انت لو وزنتني بريشي ولحمي وعظمي وجميع ما في جوفي ما وفى ذلك بعشرة مثاقيل وقد ندمت على الطلاق القائت و تاسفت عليه ـ ثم طار و تركه و فارق بحيلته شركه *

٨ — حمامة و ثعلب و مالك الحزين — وهو مثل من يرى الرأي لغيره لا لنفسه

زعموا ان حمامة كانت تفرخ في ذروة نخلة طويلة باسقة في السماء و كانت اذا شرعت في جمع عشها الى تلك الشجرة لا يتم لها ذلك الا بعد تعب و مشقة لسحوق النخلة فاذا فرغت من الجمع باضت ثم حضنت بيضها فاذا فقست وادركت فراخها جاءها ثعلب قد تعاهد ذلك منها لوقت علمه فيقف باصل تلك النخلة فيصيح بها ويوعدها ان يرقى اليها فتلقي اليه فراخها فبينما هي ذات يوم قد ادرك لها فرخان اذا بمالك الحزين قد اقبل فوقع على النخلة ـ فلما راى الحمامة كئيبة شديدة الهم قال لها ما لي اراك يا حمامة كاسفة اللون سيئة الحال ـ فقالت له يا مالك الحزين ان ثعلبا دهيت به كلما كان لي فرخان جاءني يتهددني و يصيح في اصل النخلة فافرق منه فاطرح اليه فرخيّ ـ فقال لها اذا اتاك هذه المرة ليفعل ذلك فقولي له لا القي فرخيّ فارق اليّ و غرر بنفسك ـ فلما لقنها هذه الحيلة طار فوقع على شاطئ نهر فاقبل الثعلب في الوقت الذي عرف فوقف تحتها ثم صاح بها كما كان يفعل فاجابته بما لقنها مالك الحزين فقال لها اخبريني من علمك هذا فاخبرته فتوجه حتى اتى مالك الحزين على شاطئ النهر فوجده واقفا ـ فقال له يا مالك الحزين اذا اتتك الريح عن يمينك اين تجعل راسك ـ قال عن شمالي قال فاذا اتتك عن شمالك قال اجعله عن يميني او خلفي ـ قال فاذا اتتك الريح من كل مكان و ناحية اين تجعله قال تحت جناحيّ ـ قال و كيف تستطيع ان تجعله تحت

جناحيك ما اراه يتهيأ لك قال بلى قال ارني كيف تصنع فلعمري يا معشر الطير لقد فضلكم الله علينا - لكنّ تدرين في ساعة واحدة مثل ما ندري نحن في سنة و تبلغن ما لانبلغ و تدخلن رؤوسكن تحت اجنحتكن من البرد و الريح فهنيئاً لكنّ فارني كيف تصنع. فادخل الطائر راسه تحت جناحه فوثب عليه الثعلب مكانه فاخذه فهمزه همزة دق بها فؤاده - ثم قال يا عدو نفسه ترى الرأي للحمامة و تعلمها الحيلة لنفسها و تعجز عن مثل ذلك لنفسك حتى يستمكن منك عدوك ثم قتله و اكله *

٩ — الفرس و الخنزير

حكي ان فرسا كان لرجل من الشجعان و كان يكرمه ويُحسن القيام بخدمته و لا يصبر عنه ساعة و يعدّه لمهماته و كان يخرج به في كل غداة الى مرج واسع فينزل عنه سرجه و لجامه ويطيل رسنه فيتمرغ ويرعى حتى ترتفع الشمس فيرده الى منزله - و انه خرج يوما على عادته الى المرج فلما نزل عنه و استقرت قدماه على الارض نفر عنه الفرس و جمح و مرّ يعدو بسرجه و لجامه فطلبه الفارس يومه كله فاعجزه و غاب عن عينه عند غروب الشمس فرجع الفارس الى اهله وقد يئس من الفرس ولما انقطع الطلب عن الفرس و اظلم عليه الليل جاع فرام ان يرعى فمنعه اللجام ورام ان يتمرغ فمنعه السرج ورام ان يستقر على احد جنبيه فمنعه الركاب فبات بشر ليلة و لما اصبح ذهب يبتغي فرجا مما هو فيه فاعترضه نهر فدخله ليقطعه الى الجانب الاخر فاذا هو بعيد القعر فسبح فيه الى الجانب الاخر وكان حزامه من جلد لم يبالغ في دبغه - فلما خرج من النهر اصابت الشمس الحزام فيبس و اشتدّ عليه فورم عنقه ووسطه و اشتد الضرر عليه مع ما به من الجوع فلبث بذلك اياما الى ان ضعف عن المشي فقعد فمر به خنزير وهم بقتله ثم عطف عليه لما راى به من الضعف فساله عن حاله فاخبره بما هو فيه من اضرار اللجام . و السرج و الحزام و ساله ان يصطنع عنده معروفا

و يخلصه مما ابتلي به فساله الخنزير عن الذنب الذي استحق به تلك العقوبة فزعم الفرس انه لا ذنب له - فقال له الخنزير كلا بل انت كاذب في زعمك او جاهل بجرمك فان كنت يا فرس كاذبا فما ينبغي لي ان انفس عنك خناقا و لا اصطنع عندك معروفا ولا اتخذك وليا ولا التمس عندك شكرا و لا اطلب فيك اجرا فانه كان يقال احذر مقارنة ذوي الطباع المرذولة لئلا يَسْرِق طبعك من طباعهم و انت لا تشعر - و كان يقال لا تطمع في استصلاح الرذل فانه لن يترك طباعه من اجلك - ثم قال له الخنزير و ان كنت ايها الفرس جاهلا بجرمك الذي استوجبت به هذه العقوبة فجهلك بذنبك اعظم منه - فان مَن جهل ذنوبه اصر عليها فلم يُرجَ فلاحُه - فقال الفرس للخنزير ينبغي لك ان لا تزهد في اصطناع المعروف فان الدهر ذو صروف فقال الخنزير اني لست بزاهد في ذلك و لكنه كان يقال العاقل يتخير لمعروفه كما يتخير البادر لبذره مازكا من الارض - فحدثني يا فرس عن ابتداء امرك فيما نزل بك و عن حالك قبل ذلك لاعلم من اين أُتيتَ - فحدثه الفرس عن جميع امره و كيف كان عند فارسه و كيف فارقه و ما لقي في طريقه الى حين اجتماعه بالخنزير - فقال له الخنزير قد ظهر لي الان انك جاهل بجرمك وان لك ذنوبا ستة - احدها خذلانك فارسك الذي احسن اليك واعدّك للمهمات - و الثاني كفرك لاحسانه - و الثالث اضرار بك في طلبك - و الرابع تعدّيك على ماليس لك من العُدة وهي السرج و اللجام - و الخامس اساءتك على نفسك بتعاطيك التوحّش الذي لست له اهلا و لا لك عليه مقدرة - و السادس اصرارك على ذنبك وتماديك في غوايتك فقد كنت متمكنا من العود الى صاحبك و الاستقالة من فارط جهلك قبل ان يوهنك اللجام بالجوع و الحزام بالضبط - فقال الفرس للخنزير اما اذا عرفتني ذنوبي و ايقظتني لماكنت ذاهلا عنه محجوبا بحجاب الجهل فانطلق الان و دعني فاني مستحق لاضعاف ما انا فيه - فقال له الخنزير اما اذا اعترفت و فطنت لهذا و لمت نفسك و بختها و اخترت لنفسك العقوبة على

جهلها فانك حقيق بان يفرج عنك - ثم ان الخنزير قطع عنه اللجام والحزام فسقط السرج وفرج عنه وتركه وانطلق *

١٠ — حكاية الطيور والوحوش مع ابن آدم

قيل انه كان في قديم الزمان وسالف العصر والاوان طاووس يأوي الى جانب البحر مع زوجته - وكان ذلك الموضع كثير السباع وفيه من سائر الوحوش - غير انه كثير الاشجار والانهار - وذلك الطاووس هو وزوجته يأويان الى شجرة من تلك الاشجار ليلا من خوفهما من الوحوش - ويغدوان في طلب الرزق نهاراً - ولم يزالا كذلك حتى كثر خوفهما - فسارا يبغيان موضعاً غير موضعهما يأويان اليه - فبينما هما يفتشان على موضع ان ظهرت لهما جزيرة كثيرة الاشجار والانهار - فنزلا في تلك الجزيرة واكلا من اثمارها وشربا من انهارها - فبينما هما كذلك واذا ببطّة اقبلت عليهما وهي في شدّة الفزع - ولم تزل تسعى حتى اتت الى الشجرة التي عليها الطاووس هو و زوجته فاطمأنّت - فلم يشكّ الطاووس في ان تلك البطة لها حكاية عجيبة - فسالها عن حالها وعن سبب خوفها - فقالت انني مريضة من الحزن وخوفي من ابن آدم فالحذر ثم الحذر من بني آدم - فقال لها الطاووس لا تخافي حيث وصلت الينا - فقالت البطة الحمد لله الذي فرّج عني همّي وغمّي بقربكما وقد اتيت راغبة في مودّتكما - فلما فرغت من كلامها نزلت اليها زوجة الطاووس - وقالت لها اهلاً وسهلاً ومرحباً لا بأس عليك ومن اين يصل الينا ابن آدم ونحن في هذه الجزيرة التي في وسط البحر - فمن البرّ لا يقدر ان يصل الينا ومن البحر لا يمكن ان يطلع علينا - فابشري وحدّثينا بالذي نزل بك واعتراك من ابن آدم - فقالت البطة اعلمي ايتها الطاووسة انني في هذه الجزيرة طول عمري آمنة لا ارى مكروها فنمت ليلة من الليالي فرايت في منامي صورة ابن آدم وهو يخاطبني واخاطبه - وسمعت قائلا يقول

لي ايتها البطة احذري من ابن آدم ولا تغتري بكلامه ولا بما يدخله عليك ـ فانه كثير الحيل والخداع فا لحذركل الحذر من مكره فانه مخادع ماكر ـ يحتال على الحيتان فيخرجها من البحار ـ و يرمي الطير ببندقة من طين ـ ويوقع الفيل بمكره ـ وابن آدم لا يسلم احد من شره ولا ينجو منه طير ولا وحش وقد بلغتك ما سمعته عن ابن آدم فاستيقظت من منامي خائفة مرعوبة وانا الى الان لا ينشرح صدري خوفا على نفسي من ابن آدم لئلا يدهمني بحيلته و يصيدني بحبائله ـ و لم يأت عليّ آخر النهار الا وقد ضعفت قوتي وبطلت همتي ـ ثم اني اشتقت الى الاكل والشرب فخرجت اتمشى وخاطري مكدر وقلبي مقبوض ـ فلما وصلت الى ذلك الجبل وجدت على باب مغارة شبلا اصفر اللون فلما رآني ذلك الشبل فرح بي فرحا شديدا واعجبه لوني وكوني لطيفة الذات ـ فصاح عليّ وقال لي اقربي مني فلما قربت منه قال لي ما اسمك و ما جنسك ـ فقلت له اسمي بطة وانا من جنس الطيور ـ ثم قلت له ما سبب قعودك الى هذا الوقت في هذا المكان ـ فقال الشبل سبب ذلك ان والدي الاسد له ايام وهو يحذرني من ابن آدم ـ فاتفق اني رايت في هذه الليلة في منامي صورة ابن آدم ـ ثم ان الشبل حكى لي نظير ما حكيته لك ـ فلما سمعت كلامه قلت له يا اسد اني قد لجأت اليك في ان تقتل ابن آدم و تعزم رايك في قتله ـ فاني اخاف على نفسي منه خوفا شديدا ـ وازددت خوفا على خوفي من خوفك من ابن آدم مع انك سلطان الوحوش ـ وما زلت يا اختي احذر الشبل من ابن آدم واوصيه بقتله حتى قام من وقته وساعته من المكان الذي كان فيه و تمشى وتمشيت وراءه ففرقع بذنبه على ظهره ـ ولم يزل يتمشى و انا امشي و راءه الى مفرق الطريق ـ فوجدنا غبرة طارت ـ وبعد ذلك انكشفت الغبرة فبان من تحتها حمار شارد عريان و هو تارة يقمص ويجري وتارة يتمرغ ـ فلما رآه الاسد صاح عليه فاتى اليه خاضعا فقال له ايها الحيوان الخرف العقل ما جنسك وما سبب قدومك الى هذا المكان فقال له

يا ابن السلطان انا جنسي حمار - وسبب قدومي الى هذا المكان هربي من ابن آدم - فقال له الشبل وهل انت خائف من ابن آدم ان يقتلك - فقال له الحمار لا يا ابن السلطان وانما خوفي ان يعمل حيلة عليّ ويركبني لان عنده شيئا يسميه البرذعة فيجعلها على ظهري وشيئا يسميه الحزام فيشده على بطني وشيئا يسميه الثفر فيجعله تحت ذنبي وشيئا يسميه اللجام فيجعله في فمي - ويعمل لي منخاسا ينخسني به ويكلفني ما لا اطيق من الجري واذا عثرت لعنني وان نهقت شتمني - وبعد ذلك اذا كبرت ولم اقدر على الجري يجعل لي رحلا من الخشب ويسلمني الى السقائين - فيحملون الماء على ظهري من البحر في القرب ونحوها كالجرار - ولا ازال في ذل وهوان وتعب حتى اموت - فيرمونني فوق التلال للكلاب - فاي شيء اكبر من هذا الهم واي مصيبة اكبر من هذه المصائب - فلما سمعت ايتها الطاووسة كلام الحمار اقشعر جسدي من ابن آدم وقلت للشبل يا سيدي ان الحمار معذور - وقد زادني كلامه رعبا على رعبي - فقال الشبل للحمار الى اين انت سائر - فقال له الحمار اني نظرت ابن آدم قبل طلوع الشمس من بعيد ففررت هربا منه - وها انا اريد ان انطلق - ولم ازل اجري من شدة خوفي منه - لعلّي اجد لي موضعا ياويني من ابن آدم الغدار - فبينما ذلك الحمار يتحدث مع الشبل في ذلك الكلام وهو يريد ان يُوَدِّعَنا ويروح اذ ظهرت لنا غبرة - فنهق الحمار وصاح ونظر بعينه الى ناحية الغبرة وبعد ساعة انكشفت الغبرة عن فرس ادهم بغرّة كالدرهم - وذلك الفرس ظريف الغرة مليح التحجيل حسن القوائم والصهيل - ولم يزل يجري حتى وقف بين يدي الشبل ابن الاسد - فلما رآه الشبل استعظمه وقال له ما جنسك ايها الوحش الجليل وما سبب شرودك في هذا البر العريض الطويل - فقال له يا سيد الوحوش انا فرس من جنس الخيل - وسبب شرودي هربي من ابن آدم - فتعجب الشبل من كلام الفرس - وقال له لا تقل هذا الكلام فانه عيب عليك وانت

طويل غليظ وكيف تخاف من ابن آدم مع عظم جثتك وسرعة جريك وانا مع صغر جسمي قد عزمت على ان التقي مع ابن آدم فابطش به وآكل لحمه واسكن روع هذه البطة المسكينة واقرها في وطنها - وها انت لما اتيت في هذه الساعة قطعت قلبي بكلامك وارجعتني عما اردت ان افعله - فاذا كنت انت مع عظمك قد قهرك ابن آدم ولم يخف من طولك وعرضك مع انك لو رفسته برجلك لقتلته ولم يقدر عليك بل تسقيه كأس الردى - فضحك الفرس لما سمع كلام الشبل - وقال هيهات هيهات ان اغلبه يا ابن الملك - فلا يغرّك طولي ولا عرضي ولا ضخامتي مع ابن آدم - لانه من شدة حيله ومكره يصنع لي شيئا يقال له الشِكال ويضع في اربع قوائمي شكالين من حبال الليف الملفوفة باللباد - ويصلبني من راسي في وتد عال وابقى واقفا وانا مصلوب لا اقدر ان اقعد ولا انام - واذا اراد ان يركبني يعمل لي شيئا في رجليه من الحديد اسمه الركاب - ويضع على ظهري شيئا يسميه السرج ويشده بحزامين من تحت ابطي ويضع في فمي شيئا من الحديد يسميه اللجام ويضع فيه شيئا من الجلد يسميه الصُرع - فاذا ركب فوق ظهري على السرج يمسك الصرع بيده ويقودني به - و يهمزني بالركاب فوق خواصري حتى يدميها - ولا تسال يا ابن السلطان عما اقاسيه من ابن آدم فاذا كبرت وانتحل ظهري ولم اقدر على سرعة الجري يبيعني للطحان ليدورني في الطاحونة فلاازال دائرا فيها ليلا ونهارا الى ان اهرم فيبيعني للجزار فيذبحني ويسلخ جلدي وينتف ذنبي ويبيعهما للغرابلي والمناخلي ويسلأ شحمي - فلما سمع الشبل كلام الفرس ازداد غيظا وغما - وقال له متى فارقت ابن آدم - قال فارقته نصف النهار وهو في اثري - فبينما الشبل يتحدث مع الفرس بهذا الكلام واذا بغبرة ثارت - وبعد ذلك انكشفت الغبرة وبان من تحتها جمل هائج وهو يصبع ويخبط برجيله في الارض - ولم يزل يفعل كذلك حتى وصل اليهما - فلما رآه الشبل كبيرا غليظا ظن انه ابن آدم

فاراد الوثوب عليه . فقلت له يا ابن السلطان ان هذا ما هو ابن آدم وانما هذا جمل وكانه هارب من ابن آدم . فبينما انا يا اختي مع الشبل في هذا الكلام واذا بالجمل تقدم بين ايادي الشبل وسلم عليه . فرد عليه السلام . وقال له ما سبب مجيئك الى هذا المكان . قال جئت هاربا من ابن آدم . فقال له الشبل وانت مع عظم خلقتك وطولك وعرضك كيف تخاف من ابن آدم ولو رفسته برجلك رفسة لقتلته . فقال له الجمل يا ابن السلطان اعلم ان ابن آدم له دواه لا تطاق وما يغلبه الا الموت . لانه يضع في انفي خيطا ويسميه خزاما ويجعل في راسي مقودا ويسلمني الى اصغر اولاده فيجرني الولد الصغير بالخيط مع كبري وعظمي ويحملونني اثقل الاحمال ويسافرون بي الاسفار الطوال ويستعملونني في الاشغال الشاقة اناء الليل والنهار واذا كبرت وشخت او انكسرت فلا يحفظ صحبتي بل يبيعني للجزار فيذبحني ويبيع جلدي للدباغين ولحمي للطباخين . ولا تسال عما اقاسي من ابن آدم . فقال له الشبل اي وقت فارقت ابن آدم . قال فارقته وقت الغروب واظنه يأتي عند انصرافي فلا يجدني فيسعى في طلبي . فدعني يا ابن السلطان حتى اهجّ في البراري والقفار . فقال الشبل تمهل قليلا يا جمل حتى تنظر كيف افترسه واطعمك من لحمه واهشم عظمه واشرب من دمه . فقال له الجمل يا ابن الساطان انا خائف عليك من ابن آدم فانه مخادع ماكر . فبينما الجمل يتحدث مع الشبل في هذا الكلام اذا بغبرة طلعت وبعد ساعة انكشفت عن شيخ قصير رقيق البشرة . على كتفه مُقطف فيه عدة نجار . وعلى رأسه شُعبة وثمانية الواح . وبيده اقفال صغار . وهو يهرول في مشيه وما زال يمشي حتى قرب من الشبل . فلما رايته يا اختي وقعت من شدة الخوف . واما الشبل فانه قام وتمشى اليه ولاقاه . فلما وصل اليه ضحك النجار في وجهه . وقال له بلسان فصيح . ايها الملك الجليل صاحب الباع الطويل اسعد الله مساءك ومساعك وزاد في شجاعتك وقواك . اجرني مما دهاني

وبشرة زماني لاني ما وجدت لي نصيرا غيرك - ثم ان النجار وقف بين يدي الاسد و بكى وان واشتكى - فلما سمع الشبل بكاءه وشكواه - قال له اجرتك مما تخشاه - فمن الذي قد ظلمك وما تكون انت ايها الوحش الذي ما رايت عمري مثلك ولا احسن صورة ولا افصح لسانا منك فما شأنك - فقال له النجار يا سيد الوحوش اما انا فنجار واما الذي ظلمني فهو ابن آدم - وفي صباح هذه الليلة يكون عندك في هذا المكان - فلما سمع الشبل من النجار هذا الكلام تبدل الضياء في وجهه بالظلام وشخر ونخر وارتمت عيناه بالشرر - وصاح وقال والله لاسهرنّ في هذه الليلة الى الصباح ولا ارجع الى والدي حتى ابلغ مقصدي - ثم ان الشبل التفت الى النجار .وقال له اني اري خطواتك قصيرة ولا اقدر ان اكسر بخاطرك لاني ذو مروءة واظن انك لا تقدر ان تماشي الوحوش فاخبرني الى اين تذهب - فقال له النجار - اعلم انني رائح الى وزير والدك الفهد لانه لما بلغه ان ابن آدم داس هذه الارض خاف على نفسه خوفا عظيما وارسل الي رسولا من الوحوش لاصنع له بيتا يسكن فيه ويأوي اليه ويمنع عنه عدوّه حتى لا يصل اليه احد من بني آدم - فلما جاءني الرسول اخذت هذه الالواح وتوجهت اليه - فلما سمع الشبل كلام النجار اخذه الحسد للفهد - فقال له بحياتي لا بد ان تصنع لي هذه الالواح بيتا قبل ان تصنع للفهد بيته واذا فرغت من شغلي فامض الى الفهد واصنع له ما يريد - فلما سمع النجار من الشبل هذا الكلام قال له يا سيد الوحوش ما اقدر ان اصنع لك شيئا الا اذا صنعت للفهد ما يريد - ثم اجيء الى خدمتك واصنع لك بيتا يحصنك من عدوك - فقال له الشبل والله ما اخليك تروح من هذا المكان حتى تصنع لي هذه الالواح بيتا - ثم ان الشبل هم على النجار ووثب عليه واراد ان يمزح معه فلطشه بيده فرمى المقطف من على كتفه ووقع النجار مغشيا عليه فضحك الشبل عليه - وقال له ويلك يا نجار انك ضعيف وما لك قوة فانت معذور اذا خفت

من ابن آدم ـ فلما وقع النجار على ظهره اغتاظ غيظا شديدا ولكنه كتم ذلك عن الشبل من خوفه منه فقعد النجار على حيله وضحك في وجهه ـ وقال له ها انا اصنع لك البيت ـ ثم ان النجار تناول الالواح التي كانت معه وسمّر البيت وجعله مثل القالب على قياس الشبل وخلى بابه مفتوحا لانه جعله على صورة الصندوق وفتح له طاقة كبيرة وجعل لها غطاء كبيرا وثقب فيه ثقوبا كثيرة واخرج منها مسامير مطرّفة ـ وقال للشبل ادخل في هذا البيت من هذه الطاقة حتى اقيسه عليك ففرح الشبل بذلك واتى الى تلك الطاقة فرآها ضيقة ـ فقال له النجار ادخل وابرك على يديك ورجليك ـ ففعل الشبل ذلك ودخل الصندوق فبقي ذنبه خارجا في آخره فاراد الشبل ان يتاخر الى ورائه ويخرج ـ فقال له النجار امهل واصبر حتى انظر هل يسع ذنبك معك ـ فامتثل الشبل امره ثم ان النجار لف ذنب الشبل وحشاه في الصندوق ورد اللوح على الطاقة سريعا وسمره ـ فصاح الشبل قائلا يا نجار ما هذا البيت الضيق الذي صنعته لي دعني اخرج منه ـ فقال له النجار هيهات هيهات لا ينفع الندم على ما فات ـ انك لا تخرج من هذا المكان ـ ثم ضحك النجار وقال للشبل انك وقعت في القفص وما بقي لك خلاص من ضيق الاقفاص يا اخبث الوحوش ـ فقال يا اخي ما هذا الخطاب الذي تخاطبني به ـ فقال له النجار اعلم يا كلب البر انك قد وقعت فيما كنت تخاف منه وقد رماك القدر ـ ولم ينفعك الحذر ـ فلما سمع الشبل كلامه يا اختي علم انه ابن آدم الذي حذره منه ابوه في اليقظة والهاتف في المنام ـ وانا ايضا تحققت انه هو بلا شك فيه ولا ريب ـ فخفت منه على نفسي خوفا عظيما وبعدت عنه قليلا وصرت انتظر ماذا يفعل بالشبل ـ فرايت يا اختي ابن آدم حفر حفرة في ذلك المكان بالقرب من الصندوق الذي فيه الشبل ورماه في تلك الحفرة والقى عليه الحطب واحرقه بالنار ـ فكبر يا اختي خوفي

ولي يومان واذا هاربة من ابن آدم وخائفة منه ـ فلما سمعت الطاووسة من البطة هذا الكلام . تعجبت منه غاية العجب ـ وقالت يا اختي انك آمنة من ابن آدم لاننا في جزيرة من جزائر البحر ليس لابن آدم فيها مسلك فاختاري المقام عندنا الى ان يسهل الله امرك وامرنا ـ فقالت اني اخاف ان يطرقني طارق والقضاء لا ينفك عنه آبق ـ فقالت اقعدي عندنا وانت مثلنا ـ وما زالت بها حتى قعدت وقالت يا اختي انت تعلمين قلة صبري ولولا اني رايتك هنا ما كنت قعدت ـ فقالت الطاووسة إن كان على جبيننا شيء نستوفيه ـ وان كان دنا اجلنا فمن يخلصنا ـ ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها واجلها ـ فبينما هما في هذا الكلام اذ طلعت عليهما غبرة فعند ذلك صاحت البطة ونزلت في البحر ـ وقالت الحذر الحذر وإن لم يكن مفرّ من القضاء والقدر ـ فبعد ساعة انكشفت الغبرة وبان من تحتها ظبي فاطمانت الطاووسة ـ ثم قالت للبطة يا اختي ان الذي نظرت وحذرت منه ظبي وها هو قد اقبل نحونا فليس علينا منه باس لان الظبي انما ياكل الحشائش من نبات الارض وكما انت من جنس الطير هو الآخر من جنس الوحوش فاطمئني ولا تهتمي ـ فان الهم ينحل البدن ـ فلم تتم الطاووسة كلامها حتى وصل الظبي اليهما يستظل تحت ظل الشجرة ـ فلما راى الطاووسة والبطة سلم عليهما ـ وقال لهما اني دخلت الى هذه الجزيرة اليوم فلم ار اكثر منها خصبا ولا احسن منها مسكنا ثم دعاهما لمرافقته ومصافاته ـ فلما رات البطة والطاووسة تودده اليهما اقبلتا عليه ورغبتا في عشرته ـ فتصادقوا وتحالفوا على ذلك ـ وصار مبيتهم واحدا وماكلهم ومشربهم سواء ولم يزالوا آمنين آكلين شاربين حتى مرت بهم سفينة كانت تائهة في البحر فارست قريبا منهم ـ فطلع الناس وتفرقوا في الجزيرة فرأوا اجتماع الظبي والطاووسة والبطة ـ فاقبلوا عليهم فلما راتهم الطاووسة صعدت الى الشجرة ثم طارت في الجو ـ وشرد الظبي في البرية فبقيت البطة مُخبلة ـ ولم يزالوا بها حتى صادوها ـ وصاحت

قائلة لم ينفعني الحذر من القضاء والقدر وانصرفوا بها الى سفينتهم ـ فلما رات الطاووسة ما جرى للبطة ارتحلت من الجزيرة وقالت لا ارى الآفات الا مراصدة لكل واحد ولولا هذه السفينة ما حصل بيني وبين هذه البطة افتراق ـ ولقد كانت من خيار الاصدقاء ـ ثم طارت الطاووسة واجتمعت بالظبي ـ فسلم عليها وهنأها بالسلامة وسالها عن البطة ـ فقالت له قد اخذها العدو وكرهت المقام في هذه الجزيرة بعدها ـ ثم بكت على فراق البطة ـ فاغتم الظبي غما شديدا ـ ثم رد عزم الطاووسة عن الرحيل ـ فاقامت مع الظبي آمنين آكلين شاربين غير انهما لم يزالا حزينين على فراق البطة ـ فقال الظبي للطاووسة يا اختي قد علمت ان الناس الذين طلعوا لنا من المركب كانوا سببا لفراقنا ولهلاك البطة ـ فاحذريهم واحترسي منهم ومن مكر ابن آدم وخداعه ـ قالت قد علمت يقينا انه ما قتلها غير تركها التسبيح ـ ولقد قلت لها اني اخاف عليك من تركك التسبيح لان كل شيء خلقه الله يسبحه ـ فان غفل عن التسبيح عوقب بهلاكه ـ فلما سمع الظبي كلام الطاووسة قال احسن الله صورتك ـ واقبل على التسبيح لا يفتر عنه ساعة ـ وقد قيل ان تسبيح الظبي سبحان الديان ذي الجبروت والسلطان *

١١ — مثل الحمامة المطوّقة والجرذ والظبي والغراب

زعموا انه كان بارض سكاوندجين عند مدينة داهر مكان كثير الصيد ينتابه الصيّادون ـ وكان في ذلك المكان شجرة كثيرة الاغصان ملتفّة الورق فيها وكر غراب ـ فبينما هو ذات يوم ساقط في وكره اذ بصر بصياد قبيح المنظر سيء الخلق على عاتقه شبكة وفي يده عصا مقبلا نحو الشجرة ـ فذعر منه الغراب وقال لقد ساق هذا الرجل الى هذا المكان اما حيني او حين غيري فلاثبتن مكاني حتى انظر ماذا يصنع ـ ثم ان الصياد نصب شبكته ونثر عليها الحب وكمن قريبا منها ـ فلم يلبث الا قليلا

واذا قد مرت به حمامة يقال لها المطوّقة - وكانت سيدة الحمام ومعها حمام كثير - فعميت هي واصحابها عن الشرك فوقعن على الحب يلتقطنه - فعلقن في الشبكة كلهن واقبل الصياد فرحا مسرورا - فجعلت كل حمامة تضطرب في حبائلها وتلتمس الخلاص لنفسها - فقالت المطوقة لا تخاذلن في المعالجة ولا تكن نفسُ احداكنّ اهمّ اليها من نفس صاحبتها - ولكن نتعاون جميعاً فنقلع الشبكة فينجو بعضنا ببعض - فقلعن الشبكة جميعهن بتعاونهن وعلَين في الجو - ولم يقطع الصياد رجاءه منهن وظنّ انهن لا يجاوزن الا قريبا ويقعن فقال الغراب لاتبعهن وانظر ما يكون منهن - فالتفتت المطوقة فرأت الصياد يتّبعهنّ - فقالت للحمام هذا الصياد مُجِدٌ يطلبكنّ فان نحن اخذنا في الفضاء لم يَخفَ عليه امرنا ولم يزل يتّبعنا وان نحن توجهنا الى العمران خَفي عليه امرنا وانصرف - ولي بمكان كذا جرذ هو لي اخ فلو انتهينا اليه قطع عنا هذا الشرك - ففعلن ذلك وايس الصياد منهن وانصرف وتبعهن الغراب - فلما انتهت الحمامة المطوقة الى الجرذ امرت الحمام ان يسقطن - فوقعن وكان للجرذ مائة جُحر للمخاوف فنادته المطوقة باسمه وكان اسمه زيرك - فاجابها الجرذ من جحره من انت - قالت انا خليلتك المطوقة - فاقبل اليها الجرذ يسعى - فقال لها ما اوقعك في هذه الورطة - قالت له الم تعلم انه ليس من الخير والشر شيء الا وهو مقدر على من تصيبه المقادير - وهي التي اوقعتني في هذه الورطة فقد لا يمتنع من القدر من هو اقوى مني واعظم امرا وقد ينكسف الشمس والقمر اذا قُضِيَ ذلك عليهما - ثم ان الجرذ اخذ في قرض العقد الذي فيه المطوقة - فقالت له المطوقة ابدأ بقطع عقد سائر الحمام وبعد ذلك اقبل على عقدي - فاعادت ذلك عليه مراراً وهو لا يلتفت الى قولها - فلما اكثرت عليه القول وكررت قال لها لقد كررت القول عليّ كانك ليس لك في نفسك حاجة ولا لك عليها رحمة ولا ترعين لها حقّاً - قالت اني اخاف ان انت بدأت بقطع عقدي ان تملّ

ونكسل عن قطع ما بقي وعرفت انك ان بدأت بهن قبلي وكنت انا الاخيرة لم ترض وان ادركك الفتور ان ابقى في الشرك - قال الجرذ هذا مما يزيد الرغبة والمودة فيك - ثم ان الجرذ اخذ في قرض الشبكة حتى فرغ منها فانطلقت المطوقة وحمامها معها - فلما رأى الغراب صنع الجرذ رغب في مصادقته فجاء وناداه باسمه - فاخرج الجرذ رأسه - فقال له ما حاجتك - قال اني اريد مصادقتك - قال الجرذ ليس بيني وبينك تواصل وانما العاقل ينبغي له ان يلتمس ما يجد اليه سبيلا ويترك التماس ما ليس اليه سبيل - فانما انت الآكل وانا طعام لك - قال الغراب ان اكلي اياك وان كنتَ لي طعاماً مما لا يغني عني شيئا وانّ مودتك آنس لي مما ذكرت - ولست بحقيق اذا جئت اطلب مودتك ان تردني خائبا - فانه قد ظهر لي منك من حسن الخلق ما رغّبني فيك وان لم تكن تلتمس اظهار ذلك - فان العاقل لا يخفى فضله وان هو اخفاه .. كالمسك الذي يُكتمُ ثم لا يمنعه ذلك من النشر الطيب والارج الفائح - قال الجرذ ان اشد العداوة عداوة الجوهر وهي عداوتان منها ما هو متجازٍ كعداوة الفيل والاسد فانه ربما قتل الاسد الفيل او الفيل الاسد - ومنها ما هو من احد الجانبين على الآخر كعداوة ما بيني وبين السنور وبيني وبينك - فان العداوة التي بيننا ليست تضرّك وانما ضررها عائد علي - فان الماء لو اُطيل اسخانه لم يمنعه ذلك من اطفائه النار اذا صب عليها - وانما مصاحب العدو ومصالحه كصاحب الحَية يحملها في كمه - والعاقل لا يستانس الى العدو الاريب - قال الغراب قد فهمت ما تقول وانت خليق ان تأخذ بفضل خليقتك وتعرف صدق مقالتي ولا تصعب علي الامر بقولك ليس الى التواصل بيننا سبيل - فان العقلاء الكرام لا يبتغون على معروف جزاء و المودة بين الصالحين سريع اتصالها بطيء انقطاعها ومثل ذلك مثل الكوز الذهب بطيّ الانكسار سريع الاعادة هين الاصلاح ان اصابه ثلم او كسر - والمودة بين الاشرار سريع انقطاعها بطيّ اتصالها ومثل ذلك مثل

الكوز الفخار سريع الانكسار ينكسر من ادنى عيب ولا وصل له ابدا - والكريم يودّ الكريم واللئيم لايودّ احدا الا عن رغبة او رهبة - وانا الى ودك ومعروفك محتاج لانك كريم - وانا لازم بابك غير ذائق طعاما حتى تؤاخيني - قال الجرذ قد قبلت اخاءك فاني لم اردد احداً عن حاجة قط - وانما بدأتك بما بدأتك به ارادة التوثّق لنفسي - فان انت غدرت بي لم تقل اني وجدت الجرذ سريع الانخداع - ثم خرج من جحره فوقف عند الباب - فقال له الغراب ما يمنعك من الخروج الي والاستئناس بي أوفي نفسك بعدُ مني ريبة - قال الجرذ اني وثقت منك بذات نفسك ومنحتك من نفسي مثل ذلك وليس يمنعني من الخروج اليك سوء ظنّ بك ولكن قد عرفت ان لك اصحابا جوهرهم كجوهرك وليس رأيهم فيّ كرأيك قال الغراب ان من علامة الصديق ان يكون لصديق صديقه صديقا ولعدوّ صديقه عدوّا وليس لي بصاحب ولا صديق من لايكون لك محبّا وانه يهون عليّ قطيعة من كان كذلك - ثم ان الجرذ خرج الى الغراب فتصافحا وتصافيا وانس كل واحد منهما بصاحبه حتى اذا مضت لهم ايام قال الغراب للجرذ ان جحرك قريب من طريق الناس واخاف ان يرميك بعض الصبيان بحجر ولي مكان في عزلة ولي فيه صديق من السلاحف وهو مخصب من السمك ونحن واجدون هناك ما نأكل فاريد ان انطلق بك الى هناك لنعيش آمنين - قال الجرذ ان لي اخبارا وقصصا ساقصّها عليك اذا انتهينا حيث تريد فافعل ما تشاء - فاخذ الغراب بذنب الجرذ وطار به حتى بلغ حيث اراد - ودنا من العين التي فيها السلحفاة - فبصرت السلحفاة بغراب ومعه جرذ فذعرت منه ولم تعلم انه صاحبها - فناداها فخرجت اليه وسألته من اين اقبلت فاخبرها بقصّته حين تبع الحمام وما كان من امره وامر الجرذ حتى انتهى اليها - فلما سمعت السلحفاة شأن الجرذ عجبت من عقله ووفائه - ورحّبت به - وقالت له ما ساقك الى هذه الارض

فبدأ الجرذ يحدثهما باخباره وقال : كان منزلي اول امري بماداورت في بيت رجل ناسك - وكان خاليا من الاهل والعيال - وكان يؤتى في كل يوم بسلّة من الطعام فيأكل منها حاجته ويعلّق الباقي - وكنت ارصد الناسك حتى يخرج واثب الى السلة فلا ادع فيها طعاما الا اكلته وارمي به الى الجرذان - فجهد الناسك مرارا ان يعلق السلة مكاناً لا اناله فلم يقدر على ذلك حتى نزل به ذات ليلة ضيف - فاكلا جميعاً ثم اخذا في الحديث - فقال الناسك للضيف من اي ارض اقبلت واين تريد الآن - وكان الرجل قد جاب الآفاق ورأى عجائب فانشأ يحدّث الناسك عمّا وطئ من البلاد ورأى من العجائب وجعل الناسك خلال ذلك يصفق بيديه لينفرني عن السلة - فغضب الضيف وقال انا احدثك وانت تهزأ بحديثي فما حملك على ان سألتني - فاعتذر اليه الناسك - وقال انما اصفق بيدي لانفر جرذا قد تحيرت في امره - ولست اضع في البيت شيئا الا اكله - فقال الضيف جرذ واحد يفعل ذلك ام جرذان كثيرة - فقال الناسك جرذان البيت كثير - لكن فيها جرذا واحدا هو الذي غلبني فما استطيع له حيلةً - فقال الضيف انه على غير علة ما يقدر على ما شكوت منه - فالتمس لي فأسا لعلي احتفر جحره فاطلع على بعض شانه - فاستعار الناسك من بعض جيرانه فأسا فاتى به الضيف وانا حينئذ في جحر غير جحري اسمع كلامهما - وفي موضعي كيس فيه مائة دينار لا ادري من وضعها - فاحتفر الضيف حتى انتهى الى الدنانير فاخذها - وقال للناسك ما كان هذا الجرذ يقوى على الوثوب حيث كان يثب الا بهذه الدنانير - فان المال جعل قوة وزيادة في الرأي والتمكن وسترى بعد هذا انه لا يقدر على الوثوب - فلما كان من الغد اجتمعت الجرذان التي كانت معي فقالت قد اصابنا الجوع وانت رجاؤنا - فانطلقت وهن معي الى المكان المعهود - فحاولت ذلك مرارا فلم اقدر على السلة - فاستبان للجرذان نقص حالي فسمعتهن يقلن انصرفن عنه ولا تطمعن

فيما عنده فانا نرى له حالا لا نحسبه الا وقد احتاج الى من يعوله فتركنني ولحقن باعدائي وجفونني واخذن في غيبتي عند من يعاديني ويحسدني . فقلت في نفسي سبحان الله ما الاخوان ولا الاعوان ولا الاصدقاء الا بالمال . ووجدت من لا مال له اذا اراد امرا قعد به العدم عما يريده كالماء الذي يبقى في الاودية من مطر الشتاء لا يمر الى نهر ولا يجري الى مكان فتشربه ارضه . ووجدت من لا اخوان له لا اهل له ومن لا ولد له لا ذكر له . ومن لا مال له لا قبول له . لان الرجل اذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنا واساء به الظن من كان يظن فيه حسنا . فان اذنب غيره كان هو للتهمة محلا . وليس من خلة هي للغني مدح الا وهي للفقير ذم . فان كان شجاعا قيل اهوج وان كان جوادا سمي مبذرا . وان كان حليما سمي ضعيفا . وان كان وقورا سمي بليدا . فالموت اهون من الحاجة التي تحوج صاحبها الى المسألة . ثم لا سيما مسألة الاشحّاء واللئام . فان الكريم لو كلف ان يدخل يده في فم الافعى فيخرج منه سما فيبتلعه كان ذلك اهون عليه واحب اليه من مسألة البخيل اللئيم . وقد كنت رايت الضيف حين اخذ الدنانير فقاسمها الناسك جعل الناسك نصيبه في خريطة عند رأسه لما جنّ الليل . فطمعت ان اصيب منها شيئا فاردّه الى جحري ورجوت ان يزيد ذلك في قوتي او يراجعني بعض اصدقائي . فاتيت الى الناسك وهو نائم حتى دنوت من رأسه ووجدت الضيف يقظان وبيده قضيب . فضربني على راسي ضربة موجعة . فسعيت الى جحري . فلما سكن عني الالم هيجني الحرص والشره فخرجت طمعا كطمعي الاول واذا الضيف يرصدني فضربني بالقضيب ضربة اسالت مني الدم . فتقلبت ظهراً لبطن الى جحري فخررت مغشياً عليّ . فاصابني من الوجع ما بغّض اليّ المال حتى لا اسمع بذكره الا تداخلني منه رعدة وهيبة . ثم تذكرت فوجدت البلاء في الدنيا انما يسوقه الحرص والشره . ولا يزال صاحب الدنيا في بليّة وتعب ونصب . ولم أر كالقناعة شيئا . فصار امري الى ان رضيت وقنعت

وانتقلت من بيت الناسك الى البرّيّة - وكان لي صديق من الحمام فحيقت اليّ بصداقته صداقة الغراب - ثم ذكر لي الغراب ما بينك وبينه من المودة واخبرني انه يريد اتيانك - واحب ان آتيك معه - فكرهت الوحدة فانه لاشيء من سرور الدنيا يعدل صحبة الاخوان ولا فيها غمّ يعدل البعد عنهم - فاقبلت مع الغراب اليك وانا لك اخ فلتكن منزلتي عندك كذلك - فلما فرغ الجرذ من كلامه اجابته السلحفاة بكلام رقيق - وقالت قد سمعت كلامك وما احسن ما تحدثت به - فانت اليوم اخونا وما قبلنا لك مبذول - فلما سمع الغراب كلام السلحفاة للجرذ ومردودها عليه والطافها اياه فرح بذلك - وقال لقد سررتني وانعمت عليّ - وانت جديرة ان تسرّ نفسك بمثل ما سررتني به - وانّ اولى اهل الدنيا بشدة السرور مَن لايزال رُبعه مَن اخوانه واصدقائه من الصالحين معموراً - ولايزال عنده منهم جماعة يسرّهم ويسرّونه ويكون من وراء امورهم وحاجاتهم بالمرصاد - فان الكريم اذا عثر لايأخذ بيده الا الكرام كالفيل اذا وحل لاتخرجه الا الفيلة - فبينما الغراب في كلامه اذ اقبل نحوهم ظبي يسعى - فذعرت منه السلحفاة فغاصت في الماء - و خرج الجرذ الى جحره - وطار الغراب فوقع على شجرة - ثم ان الغراب تحلّق في السماء لينظر هل للظبي طالب - فنظر فلم ير شيئا - فنادى الجرذ والسلحفاة فخرجا - فقالت السلحفاة للظبي حين رأته ينظر الى الماء اشرب ان كان بك عطش ولا تخف فانه لا خوف عليك - فدنا الظبي فرحّبت به السلحفاة وحيّته -وقالت له من اين اقبلت - قال كنت اكون بهذه الصحاري فلم تزل الاساورة تطردني من مكان الى مكان حتى رايت اليوم شيخا - فخفت ان يكون قانصاً - قالت لا تخف فانا لم نر ههنا قانصا قط ونحن نبذل لك وُدّنا ومكاننا والماء والمرعى كثير عندنا - فارغب في صحبتنا - فاقام الظبي معهم - وكان لهم عريش يجتمعون فيه ويتذاكرون الاحاديث والاخبار - فبينما الغراب والجرذ والسلحفاة ذات يوم في العريش غاب الظبي فتوقعوه ساعة فلم يأت -

فلما ابطأ اشفقوا ان يكون قد اصابه عنت - فقال الجرذ والسلحفاة للغراب
انظر هل ترى مما يلينا شيئا - فتحلّق الغراب في السماء - فنظر فاذا الظبي
في الحبائل مقتنصا - فانقضّ مسرعا - فاخبرهما بذلك - فقالت السلحفاة
والغراب للجرذ - هذا امر لا يُرجَى فيه غيرك - فاغِث اخاك - فسعى الجرذ
مسرعا فاتى الظبي - فقال له كيف وقعت في هذه الورطة وانت من الاكياس -
قال الظبي هل يغني الكيس مع المقادير شيئا - فبينما هما في الحديث اذ
وافتهما السلحفاة - فقال لها الظبي ما اصبت بمجيئك الينا - فان القانص
لو انتهى الينا وقد قطع الجرذ الحبائل استبقته عَدْواً وللجرذ احجار
كثيرة والغراب يطير وانت ثقيلة لا سعي لك ولا حركة واخاف عليك
القانص - قالت لا عيش مع فراق الاحبة - واذا فارق الاليف اليفه فقد
سلب فؤاده وحرم سروره وغشي بصره - فلم ينقد كلامها حتى وافى القانص
ووافق ذلك فراغ الجرذ من قطع الشرك فنجا الظبي بنفسه وطار الغراب
متحلّقا ودخل الجرذ بعض الاحجار ولم يبق غير السلحفاة - ودنا
الصياد فوجد حبالة مقطعة - فنظر يمينا وشمالا فلم يجد غير السلحفاة
تدب فاخذها وربطها - فلم يلبث الغراب والجرذ والظبي ان اجتمعوا -
فنظروا القانص قد ربط السلحفاة - فاشتد حزنهم - وقال الجرذ ما ارانا نجاوز
عقبة من البلاء الا صرنا في اشد منها ولقد صدق الذي قال لا يزال الانسان
مستمرّاً في اقباله ما لم يعثر - فاذا عثر لجّ به العِثار وإنْ مشى في جُدد
الارض - ثم قال ارى من الحيلة ان تذهب ايها الظبي فتقع بمنظر من القانص
كانك جريح ويقع الغراب عليك كانه يأكل منك واسعى انا فاكون قريبا
من القانص مراقبا له لعله ان يرمي ما معه من الآلة ويضع السلحفاة
ويقصدك طامعا فيك راجيا تحصيلك - فاذا دنا منك ففرّ عنه رويداً بحيث
لا ينقطع طمعه منك وامكنه من اخذك مرّة بعد مرّة حتى يبعد عنا وانحُ
منه هذا النحو ما استطعتَ - فاني ارجو الا ينصرف الا وقد قطعتُ الحبائل
عن السلحفاة وانجو بها - ففعل الغراب والظبي ما امرهما به الجرذ

وتبعهما القانص فاستجرّه الظبي حتى ابعده عن الجرذ والسلحفاة والجرذ مقبل على قطع الحبائل حتى قطعها ونجا بالسلحفاة - وعاد القانص مجهودا لاغبا - فوجد حباله مقطعة ففكر في امره مع الظبي والغراب الذي كانه يأكل منه وتقريض حباله - فاستوحش من الارض وقال هذه ارض جن او سحرة - فرجع مولّيا لا يلتمس شيئا ولا يلتفت اليه - واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة الى عريشهم سالمين آمنين كاحسن ما كانوا عليه *

القسم الثاني من الجزء الاوّل
في النوادر والاخبار

١ — حكي ان الامير عمارة بن حمزة جاء الى الملك المنصور. فاجلسه عنده وكان ذلك في يوم نظره في المظالم. فقام رجل على قدميه ونادى بصوته يا امير المؤمنين انا مظلوم. فقال له ومن ظلمك فقال: عمارة بن حمزة هذا. اخذ ضياعي وعقاري. فامره المنصور ان يقوم من مجلسه ويساوي خصمه. فقال عمارة يا امير المؤمنين ان كانت الضياع له فلا اعارضه فيها وان كانت لي فقد وهبتها له ولا اقوم من مجلس اكرمني به امير المؤمنين لاجل ضياع. فعجب الاكابر والحاضرون من كرم نفسه وشرف همته *

٢ — حكي ان المعتصم بينما هو يسير وحده وقد انقطع عن اصحابه في يوم مطر اذ رأى شيخاً معه حمار عليه شوك، وقد زلق الحمار وسقط في الارض والشيخ قائم. فنزل عن دابته ليخلص الحمار. فقال له الشيخ بابي انت وامّي لا تهلك ثيابك. فقال لا عليك. ثم انه خلص الحمار وجعل الشوك عليه وغسل يده ثم ركب. فقال له الشيخ غفر الله لك ياشابّ. ثم لحقه اصحابه فامر له باربعة آلاف درهم. وهذا دليل على غاية ما يمكن ان يكون من طيب اعراق الملوك وسعة اخلاقهم •

٣ — قيل لقيس بن سعد هل رايت قطّ اسخى منك. قال نعم نزلنا بالبادية على امراة فجاء زوجها. فقالت انه نزل بك ضيف فجاء بناقة فنحرها. وقال شأنكم. فلما كان من الغد جاء باخرى فنحرها وقال شأنكم.

فقلنا ما اكلنا من الذي نحرت البارحة الا اليسير - فقال اني لا اطعم اضيافي الا الغريض - فبقينا اياماً والسماء تمطر وهو يفعل كذلك - فلما ردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة اعتذري عنا اليه ومضينا - فلما ارتفع النهار اذا برجل يصيح خلفنا قفوا ايها الركب اللئام اعطيتمونا ثمن قرانا - ثم لحقنا فقال خذوها و الا طعنتكم برمحي - فاخذناها وانصرفنا *

٤ — من اعجب ما حكي عن حاتم الطائي هو ان احد قياصرة الروم بلغته اخبار حاتم - فاستغرب ذلك وكان قد بلغه ان لحاتم فرساً من كرام الخيل عزيزة عنده - فارسل اليه بعض حجّابه يطلب منه الفرس هديّة اليه وهو يريد ان يمتحن سماحته بذلك - فلما دخل الحاجب ديار طيّء سأل عن ابيات حاتم حتى دخل عليه - فاستقبله ورحّب به وهو لا يعلم انه حاجب الملك - وكانت المواشي حينئذ في المراعي - فلم يجد اليها سبيلاً لقرى ضيفه - فنحر الفرس واضرم النار - ثم دخل الى ضيفه يحادثه - فاعلمه انه رسول قيصر وقد حضر يستميحه الفرس - فساء ذلك حاتماً - وقال هلّا اعلمتني قبل الآن فاني قد نحرتها لك اذ لم اجد جزوراً غيرها بين يديّ - فعجب الرسول من سخائه - وقال والله لقد راينا منك اكثر مما سمعنا *

٥ — كان من حديث كعب بن مامة الايادي انه خرج في قفل معهم رجل من بني النمر - وكان ذلك في حر الصيف فضلّوا وشحّ ماؤهم - فكانوا يتصافنون الماء - وذلك ان يطرح في القعب حصاة ثم يصبّ فيه من الماء بقدر ما يغمر الحصاة فيشرب كل واحد قدر ما يشرب الآخر - و لما نزلوا للشرب ودار القعب بينهم حتى انتهى الى كعب رأى الرجل النمري يحدّ نظره اليه فآثره بمائه - وقال للساقي اسق اخاك النمريّ فشرب النمريّ نصيب كعب من الماء ذلك اليوم - ثم نزلوا من الغد منزلهم الآخر فتصافنوا بقيّة مائهم - فنظر اليه كنظره امس - وقال كعب كقوله امس - وارتحل القوم

وقالوا يا كعب ارتحل ـ فلم يكن له قوة للنهوض وكانوا قد قربوا من الماء ـ فقالوا له ارِد يا كعب انك وارد ـ فعجز عن الجواب ـ ولما ايسوا منه خيّموا عليه بثوب يمنعه من السبع ان يأكله وتركوه مكانه فمات ـ فذهب ذلك مثلاً في تفضيل الرجل صاحبه على نفسه *

٦ — كان صلاح الدين اماماً كاملاً لم يلِ مصر بعد الصحابة مثله لا قبله ولا بعده وكان رقيق القلب جدّاً ـ والناس يأمنون ظلمه لعدله ـ ومن صنائعه ما اخبر العماد قال : قد كان للمسلمين لصوص يدخلون ليلاً خيام الفرنج فيسرقون ـ فاتفق ان بعضهم اخذ صبيّا رضيعًا من مهده ابن ثلاثة اشهر ـ فوجدت عليه امّه وجداً شديداً واشتكت الى ملوكهم ـ فقالوا لها ان سلطان المسلمين رحيم القلب فاذهبي اليه ـ فجاءت الى السلطان صلاح الدين ـ فبكت وشكت امر ولدها ـ فرقّ لها رقّة شديدة ودمعت عيناه ـ فامر باحضار ولدها ـ فاذا هو بيع في السوق ـ فرسم بدفع ثمنه الى المشتري ولم يزل واقفاً حتى جيء بالغلام فدفعه الى امه وحملها على فرس الى قومها مكرمة *

٧ — قيل لما وفد قيس بن عاصم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله بعض الانصار عمّا يتحدث به في الموؤدات فاخبره انه ما ولدت له بنت الاّ وأدها ـ قال كنت اخاف العار وما رحمت منهنّ الا بنيّة كانت ولدتها امّها وانا في سفر ـ فدفعتها الى اخواتها وقدمت انا من سفري ـ فسألتها عن الحمل فاخبرت انها ولدت ولدا ميتاً وكتمت حالها حتى مضت على ذلك سنون وكبرت الصبيّة وينعت فزارت امّها ذات يوم ـ فدخلت فرأيتها وقد ضفرت شعرها وجعلت في قرونها جدّادا ونظمت عليه ودعا والبسته قلادة من جزع ـ فقلت لها من هذه الصبيّة وقد اعجبني جمالها فبكت امّها وقالت هذه ابنتك فامسكت عنها حتى غفلت امّها ـ ثم اخرجتها يوما فحفرت لها حفرة وجعلتها فيها وهي تقول يا ابت ما تصنع اخبرني بحقك ـ وجعلت اقلّب عليها التراب وهي تقول

يا ابت انت مغطّ عليّ بهذا التراب انت تاركي وحدي ومنصرف عنـي وجعلت اقذف عليها حتى واريتها وانقطع صوتها - فتلك حسرتها في قلبي - فدمعت عينا رسول الله صلعم وقال ان هذه القسوة ومن لا يرحم لا يرحم *

٨ — قيل لما تشاغل عبدالملك بن مروان بقتال مصعب بن الزبير اجتمع وجوه الروم الى ملكهم وقالوا قد امكنتك الفرصة من العرب فقد تشاغل بعضهم ببعض ووقع بأسهم بينهم والرأي ان تغزوهم في بلادهم فانك تذلّهم وتنال حاجتك منهم - فنهاهم عن ذلك فابوا عليه الا ان يفعل - فلما رأى ذلك دعا بكلبين فاحرش بينهما فاقتتلا قتالا شديدا - ثم دعا بذئب فخلّاه بينهما - فلما رأى الكلبان الذئب تركا ما كان بينهما واقبلا على الذئب حتى قتلاه - فقال ملك الروم هكذا العرب يقتتلون بينهم فاذا رأونا وهم مجتمعون تركوا ذلك واقبلوا علينا - فعرفوا صدق قوله ورجعوا عمّا كانوا عليه*

٩ — قيل دخل قوم على المنصور من حاشيته وخدمه فرأى منهم رجلا عليه سواد خلق - فقال له يا فلان ما لي ارى سوادك متقطعاً اما تقبض رزقك - قال بلى يا اميرالمؤمنين ولكن ابي توفّي وترك عليه ديناً كثيراً - فبعت تركته في قضاء دينه - فصرفت اكثر رزقي الى حرمته وولده من بعده - فقال اعد عليّ ما قلت فاعاده - فقال ما احسن ما فعلت اغدُ عليّ في غد - فغدا عليه فوجد الربيع جالسا على الكرسيّ - فقال قد سأل عنك امير المؤمنين فادخل - فدخل فوجده يصلّي - فقضى حاجته من الصلوة وقال الم آمرك ان تغدو - فقال يا اميرالمؤمنين ما قصّرت في الغدوّ عند نفسي - قال خذ ما تحت تلك المضرّبة واذا السراج يزهر وسرير صغير في ناحية المجلس ينام عليه - فرفعت المضرّبة فاذا دنانير تحتها - فجعلت احثوها في كمّي - ثم دعوت له وخرجت ووزنت الدنانير فاذا هي الف دينار وتسعة وتسعون ديناراً *

١٠ — قيل ان ابا دلامة الشاعر كان واقفا بين يدي السفّاح في بعض الايام - فقال له سلني حاجتك - فقال له ابو دلامة اريد كلب صيد - فقال

اعطوه اياه . فقال واريد دابّةً اتصيّد عليها . قال اعطوه اياها قال وغلاماً يقود الكلب و يصيد به . قال واعطوه غلاماً . قال وجارية تصلح الصيد وتطعمنا منه . قال اعطوه جارية . قال هولاء يا اميرالمؤمنين لا بدّ لهم من دار يسكنونها . قال اعطوه داراً تجمعهم . قال وان لم تكن لهم ضيعة فمن اين يعيشون . قال قد اقطعتك عشر ضياع عامرة وعشر ضياع غامرة . قال وما الغامرة يا اميرالمؤمنين . قال ما لا نبات فيها . قال قد اقطعتك يا اميرالمؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافي بني اسد . فضحك منه وقال اجعلوها كلّها عامرة *

١١ — قحطت البادية ايّام هشام بن عبد الملك . فوفد عليه روءس لقبائل . فجلس لهم وفيهم صبيّ ابن اربع عشرة سنة يسمّى درواس ابن حبيب في رأسه ذؤابة وعليه بردة يمانية . فاستصغره هشام وقال لحاجبه ما يشاء احد ان يصل الينا الّا وصل حتى الصبيان . فقال درواس يا امير المؤمنين ان دخولي لم يخلّ بك ولا انتقصك ولكنه شرفني . وان هولاء قدموا لامر فهابوك دونه وان الكلامَ نشر والسكوتَ طيّ لا يعرف الّا بنشره . فاعجبه كلامه وقال انشر لا امّ لك . فقال انّا اصابتنا سنون ثلاث فسنة اكلت اللحمَ وسنة اذابت الشحم وسنة انقت العظمَ وفي يديكم فضول اموال فان كانت لله عزّ وجلّ ففرّقوها على عباده وان كانت لهم فلا تحبسوها عنهم وان كانت لكم فتصدقوا بها عليهم فان الله يجزي المتصدّقين ولا يضيع اجر المحسنين . وان الوالي من الرعيّة كالروح من الجسد لاحيوة له الّا به . فقال هشام ما ترك الغلام في واحدة من الثلاث عذراً وامر بمائة الف دينار ففرّقت في اهل البادية . وامر له بمائة الف درهم فقال اردُدها في جائزة العرب فما لي حاجة في خاصّة نفسي دون عامّة الناس *

١٢ — نقل عن الواقديّ قال : كان لي صديقان احدهما هاشميّ . وكنّا في الصداقة كنفس واحدة . فنالني ضيقة شديدة وقد حضر العيد . فقالت لي امرأتي يدما مولاي امّا نحن فقصد نبر على البؤس

والشدّة واما صبياننا هولاء فقد تقطع قلبي عليهم حزناً ورحمة لانهم يرون صبيان جيراننا ومعارفنا وقد تزيّنوا في العيد وهم فرحون فلا بأس اذا احتلنا في ما يمكننا ان نصرفه في كسوتهم - فرأيت كلامها صواباً وقد قطعت فؤادي من هذا الحديث ففكرت في الحيلة وكتبت الى صديقي الهاشميّ اسأله التوسعة عليّ بما يمكنه ويحضره فوجّه اليّ كيساً فيه الف درهم - فما استقرّ قراره حتى كتب لي صديقي الآخر يشكو اليّ مثلما شكوت الى صديقي الهاشميّ - فوجّهت اليه بالكيس على حاله وخرجت الى المسجد وانا مستحي من امراتي - فلما دخلت عليها وقد علمت بما فعلت لم تعنفني - فبينما انا كذلك اذ دخل عليّ صديقي الهاشمي ومعه الكيس وهو باق بختمه - فقال اصدقني عما فعلته بما وجهت به اليك فاخبرته بالحكاية على حقيقتها - فقال انك ارسلت تطلب مني التوسعة وانا والله ثم والله لا املك شيئا سوى هذا الكيس الذي بعثت به اليك - ثم اني بعد ما ارسلته لك كتبت الى صديقنا اساله المؤاساة ان كان يمكنه - فوجه ليّ الكيس بذاته وهو بختمي وها انا ذا اتيت به اليك - وبحيث اننا كلنا في ضيق ولا يوجد عند احدنا غير هذا الكيس فهلم نقتسمه - ثم انه فتحه واخرج منه مئة درهم للمراة وفرّق على كل منا انا و صديقي ثلاث مئة درهم واخذ هو مثلنا ثلاث مئة - وبلغ المامون ذلك فارسل استدعاني وسالني عن القضية فشرحتها له كما هي فاستدعى صديقيّ وامر لكل منا بالفي دينار ولامراتي بالف دينار *

١٣ — حدث ابو عباد الكاتب وكان بالمامون خاصّا قال : قال لي المامون ما اعياني الا جواب ثلاثة انفس - سرت الى ام ذي الرئاستين اعزيها عن ابنها - فقلت لا تأسي عليه ولا تحزني لفقده فان الله عز وجل قد اخلف عليك مني ولدا يقوم لك مقامه - فمهما كنت تنبسطين اليه فيه فلا تنقبضي عني منه - فبكت ثم قالت يا اميرالمؤمنين وكيف لا احزن على ولد اكسبني ولداً مثلك - واتيت برجل قد تنبأ - فقلت له من انت - قال

موسى بن عمران - فقلت له ويحك موسى كانت له آيات ودلالات بان بها امره - منها انه القى عصاه فابتلعت كيد السحرة ومنها اخراجه يده من جيبه وهي بيضاء - وجعلت اعدد عليه ما اتى به من دلائل النبوة وقلت له ان اتيتني بشيء واحد من علاماته او آية من اياته كنت اول مؤمن بك والا قتلتك - فقال صدقت الا اني اتيت بهذه العلامات اما قال فرعون أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فان قلت انت كذلك اتيتك من العلامات بمثل ما اتيته به * والثالثة ان اهل الكوفة اجتمعوا يشكون عاملا كنت احمد مذهبه وارتضي سيرته فوجهت اليهم اني اعلم سيرة هذا الرجل وانا عازم على القعود لكم في غداة غد - فاختاروا رجلا يتولى المناظرة عنكم فانا اعلم بكثرة كلامكم - فقالوا ما فينا من نرتضيه لمناظرة اميرالمؤمنين الا رجل اطروش فان صبر اميرالمؤمنين عليه تفضل بذلك - فوعدتهم الصبر عليه وحضروا من الغد - فامرت بادخال الاطروش - فلما مَثَلَ بين يديّ امرته بالجلوس - ثم قلت له ما الذي شكوته من عاملكم - قال يا اميرالمؤمنين هو شر عامل في الارض اما في اول سنة وليّتِه فانا بعنا اثاثاتنا وعقاراتنا - وفي السنة الثانية بعنا ذخائرنا وضياعنا - وفي السنة الثالثة خرجنا عن بلدنا فاستغثنا باميرالمؤمنين ليرحم شكوانا ويتطوّل علينا بالامر بصرفه عنا - فقلت له كذبت لا امّ لك بل هو رجل احمدت سيرته ومذهبه وارتضيت دينه وطريقته واخترته لكم لمعرفتي بكثرة سُخْطكم على عمالكم - قال يا اميرالمؤمنين صدقت وكذبت انا ولكن هذا العامل الذي ارتضيت دينه وامانته وعفته وعدله وانصافه كيف خصصتنا به هذه السنين دون البلاد التي قد الزمك الله عز وجل من العناية باموريها مثل ما الزمك من العناية بامرنا - فاستعمله على هذه البلاد حتى يشملهم من انصافه وعدله مثل الذي شملنا - فقلت قم في غير حفظ الله فقد عزلته عنكم *

١٤ — ذكروا ان النعمان بن المنذر خرج يتصيد على فرسه اليحموم فاجراه على اثر عَير - فذهب به الفرس في الارض ولم يقدر عليه وانفرد عن اصحابه

واخذته السماء - فطلب ملجأ يلجأ اليه - فدفع الى بناء فاذا فيه رجل من طيء يقال له حنظلة ومعه امراة له فقال لهما هل من مأوى - فقال حنظلة نعم - فخرج اليه فانزله ولم يكن للطائي غير شاة وهو لا يعرف النعمان - فقال لامرأته ارى رجلا ذا هيئة وما اخلقه ان يكون شريفا خطيرا فما الحيلة - قالت عندي شيء من طحين كنت ادخرته فاذبح الشاة لاتخذ من الطحين ملّة - قال فاخرجت المراة الدقيق فخبزت منه ملة وقام الطائي الى شاته فاحتلبها ثم ذبحها واتخذ من لحمها مرقة مضيرة واطعمه من لحمها وسقاه من لبنها واحتال له شرابا فسقاه وجعل يحدثه بقية ليلته - فلما اصبح النعمان لبس ثيابه وركب فرسه ثم قال يا اخا طيء اطلب ثوابك انا الملك النعمان - قال افعل ان شاء الله - ثم لحق الخيل فمضى نحو الحيرة ومكث الطائي بعد ذلك زمانا حتى اصابته نكبة وجهد وساءت حاله - فقالت له امراته لو اتيت الملك لاحسن اليك - فاقبل حتى انتهى الى الحيرة فوافق يوم بؤس النعمان - فاذ هو واقف في خيله في السلاح - فلما نظر اليه النعمان عرفه وساءه مكانه - فوقف الطائي المنزول به بين يدي النعمان - فقال له انت الطائي المنزول به - قال نعم - قال افلا جئت في غير هذا اليوم - قال ابيتَ اللعن وما كان علمي بهذا اليوم - قال والله لو سنح لي في هذا اليوم قابوس ابني لم اجد بُدًّا من قتله فاطلب حاجتك من الدنيا وسل ما بدا لك فانك مقتول - قال ابيت اللعن وما اصنع بالدنيا بعد نفسي - قال النعمان انه لا سبيل اليها - قال فان كان لا بد فاجّلني حتى الّمّ باهلي فاوصي اليهم واهيّئ حالهم ثم انصرف اليك - قال النعمان فاقِمْ لي كفيلا بموافاتك - فالتفت الطائي الى شريك بن عمرو بن قيس من بني شيبان وكان يكنى ابا الحوفزان وكان صاحب الردافة وهو واقف بجنب النعمان فابى شريك ان يتكفل به فوثب اليه رجل من كلب يقال له قراد بن اجدع - فقال للنعمان ابيت اللعن هو عليّ - قال نعمان افعلت - قال نعم فضمّنه اياه - ثم امر للطائي بخمسمائة

ناقة فمضى الطائي الى اهله وجعل الاجل حولا من يومه ذلك الى مثل ذلك اليوم من قابل. فلما حال عليه الحول وبقي من الاجل يوم قال النعمان لقراد ما اراك الا هالكا غدا. فقال قراد: فانْ يكُ صدرُ هذا اليوم ولّى فانّ غداً لناظرهِ قريب. فلما اصبح النعمان ركب في خيله ورجله متسلحا كما كان يفعل حتى اتى الغريّين. فوقف بينهما واخرج معه قرادا وامر بقتله. فقال له وزراؤهُ ليس لك ان تقتله حتى يستوفي يومه فتركه وكان النعمان يشتهي ان يقتل قراد ليفلتَ الطائي من القتل. فلما كادت الشمس تجِبُ وقرادا قائم مجرد في ازار على النطع والسياف الى جنبه اقبلت امرأته تبكيه. فبينما هم كذلك اذْ رفعَ لهم شخصٌ من بعيد وقد امر النعمان بقتل قراد. فقيل له ليس لك ان تقتله حتى يأتيك الشخص فتعلم من هو فكف حتى انتهى اليهم الرجل فاذا هو الطائي. فلما نظر اليه النعمان شق عليه مجيئه. فقال له ما حملك على الرجوع بعد افلاتك من القتل. قال الوفاء. قال وما دعاك الى الوفاء. قال ديني. قال النعمان وما دينك. قال النصرانيّة. قال النعمان فاعرضها عليّ. فعرضها عليه. فتنصّر النعمان واهل الحيرة اجمعون وكان قبل ذلك على دين العرب. فترك القتل منذ ذلك اليوم وابطل تلك السنّة وامر بهدم الغريّين وعفا عن قراد والطائي وقال والله ما ادري ايهما اوفى واكرم اهذا الذي نجا من القتل فعاد ام الذي ضمنه والله لا اكون الام الثلاثة *

اما حديث الغريين فان النعمان كان قد نادمه رجلان من بني اسد احدهما خالد بن المضلّل والآخر عمرو بن مسعود. فاغضباه في بعض المنطق. فأمر بان يحفر لكل واحد حفيرة بظهر الحيرة ثم يجعلا في تابوتين ويدفنا في الحفرتين. ففعل ذلك بهما حتى اذا اصبح سأل عنهما. فاخبر بهلاكهما. فندم على ذلك وغمّه. ثم انه ركب حتى نظر اليهما فأمر ببناء الغريين عليهما. فبنيا وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمّى احدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس. فاوّل من يطلع

عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الابل شؤما اي سودا - واوّل من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان اسود ثم يأمر به فيذبح ويُغرّى بدمه الغريّان *

١٥ — ذكر في كتاب المغازي عن عبد الله بن العباس عن ابيه قال : خرجت ليلة حالكة قاصداً دار امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه - فما وصلت الى نصف الطريق الا ورايت شخصاً اعرابيّاً جذبني بثوبي وقال الزمني يا عباس - فتاملت الاعرابي فاذا هو امير المؤمنين عمر وهو متنكّر - فتقدمت اليه وسلمت عليه وقلت له الى اين يا امير المؤمنين - قال اريد جولة بين احياء العرب في هذا الليل الدامس - وكانت ليلة قُرّ - فتبعته فسار وانا وراءه وجعل يجول بين خيام الاعراب وبيوتهم ويتاملّها الى ان اتينا علىً جميعها واوشكنا ان نخرج منها - فنظرنا واذا هناك خيمة وفيها امراة عجوز وحولها صبية يُعوِلُون عليها ويبكون - وامامها اثافيّ عليها قدر وتحتها النار تشتعل وهي تقول للصبية رويداً رويداً بنيّ قليلا وينضج الطعام فتأكلون - فوقفنا بعيدا من هناك وجعل عمر يتامل العجوز تارة وينظر الى الاولاد اخرى - فطال بنا الوقوف - فقلت له يا امير المؤمنين ما الذي يُوقفك سر بنا - فقال والله لا ابرح حتى اراها قد صبت للصبية فاكلوا واكتفوا - فوقفنا وقد طال وقوفنا جدا ومللنا المكان خوفا ان تستريب بنا العيون - والصبية لا يزالون يصرخون ويبكون والعجوز تقول لهم مقالتها رويدا رويدا بني قليلا وينضج الطعام فتاكلون - فقال لي عمر ادخل بنا عندها لنسألها - فدخل ودخلت وراءه - فقال لها عمر السلام عليك يا خالة فردت عليه السلام احسن ردّ فقال لها ما بال هولاء الصبية يتصارخون ويبكون - فقالت له لِما هم فيه من الجوع فقال لها ولم لم تطعميهم مما في القدر فقالت له وماذا في القدر لاطعمهم ليس هو الا علالة فقط الى ان يضجروا من العويل فيغلبهم النوم وليس لي شيء لاطعمهم - فتقدم عمر الى القدر ونظرها فاذا

فيها حصباء وعليها الماء يغلي - فتعجب من ذلك وقال لها ما المراد بذلك - فقالت اوهمهم ان فيها شيئا يطبخ فيؤكل فاعللهم به حتى اذا ضجروا وغلب النوم عيونهم ناموا - فقال لها عمر ولماذا انت هكذا - فقالت له انا مقطوعة لا اخ لي ولا اب ولا زوج ولا قرابة - فقال لها لِم لم تعرضي امرك على اميرالمؤمنين عمر بن الخطاب فيجعل لك شيئا من بيت المال - فقالت له لا حيّا الله عمر ونكّس الله اعلامه والله انه ظلمني - فلما سمع عمر مقالتها ارتاع من ذلك - وقال لها يا خالة بماذا ظلمك عمر بن الخطاب - قالت له نعم والله ظلمنا اِنّ الراعيَ عليه ان يُفتّش على حال كلّ من رعيته - لعلّه يوجد فيها من هو مثلي ضيّق اليد كثير الصبية ولا معين ولا مساعد له فيتولى لوازمه ويسمح له من بيت المال بما يقوته وعياله اوصبيته - فقال لها عمر ومن اين يعلم عمر بحالك وما انت به من الفاقة مع كثرة الصبية - كان يجب عليك ان تتقدمي وتعلميه بامرك - فقالت لا والله ان الراعي الحرّ يجب عليه ان يفتش على احتياجات رعيته خصوصا وعموما - فلعل ذلك الشخص الفقير الحال الضيق اليد غلبه حياؤه ومنعه من التقدم الى راعيه ليعلمه بحاله - فعلى عمر السوال عن حال الفقراء في رعيته اكثر من تقدم الفقير الى مولاه لاعلامه بحاله - والراعي الحر اذا اهمل ذلك فيكون هذا ظلما منه - وهذه سنة الله ومن تعداها فقد ظلم - فعند ذلك قال لها عمر صدقت يا خالة ولكن عللي الصبية والساعة آتيك - ثم خرج وخرجت معه وكان قد بقي من الليل ثلثه الاخير - فمشينا والكلاب تنبحنا وانا اطردها واذبّها عني وعنه الى ان انتهينا الى بيت الذخيرة ففتحه وحده ودخل وامرني فدخلت معه فنظر يمينا وشمالا فعمد الى كيس من الدقيق يحتوي على مائة رطل ونيف - فقال لي يا عباس حوّل على كتفي فحملته اياه ثم قال لي احمل انت هانيك جرّة السمن واشار لي الى جرة هناك فحملتها وخرجنا واقفل الباب وسرنا وقد انهار من الدقيق على لحيته وعينيه وجبينه - فمشينا الى ان انصفنا وقد اتعبه الحمل

لان المكان كان بعيد المسافة - فعرضت نفسي عليه وقلت له بابي وامّي
يا امير المومنين حول الكيس عنك ودعني احمله - فقال لا والله انت لا تحمل
عني جرائمي وظلمي يوم الدين واعلم يا عباس ان حمل جبال الحديد
وثقلها خير من حمل ظلامة كبرت او صغرت - ولا سيما هذه العجوز
تعلّل اولادها بالحصى - يا له من ذنب عظيم عند الله - مر بنا واسرع
يا عباس قبل ان تضجر الصبية من العويل فيناموا كما قالت - فسار واسرع
وانا معه وهو يلهث لهث الثور من التعب الى ان وصلنا خيمة العجوز -
فعند ذلك حوّل كيس الدقيق عن كتفه ووضعت جرة السمن امامه - فتقدم
هو بذاته واخذ القدر واكبّ ما فيها ووضع فيها السمن وجعل بجانبه الدقيق -
ثم نظر فاذا النار قد كادت تطفأ - فقال للعجوز اعندك حطب - قالت نعم
يا ابني واشارت له اليه - فقام وجاء بقليل منه وكان الحطب اخضر - فوضع
منه في النار ووضع القدر على الاثافي وجعل ينكس راسه الى الارض
وينفخ بفمه تحت القدر فوالله اني رايت دخان الحطب يخرج من خلال
لحيته وقد كنس بها الارض اذ كان يطأطئ راسه ليتمكن من النفخ ولم يزل
هكذا حتى اشتعلت النار وذاب السمن وابتدأ غليانه - فجعل يحرّك السمن
بعود في يده الواحدة ويخلط من الدقيق مع السمن في يده الاخرى
الى ان انضج والصبية حوله يتصارخون - فلما طاب الطعام طلب من العجوز
اناء فاتته به - فجعل يصب الطبيخ في الاناء وينفخه بفمه ليبرده ويلقم
الصغار - ولم يزل يفعل هكذا معهم واحدا بعد واحد حتى اتى جميعهم
وشبعوا واكتفوا - وقاموا يلعبون ويضحكون مع بعضهم الى ان غلب
عليهم النوم فناموا - فالتفت عمر عند ذلك الى العجوز وقال لها يا خالة
انا من قرابة امير المؤمنين عمر وساذكر له حالك فائتيني غدا صباحا
في دار الامارة فتجديني هناك فارجي خيرا - ثم ودعها عمر وخرج
وخرجت معه - فقال لي يا عباس والله اني حين رايت العجوز تعلل صبيتها
بحصى حسبت ان الجبال قد زلزلت واستقرت على ظهري حتى اذا

جئت بما جئت واطعمتهم ما طبخته لهم واكتفوا وجلسوا يلعبون ويضحكون فحينئذ شعرت ان تلك الجبال قد سقطت عن ظهري - ثم اتى عمر دارة وامرني فدخلت معه وبتنا ليلتنا - ولما كان الصباح اتت العجوز فاستغفرها وجعل لها ولصبيتها راتبا من بيت المال تستوفيه شهرا فشهرا *

١٦ — حكي انه لما افضت الخلافة الى بني العباس اختفت منهم جميع رجال بني امية وكان منهم ابرهيم بن سليمان بن عبد الملك - وكان ابرهيم هذا رجلا عالما كاملا اديبا وهو مع ذلك في سن الشبيبة فاخذوا له امانا من السفاح فاعطاه ابو العباس السفاح امانا واكرمه وقال له الزم مجلسي - فذات يوم قال له ابو العباس السفاح يا ابرهيم حدثني عما مر بك في استخفائك من العدو - فقال سمعا وطاعة يا امير المؤمنين - كنت مختفيا في الحيرة بمنزل في شارع على الصحراء فبينما كنت يوما على ظهر ذلك البيت اذ بصرت باعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة - فتخيلت انها تريدني - فخرجت مسرعا من الدار متنكّرا حتى اتيت الكوفة وانا لا اعرف احدا اختفي عنده فبقيت في حيرة - فنظرت واذا انا بباب كبير واسع الرحبة فدخلت فيه - فرايت رجلا وسيما حسن الهيئة مقبلا على الرحبة ومعه اتباعه - فنزل عن فرسه والتفت فرآني - فقال لي من انت وما حاجتك - فقلت رجل خائف على دمه وجاء يستجير في منزلك - فادخلني منزله وصيّرني في حجرة تلي حرمه وكنت عنده في كل ما احبّه من طعام وشراب ولباس وهو لا يسألني عن شيء من حالي الا انه كان يركب في كل يوم من الفجر ويمضي ولا يرجع الا قريب الظهر - فقلت له يوما اراك تدمن الركوب كل يوم ففي م ذلك - فقال لي ان ابرهيم بن سليمان بن عبد الملك كان قد قتل ابي ظلما وقد بلغني انه مختف في الحيرة فاذا اطلبه يوميّا لعلي اجده وادرك منه ثاري - قال فلما سمعت ذلك يا امير المؤمنين كثر تعجبي وقلت في نفسي ان القدر ساقني الى حتفي في منزل من يطلب دمي فوالله يا امير المؤمنين اني كرهت

العيوة - ثم اني سالت الرجل عن اسمه واسم ابيه فاخبرني فعلمت ان كلامه حق واني انا الذي قتل اباه - فقلت له يا هذا انه قد وجب علي حقك ولمعروفك لي يلزمني ان ادلك على خصمك الذي قتل اباك واقرب عليك الخطوة - فقال وماذاك - فقلت له انا ابرهيم بن عبدالملك وانا قاتل ابيك فخذ بثارك - فتبسم مني وقال هل اضجرك الاختفاء والبعد عن منزلك واهلك فاحببت الموت - فقلت لا والله ولكني اقول لك الحق واني قتلته في يوم كذا من اجل كذا - فلما سمع الرجل كلامي هذا وعلم صدقي تغير لونه واحمرت عيناه ثم فكرطويلا والتفت الي وقال اما انت فسوف تلقى ابي عند حاكم عادل فياخذ بثاره منك واما انا فلا اخفر ذمتي ولكني اريد ان تخرج عني فاني لست آمن عليك من نفسي - ثم انه اعطاني الف دينـــار فابيت اخذهـــا وانصرفت عنه - فهذا يا اميرالمؤمنين اكرم رجل رأيته وسمعت عنه في عمري بعد اميرالمؤمنين *

١٧ — مما جاء في المكافأة ما حكي عن العباس صاحب شرطة المامون - قال دخلت الى مجلس اميرالمؤمنين ببغداد يوما و بين يديه رجل مكبّل بالحديد - فقال لي يا عباس قلت لبيك يا اميرالمؤمنين - قال خذ هذا اليك فاستوثق منه واحتفظ به وبكر به اليّ في غد واحترز عليه كل الاحتراز - قال العباس فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر ان يتحرك - فقلت في نفسي مع هذه الوصية التي اوصاني بها اميرالمؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب الا ان يكون معي في بيتي - فلما تركوه في مجلس لي في داري اخذت اساله عن قضيته وحاله ومن اين هو - فقال انا من دمشق - فقلت جزى الله دمشق واهلها خيرا فمن انت من اهلها - قال وعمن تسال - قلت اتعرف فلانا - قال ومن اين تعرف ذلك الرجل - فقلت وقع لي معه قضية - فقال ما كنت بالذي اعرفك خبرَه حتى تعرفني قضيتك معه - فقلت ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فشغب اهلها وخرجوا

علينا - حتى ان الوالي تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو واصحابه و هربت في جملة القوم - فبينا انا هارب في بعض الدروب واذا بجماعة يعدون خلفي فما زلت اعدو امامهم حتى فتّهم - فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره - فقلت اغثني اغاثك الله قال لا باس عليك ادخل الدار فدخلت - فقالت زوجته ادخل تلك المقصورة فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار - فما شعرت به الا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك - فقال دونكم الدار فتشوها ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامراته فيها - فقالوا هو ههنا - فصاحت بهم المراة ونهرتهم فانصرفوا - وخرج الرجل فجلس على باب داره ساعة واذا قائم ارجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف - فقالت المراة اجلس لا باس عليك - فجلست فلم البث حتى دخل الرجل - فقال لا تخف قد صرف الله عنك شرهم وصرت الى الامن والدعة ان شاء الله تبارك وتعالى - فقلت جزاك الله خيرا - فما زال يعاشرني احسن معاشرة واجملها وافرد لي مكانا من داره ولم يحوجني الى شيء ولم يفتر عن تفقد احوالي - فاقمت عنده اربعة اشهر في انعم عيش وارفهه الى ان سكنت الفتنة وهدات وزال اثرها - فقلت له اتأذن لي في الخروج حتى اتفقد حال غلماني فلعلي اقف منهم على خبر فاخذ علي المواثيق بالرجوع اليه فخرجت و طلبت غلماني فلم ار لهم اثرا - فرجعت اليه واعلمته الخبر وهو مع هذا كله لا يعرفني ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني الا بالكنية - فقال لي علىم تعزم - فقلت قد عزمت على التوجه الى بغداد فان القافلة تخرج بعد ثلاثة ايام وقد تفضلت عليّ هذه المدة ولك علي عهد الله انني لا انسى لك هذا الفضل ولافينك مهما استطعتُ - قال فدعا بغلام له اسود وقال له انعل الفرس الفلاني ثم جهز آلة السفر - فقلت في نفسي ما اشك انه يريد ان يخرج الى ضيعة له او ناحية من النواحي فاقاموا يومهم ذلك في كد وتعب - فلما كان يوم خروج القافلة جاءني في السحر

وقال يا فلان قم فان القافلة تخرج الساعة واكره ان تنفرد عنها. فقلت في نفسي كيف اصنع وليس معي ما اتزود به ولا ما اكري به مركبا - ثم قمت فاذا هو وامراته يحملان تختا من افخر اللباس وخفين جديدين وآلة السفر - ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي - ثم قدم بغلا فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ودفع اليّ نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم وقدم اليّ الفرس الذي نعله بسرجه ولجامه وقال اركب وهذا الغلام الاسود يخدمك ويسوس مركبك - واقبل هو وامراته يعتذران اليّ من التقصير في امري وركب معي يشيعني وانصرفت الى بغداد - وانا اتوقع خبره لافي بعهدي له في مجازاته ومكافاته واشتغلت مع امير المؤمنين فلم اتفرغ لارسل اليه من يكشف خبره فلهذا انا اسال عنه - فلما فرغ الرجل من الحديث قال قد امكنك الله تعالى من الوفاء له ومكافأته على فعله ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك - فقلت وكيف ذلك - قال انا ذلك الرجل وانما الضر الذي انا فيه غيّر عليك حالي وماكنتَ تعرفهُ مني ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الاسباب حتى اثبت معرفته فما تمالكت ان قمت وقبلت راسه ثم قلت له فما الذي صيرك الى ما ارى - فقال هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في ايامك - فنسبت اليّ وبعث امير المؤمنين بجيوش فاصلحوا البلد واخذت انا وضربت الى ان اشرفت على الموت وقيدت وبعث بي الى امير المومنين وامري عنده عظيم وهو قاتلي لا محالة وقد اخرجت من عند اهلي بلا وصية وقد تبعني من غلماني من ينصرف الى اهلي بخبري وهو نازل عند فلان - فان رايت ان تجعل من مكافاتك لي ان ترسل من يحضره لي حتى اوصيه بما اريد فان انت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافاة وقمت وفاء عهدك - قال العباس فقلت يصنع الله خيرا ثم احضر حدادا في الليل فك قيوده وازال ما كان عليه من الانكال وادخله حمام داره والبسه من الثياب ما احتاج اليه ثم سير من احضر اليه غلامه - فلما رآه جعل

يدكي ويوصيه - فاستدعى العباس نائبه - وقال عليّ بفرسي الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا - قال واحضر لي بدرة عشرة آلاف درهم وكيسا فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه في الشرطة خذ هذا الرجل وشيعه الى حد الانبار - فقلت له ان ذنبي عظيم عند اميرالمومنين وخطبي جسيم وان انت احتججت باني هربت بعث اميرالمومنين في طلبي كل من على بابه فاردّ واقتل - فقال لي انج بنفسك ودعني ادبر امري - فقلت والله لا ابرح من بغداد حتى اعلم ما يكون من خبرك فان احتجت الى حضوري حضرت - فقال لصاحب الشرطة ان كان الامر على ما يقول فليكن في موضع كذا فان انا سلمت في غداة غد اعلمته وان انا قتلت وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه وانشدك الله ان لا يذهب من ماله درهم وتجتهد في اخراجه من بغداد - قال الرجل فاخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان اثق به وتفرغ العباس لنفسه وتغسل وتحنط وجهز له كفنا - قال العباس فلم افرغ من صلاة الصبح الا ورسل المامون في طلبي يقولون قال لك اميرالمومنين هات الرجل معك - قال فتوجهت الى دار اميرالمومنين واذا هو جالس وعليه ثيابه - فقال اين الرجل فسكت - فقال ويحك الرجل فقلت يا اميرالمومنين اسمع مني - فقال لله عليّ عهد انك ان ذكرت انه هرب لاضربن عنقك - فقلت لا والله يا اميرالمومنين ما هرب ولكن اسمع حديثي وحديثه ثم شانك وما تريد ان تفعله في امري - قال قل فقلت يا اميرالمومنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته انني اريد ان افي له واكافئه على ما فعله معي - وقلت انا وسيدي ومولاي اميرالمومنين بين امرين اما ان يصفح عني فاكون قد وفيت وكافأت واما ان يقتلني فاقيه بنفسي وقد تحنطت وها كفني يا اميرالمومنين - فلما سمع المامون الحديث - قال ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيرا انه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة

والعهد بهذا لا غير هلا عرفتني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له ‐ فقلت يا اميرالمومنين انه ههنا قد حلف ان لا يبرح حتى يعرف سلامتي فان احتجت الى حضوره حضر ‐ فقال المامون وهذه منه اعظم من الاولى اذهب الآن اليه فطيب نفسه وسكن روعه وائتني به حتى اتولى مكافأته ‐ قال فاتيت اليه وقلت له ليزل خوفك ان اميرالمومنين قال كيت وكيت ‐ فقال الحمد لله الذي لا يحمد على السرّاء و الضرّاء سواه ‐ ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا ‐ فلما مثل بين يدي اميرالمومنين اقبل عليه وادناه من مجلسه وحدثه حتى حضر الغداء و اكل معه وخلع عليه وعرض عليه اعمال دمشق فاستعفى فامرله المامون بعشرة افراس بسرجها ولجمها وعشرة ابغال بآلاتها وعشر بدر وعشرة آلاف دينار وعشرة مماليك بدوابهم وكتب الى عامله بدمشق بالوصية به و اطلاق خراجه وامره بمكاتبته باحوال دمشق ‐ فصارت كتبه تصل الى المامون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي يا عباس هذا كتاب صديقك والله اعلم *

١٨ — رفع الى هرون الرشيد ان رجلا بدمشق من بقايا بني امية عظيم المال كثير الجاه مطاع في البلد له جماعة واولاد ومماليك يركبون الخيل ويحملون السلاح ويغزون الروم وانه سمح جواد كثير البذل والضيافة انه لا يؤمن منه ‐ فعظم ذلك على الرشيد ‐ قال منارة وكان وقوف الرشيد على هذا وهو بالكوفة في بعض حججه في سنة ست وثمانين ومائة وقد عاد من الموسم وقد بايع للامين والمامون والمعتصم اولاده ‐ فدعاني وهو خال وقال اني دعوتك لامر يهمني وقد منعني النوم فانظر كيف يكون ‐ ثم قص علي خبر الاموي وقال اخرج الساعة فقد اعددت لك الخيول وازحت علتك في الزاد والنفقة والالة ‐ وتضم اليك مائة غلام واسلك البرية وهذا كتابي الى نائب دمشق وهذه قيود فابدا بالرجل فان سمع واطاع فقيده وجئني به وان عصى فتوكل عليه انت ومن معك لئلا يهرب وانفذ الكتاب الى امير دمشق ليكون مساعدا

واقبضا عليه ودلني به واجلتك لذهابك ستا ولايابك ستا ويوما لمقامك ـ وهذا محمل تجعله في شقة منه اذا قيدته وتقعد انت في الشقة الاخرى ولا تكل حفظه الى غيرك حتى تاتيني به في الثالث عشر يوما من خروجك ـ فاذا دخلت داره فتفقدها وجميع ما فيها من اهله وولده وغلمانه وقدر نعمته والحال والمحل واحفظ ما يقوله الرجل حرفا بحرف من الفاظه منذ يقع طرفك عليه حتى تاتيني به ـ واياك ان يشكل عليك شيئا من امره انطلق ـ قال منارة فودعته وانطلقت وخرجت فركبت الابل وسرت اطوي المنازل اسير الليل والنهار الى ان وصلت الى دمشق في اول الليلة السابعة وابواب البلد مغلقة ـ فكرهت طروقها ليلا ـ فبت بظاهر البلد الى ان فتح بابها من غد ـ فدخلت على هيئتي ـ ثم اتيت باب الرجل وعليه صف عظيم وحاشية كثيرة فلم استاذن ودخلت بغير اذن ـ فلما راى القوم ذلك سالوا بعض من معي عني ـ قال هذا منارة رسول اميرالمومنين الى صاحبكم ـ قال فلما صرت في صحن الدار نزلت ودخلت مجلسا رايت فيه قوما جلوسا فظننت ان الرجل فيهم ـ فقاموا ورحبوا بي ـ فقلت افيكم فلان قالوا لا نحن اولاده وهو في الحمام ـ فقلت استعجلوه ـ فمضى بعضهم يستعجله وانا اتفقد الدار والاحوال والحاشية ـ فوجدتها ماجت باهلها موجا كثيرا ـ فلم ازل كذلك حتى خرج الرجل بعد ان اطال مكثه ـ واستربت منه واشتد قلقي وخوفي من ان يتوارى الى ان رايت شخصا بزي الحمام يمشي في صحن الدار وحواليه جماعة كهول واحداث وصبيان وهم اولاده و غلمانه ـ فقلت انه الرجل ـ فجاء وجلس وسلم علي سلاما خفيفا وسالني عن اميرالمومنين واستقامة امر حضرته ـ فاخبرته بما وجب ـ وما قضى كلامه حتى جاؤوا باطباق فاكهة ـ فقال تقدم يا منارة وكل معنا ـ فقلت ما لي الى ذلك من سبيل ـ فلم يعاودني فاكل هو ومن معه ـ ثم غسل يديه ودعا بالطعام فجاؤوا اليه بمائدة حسنة لم ار مثلها الا للخليفة ـ فقال يا منارة ساعدنا على الاكل لا يزيدني على ان يدعوني باسمي كما

يدعوني الخليفة - فامتنعت عليه - فما هاودني - فاكل ومن معه وكانوا تسعة من اولاده - فتاملت اكله في نفسه فوجدته ياكل اكل الملوك ووجدت ذلك الاضطراب الذي كان في داره قد سكن ووجدتهم لا يرفعون شيئا من بين يديه قد وضع على المائدة الا تهيأ غيره خالا اعظم واحسن منه وقد كان غلمانه اخذوا لما نزلت الى الدار مالي وغلماني وعدلوا بهم الى دار اخرى - فما اطاقوا ممانعتهم وبقيت وحدي وليس بين يدي الا خمسة او ستة غلمان وقوف على راسي - فقلت في نفسي هذا جبار عنيد - فان امتنع من الشخوص لم اطق اشخاصه بنفسي ولا بمن معي ولا حفظه الا ان يلحقني امير البلد - وجزعت جزعا شديدا ورابني منه استخفافه وتهاونه بامري يدعوني باسمي ولا يفكر في امتناعي من الاكل ولا يسال عما جئت به وياكل مطمئنا وانا مفكر في ذلك - فلما فرغ من اكله وغسل يديه دعا بالبخـور فتبخر وقام الى الصلاة وصلى الظهر واكثـر من الدعاء والابتهال ورايت صلاته حسنة - فلما انتقل من المحراب اقبل علي وقال ما اقدمك يا منارة - فاخرجت كتاب اميرالمومنين ودفعته اليه ففضه وقراه - فلما استتم قراءته دعا اولاده وحاشيته - فاجتمع منهم خلق كثير - فلم اشك انه يريد ان يوقع بي - فلما تكاملوا ابتدا فحلف ايمانا غليظة فيها الطلاق والعتاق والحج والصدقة والوقف ان لا يجتمع اثنان في موضع واحد - وامرهم ان ينصرفوا ويدخلوا منازلهم ولا يظهروا الى ان يكشف لهم امر يعتمدون عليه - وقال هذا كتاب اميرالمومنين بالمضي اليه ولست اقيم بعد نظري فيه ساعة واحدة واستوصوا بمن ورائي من الحريم خيرا وما لي حاجة ان يصحبني احد هات قيودك يا منارة - فدعوت بها وكانت في سفط ومد يده فقيدته وامرت غلماني بحمله حتى صار في المحمل وركبت في الشق الآخر وسرت من وقتي ولم الاق امير البلد ولا غيره وسرت بالرجل وليس معه احد الى ان صرنا بظاهر دمشق - فابتدا يحدثني بانبساط حتى انتهينا الى بستان حسن في الغوطة - فقال لي اترى هذا قلت نعم - قال انه لي

وفيه من غرائب الاشجار كيت وكيت - ثم انتهى الى آخر - فقال مثل ذلك - ثم انتهى الى مزارع حسان وقرى - فقال مثل ذلك هذا لي - فاشتد غيظي منه وقلت - الست تعلم ان اميرالمومنين اهمّه امرك حتى ارسل اليك من انتزعك من بين اهلك ومالك وولدك واخرجك فريدا مقيدا مغلولا ما تدري ما يصير اليه امرك ولا كيف يكون وانت فارغ القلب من هذا حتى تصف ضياعك وبساتينك بعد ان جئتك وانت لا تفكر فيما جئت به وانت ساكن القلب قليل التفكر لقد كنت عندي شيخا فاضلا - فقال لي مجيبا انا لله وانا اليه راجعون اخطأت فراستي فيك لقد ظننت انك رجل كامل العقل وانك ما حللت من الخلفاء هذا المحل الا لما عرفوك - فاذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام والله المستعان - اما قولك في اميرالمومنين وازعاجه واخراجه اياي الى بابه على صورتي هذه - فاني على ثقة من الله عز وجل الذي بيده ناصية اميرالمومنين ولا يملك اميرالمومنين لنفسه نفعا ولا ضرا الا باذن الله عز وجل ولا ذنب لي عند اميرالمومنين اخافه - وبعد فاذا عرف اميرالمومنين امري وعرف سلامتي وصلاح ناحيتي سرحني مكرما - فان الحسدة والاعداء رموني عنده بما ليس فيّ وتقولوا عليّ الاقاويل - ولم يستحل دمي - ويخرج من ايذائي وازعاجي ويردني مكرما ويقيمني ببلاده معظما مبجلا وانْ كان قد سبق في علم الله عز وجل انه يبدو لي منه سوء وقد اقترب اجلي وكان سفك دمي على يده فاني احسن الظن بالله الذي خلق ورزق واحيا وامات - وانّ الصبر والرضا والتسليم الى من يملك الدنيا والآخرة - وقد كنت احسب انك تعرف هذا فاذن قد عرفت مبلغ فهمك فاني لا اكلمك بكلمة واحدة حتى يفرق بيننا اميرالمومنين ان شاء الله تعالى - ثم اعرض عني فما سمعت منه لفظة غير التسبيح او طلب ماء او حاجة حتى شارفنا الكوفة في اليوم الثالث عشر بعد الظهر والنجب قد استقبلتني قبل ستة فراسخ من الكوفة يتجسسون خبري فحين راوني رجعوا عني متقدمين بالخبر الى اميرالمومنين -

فانتهيت الى الباب في آخر النهار فحططت رحلي ودخلت على الرشيد وقبلت الارض بين يديه ووقفت - فقال هات ما عندك يا منارة واياك ان تغفل منه عن لفظة واحدة - فسقت الحديث من اوله الى آخره حتى انتهيت الى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور وما حدثتني به نفسي من امتناعه والغضب يظهر في وجه اميرالمومنين ويتزايد حتى انتهيت الى فراغ الامور من الصلاة والتفاته الي وسوأله عن سبب قدومي ودفعي الكتاب اليه ومبادرته الى احضار ولده واهله واصحابه وحلفه عليهم ان لا يتبعه احد وصرفه اياهم ومد رجليه وتقيده - فما زال وجه الرشيد يسفر - فلما انتهيت الى ما خاطبني به عند توبيخي له لما ركبنا في المحمل - فقال صدق والله ما هذا الرجل الا محسود على النعمة مكذوب عليه ولعمري لقد ازعجناه وآذيناه ورعنا اهله - فبادر بنزع قيوده وأتني به قال فخرجت و نزعت قيوده وادخلته الى الرشيد فما هو الا ان رآه حتى رايت ماء الحياة يجول في وجه الرشيد - فدنا الاموي وسلم بالخلافة ووقف - فرد عليه الرشيد ردا جميلا وامره بالجلوس - فجلس واقبل عليه الرشيد فساله عن حاله - ثم قال له بلغنا عنك فضل هيئة وامور احببنا معها ان نراك ونسمع كلامك ونحسن اليك فاذكر حاجتك - فاجاب الاموي جوابا جميلا وشكر ودعا - ثم قال ليس لي عند اميرالمومنين الا حاجة واحدة - فقال مقضية فما هي قال يا اميرالمومنين ردني الى بلدي واهلي وولدي - قال نفعل ذلك ولكن سل ما تحتاج اليه من مصالح جاهك ومعاشك فان مثلك لايخرج الا ويحتاج الى شيء من هذا - فقال يا اميرالمومنين عمالك منصفون وقد استغنيت بعدلهم عن مسألتي فاموري مستقيمة وكذلك اهل بلدي بالعدل الشامل في ظل اميرالمومنين - فقال الرشيد انصرف محفوظا الى بلدك واكتب الينا بامر ان عرض لك - فودعه الاموي فلما ولى خارجا قال الرشيد يا منارة احمله من وقتك وسر به راجعا كما سيرته حتى اذا وصلت الى مجلسه الذي اخذته منه فودعه وانصرف -

قال منارة فما زلت معه حتى انتهى الى محله - ففرح به اهله واعطاني عطاء جزيلا وانصرفت *

١٩ — حدث ابو محمد الشعبي الوراق وكان عند باب خراسان على باب الجسر الاول عن حماد بن اسحق عن ابيه اسحق بن ابرهيم ابن ميمون الموصلي قال بينا انا ذات يوم عند المامون وقد خلا وجهه وطابت نفسه اذ قال لي يا اسحق هذا يوم خلوة وطيب - فقلت طيب الله عيش اميرالمومنين ودام سروره وفرحه - فقال يا غلمان خذوا علينا الباب واحضروا الشراب - قال ثم اخذ بيدي وادخلني في مجلس غير المجالس التي كنا فيها واذا قد نصبت الموائد واصلح ما كان يحتاج اليه الحال حتى كانه شيء قد كان تقدّم فيه - قال فاكلنا واخذنا في الشراب - فاقبلت الستيرات من كل ناحية بضروب من الغناء وصنوف من اللهو - فلم نزل على ذلك الى آخر النهار - فلما غربت الشمس قال لي يا اسحق خير ايام الفتى ايام الطرب - قلت هو والله ذاك يا اميرالمومنين - قال فاني فكرت في شيء فهل لك فيه - قلت لا اتاخر عن راي اميرالمومنين اطال الله بقاءه - قال لعلنا نباكر الصبوح في غدوتنا هذه وقد عزمت على دخلة الى الحرم فكن بمكانك ولا تَرِمْ فانيْ اوافيك عن قريب - قلت السمع والطاعة ثم نهض الى دار النساء فما عرف له خبر الى ان ذهب شطر من الليل - قال اسحق وكان المامون من اشغف خلق الله بالنساء واشدهم ميلا اليهن واستهتارا بهن - وعلمت ان النبيذ قد غلب عليه وانهن قد انسينه امري وما كان تقدم الي ووعدني من رجوعه - فقلت في نفسي هو في لذته وانا ههنا في غير شيء وفيّ بقية - فنهضت لاخرج - فقال الخدم على اي شيء عزمت والى اين تريد - قلت اريد الانصراف - قالوا فان طلبك اميرالمومنين - قلت هو في سروره قد شغله الطرب ولذة ما هو فيه عن طلبي وقد كان بيني وبينه موعد قد جاز وقته ولا وجه لجلوسي - قال وكنت مقدمَ الامر في دار المامونَ مَقبول القول فيه لا اعارض في شيء

اذا اومأت اليه - فخرجت مبادرا الى باب الدار فلقيني غلمان الدار واصحاب النوبة - فقالوا ان غلمانك قد انصرفوا - وكانوا قد جاؤك بدابة فلما علموا بمبيتك انصرفوا - فقلت لا ضير انا اتمشى الى البيت وحدي - قالوا نحضرك دابة من دواب النوبة - قلت لا حاجة لي في ذلك - قالوا فنمضي بين يديك بمشعل - قلت لا ولا اريد ايضا - واقبلت نحو البيت حتى اذا صرت ببعض الطريق عدلت الى بعض الازقة واذا على بعض الحيطان شيء معلق من تلك الدار الى الزقاق - فما تمالكت ان دنوت الى ذلك الشيء لاعرف ماهو فاذا بزنبيل معلق كبير باربعة مقابض ملبس ديباجا وفيه اربعة احبل ابريسم - فلما نظرت اليه وتبيّنته قلت والله ان لهذا لسببا وان له لامرا فاقمت ساعة اتروّى في امري وافكر فيه - حتى اذا طال ذلك بي قلت والله لاتجاسرن ولاجلسن فيه كائنا ما كان - ثم لففت راسي بردائي وجلست في جوف الزنبيل - فلما احس من كان على ظهر الحائط بثقله جذبوا الزنبـيل حتى انتهوا الى راس الحائط فاذا باربع جوار - فقلن انزل بالـرحب والسعة اصديق ام جديد - فقلـت لا بل جديد فقلن يا جارية هاتي الشمعة - فابتدرت احداهن الى طست فيه شمعة واقبلت بين يديّ حتى نزلت الى دار نظيفة فيها من الحسن والظرف ما حرت له - ثم ادخلتني الى مجالس مفروشة ومناصّ مرصوصة بصنوف الفرش ما لم ار مثله الا في دار الخليفة - فجلست في أدنى مجلس من تلك المجالس - فما شعرت بعد ذلك الا بضجة وجلبة وستور قد رفعت في ناحية من نواحي الدار واذا بوصائف يتسابقن في ايدي بعضهن الشمع وبعضهن المجامر يبخرن فيها العود والند وبينهن جارية كانها تمثال عاج تتهادى بينهن كالبدر الطالع بقد يزري على الغصون - فما تمالكت عند رؤيتها ان نهضت - فقالت مرحبا بك من زائر اتى وليست تلك عادته وجلست ورفعت مجلسي عن الموضع الذي كنت فيه - فقالت كيف كان ذا والله لي ولك ولا علم كان وقع اليّ فما السبب - قال قلت انصرفت من عند بعض

اخواني وظننت اني على وقت - فخرجت في وقت ضيق واخذت الى هذا الطريق - فعدلت الى هذا الزقاق - فوجدت زنبيلا معلقا - فحملني النبيذ فجلست فيه - فان كان خطأ فالنبيذ اكسبنيه وان كان صوابا فالله الهمنيه - قالت لا ضير ان شاء الله وارجو ان تحمد عواقب امرك - فما صناعتك - قلت بزاز - قالت واين مولدك - قلت بغداد - قالت ومن اي الناس انت - قلت من امنائهم واوساطهم - قالت حياك الله وقرب دارك - قالت فهل رويت من الاشعار شيئا - قلت شيئا يسيرا - قالت فذاكرنا بشيء مما حفظت - قلت جعلت فداك ان للداخل دهشة وفيّ انقباض ولكن تبتدئين بشيء من ذلك فالشيء يأتي بالمذاكرة - قالت لعمري لقد صدقت فهل تحفظ لفلان قصيدته التي يقول فيها كذا وكذا - ثم انشدتني لجماعة من الشعراء والقدماء والمحدثين من احسن اشعارهم واجود اقاويلهم وانا مستمع انظر من اي احوالها اعجب من ضبطها ام من حسن لفظها ام من حسن ادبها ام من جودة ضبطـها للغريب ام من اقتدارها على النحو ومعرفة اوزان الشعر - ثم قالت ارجو ان يكون ذهب عنك بعض ما كان من الحصر والانقباض والحشمة - فقلت ان شاء الله لقد كان ذلك قالت - فان رايت ان تنشدنا من بعض ما تحفظ فافعل - قال فاندفعت انشد لجماعة من الشعـراء فاستحسنت نشيدي واقبلت تسألني عن اشيـاء في شعري كالمختبرة لي وانا اجيبها بما اعرف في ذلك وهي مصغية اليّ ومستحسنة لما آتي به حتى اتيت على ما فيه مُقنع - قالت والله ما قصرت ولا توجمت في عوام التجار وابناء السوقة مثل ما معك - فكيف معرفتك بالاخبار وايام الناس - قلت قد نظرت ايضا في شيء من ذلك - فقالت يا جارية احضرينا ما عندك - فما غابت عنا حينا حتى قدمت الينا مائدة لطيفة قد جمع عليها غرائب الطعام السري - فقالت ان الممالحة اول الرضاع فدونك - فتقدمت فاقبلت اعذر بعض التعذير وهي معي تقطع وتضع بين يديّ وانا اغتنم ما ارى من ظرفها وحسن ادبها حتى رفعت المائدة

واحضرت آنية النبيذ فوضعت بين يديّ صينية وقنينة وقدح ومغسل وبين يديها مثل ذلك وفي وسط المجلس من صنوف الرياحين وغرائب الفواكه ما لم اره اجتمع لاحد الا لولي عهد او سلطان وقد عبئ احسن تعبية وهيئ احسن تهيئة - قال اسحق فتثاقلت عن الشراب لتكون هي المبتدئة - فقالت مالي اراك متوقفا عن الشراب - قلت انتظارا لك جعلت فداك فسكبت قدحا فشربت ثم سكبت قدحا فشربت - ثم قالت هذا اوان المذاكرة فان المذاكرة بالاخبار وذكر ايام الناس مما يطرب - قلت لعمري ان هذا لمن اوقاته - فاندفعت فقلت بلغني انه كان كذا وكذا وكان رجل من الملوك يقال له فلان بن فلان وكان من قصته كذا وكذا حتى مررت بعدة اخبار حسان من اخبار الملوك وما لا يتحدث به الا عند ملك او خليفة فسرت بذلك سرورا شديدا - ثم قالت والله لقد حدثتني باحاديث حسان ولقد كثر تعجبي من ان يكون احد من التجار يحفظ مثل هذا وانما هذا من احاديث الملوك وما لا يتحدث به الا عند ملك او خليفة - فقلت جعلت فداك كان لي جار ينادم بعض الملوك وكان حسن المعرفة كثير الحفظ - فكان ربما تعطل عن نوبته التي كان يذهب فيها الى دار صاحبه لشغل يمنعه من ذلك او لامر يقع فامضي اليه واعزم عليه واصيره الى منزلي - فربما اخبرني من هذه الاحاديث شيئا الى ان صرت من خاصة اخدانه وممن كان لا يفارقه - فما سمعت مني فمنه اخذته وعنه استفدته - فقالت يجب ان يكون هذا كذا ولعمري لقد حفظت فاحسنت الحفظ وما هذا الا لقريحة جيدة وطبع كريم - قال اسحق واخذنا في الشراب والمذاكرة ابتدئ الحـــديث فاذا فرغت ابتدات هي في آخر حتى قطعنا بذلك عامة الليل والند وفائق البخور يجدد وانا في حالة لو توهمها المامون او تاملها لاستطار سرورا وفرحا - ثم قالت لي يا فلان - وكنت قد غيرت عليها اسمي وكنيتي - والله اني لاراك كاملا وانك في الرجال لفاضل وانك لوضيء الوجه مليح الشكل بارع الادب وما بقي عليك الا شيء واحد حتى تكون قد برزت وبرعت - فقلت وما هو يا سيدتي

دفع الله الاسواء عنك - قالت لو كنت تحرك بعض الملاهي او تترنم ببعض
الاشعـــار - فقلت والله قديما اشتهيه وطالما كلفت به وحرصت عليه
فلم ارزقه ولا تعلق بي شيء منه فلما طال عنائي به وكلما تقدمت في طلبه
كنت منه ابعد وعنه اذهب تركته واعرضت عنه - وان في قلبي من ذلك
لحرقة واني لمستهتر به مائل اليه وما اكره ان اسمع في مجلسي هذا
من جيده شيئا لتكمل ليلتي ويطيب عيشي - قالت كانك قد عرضت بنا -
قلت لا والله ما هو تعريض وما هو الا تصريح وانت بدأت بالفضل وانت
اولى من اتم ما بدأ به - فقالت يا جارية عود - فاحضرت عودا فاخذته فما هو
الا ان جسته حتى ظننت ان الدار قد سارت بي وبمن فيها واندفعت
تغني مع صحة اداء وجودة صوت - فقلت والله لقد جمع الله لك خلال
الفضل وحباك بالكمال الرائع والعقل الزائد والاخلاق المرضية والافعال
السنية - فقالت ما تعرف لمن هذا الصوت ومن غنى به - قلت لا والله - قالت
الغناء لاسحق والشعر لفلان وكان من سببه كذا وكذا - فقلت هذا والله
احسن من الغناء - فلم تزل تلك حالها في كل صوت تغنيه ومع ذلك تشرب
واشرب حتى اذا كان عند انشقاق الفجر جاءت عجوز كانها داية لها -
فقالت اي بنية ان الوقت قد حضر فاذا شئت فانهضي - فلما سمعت مقالها
نهضت - فقالت عزمتَ قلت اي والله - فقالت مصاحبا للسلامة عليك
لتستر ما كنا فيه فان المجالس بالامانة - فقلت جعلت فداك افاحتاج الى
وصية في ذلك - فودعتها وودعتني وقالت يا جارية بين يديه - فاتي بي الى
باب في ناحية الدار ففتح لي واخرجت منه الى طريق مختصرة وبادرت
البيت فصليت ووضعت راسي - فما انتبهت الا ورسل الخليفة على الباب -
فقمت فركبت فسرت اليه - فلما مثلت بين يديه قال لي يا اسحق جفوتك
بما كنا ضمناه لك وتشاغلنا عنك - فقلت يا سيدي ليس شيء آثر عندي
واسر الى قلبي من سرور يدخل على امير المومنين - فاذا كمل سروره
وطاب عيشه فعيشنا يطيب وسرورنا متصل بسروره - ثم قال هل لك في مثل

ما كنا فيه امس ـ فقلت يا اميرالمومنين وهل احد يمتنع من ذلك ـ قال فاذا شئت ـ فنهض ونهضت فصرنا الى المجلس الذي كنا فيه بالامس على مثل حالنا وافضل حتى اذا كان ذلك الوقت وثب قائما ـ ثم قال يا اسحق لا ترم فاني اجيئك وقد عزمت على الصحبة ـ فما هو الا ان فارقني حتى تصور لي ما كنت فيه فاذا هو شيءٌ لا يصبر عنه الا جاهل فنهضت ـ فقال لي الغلمان الله الله وانه قد انكر علينا تخليتك وطالبنا بك وقال لم تركتموه ولا نحسبك الا تحب الايقاع بنا ـ فقلت والله لا نال احدكم بسببي مكـــروه ابدا ولكن ابادر بحـــاجتي ـ والله لا كان لي حبس ولا تـــريث واميرالمومنين اطال الله بقاءه اذا دخل ابطأ وانا موافيكم قبل خروجه ان شاء الله ـ قال فنهضت فما شعرت الا وانا في الزقاق فوافيت الزنبيل على ما كان عليه فقعدت فيه واصعدت وصرت الى الموضع فلم البث الا هنيهة واذا بها قد طلعت ـ فقالت ضيفنا قلت اي والله قالت اوقد عاودت قلت نعم واظنني قد ثقلت ـ فقالت مادح نفسه يقرئك السلام ـ هفوة فمني بالصفح ـ قالت قد فعلنا فلا تعد ـ قلت ان شاء الله ـ ثم جلست واخذنا فيما كنا فيه من المذاكرة والانشاد والشرب ولم نزل على تلك الحال وافضل وقد انست وانبسطت بعض الانبساط وهي مع ذلك لا تزال تقول لو كنت على ما انت عليه احكمت من تلك الصنعة شيئا لقد تناهيت وبرعت فاقول والله لقد حرصت على ذلك وجهدت فيه فما رزقته ولا قدرت عليه ـ ثم قلت جعلت فداك لا تخلينا مما كان من فضلك البارحة فاخذت في الاغاني وكلما مر صوت طيب قالت اتدري لمن هذا ـ فاقول لا فتقول لاسحق فاقول واسحق هكذا في الحذق ـ فتقول بخ اسحق في هذا البيت بديع الصوت وعميق الغناء ـ فاقول سبحان الله لقد اعطي اسحق هذا ما لم يعطه احد ـ فتقول لو سمعت هذا منه لكنت اشد استحسانا له وكلفا به ـ حتى اذا كان ذلك الوقت وجاءت العجوز نهضت وودعتها وبادرت جارية ففتحت الباب فخرجت منه وبادرت المنزل فتوضأت للصـــلاة وصليت الصبح ووضعت راسي فنمت ـ

فما انتبهت الا ورسل امير المومنين يطلبونني - فركبت الى الدار فما هو الا ان مثلت بين يديه - فقال لي يا اسحق ابيت الا مكافاة لنا ومعاملة بمثل ما عاملناك - قلت لا والله يا اميرالمومنين ما الى ذلك ذهبت ولا اليه قصدت ولكني ظننت ان اميرالمومنين تشاغل عني بلذته واغفل امري - فقال واحدة بواحدة والبادئ اظلم - فقلت انا يا اميرالمومنين الوم و اظلم والمعذرة اليك - فقال لا تثريب عليك هل لك في مثل حالنا الاول- قلت اي والله - قال فانهض بنا - فقمنا حتى صرنا الى الموضع الذي كنا فيه فاخذنا في لذتنا حتى اذا كان الوقت قال لي يا اسحق ما عزمت قلت لا عزم لي يا اميرالمومنين - قال عزمت عليك لتجلس حتى اخرج اليك لنصطبح فاني عازم على الصبوح وقد نقضت علي منذ يومين - قلت ان شاء الله - وقام فما هو الا ان توارى حتى قمت وقعدت وجالت وساوسي وجعلت افكر في الخروج عن طاعة المامون وما يخرجني من سخطه وموجدته - فسهل الصعب اذ فكرت في امرها - فقمت مبادرا فاجتمع عليّ جنده الدار - فقالوا اين تريد - فقلت الله الله ان لي قصة وانا معلق القلب ببعض من في منزلي واحتاج الى مطالعتهم في بعض الامر - فقالوا ليس الى تركك سبيل - فلم ازل ارفق بهذا واقبل راس هذا ووهبت لواحد خاتمي ولآخر ردائي حتى تركوني - فلما خرجت عن جملتهم فلم ارتد عنها حاسرا حتى وافيت الزنبيل وصعدت السطح و صرت الى الموضع - فلما راتني قالت - ضيفنا - قلت نعم - قالت جعلتها دار مقام - قلت جعلت فداك حق الضيافة ثلاثة ايام فان عدت بعدها فانت في حل من دمي - قالت والله لقد اتيت بحجة - ثم جلسنا واخذنا في مثل حالنا الاول من الشرب والانشاد والمذاكرة حتى اذا علمت ان الوقت قد قارب فكرت في قصتي وان المامون لا يفارقني على هذا واني لا اتخلص منه الا بشرح قصتي واكشف له عن حالي وعلمت اني ان قلت له ذلك طالبني بمعرفة الموضع والمسير اليه مع ما كان غلب عليه من الميل الى النساء - فقلت لها

اتأذنين في ذكر شيء خطر ببالي . قالت قل ما بدا لك . قلت جعلت فداك
اني اراك ممن يقول بالغناء ويعجب به وبالادب ولي ابن عم هو احسن مني
وجها واظرف قدا واكثر ادبا واغزر معرفة وانا تلميذ من تلاميذه وحسنة
من حسناته وهو اعرف الناس بغناء اسحق . قالت طفيلي ومقترح
لم ترض ان سمحنا لك ثلاثة ايام حتى طلبت ان تأتي معك بآخر . فقلت
لها جعلت فداك ذكرته لتكوني انت المحكمة فان اذنت واردت ذلك والا
فلا اذكره . فقالت ان كان ابن عمك هذا على ما ذكرت فلا نكره ان نعرفه .
فقلت هو والله اكثر مما وصفت . فقالت ان شئت فالليلة الآتية ائت به .
ثم حضر الوقت فنهضت حتى وافيت منزلي واذا برسل الخليفة
قد هجموا على منزلي واصحاب الشرطة . فلما بصروا بي سحبت على ما بي
بحالتي تلك حتى انتهوا بي الى الدار فاذا المامون جالس على كرسي
وسط الدار مغتاظ حرد . فقال اخروجا عن الطاعة . قلت لا والله
يا امير المومنين انه كانت لي قصة احتاج فيها الى الخلوة فاومأ الى
من كان واقفا فتنحوا . فلما خلونا قلت كان من خبري كذا وكذا وفعلت
وصنعت . فوالله ما فرغت من حديثها حتى قال يا اسحق اتدري ما تقول .
فقلت اي والله اني لادري . فقال ويحك كيف لي بمشاهدة ما شاهدت .
قلت ما الى ذلك سبيل . قال لا بد ان تتلطف وتوصلني اليها فهذا
ما بقي لي صبر عنه . قلت والله اني قد تفكرت في قصتها وفيما قدمت
عليه من عصيانك وعلمت انه لا ينجيني الا الصدق وكشف الحال وعلمت
انك تطالبني به اشد مطالبة . فقدمت لها ذكرك ووعدتني في امرك بكذا
وكذا . قال احسنت والله ولولا ذلك لنالك مني كل مكروه . قلت فالحمد لله
الذي سلم . ثم نهض ونهضت الى مجلسنا واخذنا في لذتنا وهو مع ذلك
يقول يا اسحق صف لي حالها واشرح لي امرها . فقطعنا يومنا في مذاكرتها
الى ان مضى النهار . فلما ان مضى من الليل هدأة جعل يقول ما جاء الوقت
وانا اقول بقي قليل والقلق غالب عليه حتى جاء الوقت فنهضنا وخرجنا

من بعض ابواب القصر ومعنا غلام وهو على حمار وانا على حمار . فلما صرنا بالقرب من منزلها نزلنا . ثم سلمنا الحمارين للغلام وقلنا له انصرف فاذا كان الفجر فكن ههنا بالحمارين واقبلنا نمشي متنكرين وانا اقول يجب ان تظهر بري بحضرتها واكرامي وتطرح نخوة الخلافة وتجبر الملك بل كن كانك تبع لي وهو يقول نعم اويحتاج ان توصيني . ثم قال ويحك يا اسحق فان قالت لي غنّ كيف اصنع . قلت انا اكفيك وادفعها عنك برفق . فلما صرنا الى الزقاق فاذا بزنبيلين معلقين بثماني حبال . فقعد كل منا في واحد وجذبنا الجواري واذا نحن في السطح وبادرن بين ايدينا حتى انتهينا الى المجلس . فاقبل المامون يتأمل الفرش والدار والزي ويتعجب عجبا شديدا . ثم قعدت في موضعي الذي كنت اقعد فيه وقعد المامون دوني في المرتبة . ثم اقبلت فسلمت . فما تمالك ان بهت من حسنها . فقالت حيا الله ضيفنا فوالله ما انصفت ابن عمك الا رفعت مجلسه . فقلت ذلك اليك جعلت فداك . فقالت ارتفع فديتك فانت جديد وهذا قد صار من اهل البيت ولكل جديد لذة . فنهض المامون حتى صار في صدر المجلس . ثم اقبلت عليه تذاكره وتناشده وتمازحه وهو يأخذ معها في كل فن ويفحمها . قال ثم التفتت اليّ . وقالت وفيت بوعدك وصدقت في قولك ووجب شكرك على صنيعك . قال ثم احضر نبيذ واخذنا في الشراب وهي مع ذلك مقبلة عليه وهو مقبل عليها ومسرورة بها ومسرور بها . فقالت لي ابن عمك هذا من ابناء التجار . قلت نعم فديتك نحن لا نعرف الا التجارة . قالت وانكما فيها لغريبان . ثم قالت موعدك . فقلت لعمري انه لمجيب ولكن حتى نسمع شيئا . قالت لك ذلك فاخذت العود فغنت صوتا فشربنا عليه رطلا . ثم غنت بصوت كان المامون يقترحه عليّ فشربنا عليه رطلا . فلما شرب المامون ثلاثة ارطال دلخله الفرح والارتياح . وقال يا اسحق فوالله لقد رايته ينظر اليّ نظر الاسد الى فريسته . فنهضت وقلت لبيك يا امير المومنين . قال غنني بهذا الصوت . فلما راتني قمت بين يديه واخذت العود ووقفت بين

يديه اغنيه علمت انه الخليفة واني اسحق - فنهضت فقالت ههنا واومات الى كلة مضروبة فدخلتها - ثم فرغت من ذلك الصوت وشرب رطلا وقال لي ويحك يا اسحق انظر من رب هذه الدار - فخرجت الى تلك العجوز - فسالتها عن صاحب الدار - فقالت الحسن بن سهل - قلت ومن هذه - قالت بوران ابنته - فرجعت واعلمته قال ثم انصرفنا - فقال لي يا اسحق اكتم هذا الامر ولا تتفوه به و مضينا الى دار الخلافة - فلما كان الصباح وحضر الحسن ابن سهل على عادته - قال له المامون الك بنت - قال نعم يا امير المومنين - قال ما اسمها - قال بوران - قال فاني اخطبها اليك - قال هي امتك يا اميرالمومنين وامرها اليك - قال فاني قد تزوجتها على نقد ثلاثين الف دينار - فاذا قبضت المال فاحملها الينا - ثم تزوجها وكانت احظى نسائه عنده وآثرهن لديه وكنت استر هذا الحديث الى ان مات المامون - فما اجتمع لاحد ما اجتمع لي في تلك الاربعة الايام اذ كنت انصرف من مجلس اميرالمومنين الى مجلسها ووالله ما رايت من الرجال وملوكهم وخلفائهم وشرفائهم احدا يفي بالمامون ولا شاهدت من النساء امراة كبوران في عقلها - واما معرفتها وادبها فما اظن مَن يتهيأ له ان يقف من العلوم على ما وقفت عليه - ولقد سالت بعض من يتولى خدمتها من العجائز ما حملها على ما ارى - فقالت انها تفعل ذلك منذ كذا وكذا سنـــة ولقد عاشرت الظرفاء والملاح والادباء اكثر من ان يقع عليه احصاء ولم يكن جرى بينها وبين احد مكروه ولا خنىً ولا كلمة قبيحة ولم يكن مذهبها في ذلك الا حب الادب والمذاكرة ومعاشرة الظرفاء واهل المروءة والاقدار والنبـــل والاخطار لا لريبة تظهر ولا لحالة تنكر - قال فوالله لقد تضاعف قدرها عندي وعظم خطرها في نفسي وعلمت شرف همتها وفضلها - فهذا خبر بوران على الحقيقة *

٢٠ — الصيد والقنص

ما لهج الملوك بشيءٍ اشد من لهجهم بالصيـــد والقنص وهو الشيء الذي طالما انفقت فيه النكت العجيبة والطرف الغريبة - وكان المعتصم الهج

الناس به بنى في ارض دجيل حائطا طوله فراسخ طويلة وكان اذا ضرب حلقة يضايقونها ولا يزالون يعدّون الصيد حتى يدخلونه وراء ذلك الحائط فيصير بين الحائط و بين دجلة فلا يكون للصيد مجال - فاذا انحصر في ذلك الموضع دخل هو وولده واقاربه وخواص حاشيته وتانقوا في القتل وتفرجوا فقتلوا ما قتلوا واطلقوا الباقي - وقيل ان المعتصم دوغ عدة من حمر الوحش واطلقهم لانه بلغه ان اعمارها طويلة - و هاهنا موضع حكاية طريفة عجيبة - حدثني صفي الدين عبد المؤمن بن فاخر الارموي قال حدثني مجاهد الدين ايبك الدويدار الصغير قال خرجنا مرة في خدمة الخليفة المستعصم الي الصيد وضربنا حلقة قريبا من الجلهمة وهي قرية بين بغداد والحلة - ثم تضايقت الحلقة حتى صار الفارس منا يصيد الحيوان بيده - فخرج في جملة حمر الوحش حمار كبير الجثة عليه وسم فقراناه واذا هو وسم المعتصم - قال فلما رآه المستعصم وسمه بوسمه واطلقه وكان بين المعتصم و بين المستصعم حدود خمس مئة سنة * ومن طريف ما سمعت من امر الصيد ما حدثني به رجل من اهل الادب ببغداد - قال حدثني محمد بن صالح البازياري - قال تصيدنا بين يدي السلطان اباقا يوما فطار ونحن بين يديه ثلاثة كراكي على سمت مستقيم - فاطلقنا شاهينا فعلا وانحط على الاعلى من الكراكي فلطمه - فوقع على الثاني فكسره - ثم وقعا كلاهما على الثالث فكسراه - ووقعت الثلاثة بين يدي السلطان - قال - فتعجب من ذلك غاية التعجب وخلع علينا جميعنا * وقال الصاحب علاء الدين في جهان كشاي ان حلقة جنكزخان كان امدها مسير ثلاثة شهور وما ارى هذا الا مستبعدا - وما لهج الملوك بالصيد هذا اللهج الشديد ولا كلفوا به هذا الكلف العظيم واطلقوا للبازيارية الاموال الجليلة واقطعوهم الاقطاعات السنية وسهلوا عليهم حجابهم وقطعوا معظم زمانهم فيه باطلا ولا عبثا - فان القنص يشتمل على فوائد كثيرة جليلة النفع منها وهو الغرض الاشرف منه تمرين العساكر على الركض والكر والعطف وتعويدهم على الفروسية وادمانهم للرمي بالنشاب والضرب بالسيف

والدبوس واعتياد القتل والسفك وتقايل المجـالاة باراقة الدماء وغضب النفوس * ومنها اختبار الخيول ومعرفة سبقها وصبرها على دوام الركض * ومنها ان حركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم وتحفظ صحة المزاج * ومنها فضل لحم الصيد على باقي اللحوم لانه بقلقه من الجوارح تثور حرارته الغريزية فتزيد في حرارة الانسان - قال بعض الحكماء وخير اللحم ما اقلقه الجارح اقلاقا * ومنها الطرف العجيبة التي تتفق فيه وقد تقدم ذكر شيء منها - وكان يزيد بن معاوية اشد الناس كلفا بالصيد لايزال لاهياً به وكان يلبس كلاب الصيد الاساور الذهب والجلال المنسوجة منه ويهب لكل كلب عبدا يخدمه * قيل ان عبيد الله بن زياد اخذ من بعض اهل الكوفة اربع مئة الف دينار جناية وجعلها في خزن بيت المال فرحل ذلك الرجل من الكوفة وقصد دمشق ليشكو حاله الى يزيد - وكانت دمشق في تلك الايام فيها سرير الملك - فلما وصل الرجل الى ظاهر دمشق سال عن يزيد فعرفوه انه في الصيد - فكره ان يدخل دمشق وليس يزيد حاضرا فيها - فضرب مخيّمه ظاهر المدينة واقام به ينتظر عود يزيد من الصيد - فبينا هو في بعض الايام جالس في خيمته لم يشعر الا بكلبة قد دخلت عليه الخيمة وفي قوائمها الاساور الذهب وعليها جل يساوي مبلغا كثيرا وقد بلغ منها العطش والتعب وقد كادت تموت تعبا وعطشا - فعلم انها ليزيد وانها قد شذت منه فقام اليها وقدم لها ماء وتعهدها بنفسه فما شعر الا بشاب حسن الصورة على فرس جميل وعليه زي الملوك وقد علته غبرة - فقام اليه وسلم عليه - فقال له ارايت كلبة عابرة بهذا الموضع - فقال نعم يا مولانا ها هي في الخيمة قد شربت ماء واستراحت وقد كانت لما جاءت الى هاهنا جاءت على غاية من العطش والتعب - فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ونظر الى الكلبة وقد استراحت - فجذب بحبلها ليخرج فشكا الرجل اليه حاله وعرفه ما اخذ منه عبيد الله - فطلب دواة وكتب له برد ماله وخلعة سنية واخذ الكلبة وخرج - فرجع الرجل من ساعته الى الكوفة ولم يدخل

دمشق * وكان السلطان مسعود يبالغ ايضا في ذلك ويلبس الكلاب الجلال الاطلس الموشاة ويسورها الاساور * وحدثني الامير فخر الدين بغدي بن قشتمر قال ضرب جدي الملك قشتمر حلقة للصيد - فوقع فيها انسان قصير جدا كصغير يكون عمره خمس سنين - وقد طالت الاظفاره وشعر بدنه طولا مفرطا - قال فامسكوه واحضروه بين يدي الناصر فاستنطقوه فلم ينطق فاحضروا له الطعام فلم ياكل والماء فلم يشرب - فاجتهدوا معه بكل ممكن على ان يتكلم وهو صامت لا ينطق ببنت شفة - فقال له بعض الحاضرين فاي شيء تريد - فلم يتكلم - فقال له تريد نطلقك - فحرك راسه يعني نعم - قال فتقدم الناصر باطلاقه - فلما اطلق عدا اشد من عدو الغزال - ثم دخل البرية *

٢١ — فتح الاندلس

قال ابن حيّان في المقتبس ذكروا ان لذريق لم يكن من ابناء الملوك ولا بصحيح النسب في القوط وانه انما نال الملك من طريق الغصب والتسور عند ما مات اغطشة الملك الذي كان قبله وكان اثيراً لديه مكيناً - فاستصغر اولاده لمكانه واستمال طائفة من الرجال مالوا معه - فانتزع الملك من اولاد اغطشة واستبقاهم - فكانوا هم الذين دبّروا عليه فيما ذكر عند ما لقي رجال العرب المقتحمين عليه بالاندلس من تلقاء بحر الزقاق وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نصير طماعة منهم في ان يودي ويخلص اليهم ملك ابيهم - فالتقوا بموضع يدعى وادي لكة من ارض الجزيرة الخضراء من ساحل الاندلس القبليّ مكان عبورهم وذلك لسبع خلون من ربيع الاول سنة اثنتين وتسعين من الهجرة - فانهزم القوط اعظم هزيمة وقتل ملكهم لذريق وغلبت العرب على الاندلس - فصارت اقصى فتوحهم من ارض المغرب ومصداق موعد نبيّهم صلعم الكفيل بفتح ما بين المشرق والمغرب عليهم بوحي الله تعالى اليه انجزه لهم بفتح الاندلس ولله القوة - قال وقام بامر العرب بالاندلس منذ فتحت الامراء

الموصلون منهم عليها من قبل ائمة المسلمين بالمشرق طوال دولة بني امية رضهم الى ان طرأ اليها فلّهم عند غلبة بني العباس عليهم وذلك عبد الرحمن بن معوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان فملكها واعاد اليها الدولة الامويّة التي اورثها عقبه حقبة - فكانت عدة هولاء الامراء من لدن اولهم طارق بن زياد الى آخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري عشرين عاملا وعدة سنيهم بالشمسيّ خمسا واربعين سنة وبالقمري سبعا واربعين سنة غير اشهر انتهى وقال في موضع آخر نقلاً عن الرازيّ وافتتحت الاندلس في ايام الوليد بن عبد الملك - فكان فتحها من اعظم الفتوح الذاهبة بالصيت في ظهور الملّة الحنيفيّة وكان عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه متهمّما بها معتنياً بشأنها وقد حزلها عن نظر والي افريقية وجرّد اليها عاملاً من قبله اختاره لها دلالة على معنيته بها ووقعت المقاسم فيها عن امره وبفضل رأيه انتهى * و في الكتاب الخزائني وغيره سياقة فتح الاندلس على اتم الوجوه فلنذكر ملخّصه - قالوا استعمل امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك رحه موسى بن نصير مولى عمّه عبد العزيز بن مروان - ويقال بل هو بكريّ وذلك ان اباه نصيراً اصله من علوج اصابهم خالد بن الوليد رضه في عين التمر فادعوا انهم رهن وانهم من بكر بن وائل - فصار نصير وصيفاً لعبد العزيز بن مروان فاعتقه فمن هذا يختلف فيه - وقيل انه لخميّ - وعقد له على افريقية وما خلفها في سنة ثمان وثمانين - فخرج الى ذلك الوجه في نفر قليل من المطّوعة - فلما ورد مصر اخرج معه من جندها بعثاً واتى افريقية عمله - فاخرج من اهلها معه ذوي القوة والجلد وصيّر على مقدمته طارق بن زياد - فلم يزل يقاتل البربر و يفضّ جموعهم ويفتتح بلادهم ومدائنهم حتى بلغ طنجة وهي قصبة ملك البربر وامّ مدائنهم - فحصرها حتى افتتحها - وقيل انها لم تكن افتتحت قبله وقيل افتتحت ثم ارتجعت فاسلم اهلها وخطّها قيروانا للمسلمين - ثم ساروا الى مدائن على شط البحر فيها عمّال لصاحب الاندلس قد غلبوا عليها وعلى

ما حولها وراس تلك المدائن سبتة وعليها علج يسمّى يليان قاتله موسى فالفاه في نجدة وقوة وعدّة - فلم يُطِقه - فرجع الى مدينة طنجة فاقام بمن معه واخذ في الغارات على ما حولهم والتضييق عليهم والسفن تختلف اليهم بالميرة والامداد من الاندلس من قبل ملكها غيْطشة فهـم يدبّون عن حريمهـم ذبّا شديدا ويحمون بلادهم حماية تامة الى ان هلك غيطشـة ملـك الاندلس وترك اولاداً لم يرضهـم اهلها للملـك فاضطرب حبل اهل الاندلس ثم تراضوا بعلج من كبارهم يقال له لذريق مجرّب شجاع بطل ليس من بيت اهل الملك الا انه من قوّادهم وفرسانهم فولّوه امرهم وكانت طليطلة دار الملك بالاندلس حينئذ وكان بها بيت مغلق متحامى الفتح على الايام عليه عدّة من الاقفال يلزمه قوم من ثقات القوط قد وكّلوا به لئلا يفتح وقد عهد الاول في ذلك الى الآخر - فكلما قعد منهم ملك اتاه اولئك الموكّلون بالبيت فاخذوا منه قفلا وصيّروه على ذلك الباب من غير ان يزيلوا قفلَ مَن تقدّمه - فلما قعد لذريق هذا وكان متهمّما يقظا ذا فكر اتاه الحراس يسألونه ان يقفل على الباب - فقال لهم لا افعل او اعلم ما فيه ولا بدّ لي من فتحه - فقالوا له ايها الملك انه لم يفعل هذا احد من قبلك وتناهوا عن فتحه - فلم يلتفت اليهم ومشى الى البيت - فاعظمت ذلك العجم وضرع اليه اكابرهم في الكفّ - فلم يفعل وظنّ انه بيت مال ففضّ الاقفال عنه ودخل فاصابه فارغاً لا شيء فيه الا تابوتاً عليه قفل - فامر بفتحه يحسب ان مضمونه يقنعه نفاسةً فالفاه ايضا فارغاً ليس فيه الا شقّة مدرجة قد صوّرت فيها صور العرب عليهم العمائم وتحتهم الخيول العراب متقلّدي السيوف متنكّبي القسيّ رافعي الرايات على الرماح وفي اعلاها اسطر مكتوبة بالعجمية - فقرئت فاذا فيها اذا كسرت الاقفال عن هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فان هذه الامة المصوّرة في هذه الشقّة تدخل الاندلس - فتغلب عليها وتملكها - فوجم لذريق وندم على ما فعل وعظم غمّه وغمّ العجم بذلك

وامر بردّ الاقفال واقرار الحرّاس على حالهم واخذ في تدبير ملكه وذهل عمّا انذر به - وقد كان من سير اكابر العجم بالاندلس وقوّادهم ان يبعثوا اولادهم الذين يريدون منفعتهم والتّنويه بهم الى بلاط الملك الاكبر بطليطلة ليصيروا في خدمته ويتادّبوا بادبه وينالوا من كرامته حتى اذا بلغوا انكح بعضهم بعضا استئلافاً لآبائهم وحمل صدقاتهم وتولّى تجهيز اناثهم الى ازواجهنّ - فاتفق ان فعل ذلك يليان عامل لذريق على سبتة وكانت يومئذ في يد صاحب الانداس واهلها على النصرانية ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال تكرم عليه - فلما صارت عند لذريق وقعت عينه عليها فاعجبته واحبّها حبّا شديدا ولم يملك نفسه حتى استكرهها واقتضّها فاحتالت حتى اعلمت اباها بذلك سرّا بمكاتبة خفيّة فاحفظه شأنها جدّا واشتدّت حميّته وقال ودين المسيح لازيلنّ سلطانه ولاحفرنّ تحت قدميه - فكان امتعاضه من فاحشة ابنته السبب في فتح الاندلس بالذي سبق من قدر الله تعالى - ثم ان يليان ركب بحر الزقاق من سبتة في اصعب الاوقات في ينير قلب الشتاء - فصار بالاندلس واقبل الى طليطلة نحو الملك لذريق فانكر عليه مجيئـه في مثل ذلك الوقت وسأله عمّـا لديه ولِمَ جاء في مثل وقتـه فذكر خيـراً واعتـلّ بذكر زوجتـه وشدّة شوقها الى رؤية بنتها التي عنـده وتمنّيها لقاءها قبل الموت والحاحها عليه في احضارها وانه احبّ اسعافها ورجا بلوغها امنيّتها منه وسأل الملك اخراجها اليه وتعجيل اطلاقه للمبادرة بها ففعل واجاز الجارية وتوثّق منها في الكتمان عليه وافضل على ابيها فانقلب عنه - وذكروا انه لما ودّعه قال له لذريق اذا قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانقات التي لم تزل تطرفنا بها فانها آثر جوارحنا لدينا - فقال له ايها الملك وحق المسيح لئن بقيت لادخلنّ عليك شذانقات ما دخل عليك مثلها قطّ عرّض له بالذي اضمره من السعي في ادخال رجال العرب عليه وهو لا يفطـن - فلم يتنهنه يليان عند ما استقرّ بسبتة عمله ان تهيّأ للمسير نحو موسى بن نصير الامير - فمضى

نحوه بافريقيّة وكلمه في غزو الاندلس ووصف له حسنها وفضلها وما جمعت من اشتات المنافع وانواع المرافق وطيب المزارع وكثرة الثمار وثرارة المياه وعذوبتها وهوّن عليه مع ذلك حال رجالها ووصفهم بضعف البأس وقلة الغناء - فشوق موسى الى ما هنالك واخذ بالحزم فيما دعاه اليه يليان فعاقده على الانحراف الى المسلمين واستظهر عليه بان سامه مكاشفة اهل ملّته من الاندلس المشركين والاستخراج اليهم بالدخول اليها وشنّ الغارة فيها - ففعل يليان ذلك وجمع جمعاً من اهل عمله - فدخل بهم في مركبين وحلّ بساحل الجزيرة الخضراء - فاغار وقتل وسبى وغنم واقام بها ايّاما - ثم رجع بمن معه سالمين وشاع الخبر عند المسلمين فانسوا بيليان واطمانّوا اليه وكان ذلك عقب سنة تسعين - فكتب موسى بن نصير الى اميرالمؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذي دعاه اليه يليان من امر الاندلس ويستأذنه في اقتحامها - فكتب اليه الوليد ان خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرّر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال فراجعه بانه ليس ببحر زخّار وانّما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه - فكتب اليه وان كان فلا بدّ من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه - فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البرابرة اسمه طريف ويكنّى ابا زرعة في اربعمائة رجل معهم مائة فرس سار بهم في اربعة مراكب - فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الاندلس المعروفة بالخضراء التي هي اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم ويقال لها اليوم جزيرة طريف لنزوله فيها - فاقام بها ايّاما حتى تتامّ اليه اصحابه - ثم مضى حتى اغار على الجزيرة - فاصاب سبياً لم ير موسى ولا اصحابه مثله حسناً ومالاً جسيماً وامتعة وذلك في شهر رمضان سنة احدى وتسعين - فلما راى الناس ذلك تسرّعوا الى الدخول - وقيل دخل طريف في الف رجل فاصاب غنائم وسبياً ودخل بعده ابو زرعة شيخ من البرابرة ليس بطريف في الف رجل منهم ايضا فاصابوا اهل الجزيرة قد تفرقوا عنها فضرموا عامّتها بالنار وحرقوا كنيسة بها كانت عندهم معظّمة واصابوا

سبياً يسيراً وقتلوا وانصرفوا سالمين وقال الرازي هو ابو زرعة طريف بن
مالك المعافري الاسم طبق الكنية - قالوا ثم عاود يليان القدومَ على موسى
بن نصير محرّكاً في الاقتحام على اهل الاندلس وخبّره بما كان منه ومن
طريف وابي زرعة وما نالوه من اهلها وباشروه من طيبها - فحمد الله على
ذلك واستجدّ عزماً في اقحام المسلمين فيها فدعا مولى له كان على
مقدّمته يسمّى طارق بن زياد بن عبد الله فارسيّاً همدانيّاً - وقيل انه ليس
بمولى لموسى وانما هو رجل من صَدِف - وقيل مولى لهم وقد كان بعض
عقبه بالاندلس يُنكرون ولاء موسى انكاراً شديداً - وقيل انه بربريّ من نَفزَة -
فعقد له موسى وبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلّهم البربر والموالي
وليس فيهم عرب الّا قليل ووجّه معه يليان - فهيّأ له يليان المراكب - فركب
في اربع سفن لا صناعة له غيرها وحطّ بجبل طارق المنسوب اليه يوم سبت
في شعبان سنة اثنتين وتسعين في شهر أغشت - ثم صرف المراكب الى
من خلّفه من اصحابه فركب من بقي من الناس ولم تزل السفائن
تختلف اليهم حتى توافى جميعهم عنده بالجبل - وقيل حلّ طارق بجبله
يوم الاثنين لخمس خلون من رجب من السنة في اثني عشر الفاً غير
ستة عشر رجلاً من البرابر ولم يكن فيهم من العرب الّا يسير اجازهم يليان
الى ساحل الاندلس في مراكب التّجار من حيث لم يُعلم بهم اولاً اولاً
وركب اميرهم طارق آخرهم - قيل واصاب طارق عجوزاً من اهل الجزيرة -
فقالت له في بعض قولها انه كان لها زوج عالم بالحَدَثان - فكان يحدّثهم
عن امير يدخل الى بلدهم ويغلب عليه ويصف من نعته انه ضخم الهامة فانت
كذلك ومنه ان في كتفه الايسر شامة عليها شعر - فان كانت بك هذه العلامة
فانت هو - فكشف طارق ثوبه فاذا بالشامة في كتفه على ما ذكرته العجوز -
فاستبشر بذلك هو ومن معه - وذكر عن طارق انه كان نائماً في المركب فرأى
في منامه النبيّ صلعم والخلفاء الاربعة اصحابه عم يمشون على الماء حتى
مرّوا به - فبشّره النبيّ صلعم بالفتح وامره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد -

وقيل انه لما ركب البحر غلبته عينه فكأن يرى النبي صلعم وحوله المهاجرون والانصار قد تقلّدوا السيوف وتنكّبوا القسيّ - فيقول له رسول الله صلعم يا طارق تقدّم لشأنك ونظر اليه والى اصحابه قد دخلوا الاندلس قدّامه - فهب من نومه مستبشراً وبشّر اصحابه وثابت اليه نفسه ثقة ببشراه - فقويت نفسه ولم يشك في الظفر - فخرج من البلد واقتحم بسيط البلاد شاناً للغارة - قالوا ووقع الى لذريق الملك خبر اقتحام العرب ساحل الاندلس وتوالي غاراتهم على بلد الجزيرة وان يليان السبب فيها وكان يومئذ غائباً بارض بنبلونة في غزاة له الى البشكنش لامر كان استصعب عليه بناحيتهم - فعظم عليه وفهم الامرَ الذي منه اتيَ واقبل مبادراً الفتقَ في جموعه حتى احتلّ بمدينة قرطبة من الموسطة ونزل القصر المدعوّ بها ببلاط لذريق المنسوب اليه وليس لانه بناه واخترعه وهو من بناء من تقدّمه من الملوك اتّخذوه لمنزلهم في قرطبة اذا اتوها الا ان العرب لما غلبوا لذريق وهذا القصر من مواطنه نسبوه اليه اذ لم يعرفوا من بناه - ويزعم العجم ان الذي بناه ملك منهم كان ساكنا بحصن المدوّر اسفل قرطبة وخرج يوماً يتصيّد حتى انتهى الى مكان قرطبة وهي يومئذ خراب وكان في موضع قصرها غيضة عُلّيق ملتفة اشبة - فارسل الملك بازياً له يكرم عليه على حجلة منّت له من ناحية الكدية المنسوبة بعدُ الى ابي عبدة فتغيّبت في ذلك العلّيق ولجّ البازي في الانقضاض عليها - فركض الملك خلفه حتى وقف على مكانه بالعرجة فأمر بقطعها لاستنقاذ بازيه ضنّاً منه به - فقُطعت وبدا له تحتها اساس قصر عظيم راقة رصّه وقد كان ذا همّة فأمر بالكشف عنه وتقصّي حدوده طولاً وعرضاً وتتبّع اسّه واصله - فوجده مبنيا من وجه الماء بصمّ الحجارة فوق زرجون وضع بينها وبين الماء باحكم صناعة - فقال هذا اثر ملك كريم واذا اولى من جدّده فأمر باعادته الى هيأته واتّخذه منزلاً من منازل راحاته - فكان اذا طاف بعمله او مضى في متصيّده نزل فيه وصار السبب في بناء قرطبة الى جنبه و نزول الناس فيها وتوارث

الملوك قصرها من بعده ونزله لذريق في زحفه الى العرب ايّاما والحشود من اعماله تتوافى اليه - ثم مضى نحو كورة شذونة يبغي لقاءهم في حشوده الكثيرة - وقيل ان آخر ملوك الاندلس الذين تلتهم العرب غيطشة وانه هلك من اولاد ثلثة صغار لم يصلحوا للملك - فضبطت امّهم عليهم مُلك والدهم بطليطلة وانحرف لذريق قائد الخيل لوالدهم فيمن تبعه عنهم فصار بقرطبة - فلما اقتحم طارق الاندلس نفر اليه لذريق واستنفر اجناد اهل الاندلس وكتب الى اولاد غيطشة وقد ترعرعوا وركبوا الخيل واتّخذوا الرجال يدعوهم الى الاجتماع معه على حرب العرب ويحذّرهم من القعود عنه ويحضّهم على ان يكونوا على عدوّهم يداً واحدةً - فلم يجدوا بدّا وحشدوا وقدموا عليه بقرطبة - فنزلوا إكناف قرية شَقُنْدَة بعدوة نهرها قبالة القصر ولم يطمئنّوا الى الدخول على لذريق اخذاً بالحزم الى ان استتب جهاز لذريق وخرج فانضمّوا اليه ومضوا معه وهم مرصدون لمكروهه - والاصحّ والله اعلم ما سبق ان مُلك القوط اجتمع للذريق واختلف في اسمه - فقيل رُذْرِيق بالراء اوّله - وقيل باللام لُذْرِيق وهو الاشهر - قالوا وعسكر لذريق في نحو مائة الف ذوي عَدد وعُدّة - فكتب طارق الى موسى يستمدّه ويعرّفه انه فتح الجزيرة الخضراء فرضة الاندلس وملك المجاز اليها واستولى على اعمالها الى البحيرة وان لذريق زحف اليه بما لا قِبَلَ له به الّا ان يشاء الله - وكان موسى منذ وجّه طارقا لوجهه قد اخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة - فحمل الى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مدداً كَمَلَت به عِدّة من معه اثنا عشر الفاً اقوياء على المغانم حراصاً على اللقاء ومعهم يليان المستأمن اليهم في رجاله واهل عمله يدلّهم على العورات ويتجسّس لهم الاخبار - واقبل نحوهم لذريق في جموع العجم وملوكها وفرسانها فتلاقوا فيما بينهم - وقال بعضهم لبعض ان هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من اهله وانّما كان من اتباعنا فلسنا نعدم من سيرته خبالاً في امرنا وهؤلاء القوم الطارقون لاحاجة لهم في استيطان بلدنا - و انّما مرادهم ان يملأوا ايديهم

من الغنائم - ثم يخرجون منّا - فهلمّ فلننهزم بابن الخبيثة اذا نحن لقينا القومَ لعلّهم يكفوننا اياه فاذا انصرفوا عنا اقعدنا في ملكنا من يستحقّه فاجمعوا على ذلك والقضاء يبرم ما ارتأوه - وكان لذريق ولّى ميمنته احد ابني غيطشة وميسرته الآخر فكانا رأسي الذين اداروا عليه الهزيمة وادّاهما الى ذلك طمع رجوع ملك والدهما اليهما - وقيل لما تقابل الجيشان اجمع اولاد غيطشة على الغدر بلذريق وارسلوا الى طارق يعلمونه ان لذريق كان تابعاً وخادماً لابيهم - فغلبهم على سلطانه بعد مهلكه وانهم غير تاركين حقهم لديه ويسألونه الامان على ان يميلوا اليه عند اللقاء فيمن يتبعهم وان يسلّم اليهم اذا ظفر ضياع والدهم بالاندلس كلّها وكانت ثلثة آلاف ضيعة نفائس مختارة وهي التي سمّيت بعد ذلك صفايا الملوك - فاجابهم الى ذلك وعاقدهم عليه - فالتقى الفريقان من الغد فانحاز الاولاد الى طارق - فكان ذلك اقوى اسباب الفتح - وكان الالتقاء على وادي لكة من كورة شذونة - فهزم الله الطاغية لذريق وجموعه ونصر المسلمين نصراً لا كفاء له ورمى لذريق نفسه في وادي لكة وقد اثقلته السلاح - فلم يعلم له خبر ولم يوجد - وقيل نزل طارق بالمسلمين قريباً من عسكر لذريق منسلخ شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين فوجّه لذريق علجاً من اصحابه وقد عرف نجدته ووثق ببأسه ليشرف على عسكر طارق فيحزر عددهم ويعاين هيآتهم ومراكبهم - فاقبل ذلك العلج حتى طلع على العسكر ثم شدّ في وجوه من استشرفه من المسلمين فوثبوا اليه فولّى منصرفاً راكضا وفاتهم بسبق فرسه - فقال العلج للذريق اتتك الصّور التي كشف لك عنها التابوت - فخف على نفسك فقد جاءك منهم من لا يريد الا الموت او اصابة ما تحت قدميك قد حرقوا مراكبهم ايآساً لانفسهم من التعلّق بها وصفّوا في السّهل موطّنين انفسهم على الثبات اذ ليس لهم في ارضنا مكان مهرب - فرعب وتضاعف جزعه - والتقى العسكران بالبحيرة واقتتلوا قتالاً شديداً الى ان انهزمت ميمنة لذريق وميسرته انهزم بهما ابنا غيطشة وثبت القلب بعدهما قليلاً وفيه لذريق

فعذّر اهله بشيء من قتال - ثم انهزموا ولذريق امامهم . فاستمّرت هزيمتهم واذرع المسلمون القتل فيهم وخفي اثر لذريق فلا يُدرى امره - الّا ان المسلمين وجدوا فرسه الاشهب الذي فقدَ وهو راكبه وعليه سرج له من ذهب مكلّل بالياقوت والزبرجد ووجدوا احد خفّيه وكان من ذهب مكلّل بالدر والياقوت وقد ساخ الفرس في طين وحمأة وغرق العلج - وثبَت احد خفّيه في الطين فاخِذ وخفِيَ الآخر وغاب شخص العلج ولم يوجد حيا ولا ميّتاً والله اعلم بشأنه *

القسم الثالث من الجزء الاوّل قصّة الفرس الابنوس

ذكروا انه كان في قديم الزمان وسالف العصر والاوان ملك من ملوك الفرس يقال له الملك سابور - وكان ملكاً عظيم الشان عالي السلطان كثير الجند والاعوان ذا ملك واسع وذكر مانع ورأي سديد وعزم شديد - وكان اكثر جميع الملوك مالاً ورزقاً واوفرهم علماً وعقلاً وكان ذا جود واحسان وكرم وفضل يعطي القاصد ولا يمنع الوارد ويجبر المكسورين ويكرم المتردّدين ويحب الاقرباء ويكرّم الغرباء وينصف المظلومين من الظالمين - وكان له ثلاث بنات مثل البدور السافرة والرياض الزاهرة وولد ذكر كانه القمر - وكان له في السنة عيدان النيروز والمهرجان - وكان له عادة في هذه الاعياد يفتح سراياه ويعطي عطاياه وينادي بالامان والاطمئنان ويرفع الحجاب والنّواب ويدخل اليه اهل المملكة يسلّمون عليه ويهنّئونه بالعيد ويقدّمون الهدايا والخدم - وكان يحبّ الفلسفة والهندسة - فبينما الملك جالس على كرسي مملكته في بعض الاعياد اذ دخل عليه ثلاثة من الحكماء حاذقون في الصنائع حاوون للتحف والبدائع ذوو تحف تحير العقول ابهى واليق من زهر العقول كاملون في الحقائق والدقائق - وكان الثلاثة مختلفين في اللسان والبلدان الواحد هنديّ والآخر روميّ والثالث فارسيّ - قال فتقدّم الهنديّ الى الملك وسجد له وهنّأه في العيد وقدّم له هديّة لائقة وهي شخص من ذهب مرصّع بالحجارة والجواهر الكريمة الثمينة وفي يده نفير من ذهب - فلما نظر اليه الملك قال يا حكيم وما هي فضيلة هذا الشخص - فقال الحكيم يا مولاي هذا الشخص اذا وضع على باب مدينتك يكون

كالمحافظ عليها - فاذا دخل المدينة جاسوس يزعق عليه بهذا البوق - فيرتعد الجاسوس ويقع ميتا - فبهت الملك من ذلك وقال والله يا حكيم ان كان كلامك هذا حقًّا بلّغتك مُناك ومرادك - ثم تقدم الحكيم الرومي وسجد للملك وقدم له طشت فضّة وفي وسطه طاووس من ذهب وحول الطاووس اربعة وعشرون فرخاً من ذهب - فتامّل ايضا الملك بهذا الطير والتفت الى الحكيم الرومي - وقال يا حكيم ما هي فضيلة هذا الطاووس - قال الحكيم يا مولاي كلما مرّ ساعة من ليل او نهار ينقر واحداً من افراخه ويصفق باجنحته ويزعق الى تمام الاربع والعشرين ساعة واذا كمل الشهر يفتح الطير فاه فترى الهلال فيه - فلما سمع الملك ذلك قال للحكيم ان كنت تصدق في قولك بلّغتك مناك ومرادك - قال فتقدم الحكيم الفارسي وسجد للملك وقدم له فرس خشب من الابنوس الاسود مرصّعاً بالذهب والجوهر كامل العدّة بسرج ولجام وركابات ممّا يليق بالملوك - فلما نظر الملك الفرس تعجب غاية العجب وحار من حسن صناعتها واختراع شكلها - فقال ما شان هذه الفرس الجامدة وما هي فضيلتها وحركتها - قال الحكيم يا مولاي ان منفعة هذه الفرس انه اذا ركبها انسان فانها توصله الى اي بلاد اراد وتسيّره مسيرة سنة بيوم واحدة وهي طائرة به في الجوّ - فتعجّب الملك واندهش من ثلاث العجائب المتلاحقة بيوم واحد - والتفت الى الحكيم - وقال له والله العظيم والمولى الكريم الذي خلق العباد واقاتهم بالماء والزاد ان صحّ كلامك وعلن ما قلته وظهر للوجود ما قد اخترعته لاعطينك جميع ما تشتهي وتريد وابلّغك مرادك ومناك - ثم انه اضاف الحكماء ثلاثة ايام حتى يمتحن ما قد اتوا به فاتوا بالاشخاص بين يديه فاخذ كل واحد منهم الشخص الذي اخترعه واطلعوه على حركاتها فللوقت زعق الشخص بالبوق والطاووس نقر بافراخه والفرس الآبنوس ركبه الحكيم وصعد به الى الفضاء وانحدر - فلما عاين الملك ذلك حار واندهش وكاد ان يطير من فرحه - وقال للحكماء الآن قد ثبت عندي صدق قولكم وما فعلتموه وقد وجب انجاز الوعد فاطلبوا مني

ما تريدونه و انا اعطيكم اياه - قال وكان الحكماء قد بلغهم خبر بنات الملك .
فقالوا له ان كان الملك قد سرّبنا وقبل هديّتنا واذن لنا ان نتمنّى عليه -
فنطلب منه ان يعطينا بناته الثلاث لنكون له اصهاراً ونتاهّل به لان قرار
الملوك لا يخالف - فلما سمع الملك هذا الكلام قال لقد اعطيتكم ما تمنّيتموه
وما اردتموه - فامر للوقت واعطى لكل حكيم واحدة من بناته وكتب كتبهم
عند القاضي - فلما سمع البنات هذا الكلام وكنّ خلف الستارة ينظرن تامّلت
البنت الصغيرة زوجها واذا هو الحكيم الفارسي صاحب الفرس الآبنوس - فوجدته
رجلا كبيراً له من العمر مائة سنة قبيح المنظر جدّا بشع الصورة وهو من
الخلائق العجيبة او من امّة غريبة اوحش اهل زمانه قد تقلعت اضراسه
واسنانه عليه شبه من الجنّ يفزع الدجاج في القنّ - وكانت البنت احسن
اهل زمانها والطف عصرها ارشق من الغزال الانيف واحلى من النسيم
اللطيف وابهى من القمر المبدر تخجل الغصون في ميلاتها وتقضي على الغزال
في لفتاتها احلى واحسن من اخواتها - فلما نظرت خطيبها مضت الى حجرتها
ورشّت التراب على رأسها وخرقت ثيابها وبدأت تلطم وتنوح وتبكي - قال وكان
اخوها ابن الملك قدم من السفر ذلك الوقت - فسمع صراخها وبكاها فاتى
عندها وكان يحبّها محبّة عظيمة اكثر من اخواتها - فقال لها ما شأنك
وما الذي اصابك قولي لي ولا تنكري مني شيئا. فدقّت في صدرها وقالت يا اخي
وعزيزي لا شك ولا خفاء ان كنت قد ضيّقت القصر على ابيك فانا اخرج
وان كان نظر على شيء قبيح فاعتزل عنه وان ما بقي له ارادة يعولني فانا لي
ربّ يدبّرني - فلما سمع اخوها كلامها وما كان يعلم السبب قال لها قولي لي
ما سبب هذا الخطاب وضيقة صدرك وتشويش مزاجك - فقالت له يا حبيبي
وعزيزي اعلم انه قد خطبني ابي لرجل ساحر وقد جاءه بفرس من خشب
اسود وقد دهاه بمكره وسحره وانا فما اريده ولا اريد الدخول في هذه الدنيا
لاجله ثم ان اخاها سلّاها واخذ بخاطرها ومضى الى ابيه وقال له ما هو هذا
الساحر الذي خطبته الى اختي الصغيرة وما هذه الهدية التي قد جاءك بها

حتى انك اهلكت البنت من حزنها - ما هو لازم ان يكون هذا - وكان الحكيم واقفاً - فامتلأ غيظاً وقد تألّم من ابن الملك - فقال الملك لابنه يا بنيّ لو نظرت هذه الفرس وصنعتها لذهل عقلك وتحيّرت - ثم امر العبيد فاحضروها بين يديه - فلما نظرها ابن الملك اعجبته - فركبها لوقته وكان فارساً وضرب رجليه في الركابات في بطنها - فلم تتحرك - فقال الملك للحكيم امض وأره حركتها حتى هو ايضا يُسعفك على مرادك - وكان الحكيم قد حنق على ابن الملك لأجل انه ما اراد ان يعطي اخته - فأراه لولب الطلوع في الجانب اليمين - وقال له افرك هذا اللولب وتركه - ففركه ابن الملك واذا بالفرس قد صعدت به الى عنان السماء شبه الطير ولم تزل طائرة به حتى غاب من الاعين - فانزعج الملك وحار في امره - وقال يا حكيم ابصر كيف الحركة في نزوله - فقال الحكيم يا سيدي ما بقي في يدي حيلة ولا بقيت تراه ليوم الحشر واللقاء لانه من جهله وتكبره ما سالني عن لولب النزول واذا نسيت ان اعلمه به - فغضب الملك غضباً شديداً وامر بالحكيم ان يضرب ويحبس - وامّا هو فرمى التاج من رأسه ولطم على وجهه ودقّ في صدره واغلق ابواب سرايه واخذ في النواح والبكاء هو وزوجته وبناته وجميع اهل المدينة وانقلب فرحهم الى الحزن الشديد وانكفأ سرورهم الى الكآبة والهمّ المديد - فهذا ما جرى وصار وامّا ما كان من ابن الملك فانه لم يزل طالعاً حتى وصل الى قريب الشمس واشرف على الهلاك ورأى الموت بين الافلاك واحتار في امره وندم على ركوبه الفرس - وقال في نفسه ان الحكيم قد عمل حيلة على هلاكي فلا حول ولا قوّة الاّ بالله العليّ العظيم انا ميّت لا محالة اترى الذي صنع لولباً للصعود ما يكون قد صنع لولباً للهبوط - وكان ابن الملك صاحب لباقة وشباقة ومعرفة وحذاقة - ثم انه مدّ يده الى جانب الشمال فوجد لولباً آخر ففركه - فتناقصت حركة الفرس من الصعود الى الهبوط ولم تزل هابطةً به الى الارض قليلاً قليلاً وهو محترس على نفسه - فلما نظر ابن الملك ذلك وعرف منافع الفرس متلأ قلبه فرحاً وسروراً وشكر الله تعالى على ما انعم به عليه حيث

انقذه من الهلاك . وجعل يدير وجه الفرس كما يريد واذا شاء نزل بها واذا شاء طلع بها . فلما تمّ له من الفرس ما يريد اقبل بها الى جهة الارض ولم يزل هابطا طول نهاره لانه كان في حال صعوده بعدت عنه الارض وصار ينظر الى ما في الارض من البلاد والمدن التي لا يعرفها لانه لم يرها طول عمره . وكان من جملة ما رآه مدينة مبنيّة باحسن البنيان وهي في وسط ارض خضراء ناضرة ذات اشجار وانهار وغزلان تمرح . فتفكر في نفسه وقال يا ليت شعري ما اسم هذه المدينة وفي اي الاقاليم هي . ثم انه جعل يطوف حول تلك المدينة ويتأملها يميناً وشمالا وكان النهار قد ولّى ودنت الشمس للمغيب . فقال في نفسه اني لم اجد موضعاً للمبيت احسن من هذه المدينة فانا ابيت فيها هذه الليلة وعند الصباح اتوجه الى اهلي ومحل ملكي واعلم اهلي ووالدي بما جرى واخبره بما نظرت عيناي . وصار يفتش على موضع يأمن فيه على نفسه وعلى فرسه ولا يراه احد . فبينما هو كذلك واذا به قد نظر في وسط المدينة قصراً شاهقاً في الهواء وقد احاط بذلك القصر سور متّسع بشرفات عاليات ودائره اربعون عبداً لابسوا الزرد كاملوا العدد بالسيوف والسلاح والنبال والرماح . فقال في نفسه ان هذا الموضع مليح وجعل يحرّك الزرّ الذي يهبط به الفرس ولم تزل هابطة به حتى نزل مستوياً على سطح القصر ثم نزل من فوق الفرس وحمد الله تعالى وجعل يدور حول الفرس ويتأملها ويقول والله ان الذي عملك بهذه الصفة لحكيم ماهر فان مدّ الله تعالى في اجلي وردّني الى بلادي واهلي سالماً وجمع بيني وبين والدي لاحسننّ الى هذا الحكيم كل الاحسان ولانعمنّ عليه غاية الانعام . وكان قد هجم الليل . فجلس فوق سطح القصر حتى علم ان الناس قد ناموا وكان قد اضرّ به الجوع والعطش لانه منذ فارق والده لم ياكل طعاماً ولم يشرب شراباً . فقال في نفسه ان مثل هذا القصر لا يخلو من الرزق . فترك الفرس في مكان ونزل يتمشى لينظر شيئا يأكله . فوجد سلّما . فنزل منها الى اسفل . فوجد ساحة مفروشة بالرخام الابيض والمرمر وضوء القمر يرى عليها .

shone glittered

فتعجب من ذلك المكان ومن حسن بنيانه ولكنه لم يجد في ذلك القصر حسّ حسيس ولا انس انيس - فوقف متحيرًا وصار ينظر يمينًا وشمالًا وهو لا يعرف اين يتوجّه - ثم قال في نفسه ليس لي احسن من ان ارجع الى المكان الذي فيه فرسي وابيت عندها فاذا اصبح الصباح ركبتها وسرت - فبينما هو واقف يحدّث نفسه بهذا الكلام اذ ابصر ضوءا داخل القصر. فقصده واذا عند باب القصر عبد نائم كانه عفريت من عفاريت سليمان او رهط من ارهاط الجان اطول من خشبة واعرض من مصطبة وهو راقد وعند رأسه شمعة تقد وسيف بتار امضى من لهيب النار وعند رأسه سفرة معلّقة من عمود من حجر الجلمود - فخاف ابن الملك من ذلك وقال استعنت بالله العظيم اللهمّ كما خلصتني من الهلاك اعطني قوة لاكتشف خبر هذا القصر - ثم انه مدّ يده واخذ السفرة ومضى ناحية وجلس وفتحها - فوجد فيها اطيب المأكول - فاكل وشبع واستراح وشرب من الماء وعلق السفرة مكانها واستلّ سيف العبد واخذه والعبد نائم ولا يدري القضاء من اين يأتيه - فلم يزل ابن الملك يمشي حتى وصل الباب الثاني - فوجد عليه سترًا مسبولًا - فرفعه ودخل واذا هو بسرير من العاج الابيض مرصّع بالدر والياقوت والجوهر وحوله اربع جوارٍ نائمات - فتقدم الى السرير ليبصر من فيه - فوجد صبية راقدة مجللة بشعرها وهي كانها البدر اذا شرق بجبين يزهر وفرق يبهر وخدود شقائق وشامات دقائق - فتحير ابن الملك من حسنها وجمالها وقدّها واعتدالها وما بقي يبالي من الموت - فتقدّم اليها وهو يقرقف ويرتجف وقبّلها في خدّها الايمن - فاستفاقت للوقت وفتحت عينيها - فنظرت ابن الملك واقفًا عند رأسها - فقالت له ما تكون انت ومن اين اتيت - فقال عبدك ومحبّك - قالت ومن جاء بك الى ههنا - قال ربّي ونصيبي - قالت لعلّك انت الذي خطبتني من والدي بالامس وردّك وزعم انك قبيح المنظر والله لقد كذب ابي حيث قال ذلك الكلام فما انت الّا مليح وكان ابن ملك الهند قد خطبها من ابيها فردّه لانّه كان بشع المنظر - فظنّت انه هو الذي خطبها - فلما تحققت ونظرت

جماله وهو كالقمر المنير وقع شرك محبّته في قلبها شبه النار الملتهبة ـ واخذا في المنادمة والحديث واذا بالجواري قد افقن من نومهنّ . فنظرن ابن الملك جالساً عند مولاتهنّ فقلن لها يا ستّنا يا ستّنا من هذا الذي عندك ـ فقالت لا اعلم فما وجدته الّا عندي جالساً فلعلّ هذا الذي خطبني من ابي ـ فقالت لها الجواري يا سيّدتي هذا ما هو الذي خطبك من ابيك لانّ ذاك قبيح وهذا مليح وما يصلح الذي خطبك من ابيك وردّه ان يكون خادماً لهذا ولكن يا سيدتي ان هذا الفتى له شأن عظيم ـ ثم خرجت الجواري الى العبد فوجدنه نائماً ـ فايقظنه فانزعج وقلن له كيف تكون انت حارس القصر والناس تدخل علينا ونحن راقدات ـ فلما سمع العبد ذلك وثب عاجلا الى السيف ـ فلم يجده فاخذه الرعب والخوف ـ فدخل وهو مذهول عند مولاته ـ فوجد ابن الملك جالساً عندها وهما يتحدّثان ـ فلمّا نظرهما الخادم قال لابن الملك يا سيّدي هل انت انسي او جنّي ـ فقال له ابن الملك ويلك يا انحس العبيد كيف تجعل اولاد الملوك الاكاسرة من الشياطين الكفرة ـ ثم انه اخذ السيف بيده وقال له انا صهر الملك وقد زوّجني بابنته وامرني بالدخول عليها ـ فلما سمع الخادم منه ذلك الكلام قال له يا سيّدي ان كنت من الانس كما زعمت فانها ما تصلح الّا لك وانت احقّ بها من غيرك ـ ثم ان الخادم توجّه الى الملك وهو صارخ وقد شقّ ثيابه وحثا التراب على رأسه ـ فلما سمع الملك صياحه قال له ما الذي دهاك فقد ارجفت فؤادي اخبرني بسرعة واوجز في الكلام ـ فقال له الملك ادرك ابنتك فانه قد استولى عليها شيطان من الجنّ في زيّ الانس مصوّر بصورة اولاد الملوك فدونك واياه ـ فلما سمع الملك منه ذلك الكلام همّ بقتله وقال له كيف تغافلت عن ابنتي حتى لحقها هذا العارض ـ ثم ان الملك توجه الى القصر الذي فيه ابنته ـ فلما وصل اليه وجد الجواري قائمات ـ فقال لهنّ ما الذي جرى لابنتي ـ فقلن له ايها الملك اخذنا الرقاد وما وجدنا الّا هذا الغلام الذي كانه بدر التمام ولم نر قطّ احسن منه وجهاً وهو

جالس عند ستنا على السرير . فسألناه من حاله . فزعم انك قد زوّجته ابنتك ونحن لا نعلم شيئا غير هذا ولا نعرف هل هو انسيّ او جنيّ ولكنه عفيف اديب لا يتعاطى القبيح . فلما سمع الملك مقالتهنّ برد ما به ثم انه رفع الستر قليلاً قليلاً ونظر فرأى ابن الملك جالساً مع ابنته يتحدّثان وهو في احسن التصوير ووجه كالبدر المنير . فلم يقدر الملك ان يمسك نفسه من غيرته على ابنته . فرفع الستر ودخل وبيده سيف مسلول . وقد هجم عليهما كانه الغول فلما نظره ابن الملك قال لها هذا ابوك . قالت نعم . فعند ذلك وثب قائما على قدميه وتناول سيفه بيديه وصاح على الملك صيحة منكرة فادهشه وهمّ ان يحمل عليه بالسيف . فعلم الملك انه اوثب منه فاغمد سيفه . ثم وقف حتى انتهى اليه ابن الملك . فقابله بملاطفة وقال له يا فتى هل انت انسيّ ام جنيّ . فقال له ابن الملك لولا اني ارعى ذمامك وحرمة ابنتك لسفكت دمك كيف تنسبني الى الشياطين وانا من اولاد الملوك الاكاسرة الذين لو شاؤا اخذ ملكك لزلزلوك عن عزّك وسلطانك وسلبوا عنك جميع ما في اوطانك . فلما سمع الملك كلامه هابه وخاف على نفسه منه وقال له ان كنت من اولاد الملوك كما زعمت فكيف دخلت قصري بغير اذني وهتكت حرمتي ووصلت الى ابنتي وزعمت انك بعلها وادّعيت اني قد زوّجتك بها وانا قد قتلت الملوك وابناء الملوك حين خطبوها مني ومن ينجيك من سطوتي وانا ان صحت على عبيدي وغلماني وامرتهم بقتلك قتلوك في الحال فمن يخلّصك من يدي . فلما سمع ابن الملك منه ذلك الكلام . قال للملك اني لاعجب منك ومن قلة بصيرتك هل تطمع لابنتك في بعل احسن مني وهل رايت احداً اثبت جنانا واكثر مكافأة واعزّ سلطانا وجنوداً واعوانا مني . فقال له الملك لا والله ولكن وددت يا فتى ان تكون خاطبا لها على رؤس الأشهاد حتى ازوّجك بها واما اذا زوجتك بها خفية فانك تفضحني فيها . فقال له ابن الملك لقد احسنت في قولك ولكن ايها الملك اذا اجتمعت عبيدك وخدمك

وجنودك عليّ وقتلوني كما زعمت فانك تفضح نفسك وتبقى الناس فيك بين مصدق ومكذب ومن الرأي عندي ان ترجع ايها الملك الى ما اشير به عليك - فقال له الملك هات حديثك - فقال له ابن الملك الذي احدثك به إما ان تبارزني انا وانت خاصّة - فمن قتل صاحبه كان احقّ واولى بالملك واما ان تتركني في هذه الليلة واذا كان الصباح فاخرج اليّ عسكرك وجنودك وغلمانك واخبرني بعدّتهم - فقال له الملك ان عدتهم اربعون الف فارس غير العبيد الذين لي وغير اتباعهم وهم مثلهم في العدد - فقال ابن الملك اذا كان طلوع النهار فاخرجهم اليّ وقل لهم هذا قد خطب مني ابنتي على شرط ان يبارزكم جميعا وادّعى انه يغلبكم ويقهركم وانكم لا تقدرون عليه - ثم اتركني معهم ابارزهم فاذا قتلوني فذلك اخفى لسرّك واصون لعرضك وان غلبتهم وقهرتهم فمثلي من يرغب الملك في مصاهرته - فلما سمع الملك كلامه استحسن رأيه وقبل مشورته مع ما استعظمه من قوله وما هاله من امره في عزمه على مبارزة جميع عسكره الذين وصفهم له واضمر في قلبه انه يقتل في الحرب ويخلص منه ومن الفضيحة - فدعا الملك بالخادم وامره ان يخرج من وقته وساعته الى وزيره ويأمره ان يجمع جميع العساكر ويأمرهم بحمل اسلحتهم وان يركبوا خيولهم - فسار الخادم الى الوزير واعلمه بما امره به الملك - فعند ذلك طلب الوزير نقباء الجيش واكابر الدولة وامرهم ان يركبوا خيولهم ويخرجوا لابسين آلات الحرب - هذا ما كان من امرهم واما ما كان من امر الملك فانه جلس يتحدث مع الغلام حيث اعجبه حديثه وعقله وادبه - فبينما هما يتحدّثان واذا بالصباح قد اصبح - فقام الملك وتوجّه الى تخته وامر جيشه بالركوب وقدم لابن الملك فرساً جيّدا من خيار خيله وامر ان تسرج له بعدّة حسنة - فقال له ايها الملك اني ما اركب حتى اشرف على الجيش واشاهدهم - فقال له الملك الامر كما تحب - ثم سار الملك والفتى بين يديه حتى وصلا الى الميدان - فنظر الغلام الى الجيش وكثرته ثم نادى الملك يا معاشر الناس انه قد وصل

الىّ غلام يخطب ابنتي ولم ار قطّ احسن منه ولا اشدّ قلبا ولا اعظم بأسا منه وقد زعم انه يغلبكم ويقهركم وحده ويدّعي انكم ولو بلغتم مائة الف ما انتم عنده الّا قليل فاذا بارزكم فخذوه على اسنّة رماحكم واطراف صفاحكم فانه قد تعاطى امراً عظيماً ـ ثم ان الملك قال له يا ابني دونك وما تريد منهم ـ فقال له ايها الملك انك ما انصفتني كيف ابارزهم وانا مترجّل وهم ركّاب خيل ـ فقال له قد امرتك بالركوب فابيت فدونك والخيل فاختر منها ما تريد ـ فقال له لا يعجبني شيء من خيلك ولا اركب الا الفرس التي جئت راكبا عليها ـ فقال له الملك واين فرسك ـ فقال له هي فوق قصرك ـ فقال له في اي موضع من قصري ـ فقال على سطح القصر ـ فلما سمع الملك كلامه ـ قال له هذا اول ما ظهر من خبالك يا ويلك كيف تكون الفرس فوق السطح ولكن في هذا الوقت يظهر صدقك من كذبك ـ ثم ان الملك التفت الى بعض خواصّه وقال له امض الى قصري واحضر الذي تجده فوق السطح ـ فصار الناس متعجبين من قول الفتى ويقول بعضهم لبعض كيف ينزل هذا الفرس من سلالم السطح ان هذا شيء ما سمعنا بمثله ـ ثم ان الذي ارسله الملك الى القصر صعد الى اعلاه فرأى الفرس قائما ولم ير احسن منه ـ فتقدّم اليه وتأمّله ـ فوجده من الآبنوس والعاج وكان بعض خواصّ الملك طلعوا معه ايضا ـ فلما نظروا الى الفرس تضاحكوا وقالوا وعلى مثل هذه الفرس يكون ما ذكره الفتى فما نظنّه الّا مجنونا ولكن سوف يظهر لنا امره وربّما يكون له شأن عظيم ـ ثم انهم رفعوا الفرس على ايديهم ولم يزالوا حاملين لها حتى وصلوا الى قدّام الملك واوقفوها بين يديه ـ فاجتمع عليها الناس ينظرون اليها ويتعجّبون من حسن صفتها وحسن سرجها ولجامها واستحسنها الملك ايضا وتعجب منها غاية العجب ـ ثم قال لابن الملك يا فتى اهذه فرسك ـ فقال نعم ايها الملك هذه فرسي وسوف ترى منها العجب ـ فقال له الملك خذ فرسك واركبها قال لا اركبها الّا اذا بعد عنها العساكر فامر الملك العسكر الذين حوله ان يبعدوا عنها مقدار

رمية السهم . فقال له ايها الملك ها اذا رائح اركب فرسي واحمل على جيشك وافرّقهم يمينا وشمالا واصدع قلوبهم . فقال له الملك افعل ما تريد ولا تُبق عليهم فانهم لايبقون عليك . ثم ان ابن الملك توجّه الى فرسه وركبها واصطفّت له الجيوش وقال بعضهم لبعض اذا وصل الغلام بين الصفوف تأخذه باسنّة الرماح وشفر الصفاح . فقال واحد منهم والله انها مصيبة كيف نقتل هذا الغلام صاحب الوجه المليح والقدّ الرجيح . فقال آخر والله لن تصلوا اليه الا بعد امر عظيم وما فعل الفتى هذه الفعال الا لما علم من شجاعة نفسه وبراعته . فلما استوى ابن الملك على فرسه فرك لولب الصعود . فتطاولت اليه الابصار لينظروا ماذا يريد ان يفعل . فماجت فرسه واضطربت حتى عملت اغرب حركات تعملها الخيل وامتلأ جوفها بالهواء . ثم ارتفعت وصعدت الى الجو . فلما رآه الملك قد ارتفع وصعد نادى على جيشه وقال ويلكم خذوه قبل ان يفوتكم . فعند ذلك قال له وزراؤه ونوّابه ايها الملك هل احد يلحق الطير الطائر ما هذا الا ساحر عظيم قد نجّاك الله منه فاحمد الله تعالى على خلاصك من يده . فرجع الملك الى قصره بعد ما رأى من ابن الملك ما رأى ولما وصل الى قصره ذهب الى ابنته واخبرها بما جرى له مع ابن الملك في الميدان . فوجدها كثيرة التأسف عليه وعلى فراقها له . ثم انها مرضت مرضا شديدا ولزمت الوساد . فلما رآها ابوها على تلك الحالة ضمّها الى صدره وقبّلها بين عينيها وقال لها يا بنتي احمدي الله تعالى واشكريه حيث خلصنا من هذا الساحر الماكر وجعل يكرر عليها ما رآه من ابن الملك ويشرح لها الذي جرى وصار وكيف ركب الفرس وطار وهي لا تصغي الى شيء من قول ابيها واشتدّ بكاؤها ونحيبها . ثم قالت في نفسها والله لا آكل طعاماً ولا اشرب شراباً حتى يجمع الله بيني وبينه . فحصل لابيها الملك هم عظيم من اجل ذلك وشقّ عليه حال ابنته وصار حزين القلب عليها وكلّما يلاطفها لا تزداد الا شغفاً به . هذا ما جرى لبنت الملك شمس النهار واما ابن الملك قمر الاقمار فانه لمّا صعد في الجوّ

اختلى بنفسه وتذكّر حسن الجارية وجمالها وكان قد سأل اصحاب الملك عن اسم المدينة واسم الملك واسم ابنته وكانت تلك المدينة مدينة صنعاء - ثم انه جدّ في السير حتى اشرف على مدينة ابيه ودار حول المدينة - ثم توجه الى قصر ابيه ونزل فوق السطح وترك فرسه هناك ونزل الى اسفل - فوجد الرماد مفروشاً على عتبة القصر - فظنّ في باله ان احداً من اهله قد مات - فلما دار في البيوت دخل الى داخل كعادته - فوجد اباه وامّه واخوته لابسين ثياب السواد والاحزان متغيّري الالوان ضعيفي الابدان - فلما نظر اليه ابوه وحقّقه وعرفه صرخ صرخة عظيمة ووقع مغشيّا عليه ساعة زمانيّة فلما افاق من غشيته القى نفسه عليه واعتنقه وضمّه الى صدره وفرح به فرحاً شديداً - فسمعت امه واخواته ذلك فاتين ولما نظرنه وقعن عليه واخذن يقبّلنه ويبكين - ثم انهم فرحوا فرحاً عظيما وسألوه عن حاله - فحكى لهم جميع الذي جرى عليه من الاول الى الآخر - فقال له ابوه الحمد لله على سلامتك يا قرة العين ومهجة الفؤاد - ثم امر الملك بالافراح وتطايرت البشائر في المدينة ودقّوا الطبول والكوسات وخلعوا ثياب الحزن ولبسوا ثياب الفرح وزيّنوا المدينة والاسواق وتسابقت الخلائق الى تهنئة الملك ونادى الملك بالامان وفتح الحبوس واطلق من كان فيها محبوساً وعمل الولائم سبعة ايّام بلياليها بالاكل والشرب وفرحت الخلائق - ثم ان الملك ركب واركب ابنه معه حتى يراه الناس ويفرحوا - ثم ان ابن الملك سال عن الحكيم الذي عمل الفرس وقال يا والدي ما فعل الدهر به - فقال له والده لا بارك الله في الحكيم ولا في الساعة التي رايته فيها لانه هو الذي كان سبباً لفراقك منّا وهو مسجون يا ولدي من يوم غبت عنا - فامر ابن الملك بالافراج عنه واخراجه من السجن واحضاره بين يديه - فلما حضر بين يديه خلع عليه الملك خلعة الرضى واحسن اليه غاية الاحسان الا انه لم يزوّجه ابنته - فغضب الحكيم من اجل ذلك غضباً شديداً وندم على ما فعل وعلم ان ابن الملك قد عرف سرّ الفرس وكيفية سيرها - ثم ان الملك قال لابنه الراي

عندي انك لا تقرب هذه الفرس بعد ذلك ولا تركبها ابداً بعد يومك هذا لانّك لا تعرف احوالها فانت منها على غرر - وكان ابن الملك حدّث اباه بما جرى له مع ابنة الملك صاحب مدينة صنعاء وما جرى له مع ابيها - فقال له ابوه لو اراد الملك قتلك لقتلك ولكن في اجلك تأخير - ولما انقضى الفرح ورجعت الناس الى اماكنهم ورجع الملك جلس مع ابنه في القصر وجعلوا يأكلون ويشربون ويطربون وكانت عند الملك جارية حسنة تضرب بالعود فاخذت العود بيدها وبدأت تضرب به وتنشد قدام الملك وابنه وكان مما انشدت شعراً عن البعاد وذكرى الاحبّة - فلما سمع ابن الملك هذا الانشاد التهبت في قلبه نيران الاشواق وزاد فيه الغرام وضايقته الاحزان والحسرات وهاجت منه البلابل بحب الجارية ابنة الملك صاحب صنعاء - فقام لوقته واحتال على ابيه حيلة وخرج من القصر وركب الفرس الآبنوس وفرك اللولب - فنهضت به مثل الطير الطائر وعلت به الى عنان السماء - فلما اصبح الصباح افتقده ابوه فلم يجده - فطلع الى اعلى القصر وهو ملهوف - فنظر الى ابنه وهو صاعد في الهواء - فتاسّف على فراقه وندم كل الندم حيث لم ياخذ الفرس ويخفي امرها - ثم قال في نفسه والله ان رجع اليّ ولدي ما بقيت اخلّي هذه الفرس لاجل ان يطمئنّ قلبي على ولدي - ثم انه عاد الى بكائه ونحيبه هذا ما كان من امره واما ما كان من امر ابنه فانه لم يزل سائراً في الجوّ حتى وقف على مدينة صنعاء ونزل في المكان الذي نزل فيه اولا ومشى مستخفياً حتى وصل الى محل ابنة الملك - فوجد العبد نائماً كعادته - فرفع الستر وتمشّى قليلا حتى وصل باب القبة التي فيها ابنة الملك فوقف ينصت على الباب واذا هي تبكي بالدموع الغزار وتنشد الاشعار والجواري نائمات فسمعن حسّ بكاها ونواحها وقلن لها يا ستّنا لماذا تحملين همّ من لا يحمل همّك - فقالت لهنّ يا قليلات العقل هذا من الرجال الذين ينسون - ثم انها بدأت تنوح وتبكي حتى اخذها الرقاد ونامت - هذا وابن الملك قائم ينصت بالباب فذهب قلبه وانفطرت

مرارته - فدخل الى داخل فوجدها نائمة بلا غطاء - فلما وصل عندها لمسها بيده فقامت وفتحت عينيها - فنظرت ابن الملك واقفاً عند رأسها - فقال لها لماذا هذا الحزن والبكاء - فلما عرفته القت نفسها عليه وعانقته وقبّلته وقالت له لاجلك ولاجل فراقك. فقال لها يا سيدتي اوحشتني هذه المدّة - فقالت له انت الذي اوحشتني - ولو طالت غيبتك عني لكنت هلكت بلا شك - فقال لها يا سيّدتي كيف رايت حالي مع ابيك وما صنع بي ولولا محبّتك يا فتنة العالمين لقتلته وجعلته عبرة للناظرين ولكن كما احبّك احبّه لاجلك - فقالت له كيف تغيب عني وهل تطيب حياتي بعدك - فقال لها كفى ما جرى الآن انا جائع وعطشان - فامرت الجواري ان يهيّئوا الطعام والشراب واخذا بالاكل والشرب والحديث الى آخر الليل - فلما ادلج الصباح قام حتى يودّعها وينطلق قبل ان يفيق العبد - فقالت له شمس النهار الى اين تمضي - قال لها الى بيت ابي ويكون عهدي معك اني كل اسبوع اجيء اليك مرة واحدة - فبكت وقالت له اقسم عليك بالله العظيم ان تاخذني معك الى حيث تمضي ولا تذقني حنظل فراقك مرة اخرى - فقال لها ابن الملك تريدين ان تمضي معي - قالت نعم - فقال لها قومي حتى ننطلق - فقامت من ساعتها الى الصندوق ولبست افخر ما يعزّ عليها من الذهب والجواهر الثمينة وخرجت ولم تعلم الجواري بها . ثم صعد بها الى اعلى سطح القصر وركب فرسه واركبها خلفه - ثم ضمّها اليه وشدّها شدّاً وثيقا وحرّك لولب الصعود الذي في كتف الفرس فصعدت بهما الى الجوّ - فعند ذلك زعقت الجواري واعلمن الملك اباها وامّها - فصعدا مبادرين الى سطح القصر والتفت الملك الى الجوّ فرأى الفرس الآبنوس وهي طائرة بهما في الهواء فعند ذلك انزعج الملك وزاد انزعاجه وصاح وقال يا ابن الملك سالتك بالله ان ترحمني وترحم زوجتي ولا تفرّق بيننا وبين بنتنا - فلم يجبه ابن الملك - ثم ان ابن الملك ظنّ في نفسه ان الجارية ندمت على فراق امّها وابيها - فقال لها يا فتنة الزمان هل لك ان اردّك الى امّك

وابيك - فقالت له يا سيدي والله ما مرادي ذلك انما مرادي ان اكون معك اينما تكون لانني مشغولة بمحبتك عن كل شيء حتى عن ابي وامي - فلما سمع ابن الملك كلامها فرح بذلك فرحاً شديداً - وجعل يسير الفرس بها سيراً لطيفاً لكي لا يزعجها ولم يزل يسير بها حتى نظر الى مرج اخضر وفيه عين ماء جارية فنزلا هناك واكلا وشربا - ثم ان ابن الملك ركب فرسه واردفها خلفه واوثقها بالرباط خوفاً عليها وسار بها ولم يزل سائراً بها في الهواء حتى وصل الى مدينة ابيه فاشتدّ فرحه - ثم اراد ان يظهر للجارية محلّ سلطانه وملك ابيه ويعرّفها ان ملك ابيه اعظم من ملك ابيها فانزلها في بعض البساتين التي يتفرج فيها والده وادخلها في المقصورة المعدّة لابيه واوقف الفرس الآبنوس على باب تلك المقصورة واوصى الجارية بالمحافظة على الفرس وقال لها اقعدي ههنا حتى ارسل اليك رسولي فاني متوجّه الى ابي لاهيئ لك قصراً واظهر لك ملكي - ففرحت الجارية عند ما سمعت منه هذا الكلام وقالت له افعل ما تريد - ثم خطر ببالها انها لا تدخل الّا بالتبجيل والتشريف كما يصلح لامثالها - ثم ان ابن الملك تركها وسار حتى وصل الى المدينة ودخل على ابيه - فلما رآه ابوه فرح بقدومه وتلقّاه ورحّب به - ثم ان ابن الملك قال لوالده اعلم انني قد اتيت ببنت الملك التي كنت اعلمتك بها وقد تركتها خارج المدينة في بعض البساتين وجئت اعلمك بها لاجل ان تهيّئ الموكب وتخرج لملاقاتها وتظهر لها ملكك وجنودك واعوانك - فقال له الملك حبًّا وكرامة ثم امر من وقته وساعته اهل المدينة ان يزيّنوا المدينة بالزينة الحسنة وركب في اكمل هيئة واحسن زينة بالطبول والزمور والبوقات والكوسات هو وجميع عساكره واكابر دولته وسائر مملكته وخدّامه واخرج ابن الملك من قصره الحليّ والحلل وما تدّخره الملوك وهيّأ لها عمارة من الديباج الاخضر والاحمر والاصفر واجلس على تلك العمارة الجواري الهنديّات والروميّات والحبشيات واظهر من الذخائر شيئاً عجيبا - ثم ان ابن الملك

ترك العمارة بمن فيها وسبق الى البستان ودخل المقصورة التي تركها فيها وفتّش عليها فلم يجدها ولم يجد الفرس . فعند ذلك لطم على وجهه ومزّق ثيابه وجعل يطوف في البستان وهو مدهوش العقل . ثم بعد ذلك رجع الى عقله وقال في نفسه كيف علمت بسرّ هذه الفرس وانا لم اعلمها بشيء من ذلك ولعلّ الحكيم الفارسيّ الذي عمل الفرس قد وقع عليها واخذها جزاء بما عمله والدي معه . ثم ان ابن الملك طلب حرّاس البستان وسألهم عمّن مرّ بهم وقال لهم هل نظرتم احداً مرّ بكم ودخل هذا البستان قولوا لي الحقّ والّا عزلت رؤسكم عنكم . فرعبوا لما هدّدهم به ابن الملك وقالوا ما راينا احداً دخل هذا البستان سوى الحكيم الفارسيّ فانه دخل لجمع الحشائش النافعة . فاما سمع كلامهم صحّ عنده ان الذي اخذ الجارية هو ذلك الحكيم وبقي حائرا متفكّراً في امره واستحى من الناس والتفت الى ابيه وقال له خذ العسكر وارجع الى المدينة وانا لا بقيت ارجع من هاهنا حتى اكشف هذا الخبر . فبكى ابوه ودقّ في صدره وقال له يا ولدي هدّئ خلقك وطيّب خاطرك وارجع معنا وابصر ايّ بنت ملك تريد حتى ازوّجك بها . فلم يلتفت الى كلام ابيه . ثم ودّعه ومضى ورجع ابوه الى المدينة وانقلب فرحهم الى الحزن . قال وكان بالامر المقدّر ان ابن الملك لما ترك الجارية في المقصورة التي في البستان وذهب الى قصر ابيه ليهيّئ امره دخل الحكيم الفارسي الى البستان ليجمع شيئا من الحشيش النافع . فشم رائحة المسك والطيب التي عبق منها المكان وكان ذلك الطيب من رائحة ابن الملك . فقصد الحكيم صوب تلك الرائحة حتى وصل الى تلك المقصورة فرأى الفرس التي صنعها بيده واقفة على باب المقصورة . فلما رأى الحكيم الفرس امتلأ قلبه فرحاً وسروراً لانّه كان كثير التأسف على الفرس حيث خرجت من يده . فتقدم الى الفرس وافتقد جميع اجزائها . فوجدها سالمة ولما اراد

ان يركبها ويسير قال في نفسه لا بدّ ان انظر الى ما جاء به ابن الملك وتركه مع الفرس ههنا - فدخل المقصورة فوجد الجارية جالسة وهي كالشمس الضاحية في السماء الصاحية - فلما نظرها علم انها جارية لها شأن عظيم وقد اخذها ابن الملك واتى بها على الفرس وتركها في تلك المقصورة ثم توجّه الى المدينة ليجيء لها بموكب ويدخلها المدينة بالتبجيل والتشريف - فعند ذلك دخل الحكيم اليها وقبّل الارض بين يديها - فرفعت اليه طرفها ونظرت اليه - فوجدته قبيح المنظر جدّا بشع الصورة - فقالت له من انت - فقال لها يا سيّدتي انا رسول ابن الملك قد ارسلني اليك وامرني ان انقلك الى بستان آخر قريب من المدينة لان ستّي الملكة لا تقدر تمشي هذه المسافة البعيدة ولا تريد ان يسبقها احد اليك من فرحها بك - فلما سمعت الجارية منه ذلك الكلام قالت له واين ابن الملك - قال لها هو في المدينة عند ابيه وسيأتي اليك في هذه الساعة بموكب عظيم - فقالت له يا هذا وهل ابن الملك لم يجد احداً يرسله اليّ غيرك - فضحك الحكيم من كلامها وقال لها يا سيّدتي لا يغرّنّك قبح وجهي وبشاعة منظري فلو نلت مني ما ناله ابن الملك لحمدت امري وانما خصّني ابن الملك بالارسال اليك لقبح منظري ومهول صورتي غيرةً منه عليك ومحبّة لك والّا فعنده من المماليك والعبيد والغلمان والخدم والحشم ما لا يحصى وكلّ منهم احسن من الآخر - فلما سمعت الجارية كلامه دخل في عقلها وصدّقته وقامت معه ووضعت يدها في يده - ثم قالت له يا والدي ما الذي جئت لي به معك حتى اركبه - فقال يا سيّدتي الفرس التي جئت عليها تركبينها - فقالت له انا لا اقدر على ركوبها وحدي - فتبسّم الحكيم عند ما سمع منها ذلك وعلم انه قد ظفر بها - فقال لها انا اركب معك بنفسي - ثم انه ركب واركب الجارية خلفه وضمّها اليه وشدّ وثاقها وهي لا تعلم ما يريد بها - ثم انه حرّك لولب الصعود فامتلأ

جوف الفرس بالهواء وتحركت وماجت - ثم ارتفعت صاعدة الى الجوّ ولم تزل سائرة بهما حتى غابت عن المدينة - فقالت له الصبيّة يا هذا اين الذي قلته عن ابن الملك حيث زعمت انه ارسلك اليّ - فقال لها الحكيم قبّح الله ابن الملك فانه خبيث لئيم - فقالت له يا ويلك كيف تخالف امر مولاك فيما امرك به - فقال لها ليس هو مولاي فهل تعرفين من انا - فقالت له لا اعرفك الاّ بما عرفتني به عن نفسك - فقال لها انما كان اخباري لك بهذا الخبر حيلة مني عليك وعلى ابن الملك ولقد كنت متأسّفا طول عمري على هذه الفرس التي تحتك فانها صناعتي وكان استولى عليها والآن قد ظفرت بها وبك ايضا وقد احرقت قلبه كما احرق قلبي ولا يتمكّن منك بعد ذلك ابداً فطيبي قلبا وقرّي عيناً فانا لك خير منه والذي تريدينه اصنعه لك والبسك ما تشتهين لاني رجل منعّم ولي املاك وارزاق كثيرة غير الجواري والعبيد - فلما سمعت الجارية كلامه لطمت على وجهها ونادت يا اسفاه لا حصلت حبيبي ولا بقيت عند ابي وامّي - وبكت بكاء شديدا على ما حلّ بها - ولم يزل الحكيم سائراً بها الى بلاد الروم حتى نزل في مرج اخضر ذي انهار واشجار وكان ذلك المرج بالقرب من مدينة وفي تلك المدينة ملك عظيم الشان - فاتفق في ذلك اليوم ان ملك تلك المدينة خرج الى الصيد والنزهة - فجاز على ذلك المرج فرأى الحكيم واقفا والفرس والجارية بجانبه - فلم يشعر الحكيم الاّ وقد هجم عليه عبيد الملك واخذوه هو والجارية والفرس واوقفوا الجميع بين يدي الملك - فلما نظر الى قبح منظره وبشاعته ونظر الى حسن الجارية وجمالها قال لها يا سيّدتي ما نسبة هذا الشيخ منك فبادر الحكيم بالجواب وقال هي زوجتي وابنة عمّي - فكذّبته الجارية عند ما سمعت قوله وقالت ايها الملك واللّه لا اعرفه ولا هو بعلي انما هذا رجل ساحر ماكر وقد سرقني واخذني قهراً

بالحيلة - فلما سمع الملك مقالها امر بضربه فضربوه حتى كاد
ان يموت - ثم امر الملك ان يحملوه الى المدينة ويطرحوه في السجن -
ففعلوا به ذلك ثم ان الملك اخذ الجارية والفرس ورجع ولكنه لم يعلم
بامر الفرس ولا بكيفية سيرها فرمى بها في الخزانة - هذا ما كان
من امر الحكيم والجارية - واما ما كان من امر ابن الملك فانه
لبس ثياب السفر واخذ ما يحتاج اليه من المال وسافر وهو في اسوا
حال وسار مسرعاً يقتصّ الاثر في طلبها من بلد الى بلد ومن
مدينة الى مدينة ويسأل عن الفرس الآبنوس وكل من سمع منه خبر
الفرس الآبنوس يتعجب منه ويستعظم قوله - فاقام على هذا الحال
مدّة من الزمان ومع كثرة السؤال والتفتيش عليهما لم يقع لهما
على خبر - ثم انه سار الى مدينة ابي الجارية وسأل عنها هناك
فلم يسمع لها بخبر ووجد اباها حزيناً على فقدها - فرجع وقصد
بلاد الروم وجعل يقتصّ اثرهما ويسأل عنهما - فاتّفق انه نزل
في خان من الخانات فرأى جماعةً من التجار جالسين يتحدّثون
فجلس قريباً منهم - فسمع احدهم يقول يا اصحابي لقد رأيت عجباً
من العجائب - فقالوا له وما هو قال اني كنت في بعض الجهات
في مدينة كذا وذكر اسم المدينة التي فيها الجارية فسمعت اهلها
يتحدّثون بحديث غريب وهو ان ملك المدينة خرج يوماً من الايام الى الصيد
والقنص ومعه جماعة من اصحابه واكابر دولته - فلما طلعوا الى البرّية جازوا
على مرج اخضر - فوجدوا هناك رجلاً واقفاً والى جانبه امراة جالسة
ومعه فرس من الآبنوس - فامّا الرجل فانه قبيح المنظر مهول الصورة
جدّاً وامّا المراة فانها صبية ذات حسن وجمال وبهاء وكمال وقدّ واعتدال
واما الفرس الآبنوس فانها من العجائب التي لم ير الراؤن احسن
منها ولا اجمل من صنعتها - فقال له الحاضرون فما فعل الملك بهم -
فقال اما الرجل فانه اخذه الملك وسأله عن الجارية فادّعى انها

زوجته وابنة عمّه واما الجارية فانها كذّبته في قوله وقالت حاشا بل هذا ساحر ماكر ـ فاخذها الملك منه وامر بضربه وطرحه في السجن واما الفرس الآبنوس فما لي بها علم ـ فلما سمع ابن الملك هذا الكلام من التاجر دنا منه وصار يسأله برفق وتلطّف حتى اخبره باسم المدينة واسمْ ملكها ـ فلما عرف ابن الملك اسم المدينة واسم ملكها بات ليلته مسروراً ـ فلما اصبح الصباح خرج وسافر ولم يزل مسافراً حتى وصل الى تلك المدينة ـ فلما اراد ان يدخلها اخذه البوّابون وارادوا احضاره قدّام الملك ليساله من حاله وعن سبب مجيئه الى تلك المدينة وعمّا يحسنه من الصنائع وكانت هذه عادة الملك من سؤال الغرباء عن احوالهم وصنائعهم ـ وكان وصول ابن الملك الى تلك المدينة في وقت المساء وهو وقت لا يمكن الدخول فيه على الملك ولا المشاورة عليه ـ فاخذه البوّابون واتوا به الى السجن ليضعوه فيه ـ فلما نظر السجّانون الى حسنه وجماله لم يهن عليهم ان يدخلوه في السجن فاجلسوه معهم خارج السجن ـ فلما جاءهم الطعام اكل معهم بحسب الكفاية ـ فلما فرغوا من الاكل جعلوا يتحدّثون ـ ثم اقبلوا على ابن الملك وقالوا له من ايّ البلاد انت ـ فقال انا من بلاد فارس بلاد الاكاسرة ـ فلما سمعوا كلامه ضحكوا وقال له بعضهم يا كسروي لقد سمعت حديث الناس واخبارهم وشاهدت احوالهم فما رأيت ولا سمعت اكذب من هذا الكسروي الذي عندنا في السجن ـ فقال آخر ولا رايت اقبح من خلقته ولا ابشع من صورته ـ فقال لهم ابن الملك ما الذي بان لكم من كذبه ـ فقالوا يزعم انه حكيم وكان الملك قد رآه في طريقه وهو ذاهب الى الصيد ومعه امراة بديعة الحسن والجمال والبهاء والكمال والقدّ والاعتدال ومعه ايضا فرس من الآبنوس الاسود ما رايت قط احسن منها فامّا الجارية فهي عند الملك وهو لها محبّ ولكن تلك المراة مجنونة ولو كان ذلك الرجل حكيماً كما يزعم

لدواها والملك مجتهد في علاجها وغرضه مداواتها ممّا هي فيه - واما الفرس الآبنوس فانها في خزانة الملك وامّا الرجل القبيح المنظر الذي كان معها فانه عندنا في السجن فاذا جنّ عليه الليل يبكي وينتحب اسفاً على نفسه ولا يدعنا ننام - فلما اخبره الموكّلون بالسجن بخبر الحكيم الفارسيّ الذي عندهم في السجن وبما هو فيه من البكاء والنحيب خطر بباله انه يدبّر تدبيراً يبلغ به غرضه - فلما اراد البوّابون النوم ادخلوه السجن واغلقوا عليه الباب - فسمع الحكيم يبكي وينوح على نفسه بالفارسيّة ويقول في نوحه الويل لي بما جنيت على نفسي وعلى ابن الملك وبما فعلت بالجارية حيث لم اتركها ولم اظفر بمرادي وذلك كلّه من سوء تدبيري فاني طلبت لنفسي ما لا استحقّه ولا يصلح لمثلي ومن طلب ما لا يصلح له وقع في مثل ما وقعت فيه - فلما سمع ابن الملك كلام الحكيم كلّمه بالفارسيّة وقال له الى كم هذا البكاء والعويل هل ترى انه اصابك ما لم يصب غيرك - فلما سمع الحكيم كلامه انس به وشكا اليه حاله وما يجده من المشقة - فلما اصبح الصباح اخذ البوّابون ابن الملك واتوا به الى ملكهم واعلموه انه وصل الى المدينة بالامس في وقت لا يمكن الدخول فيه على الملك - فسأله الملك وقال له من ايّ البلاد انت وما اسمك وما صنعتك وما سبب مجيئك الى هذه المدينة - فقال ابن الملك اما اسمي فانه بالفارسية حرجة وامّا بلادي فهي بلاد فارس وانا من اهل العلم وخصوصاً علم الطب فاني اداوي المرضى والمجانين ولهذا اطوف في الاقاليم والمدن لاستفيد علماً على علمي واذا رايت مريضاً فاني اداويه فهذه صنعتي - فلما سمع الملك كلامه فرح به فرحاً شديداً وقال له ايّها الحكيم الفاضل لقد وصلت الينا في وقت الحاجة اليك - ثم اخبره بخبر الجارية وقال له ان داويتها وابرأتها من جنونها فلك عندي جميع ما تطلبه - فلما سمع

كلام الملك قال له اعزّ الله الملك صف لي كلّ شيء رأيته
من جنونها واخبرني منذ كم يوم عرض لها هذا الجنون وكيف
احدثتها هي والفرس والحكيم - فاخبره بالخبر من اوّله الى آخره -
ثم قال له ان الحكيم في السجن - فقال له ايّها الملك السعيد
فما فعلت بالفرس التي كانت معها - فقال له يا فتى عندي الى الآن
محفوظة في بعض المقاصير - فقال ابن الملك في نفسه
ان من الرأي عندي ان اتفقّد الفرس وانظرها قبل كل شيء
فان كانت سالمة لم يحدث فيها امر فقد تمّ لي كلّ ما اريده
وان رايتها قد بطلت حركاتها تحيّلت بحيلة في خلاص مهجتي -
ثم التفت الى الملك وقال له ايها الملك ينبغي ان انظر الفرس
المذكورة لعلّي اجد فيها شيئا يعينني على برء الجارية - فقال له
الملك حبّا وكرامةً - ثم قام الملك واخذ بيده ودخل معه الى
الفرس - فجعل ابن الملك يطوف حول الفرس ويتفقدها وينظر احوالها -
فوجدها سالمة لم يصبها شيء - ففرح ابن الملك بذلك فرحاً شديداً
وقال اعزّ الله الملك اني اريد الدخول الى الجارية حتى انظر
ما يكون منها وارجو الله ان يكون برؤها على يدي بسبب الفرس
ان شاء الله تعالى - ثم امر بالمحافظة على الفرس ومضى به
الملك الى البيت الذي فيه الجارية - فلما دخل عليها ابن الملك
وجدها تختبط وتنصرع على عادتها - ولم يكن بها جنون وانما تفعل
ذلك حتى لا يقربها احد - فلما رآها ابن الملك على هذه الحالة
قال لها لا بأس عليك يا فتنة العالمين - ثم اخذ يرفق بها ويلاطفها
الى ان عرّفها بنفسه - فلما عرفته صاحت صيحة عظيمة حتى غشي
عليها من شدّة ما حصل لها من الفرح - فظنّ الملك ان هذه
الصرعة من فزعها منه - ثم ان ابن الملك وضع فمه على اذنها
وقال لها يا فتنة العالمين احقني دمي ودمك واصبري وتجلّدي

فان هذا موضع نحتاج فيه الى الصبر واتقان التدبير في الحيل حتى نتخلّص من هذا الملك الجائر ومن الحيلة اني اخرج اليه واقول له ان المرض الذي بها عارض من الجنون وانا اضمن لك برءها واشرط عليه ان يفكّ عنك القيد ويزيل هذا العارض عنك فاذا دخل اليك فكلّميه بكلام مليح حتى يرى انك برئت على يدي فيتمّ لنا كلّ ما نريد - فقالت له سمعاً وطاعة - ثم انه خرج من عندها وتوجّه الى الملك فرحاً مسروراً - وقال ايها الملك السعيد قد عرفت بسعادتك داءها ودواءها وقد داويتها لك - فقم الآن وادخل اليها ولين كلامك لها وترفّق بها وعدها بما يسرّها - فانه يتمّ لك كل ما تريد منها - فقام الملك ودخل عليها - فلما رأته قامت اليه وقبّلت الارض بين يديه ورحّبت به وقالت عجباً من سيدي الملك كيف زار جاريته اليوم - فلما نظر الملك ذلك كاد ان يطير من الفرح وامر الجواري والخدم ان يقوموا بخدمتها ويدخلوها الحمّام ويجهّزوا لها الحليّ والحلل - فدخلوا اليها وسلّموا عليها فردّت عليهم السلام بالطف منطق واحسن كلام - ثم البسوها حللا من ملابس الملوك ووضعوا في عنقها عقداً من الجواهر وساروا بها الى الحمام وخدموها - ثم اخرجوها من الحمّام كأنّها البدر التمام - ولمّا وصلت الى الملـــك سلّمت عليه وقبّلت الارض بين يديه - فحصل للملك بها سرور عظيم وقال لابن الملك كل ذلك ببركاتك زادنا الله من نفحاتك - فقال له ايّها الملك ان تمام برئها وكمال امرها انك تخرج انت وكل من معك من اعوانك وعسكرك الى المحلّ الذي كنت وجدتها فيه وتكون صحبتك الفرس الآبنوس التي كانت معها لاجل ان اعقد عنها العارض هناك واسجنه واقتله فلا يعود اليها ابداً - فقال له الملك حبّا وكرامة فوالله العظيم ما وجدت في الدنيا مثلك بين الحكماء - ثم اخرج الفرس الآبنوس الى المرج الذي وجدها

فيه هي والفرس والحكيم الفارسيّ وركب الملك مع جيشه واخذ الجارية صحبته وهم لا يدرون ما يريد ان يفعل - فلما وصلوا الى ذلك المرج امر ابن الملك الذي جعل نفسه حكيما ان توضع الجارية والفرس بعيداً عن الملك والعساكر بمقدار مدّ البصر وقال الملك دستور عن اذنك ان اطلق البخور واتلو العزيمة واسجن العارض هنا حتى لا يعود اليها ابداً - ثم بعد ذلك اركب الفرس الآبنوس و اركب الجارية خلفي فاذا فعلت ذلك فان الفرس تضطرب وتمشي حتى تنتقل اليك فعند ذلك يتمّ الامر فافعل بها بعد ذلك ما تريد - فلما سمع الملك كلامه فرح فرحاً شديداً - ثم ان ابن الملك ركب الفرس ووضع الصبيّة خلفه وصار الملك وجميع عسكره ينظرون اليه - ثم انه ضمّها اليه وشدّ وثاقها وبعد ذلك فرك ابن الملك لولب الصعود - فصعدت بهما الفرس في الهواء والعساكر تنظر اليه حتى غاب عن اعينهم ومكث الملك نصف يوم ينتظر عوده اليه فلم يعد - فيئس منه وندم ندماً عظيماً وتاسّف على فراق الجارية - ثم اخذ عسكره وعاد الى مدينته وارسل واحضر الحكيم الفارسي من الحبس وقال له يا خائن يا لئيم لماذا لم تعلمني بفضيلة هذه الفرس الآبنوس التي كانت معك حتى جاء اليّ رجل ماكر وغدر بي واخذ الجارية و ركبها وطار في الفضاء وعلى الجارية شيء يساوي خزنة مال - فاخبره الحكيم الفارسي بجميع ما جرى من الاوّل الى الآخر - فلما سمع الملك ذلك اغتاظ غيظاً شديداً حتى كاد ينفزر من قهره واحتجب في قصره حزيناً كئيباً - فدخل عليه وزراؤه وجعلوا يسلونه ويقولون له ان الذي اخذ الجارية ساحر والحمد لله الذي نجّاك من سحره ومكره ولا زالوا به حتى تسلّى عنها - هذا ما كان من امر الملك - واما ما كان من امر ابن الملك فانه قصد مدينة ابيه فرحاً مسروراً ولم يزل سائراً الى ان نزل على قصره وانزل الجارية في

القصر وامن عليها - ثم ذهب الى ابيه وامه فسلّم عليهما واعلمهما بقدوم الجارية - ففرحا بذلك فرحاً شديداً وعمل ابن الملك الولائم العظيمة لاهل المدينة واقاموا في الفرح شهراً كاملاً - ثم دخل على الجارية وفرحا ببعضهما فرحاً شديداً - اما والده فكسر الفرس الآبنوس وابطل حركاتها - ثم ان ابن الملك كتب كتاباً الى ابي الجارية وذكر له فيه حالها واخبره انه تزوّج بها وهي عنده في احسن حال وارسله اليه مع رسول وصحبته هدايا وتحف نفيسة - فلما وصل الرسول الى مدينة ابي الجارية وهي صنعاء اليمن اوصل الكتاب والهدايا الى ذلك الملك - فلما قرأ الكتاب فرح فرحاً شديداً - وقبل الهدايا واكرم الرسول - ثم جهّز هدية سنيّة لصهره ابن الملك وارسلها اليه مع ذلك الرسول - فرجع بها الى ابن الملك واعلمه بفرح الملك ابي الجارية حين بلغه خبر ابنته - فحصل له سرور عظيم وصار ابن الملك في كل سنة يكاتب حماه ويهاديه ولم يزالوا كذلك حتى توفي الملك ابو الغلام وتولّى هو بعده في المملكة - فعدل في الرعية وسار فيهم سيرة مرضيّة فدانت له العباد واطاعته العباد واستمرّوا على هذه الحالة في الذّ عيش واهناه وارغده وامراه الى ان اتاهم هادم اللذّات ومفرق الجماعات ومخرّب القصور ومعمّر القبور - فسبحان الحي الذي لا يموت والملك بيده والملكوت *

القسم الرّابع من الجزء الاوّل

١ — رحلة ابن بطوطة الى الصين ومحنته بالاسر

احب ملك الهند ان يبعث هدايا نفيسة لملك الصين فعين السلطان للسفر معي الامير ظهير الدين الزنجاني وهو من فضلاء اهل العلم والفتى كافورا واليه سلمت الهدية وبعث معنا الامير محمدا الهروي في الف فارس ليوصلنا الى الموضع الذي نركب منه البحر وكان سفرنا في السابع عشر لشهر صفر سنة سبعمائة وثلاث واربعين وكان نزولنا في اول مرحلة بمنزل تلبت ورحلنا منه الى منزل او ثم الى بيانة ثم سرنا منها الى مدينة كول ولما انتهينا اليها بلغنا ان بعض كفار الهنود حاصروا بلدة الجلالي واحاطوا بها وهي على مسافة سبعة اميال من كول - فقصدناها والكفار يقاتلون اهلها وقد اشرفوا على التلف - ولم يعلم الكفار بنا حتى صدقنا الحملة عليهم وهم في نحو الف فارس وثلاثة آلاف راجل . فقتلناهم عن آخرهم واحتوينا على خيلهم واسلحتهم واستشهد من اصحابنا ثلاثة وعشرون فارسا وخمسة وخمسون راجلا واستشهد الفتى كافور الساقي الذي كانت الهدية مسلمة بيده - فكتبنا الى السلطان بخبره واقمنا في انتظار الجواب وكان الكفار في اثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع فيغيرون على نواحي بلدة الجلالي - وكان اصحابنا يركبون كل يوم مع امير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم - وفي بعض تلك الايام ركبت في جماعة من اصحابي ودخلنا بستانا نقيل فيه وذلك فصل القيظ - فسمعنا الصياح - فركبنا ولحقنا كفارا اغاروا على قرية من قرى الجلالي واتبعناهم - فتفرقوا وتفرق اصحابنا في طلبهم وانفردت في خمسة من اصحابي - فخرج علينا جملة من

الفرسان والرجال من غيضة هنالك ففررنا منهم لكثرتهم واتبعني نحو عشرة منهم - ثم انقطعوا عني الى ثلاثة منهم ولا طريق بين يديّ وتلك الارض كثيرة الحجارة - فنشبت يدا فرسي بين الحجارة - فنزلت عنه واقتلعت يده وعدت الى ركوبه - والعادة بالهند ان يكون مع الانسان سيفان احدهما معلق بالسرج ويسمى الركابي والآخر في التركش - فسقط سيفي الركابي من غمده وكانت حليته ذهبا - فنزلت فاخذته وتقلدته وركبت وهم في اثري - ثم وصلت الى خندق عظيم - فنزلت ودخلت في جوفه - فكان آخر عهدي بهم - ثم خرجت الى واد في وسط شعراء ملتفة في وسطها طريق - فمشيت عليه ولا اعرف منتهاه - فبينا انا في ذلك خرج عليّ نحو اربعين رجلا من الكفار بايديهم القسي فاحدقوا بي وخفت ان يرموني رمية رجل واحد ان فررت منهم وكنت غير متدرع فالقيت بنفسي الى الارض واستاسرت - وهم لا يقتلون من فعل ذلك - فاخذوني وسلبوني جميع ما عليّ غير جبة وقميص وسروال ودخلوا بي الى تلك الغابة - فانتهوا بي الى موضع جلوسهم منها على حوض ماء بين تلك الاشجار واتوني بخبز ماش وهو الجلبّان - فاكلت منه وشربت من الماء وكان معهم مسلمان كلماني بالفارسية وسالاني عن شاني - فاخبرتهما ببعضه وكتمتهما اني من جهة السلطان - فقالا لي لا بد ان يقتلك هولاء او غيرهم ولكن هذا مقدمهم واشارا الى رجل منهم فكلمته بترجمة المسلمين وتلطفت له فوكل بي ثلاثة منهم احدهم شيخ ومعه ابنه والآخر اسود خبيث وكلمني اولئك الثلاثة ففهمت منهم انهم امروا بقتلي - فاحتملوني عشيّ النهار الى كهف وسلط الله على الاسود منهم حمى مرعدة - فوضع رجليه عليّ ونام الشيخ وابنه - فلما اصبح الصباح تكلموا فيما بينهم واشاروا اليّ بالنزول معهم الى الحوض وفهمت انهم يريدون قتلي - فكلمت الشيخ وتلطفت اليه فرق لي وقطعت كمي قميصي واعطيته اياهما لكي لا ياخذه اصحابه فيّ ان فررت - ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض - فظنوا انهم اصحابهم فاشاروا اليّ بالنزول معهم - فنزلنا ووجدنا قوما آخرين فاشاروا عليهم ان يذهبوا

Very confused here!

في صحبتهم فابوا وجلس ثلاثتهم امامي وانا مواجه لهم ووضعوا حبل قنب كان معهم بالارض وانا انظر اليهم واقول في نفسي بهـذا الحبل يربطونني عند القتل واقمت كذلك ساعة - ثم جاء ثلاثة من اصحابهم الذين اخذوني فتكلموا معهم وفهمت انهم قالوا لهم لاي شيء ما قتلتموه - فاشار الشيخ الى الاسود كانه اعتذر بمرضه وكان احد هولاء الثلاثة شابا حسن الوجه - فقال لي اتريد ان أُسرحك - فقلت نعم - فقال اذهب - فاخذت الجبة التي كانت عليّ فاعطيته اياها واعطاني منيّرة بالية عنده واراني الطريق - فذهبت وخفت ان يبدو لهم فيدركونني فدخلت غيضة قصب واختفيت ايها الى ان غابت الشمس - ثم خرجت وسلكت الطريق التي ارانيها الشاب - فافضت بي الى ماء فشربت منه وسرت الى ثلث الليل - فوصلت الى جبل فنمت تحته - فلما اصبحت سلكت الطريق - فوصلت ضحى الى جبل من الصخر عال فيه شجر ام غيلان والسدر - فكنت اجني النبق فآكله حتى اثر الشوك في ذراعي آثارا هي باقية به حتى الآن - ثم نزلت من ذلك الجبل الى ارض مزدرعة قطنا وبها اشجار الخروع وهنالك بائن - والبائن عندهم بئر متسعة جدا مطوية بالحجارة لها درج ينزل عليها الى ورد الماء وبعضها يكون في وسطه وجوانبه القباب من الحجر والسقائف والمجالس ويتفاخر ملوك البلاد وامراؤها بعمارتها في الطرقات التي لا ماء بها وسنذكر بعض ما رأيناه منها فيما بعد - ولما وصلت الى البائن شربت منه ووجدت عليه شيئا من عساليج الخردل قد سقطت لمن غسلها فاكلت منها وادخرت باقيها ونمت تحت شجرة خروع - فبينما انا كذلك اذ ورد البائن نحو اربعين فارسا مدرعين - فدخل بعضهم الى المزرعة - ثم ذهبوا وطمس الله ابصارهم دوني - ثم جاء بعدهم نحو خمسين في السلاح ونزلوا الى البائن واتى احدهم الى شجرة ازاء الشجرة التي كنت تحتها فلم يشعر بي - ودخلت اذ ذاك في مزرعة القطن واقمت بها بقية نهاري واقاموا على

البائن يغسلون ثيابهم ويلعبون . فلما كان الليل هدات اصواتهم فعلمت انهم قد مروا او ناموا . فخرجت حينئذ واتبعت اثر الخيل والليل مقمر وسرت حتى انتهيت الى بائن آخر عليه قبة فنزلت اليه وشربت من مائه واكلت من عساليج الخردل التي كانت عندي – ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير فنمت بها وكنت احس حركة حيوان في تلك العشب اظنه حية فلا ابالي بها لما بي من الجهد . فلما اصبحت سلكت طريقاً واسعة تفضي الى قرية خربة وسلكت سواها فكانت كمثلها واقمت كذلك اياما وفي بعضها وصلت الى اشجار ملتفة بينها حوض ماء وداخلها شبه بيت وعلى جوانب الحوض نبات الارض كالنجيل وغيره . فاردت ان اقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلني الى العمارة . ثم اني وجدت يسير قوة فنهضت على طريق وجدت بها اثر البقر ووجدت ثورا عليه برذعة ومنجل فاذا تلك الطريق تفضي الى قرى الكفار . فاتبعت طريقا اخرى . فافضت بي الى قرية خربة ورايت بها اسودين فخفتهما واقمت تحت اشجار هنالك . فلما كان الليل دخلت القرية ووجدت دارا في بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة يضعونها لاختزان الزرع وفي اسفلها نقب يسع الرجل . فدخلتها ووجدت داخلها مفروشا بالتبن وفيه حجر جعلت راسي عليه ونمت وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه اكثر الليل واظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفين . واقمت على تلك الحال سبعة ايام من يوم اسرت وهو يوم السبت وفي السابع منها وصلت الى قرية للكفار عامرة وفيها حوض ماء ومنابت خضر . فسالتهم الطعام فابوا ان يعطوني . فوجدت حول بئر بها اوراق فجل فاكلتها وجئت القرية . فوجدت جماعة كفار لهم طليعة فدعاني طليعتهم فلم اجبه وقعدت الى الارض فاتى احدهم بسيف مسلول ورفعه ليضربني به . فلم التفت اليه لعظيم ما بي من الجهد ففتشني فلم يجد عندي شيئا . فاخذ القميص الذي كنت اعطيت كميه للشيخ الموكل بي . ولما كان اليوم الثامن اشتد بي العطش وعدمت المـــاء وصلت الى قرية خراب

فلم اجد بها حوضا وعادتهم بتلك القرى ان يصنعوا احواضا يجتمع بها ماء المطر فيشربون منه جميع السنة واتبعت طريقا فافضت بي الى بئر غير مطوية عليها حبل مصنوع من نبات الارض وليس فيها آنية يستقى بها . فربطت خرقة كانت على راسي في الحبل وامتصصت ما تعلق بها من الماء فلم يروني - فربطت خفي واستقيت به فلم يروني - فاستقيت به ثانيا فانقطع الحبل ووقع الخف في البئر - فربطت الخف الآخر وشربت حتى رويت - ثم قطعته فربطت اعلاه في رجلي بحبل البئر وبخرق وجدتها هنالك - فبينما انا اربطها وافكر في حالي اذ لاح لي شخص - فنظرت اليه فاذا رجل اسود اللون بيده ابريق وعكاز وعلى كاهله جراب - فقال لي سلام عليكم فقلت له عليكم السلام ورحمة الله وبركاته - فقال لي بالفارسية من انت - فقلت له انا تائه - فقال لي وانا كذلك ثم ربط ابريقه بحبل كان معه واستقى ماء فاردت ان اشرب - فقال لي اصبر - ثم فتح جرابه فاخرج منه غرفة حمص اسود مقلو مع قليل ارز - فاكلت منه وشربت - وسالني عن اسمي فقلت محمد - وسالته عن اسمه فقال لي القلب الفارح - فتفاءلت بذلك وسررت به - ثم قال لي بسم الله ترافقني - فقلت نعم - فمشيت معه قليلا - ثم وجدت فتورا في اعضائي ولم استطع النهوض - فقعدت - فقال ما شانك فقلت له كنت قادرا على المشي قبل ان القاك فلما لقيتك عجزت - فقال سبحان الله اركب على عنقي - فقلت له انك ضعيف ولا تستطيع ذلك - فقال يقويني الله لا بد لك من ذلك - فركبت على عنقه وقال لي قل حسبنا الله ونعم الوكيل فاكثرت من ذلك وغلبتني عيني - فلم افق الا لسقوطي على الارض فاستيقظت ولم ار للرجل اثرا واذا انا في قرية عامرة . فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود وحاكمها من المسلمين فاعلموه بي - فجاء الي فقلت له ما اسم هذه القرية - فقال لي تاج بوره وبينها وبين مدينة كول حيث اصحابنا فرسخان - وحملني ذلك الحاكم الى بيته - فاطعمني طعاما سخنا واغتسلت - وقال لي عندي ثوب وعمامة اودعهما عندي رجل عربي مصري من اهل المحلة التي بكول - فقلت له

هاتهما البسهما الى ان اصل الى المحلة فاتى بهما - فوجدتهما من ثيابي كنت قد وهبتهما لذلك العربي لما قدمنا كول - فطال تعجبي من ذلك وفكرت في الرجل الذي حملني على عنقه - فتذكرت ما اخبرني به ولي من اولياء الله تعالى عز وجل حسبما ذكرناه في السفر الاول ان قال لي ستدخل ارض الهند وتلقى بها اخي دلشاد ويخلصك من شدة تقع فيها وتذكرت قوله لما سالته عن اسمه - فقال القلب الفارح وتفسيره بالفارسية دلشاد - فعلمت انه هو الذي اخبرني بلقائه وانه من الاولياء ولم يحصل لي من صحبته إلا المقدار الذي ذكرته - وكتبت تلك الليلة الى اصحابي بكول معلما لهم بسلامتي - فجاؤا الي بفرس وثياب واستبشروا بي ووجدت جواب السلطان قد وصلهم وبعث بفتى يسمى بسنبل الجامدار عوضا عن كافور المستشهد وامرنا ان نتمادى على سفرنا ووجدتهم ايضا قد كتبوا للسلطان بما كان من امري وتشاءموا بهذه السفرة لما جرى فيها عليّ وعلى كافور وهم يريدون ان يرجعوا - فلما رايت تاكيد السلطان في السفر اكدت عليهم وقوي عزمي - فقالوا الا ترى ما اتفق في هذه السفرة والسلطان يعذرك فلنـــرجع اليه او نقيم حتى يصل جوابه - فقلت لهم لا يمكن المقام وحيثما كنا ادركنا الجواب - فرحلنا عن كول واتممنا سفرنا الى الصين حتى انتهينا اليها *

٢ — ذكر جزائر ذيبة المهل لابن بطوطة

ولما اشتد الحال خرجت عنها (يعني عن مدينة سندابور) وتركتها محصورة وعدت الى قالقوط وعزمت على السفر الى ذيبة المهل وكنت اسمع باخبارها - فبعد عشرة ايام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبة المهل وذيبة على لفظ مؤنث الذيب والمهل بفتح الميم والهاء - وهذه الجزائر احدى عجائب الدنيا وهي نحو الفي جزيرة ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب الا منه واذا وصل المركب الى احداها فلا بدّ له من دليل من اهلها يسير به الى سائر الجزائر وهي من التقارب بحيث تظهر روس النخل التي باحداها عند الخروج

من الاخرى فان اخطأ المركب سمتها لم يمكنه دخولها وحملته الريح الى المعبر او سيلان وهذه الجزائر اهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح وهي منقسمة الى اقاليم على كل اقليم وال يسمونه الكردوئي - ومن اقاليمها اقليم بالِبور - ومنها كَنَّلُوسْ - ومنها اقليم المَهَل وبه تعرف الجزائر كلها وبها يسكن سلاطينها - ومنها اقليم تَلاديب - ومنها اقليم كَرَايدو - ومنها اقليم التَّيَمْ - ومنها إقليم تَلَدُمَّتي - ومنها اقليم هَلَدُمَّتي وهو مثل لفظ الذي قبله الا ان الهاء اوله - ومنها اقليم بَرِيدُو - ومنها اقليم كَنْدَكَل - ومنها اقليم مُلوك - ومنها اقليم السُّوَيْد وهو قصاها - وهذه الجزائر كلها لا زرع بها الا ان في اقليم السُّويد منها زرعا اشبه أنلي ويجلب منه الى المَهَل وانما اكل اهلها سمك يشبه اللَيرون يسمونه قُلب الماس بضم القاف ولحمه احمر ولا زفر له انما ريحه كريح لحم الانعام واذا اصطادوه قطعوا السمكة منه اربع قطع وطبخوها يسيرا ثم جعلوه في مكاتيل من سعف النخل وعلقوه للدخان فاذا استحكم يبسه اكلوه ويحمل منها الى الهند والصين واليمن * ومعظم اشجــار هذه الجزائر النارجيل وهو من اقواتهم مع السمك وقد تقدم ذكره واشجار النارجيل شانها عجيب وتثمر النخلة منها اثني عشر عذقا في السنة يخرج في كل شهر عذق - فيكون بعضها صغيرا وبعضها كبيرا وبعضها يابسا وبعضها اخضر هكذا ابدا ويصنعون منه الحليب والزيت والعسل حسبما ذكرنا ذلك في السفر الاول ويصنعون من عسله الحلواء فيأكلونها مع الجوز اليابس - ومن اشجارها الجمون والاترج والليمون والقلقاص وهم يصنعون من اصوله دقيقا يعملون منه شبه الاطرية ويطبخونها بحليب النارجيل وهي من اطيب الطعام كنت استحسنها كثيرا وآكلها * واهل هذه الجزائر اهل صلاح وديانة وايمان صحيح ونية صادقة اكلهم حلال ودعاؤهم مجاب - وابدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة وسلاحهم الدعاء ولقد امرت مرة بقطع يد سارق بها فغشي على جماعة منهم كانوا بالمجلس - ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم لانهم جربوا ان من اخذ لهم شيئا اصابته مصيبة

عاجلة واذا اتت اجفان العدو الى ناحيتهم اخذوا من وجدوا من غيرهم ولم يعرضوا لاحد منهم بسوء وان اخذ احد الكفار ولو ليمونة عاقبه امير الكفار وضربه الضربَ المُبرِّح خوفا من عاقبة ذلك ولولا هذا لكانوا اهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم - وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة واكثر عمارتهم بالخشب وهم اهل نظافة وتنزه عن الاقذار واكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفا لشدة الحر بها وكثرة العرق ويكثرون من الادهان العطرية كالصندلية وغيرها ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشو ومن عادتهم انهم اذا صلوا الصبح اتت كل امرأة الى زوجها او ابنها بالمكحلة وبماء الورد ودهن الغالية - فيكحل عينيه ويدّهن بماء الورد ودهن الغالية فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه - ولباسهم فوط يشدون الفوطة منها على اوساطهم عوض السراويل ويجعلون على ظهورهم ثياب الوليان وهي شبه الاحارم وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلا صغيرا عوضا منها - واذا لقي احدهم القاضي او الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل الى منزله - ومن عوائدهم انه اذا تزوج الرجل منهم ومضى الى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها الى باب البيت وجعل عليهـــا غرفات من الودع عن يمــــين طريقه الى البيت وشماله وتكون المراة واقفة عند باب البيت تنتظره فاذا وصل اليها رمت على رجليه ثوبا ياخذه خدامه وان كانت المراة هي التي تأتي الى منزل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع ورمت المراة عند الوصول اليه الثوب على رجليه - وكذلك عادتهم في السلام على السلطان عندهم لا بد من ثوب يرمى عند ذلك وسنذكره - وبنيانهم بالخشب ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الارض توقيا من الرطوبات لان ارضهم ندية وكيفية ذلك ان ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين او ثلاثة ويجعلونها صفوفا ويعرضون عليها خشب النارجيل - ثم يضعون الحيطان من الخشب ولهم صناعة عجيبة في ذلك ويبنون في اسطوان الدار بيتا

portico

يسمونه المالم بفتح اللام يجلس الرجل به مع اصحابه ويكون له بابان احدهما الى جهة الاسطوان يدخل منه الناس والآخر الى جهة الدار يدخل منه صاحبها ويكون عند هذ االبيت خابية مملوّة ماء ولها مستقى يسمّونه الوَلَنْج هو من قشر جوز النارجيل وله نصاب طوله ذراعان وبه يستقون الماء من الآبار لقربها - وجميعهم حفاة الاقدام من رفيع ووضيع وازقتهم مكنوسة نقية تظللها الاشجار فالماشي بها كانه في بستان ومع ذلك لا بد لكل داخل الى الدار ان يغسل رجليه بالماء الذي في الخابية بالمالم ويمسحها بحصير غليظ من الليف يكون هنالك ثم يدخل بيته - وكذلك يفعل كل داخل الى المسجد - ومن عوائدهم اذا قدم عليهم مركب ان تخرج اليه الكنادر وهي القوارب الصغار واحدها كندرة بضم الكاف والدال وفيها اهل الجزيرة معهم التنبول والكرنبة وهي جوز النارجيل الاخضر فيعطي الانسان منهم ذلك لمن شاء من اهل المركب ويكون نزيله ويحمل امتعته الى داره كانه بعض اقربائه ومن اراد التزوج من القادمين عليهم تزوج فاذا حان سفره طلق المراة لانهن لا يخرجن عن بلادهن ومن لم يتزوج فالمراة التي ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه وتزوده اذا سافر وترضى منه في مقابلة ذلك بايسر شيء من الاحسان - وفائدة المخزن ويسمونه البندر ان يشتري من كل سلعة بالمركب حظا بسوم معلوم سواء كانت السلعة تساوي ذلك او اكثر منه ويسمونه شرع البندر ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب يسمونه البَجَنْصَار يجمع به الوالي وهو الكردوري جميع سلعه ويبيع بها ويشتري وهم يشترون الفخار اذا جلب اليهم بالدجاج فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي ذكرناه وجوز النارجيل والفوط والوايلان والعمائم وهي من القطن ويحملون منها اواني النحاس فانها عندهم كثيرة ويحملون الودع ويحملون القَنْبَر وهو ليف جوز النارجيل وهم يدبغونه في حفر على الساحل ثم يضربونه بالمرازب ثم يغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب وتحمل الى الصين والهند

واليمن وهو حير من القنب وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن لان ذلك البحر كثير الحجارة فان كان المركب مسمرا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر واذا كان مخيطا بالحبال اعطي الرطوبة فلم يتكسر - وصرف اهل هذه الجزائر الودع وهو حيوان يلتقطونه في البحر ويضعونه في حفر هنالك فيذهب لحمه ويبقى عظمه ابيض - ويسمون المائة منه سياه ويسمون السبعمائة منه الفال ويسمون الاثني عشر الفا منه الكُتّي ويسمون المائة الف منه بُستُو ويباع بها بقيمة اربعة بساتي بدينار من الذهب وربما رخص حتى يباع عشر بساتي منه بدينار ويبيعونه من اهل بنجالة بالارز وهو ايضا صرف اهل بلاد بنجالة ويبيعونه من اهل اليمن فيجعلونه عوض الرمل في مراكبهم وهذا الودع ايضا هو صرف السودان في بلادهم رايته يباع بمالي وجوجو بحساب الف ومائة وخمسين للدينار الذهبي * ونساؤها لا يغطين رؤسهن ولا سلطانتهم تغطي راسها ويمشطن شعورهن ويجمعنها الى جهة واحدة ولا يلبسن اكثرهن الا فوطة واحدة تسترها من السرة الى اسفل وسائر اجسادهن مكشوفة وكذلك يمشين في الاسواق وغيرها ولقد جهدت لما وليت القضاء بها ان اقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم استطع ذلك فكنت لا تدخل الي منهن امراة في خصومة الا مستترة الجسد وما عدا ذلك لم تكن لي عليه قدرة ولباس بعضهن قمص زائدة على الفوطة وقمصهن قصار الاكمام عراضها وكان لي جوار كسوتهن لباس اهل دهلي وغطين رؤسهن فعابهن ذلك اكثر مما زانهن اذ لم يتعودنه وحليهن الاساور تجعل المراة منها جملة في ذراعيها بحيث تملا ما بين الكوع والمرافق وهي من الفضة ولا يجعل اساور الذهب الا نساء السلطان واقاربه ولهن الخلاخيل ويسمونها البايل وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن ويسمونها البَسْدَرَد - ومن عجيب افعالهن انهن يستأجرن انفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها على مستاجرهن نفقتهن ولا يرين ذلك عيبا ويفعله اكثر بناتهم فتجد في دار الانسان الغني منهن العشرة

والعشرين وكل ما تكسره من الاواني يحسب عليها قيمته واذا ارادت الخروج من دار الى دار اعطاها اهل الدار التي تخرج اليها العدد الذي هي مرتهنة فيه فتدفعه لاهل الدار التي خرجت منها ويبقى عليها للآخرين واكثر شغل هولاء المستأجرات غزل القنبر - والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء واكثر الناس لا يسمّي صداقا انما تقع الشهادة ويعطى صداق مثلها واذا قدمت المواكب تزوج اهلها النساء فاذا ارادوا السفر طلقوهن وذلك نوع من نكاح المتعة وهن لا يخرجن عن بلادهن ابدا ولم ار في الدنيا احسن معاشرة منهن ولا تكل المراة عندهم خدمة زوجها الى سواها بل هي تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه وتغسل يده وتأتيه بالماء للوضوء وتغمّ رجليه عند النوم - ومن عوائدهن الا تاكل المراة مع زوجها ولا يعلم الرجل ما تأكله المراة ولقد تزوجت بها نسوة فاكل معي بعضهن بعد محاولة وبعضهن لم تاكل معي ولا استطعت ان اراها تاكل ولا نفعتني حيلة في ذلك - وهم يسمون الوزير الاكبر النائب عن السلطان كَلَكي - ويسمــون القاضي فَنْدَيا قالوا واحكامهم كلها راجعة الى القاضي وهو اعظم عندهم من الناس اجمعين وامره ممتثل كامر السلطان واشد ويجلس على بساط في الدار وله ثلاث جزائر ياخذ مجباها لنفسه عادة قديمة اجراها السلطان احمد شنورازة - ويسمون الخطيب هَنْدِيْجَري ويسمون صاحب الديوان الفامَلْداري - ويسمون صاحب الاشغال مافاكَلُوا - ويسمون الحاكم فتْنايَك ويسمون قائد البحر مانايَك وكل هولاء يسمى وزيرا - ولا سجن عندهم بتلك الجزائر انما يحبس ارباب الجرائم في بيوت خشب هي معدة لامتعة التجار ويجعل احدهم في خشبة كما يفعل عندنا باسارى الروم *

٣ — السندباد البحريّ - حكاية السفرة الثانية

قال السندباد البحريّ اني لمّا عدتّ من سفرتي الاولى وعمي من

المال ما ينوف على مائة الف دينار غير الاقمشة والتحف جلست اقضي اوقاتي بالهناء والمسرّات من بعــــد ما لاقيت العناء والمشقّات ورجعت الى ما كنت عليه من صحبة الاخوان ومرافقة الخلاّن وما زلت في اطيب عيش واصفى سرور الى ان خطر ببالي يوماً من الايّام السفر الى بلاد الناس واشتاقت نفسي الى التجارة والتفرّج في البلدان والجزائر. فاخذت في الاهبة واشتريت بضاعة جيّدة تصلح لسفر البحر وشددت الاحمال وسافرت من بغداد مع تجّار مرافقين ورفاق موافقين حتى وصلنا الى ساحل البحر. فنظرنا مركباً عظيماً جديداً كثير الرجال كامل العدّة فنزّلنا فيه حمولنا وسافرنا على بركة اللّه ولم نزل سائرين من بحر الى بحر ومن جزيرة الى جزيرة ونحن نبيع ونشتري ونقايض بالبضائع حتى القتنا المقادير باذن الله تعالى على جزيرة نزهة نضرة كثيرة الاشجار يانعة الاثمار فائحة الازهار مترنّمة الاطيار صافية الانهار ولكن ليس بها ديّار ولا نافخ نار فارسى بنا الرئيس على تلك الجزيرة ونزل التجار والركاب اليها يتفرجون على ما بها من الاشجار والاطيار ويسبّحون الله الواحد القهّار ويتعجّبون من قدرة الملك الجبّار واخذت انا السفرة والمدام وجلست فيها على عين ماء صاف بين الاشجار فاكلت وشربت وطاب لي المنــــام فرقدت مكاني واستغرقت في النوم واستلذذت بذلك النسيم الطيب والروائح الذكيّة - فما استيقظت الّا والمركب قد اقلع وسار بالركاب ولم يتذكرني منهم احد لا من التجار ولا من البحريّة - فقمت ولم اجد عندي انيسا ولا جليسا والمركب قد ابعد عني وما بقيت انظره - فاخذني من الهم والغمّ ما ليس عليه من مزيد وكادت مرارتي تنفطر من شدة ما داخلني من الحزن وانقطع رجائي من الدنيا وايست من الحيوة وقلت ما كل مرّة تسلم الجرّة وان كنت سلمت في المرة الاولى ولقيت من اخذني معه من الجزيرة الى الارض المعمورة ففي هذه المرة هيهات هيهات ان اجد من يوصلني الى بلاد العمران وصرت اتفكر وانوح وابكي على نفسي ولمت نفسي على ما فعلت

من امر السفر بعد ما كنت في غاية الراحة وانا جالس في دياري مبسوط بين اهلي وخدمي وعيالي اكلي طيب وشربي طيب ولبسي طيب ولا انا محتاج الى شيء ابدا وصرت اتندّم على خروجي من مدينة بغداد وسفري في البحر بعد ما حصل لي من التعب في المرة الاولى وكنت فيها من الهالكين لولا ان ادركني لطف الله . فقلت في نفسي لاحول ولا قوّة الا بالله العلي العظيم وبقيت كالمجنون لا اقدر على السكون ثم اني قمت وتمشّيت في جانب الجزيرة لا اعِي ولا انظر . ثم صعدت الى شجرة عالية ونظرت يمينا وشمالا . فلم ار غير الماء والسماء ثم لاح لي شيء ابيض من البعد فنزلت من الشجرة وقصدت ذلك البياض واذا هو قبّة عظيمة شاهقة في العلوّ . فتقدمت اليها فرأيتها انعم من الحرير فظننت انها مبيّضة بالاسفيداج العال فدرت حولها فلم اجد لها بابا ادخل منه ولم الحق الصعود اليها من ملاستها ونعومتها . فعلّمت مكان وقوفي ودرت حولها اقيس دائرها فاذا هو خمسون خطوة وافية . فبقيت متحيّرا في امرها متفكرا في الحيلة الموصلة الى دخولها لاعلم ما فيها وكان النهار قد ولى وقاربت الشمس الغروب واذا بالجو قد اظلم واحتجبت الشمس عني . فظننت ان غمامة غطت عني الشمس وانا في ايام الصيف . فتعجبت من ذلك غاية العجب ورفعت راسي وتاملت الغيمة التي ظهرت واذا هي طير عظيم الخلقة كبير الجثة عريض الاجنحة وهو يطير في الجو وقد غطى عين الشمس وحجبها من الجزيرة فازددت من ذلك عجبا . ثم تذكرت ما اخبر به البحريّون واهل السياحة من ان في بعض الجزائر طيرا عظيم الخلقة يقال له الرخّ يزقّ اولاده بالافيال وتحققت ان القبة التي رأيتها انما هي بيضة من بيض الرخ . فتعجبت من خلق الله تعالى . وعند ذلك نزل الرخ على البيضة وحضنها بجناحيه ومد رجليه من خلفه على الارض ونام عليها وسبحان من لا ينام . فقمت انا وفككت عمامتي من فوق رأسي وثنيتها وفتلتها حتى صارت مثل الحبل وتحزمت بها وشددت وسطي

وربطت نفسي في رجل ذلك الطائر بطرفها الآخر وشددته شدّاً وثيقاً وقلت في نفسي لعل هذا الطير يخرجني من هذه الجزيرة الى بلاد العمران فاستريح من الدوران في الجزائر واسلم من الوحوش وبتّ تلك الليلة ساهراً خوفاً من ان انام . فيطير بي على حين غفلة . فلما طلع الفجر وبان الصباح قام ذلك الطائر ووقف على حَيله وانتفض نفضة عظيمة وطار واقتلع بي الى الجو ولم يحس بي ولم يشعر بثقلي وكاني ريشة في مخاليبه . ولم يزل طائراً بي وقد علا عن الارض حتى خفيت عني وحتى ظننت انه قد احتكّ بالسماء . ثم نكس راسه واخذ يتنازل بي طالبا الارض وبعد ساعة حط بي على مكان مرتفع عال فاسرعت وفككت الرباط من رجله واختفيت حتى لا ينظرني . ثم اني رفعت رأسي انظره واذا به قد اخذ في مخاليبه شيئاً من على وجه الارض وطار الى عنان السماء فتاملته فاذا هو حية عظيمة الخلقة كبيرة الجثة قد ضرب عليها واقتلع بها الى الجو . فتعجبت غاية العجب ونظرت حواليّ واذا انا في مكان عال وتحتي واد كبير واسع عميق وبجانبه جبل عظيم شاهق في العلو لا يمكن الناظر ان يرى اعلاه وليس لاحد قدرة على الصعود اليه فعند ذلك لمت نفسي على ما فعلته وقلت يا ليتني مكثت في الجزيرة فانها احسن من هذا المكان القفر فقد كان فيها اشجار آكل من ثمارها وانهار اشرب من مياهها وهذا المكان لا اشجار فيه ولا اثمار ولا انهار فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم كل نائبة تأتيني اصعب من الاخرى . ثم اني قمت وقويت نفسي وتمشيت في ذلك الوادي فرايت ارضه من حجر الالماس الذي تثقب به المعادن والجزع والصيني وهو حجر شديد القوة صلب لا يعمل فيه الحديد ولا الصخر ولا يقدر احد ان يقطع منه شيئاً ولا ان يكسره الا بحجر الرصاص . وفي ذلك الوادي حيات وافاع كل واحدة مثل النخلة السحوق تبلع الفيل من عظم خلقها . وهن يظهرن في الليل ويختفين في النهار خوفاً من هذا الطير الذي ذكرناه فانه ينزل عليهن ويخطفهن وبعد ذلك يقطعهن

ولا ادري ما سبب ذلك . فاقمت بذلك الوادي وانا متندم على ما فعلته وقلت في نفسي والله اني قد عجلت بالهلاك على نفسي . وقد ولّى النهار عليّ وصرت امشي في ذلك الوادي واتلفت على محل ابيت فيه وانا خائف من تلك الحيات . ونسيت اكلي وشربي واشتغلت بنفسي فلاح لي مغارة بالقرب مني . فمشيت فوجدت بابها ضيّقا فدخلتها ونظرت الى حجر كبير عند بابها فدفعته وسددت به باب تلك المغارة وانا داخلها وقلت في نفسي انني امنت لما دخلت في هذا المكان وان طلع عليّ النهار اخرج وانظر ما تفعل القدرة . ثم التفتّ في داخل المغارة . فنظرت حية عظيمة نائمة في صدر المغارة على بيضها . فاقشعر بدني واقمت رأسي وسلمت امري للقضاء والقدر وبتّ ساهرا طول الليل الى ان طلع الفجر ولاح فازحت الحجر الذي سددت به باب المغارة وخرجت منها وانا مثل السكران دائخ من شدة السهر والجوع والخوف وتمشيت في الوادي . فبينما انا على هذه الحالة اذ وقع نظري على شقق من اللحم الطري قد تساقطت من اعلى الجبل . فتذكرت ما اخبر به البحريون ان في بعض الجبال واديا يقال له وادي الالماس لا يقدر احد ان يسلك اليه من شدة المشقة ولكن التجار الذين يجلبون حجر الالماس يعملون حيلة في الوصول اليه وهي انهم ياخذون الشاة من الغنم فيذبحونها ويسلخونها ويشرّحون لحمها ويرمونه في ذلك الوادي . فيلصق فيه شيء من هذه الحجارة . فتنزل النسور وتصعد به الى الجبل لتطعمه افراخها . فتخرج عليها التجار بالصياح . فتطير عن ذلك اللحم فيتقدم التجار وياخذون ما لصق به من الاحجار ويتركون اللحم للطيور والوحوش وليس احد يقدر ان يصل الى حجر الالماس الا بهذه الحيلة . فلما تذكرت هذه الحكاية طاب قلبي وقمت فجمعت من الوادي ما قدرت عليه من افخر الجواهر الجيدة وخبأت ما انتقيته منها في جيوبي وحزامي وعمامتي وبين حوائجي واخذت شقة كبيرة من اللحم وربطت نفسي عليها بعمامتي ونمت على ظهري

وجعلتها على صدري وانا قابض عليها فصارت عالية على الارض وبعد
قليل اتت النسور وكلّ منها حمل شقة وارتفع بها الى اعلى الجبل وشقتي
حملها نسر كبير ووضعها فوق الجبل ايضا واراد ان ينهش منها واذا بصيحة
عظيمة من خلف ذلك النسر وخبط بالواح وخشب على ذلك الجبل - فجفل
النسر وطار وترك شقة اللحم فاسرعت انا وفككت نفسي منها ووقفت
بجانبها وقد تلوثت ثيابي من دمها واذا بالتاجر الذي صاح على النسر
قد اقبل فرآني واقفا فارتعد مني ولم يكلمني من الفزع - واهوى الى
الشقة يفتش فيها على الحجارة - فلم يجد شيئا فصاح صيحة عظيمة وقال
واخيبتاه لا حول ولا قوة الا بالله نعوذ بالله من الشيطان الرجيم وجعل
يخبط كفّا على كفّ - فتقدمت اليه فنكص - فقلت له لا تخش من شيء
يا اخي فاني انسي مثلك ولي في وصولي الى هذا المكان حكاية عجيبة
وقصة غريبة وقد كنت تاجراً كما انت تاجر - فاطمأنّ الي وقال لقد خابت
تجارتي فيك وضاع تعبي وفائدتي في هذه السفرة - فقلت له لا بأس
عليك ولك عندي ما يسرك فان معي شيئا كثيرا من حجارة الالماس
فانا اعوض عليك و اعطيك اكثر مما رجوت اذ كانت شقتك السبب في
نجاتي وطلوعي الى هذا المكان فلا تجزع ولا يحزنك هذا الامر - فسُرّيَ
عنه وصار يشكرني ويدعو لي - واقبل التجار واجتمعوا اليَّ وسالوني عن
حالي فاخبرتهم بجميع ما جرى لي وما قاسيته في سفرتي وكيف كان
وصولي الى هذا الوادي - فتعجبوا من ذلك غاية العجب وقالوا الحمد لله على
سلامتك والله لقد كتب لك عمر جديد فما احد وصل الى هذا المكان قبلك
ونجا منه - ثم مضوا وانا معهم الى مجمع التجار واظهر كل تاجر منهم
ما نابه من الحجارة فعند ذلك اخرجت من جيبي من تلك
الحجارة التي كنت نقّيتها من الوادي قبضة ودفعتها للتاجر الذي
طلعت في شقته - ففرح غاية الفرح وشكرني على ذلك ونمت تلك
الليلة عندهم وهم يسألون عن امري واذا احدثهم - ثم قمنا في الغد

وسرنا في جبال عالية حتى اتينا بلاد العمران ولم ازل مرافقهم في السفر من بلد الى بلد ومن مدينة الى مدينة وكل مكان جزنا عليه نبيع ونشتري ونقايض بالبضائع الى ان وصلنا بالسلامة الى مدينة البصرة - ومن جملة ما جزنا عليه من الجزائر جزيرة الرها وهي جزيرة عظيمة وفيها شجر الكافور كل شجرة تظلل مائة رجل واكثر فاذا اراد التجار اخذ الكافور من الشجر اخذوا رمحاً فيه حربة من الحديد وثقبوا به اعلى الشجرة - فيسيل منها شيء مثل اللبن ويعقد مثل الصمغ وهو عسل ذلك الشجر وبعد ذلك تنشف الشجرة وتيبس وتصير حطباً - وفي تلك الجزيرة صنف من الوحوش يقال له الكركدن يسير فيها ويرعى مثل ما يرعى الجاموس والبقر عندنا وهو اكبر خلقة من الفيل واغلظ - وله قرن واحد في وسط رأسه طوله عشرة اذرع وهو مثل النخلة شديد القوة وفيه صورة انسان وفي تلك الجزيرة شيء كثير من صنف الجاموس - وقد ذكر بعض المسافرين والسيّاح والسالكين الى تلك الجبال والاراضي ان هذا الوحش المسمى بالكركدن اذا نظر الفيل ضربه بقرنه فيعلقه عليه - فيصير مشكوكا في ذلك القرن الى ان يموت وهو دائر به في الجزيرة ولا يحس بثقله - فيسيح دهنه من شدة الحر في زمن الصيف وينزل على راس ذلك الوحش وعينيه فيعميه فيصير لا يرى - فيرقد في جانب السّواحل فينزل عليه طير الرخ فيخطفه بما على قرنه ويروح الى وكره يزق به افراخه - وقد رايت في تلك الجزائر عجائب وغرائب ليس عندنا في هذه البلاد شيء منها - فلما وصلنا الى مدينة البصرة اقمت بها اياما قلائل - ثم جئت الى مدينة بغداد ودخلت حارتي وبيتي وقد فرح اهلي بسلامتي وهنّأني اصحابي واحبابي بالسلامة فهاديتهم بهدايا واعطيتهم شيئا كثيرا وفرقت على جيراني وجميع احبابي وصرت ابيع واشتري ومعي شيء كثير من اصناف

حجر الالماس ومال ومتاع وبضائع اكثر مما كان معي اول مرة - وقد صرت آكل طيّبا واشرب طيّبا واقضي غالب اوقاتي وساعاتي وايامي بالبسط والانشراح واللهو والطرب واشتري الخدم الملاح - وصار كل من يسمع بقصتي وحكايتي يتعجب غاية العجب - وكل من اراد السفر يأتي اليّ اعلمه بما جرى لي وما قاسيت - فهذا ما كان من امري في السفرة الثانية *

حكاية السفرة الثالثة

قال السندباد البحري ولما جئت من السفرة الثانية واذا في غاية البسط والانشراح فرحان بالسلامة وقد كسبت مالا كثيرا وعوض الله عليّ جميع ما راح مني اقمت بمدينة بغداد مدة من الزمان واذا في غاية الحظ والصفاء والبسط والانشراح فاشتاقت نفسي الى السفر والفرجة وتشوقت الى المتجر والكسب والفوائد والنفس امارة بالسوء فهممت واشتريت شيأ كثيرا من البضائع المناسبة لسفر البحر وحزمتها للسفر وسافرت بها من مدينة بغداد الى مدينة البصرة وجئت الى ساحل البحر فرأيت مركبا عظيما وفيه تجار وركاب كثير اهل خير وناس ملاح طيبون اهل دين ومعروف وصلاح - فنزلت معهم في ذلك المركب وسافرنا على بركة الله تعالى بعونه وتوفيقه وقد استبشرنا بالخير والسلامة ولم نزل سائرين من بحر الى بحر ومن جزيرة الى جزيرة ومن مدينة الى مدينة وفي كل مكان مررنا عليه نتفرج ونبيع ونشتري ونحن في غاية الفرح والسرور الى ان كنا يوما من الايام سائرين في وسط البحر العجّاج المتلاطم بالامواج واذا بالرئيس وهو على جانب المركب ينظر الى نواحي البحر - ثم انه لطم على وجهه وطوى قلوع المركب ورمى مراسيها ونتف لحيته ومزق ثيابه وصاح صياحا عظيما - فقلنا له يا رئيس ما الخبر - فقال اعلموا

يا ركاب السلامة ان الريح غلبت علينا وقد عسفت بنا في وسط البحر ورمتنا المقادير لسوء بختنا الى جبل الزُغب وهم قوم مثل القرود وما وصل الى هذا المكان احد وسلم منه قط وقد احس قلبي بهلاكنا اجمعين فما استتم الرئيس قوله حتى جاءنا القرود وقد احاطوا بالمركب من كل جانب وهم شيء كثير مثل الجراد المنتشر في المركب وعلى البر فخفنا ان قتلنا منهم احدا او ضربناه او طردناه ان يقتلونا لفرط كثرتهم والكثرة تغلب الشجاعة وبقينا خائفين منهم ان ينهبوا رزقنا ومتاعنا وهم اقبح الوحوش وعليهم شعور مثل اللبد الاسود ورؤيتهم تُفزِع ولا يفهم احد لهم كلاما ولا خبرا وهم مستوحشون من الناس صفر العيون سود الوجوه صغار الخلقة طول كل واحد منهم اربعة اشبار - ثم انهم طلعوا على حبال المرساة وقطعوها باسنانهم و قطعوا جميع حبال المركب من كل جانب فمال المركب من الريح و رسا على جبلهم وصار المركب في برّهم - ثم قبضوا على جميع التجار والركاب وطلعوا بهم الى الجزيرة واخذوا المركب بجميع ما كان به و راحوا فيه الى حال سبيلهم وتركونا في الجزيرة وخفي عنا المركب ولا نعلم اين راحوا به - فبينما نحن في تلك الجزيرة نأكل من اثمارها و بقولها وفواكهها ونشرب من الانهار التي فيها اذ لاح لنا بيت عامر في وسط تلك الجزيرة فقصدناه ومشينا اليه فاذا هو قصر مشيد الاركان عالي الاسوار له باب بمصراعين مفتوح وهو من خشب الآبنوس - فدخلنا باب ذلك القصر فوجدنا له حضيرا واسعا مثل الحوش الواسع الكبير وفي دائره ابواب كثيرة عالية وفي صدره مصطبة عالية كبيرة وفيها اواني طبيخ معلقة على الكوانين وحواليها عظام كثيرة ولم نر فيها احدا - فتعجبنا من ذلك غاية العجب وجلسنا في حضير ذلك القصر قليلا - ثم بعد ذلك نمنا ولم نزل نائمين من ضحوة النهار الى غروب الشمس واذا بالارض قد ارتجت من تحتنا و سمعنا دويّا من الجو وقد نزل علينا من اعلى القصر شخص عظيم الخلقة في صفة انسان وهو

اسود اللون طويل القامة كانه نخلة عظيمة وله عينان كانهما شعلتان من نار وله انياب مثل انياب الخنازير وله فم عظيم الخلقة مثل فم البئر وله مشافر مثل مشافر الجمل مرخية على صدره وله اذنان مثل الجَرْمين مرخيتان على اكتافه واظافير يديه مثل مخالب السبُع - فلما نظرناه على هذه الحالة غبنا عن وجودنا وقوي خوفنا واشتد فزعنا وصرنا مثل الموتى من شدة الخوف والجزع والفزع - فلما نزل على الارض جلس قليلا على المصطبة. ثم انه قام وجاء عندنا - ثم انه قبض على يدي من بين اصحابي التجار ورفعني بيده عن الارض وجسّني وقلّبني فصرت في يده مثل اللقمة الصغيرة وصار يجسني مثل ما يجس الجزّار ذبيحة الغنم - فوجدني ضعيفا من كثرة القهر هزيلا من كثرة التعب والسفر وليس فيّ شيء من اللحم فاطلقني من يده واخذ واحدا غيري من رفقتي وقلّبه كما قلّبني وجسّه كما جسني واطلقه ولم يزل يجسُّنا ويقلبنا واحدا بعد واحد الى ان وصل الى رئيس المركب التي كنا فيها وكان رجلا سمينا غليظا عريض الاكتاف صاحب قوة وشدة فاعجبه وقبضْ عليه مثل ما يقبض الجزار على ذبيحته ورماه على الارض ووضع رجله على رقبته فقصف رقبته وجاء بسيخ طويل فادخله في جسده حتى اخرجه من قبة رأسه واوقد نارا شديدة وركب عليها ذلك السيخ المشكوك فيـــه الرئيس ولم يزل يقلبه على الجمر حتى استوى لحمه واطلعه من النار وحطه قدامه وفسخه كما يفسخ الرجل الفرخة وصار يقطع لحمه باظافيره ويأكل منه ولم يزل على هذه الحالة حتى اكل لحمه ونهش عظمه ولم يبق منه شيئا ورمى باقي العظام في جنب القصر - ثم انه جلس قليلا وانطرح ونام على تلك المصطبة وصار يشخر مثل شخير الخروف او البهيمة المذبوحة ولم يزل نائما الى الصباح - ثم قام وخرج الى حال سبيله - فلما تحققنا بعُده تحدثنا مع بعضنا وبكينا على ارواحنا وقلنا يا ليتنا غرقنا في البحر او اكلتنا القرود خير من شيّ الانسان على الجمر - والله ان هذا الموت موت رديء

ولكن ما شاء الله كان ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم لقد متنا كمدا
ولم يدر بنا احد وما بقي لنا نجاة من هذا المكان - ثم اننا قمنا وخرجنا
الى الجزيرة لننظر لنا مكانا نختفي فيه او نهرب وقد هان علينا ان نموت
ولا يشوى لحمنا بالنار - فلم نجد لنا مكانا نختفي فيه وقد ادركنا المساء -
فعدنا الى القصر من شدة خوفنا وجلسنا قليلا واذا بالارض قد ارتجت
من تحتنا واقبل علينا ذلك الشخص الاسود وجاء عندنا وصار يقلبنا
واحدا بعد واحد مثل المرة الاولى ويجسنا حتى اعجبه واحد - فقبض
عليه وفعل به مثل ما فعل بالرئيس في اول يوم فشواه واكله ونام على تلك
المصطبة ولم يزل نائما في تلك الليلة وهو يشخر مثل الذبيحة - فلما طلع
النهار قام وراح الى حال سبيله وتركنا على جري عادته - فاجتمعنا ببعضنا
وتحدثنا وقلنا لبعضنا والله ان نلقي انفسنا في البحر ونموت غرقا خير من ان
نموت حرقا لان هذه قتلة شنيعة - فقال واحد منا اسمعوا كلامي اننا نحتال
عليه ونقتله ونرتاح من همه ونريح المسلمين من عدوانه وظلمه - فقلت
لهم اسمعوا يا اخواني ان كان ولا بد من قتله فاننا نحوّل هذا الخشب
وننقل شيئا من هذا الحطب ونعمل لنا فلكا مثل المركب وبعد ذلك
نحتال في قتله وننزل في الفلك ونروح في البحر الى اي محل يريده
الله او نقعد في هذا المكان حتى يمرّ علينا مركب فننزل فيه - وان
لم نقدر على قتلـه ننزل ونسير في البحر فنرتاح من شيّنا على النار
ومن الذبح فان سلمنا سلمنا وان غرقنا متنـا شُهداء - فقالوا جميعا
والله هذا رأي سديد واتفقنا على هذا الامر وشرعنا في فعله فنقلنا
الاخشاب الى خارج القصر وصنعنا فلكا وربطناه على جانب البحر ونزلنا
فيه شيئا من الزاد وعدنا الى القصر - فلما كان وقت المساء واذا بالارض
قد ارتجت بنا ودخل علينا الاسود وهو كأنه الكلب العقور - ثم قلّبنا وجسنا
واحدا بعد واحد فاخذ واحدا منا وفعل به مثل ما فعل بسابقه واكله
ونام على المصطبة وصار شخيره مثل الرعد - فنهضنا وقمنا واخذنا سيخين

من حديد من الاسياخ المنصوبة ووضعناهما في النار القوية حتى احمرّا وصارا مثل الجمر وقبضنا عليهما قبضا شديدا وجئنا بهما الى ذلك الاسود وهو نائم يشخر ووضعناهما في عينيه واتكأنا عليهما جميعا بقوتنا وعزمنا فادخلناهما في عينيه وهو نائم فانطمستا وصاح صيحة عظيمة فارتعبت قلوبنا منه . ثم قام من فوق تلك المصطبة بعزمه وصار يفتش علينا ونحن نهرب منه يمينا وشمالا ولم ينظر وقد عمي بصره . فخفنا منه مخافة شديدة وايقنا في تلك الساعة بالهلاك وأيسنا من النجاة فعند ذلك قصد الباب وهو يتحسّس وخرج منه وهو يصيح ونحن في غاية الرعب منه واذا بالارض ترتج من تحتنا من شدة صوته . فلما خرج من القصر تبعناه وراح الى حال سبيله وهو يدور علينا . ثم انه رجع ومعه انثى اكبر منه واوحش خلقة . فلما رأينا التي معه افظع حالة منه خفنا غاية الخوف . فلما رأياذا اسرعا الينا فنهضنا وفككنا الفلك الذي صنعناه ونزلنا فيه ودفعناه في البحر . وكان مع كل واحد منهما حجارة كبار فصارا يرجماننا بها الى ان مات اكثرنا من الرجم وبقي منا ثلثة اشخاص انا واثنان فطلع بنا الفلك الى جزيرة * قال فمشينا الى آخر النهار فدخل علينا الليل ونحن على هذه الحالة فنمنا قليلا واستيقظنا من منامنا واذا بثعبان عظيم الخلقة كبير الجثة واسع الجوف قد احاط بنا وقصد واحدا منا فبلعه الى اكتافه . ثم بلع باقيه . فسمعنا اضلاعه تتكسر في بطنه وراح الى حال سبيله . فتعجبنا من ذلك غاية العجب وحزنّا على رفيقنا وصرنا في غاية الخوف على انفسنا وقلنا والله هذا امر عجيب كل موت اشنع من سابقه وكنا فرحنا بسلامتنا من الاسود فما تمت الفرحة لا حول ولا قوة الا بالله . والله قد نجونا من الاسود ومن الغرق فكيف تكون نجاتنا من هذه الآفة المشؤمة . ثم اننا قمنا فمشينا في الجزيرة واكلنا من ثمرها وشربنا من انهارها ولم نزل فيها الى وقت المساء . فوجدنا شجرة عظيمة عالية فطلعناها ونمنا فوقها وطلعت انا الى اعلى فروعها . فلما دخل الليل واظلم

الوقت جاء الثعبان وتلفت يمينا وشمالا - ثم انه قصد تلك الشجرة التي نحن عليها ومشى حتى وصل الى رفيقي وبلعه الى اكتافه والتفّ به اعلى الشجرة - فسمعت عظمه يتكسر في بطنه - ثم بلعه بتمامه وانا انظر بعيني - ثم ان الثعبان نزل من فوق تلك الشجرة وراح الى حال سبيله ولم ازل على تلك الشجرة باقي تلك الليلة - فلما طلع النهار وبان النور نزلت من فوق الشجرة وانا مثل الميت من كثرة الخوف والفزع واردت ان القي بنفسي في البحر واستريح من الدنيا فلم تهن عليّ روحي لان الروح عزيزة - فربطت خشبة عريضة على اقدامي بالعرض وربطت واحدة مثلها على جنبي الشمال ومثلها على جنبي اليمين ومثلها على بطني وربطت واحدة طويلة عريضة من فوق رأسي بالعرض مثل التي تحت اقدامي وصرت انا في وسط هذا الخشب وهو محيط بي من كل جانب وشددت ذلك شدا وثيقا والقيت نفسي بالجميع على الارض - فصرت نائما بين تلك الاخشاب وهي محيطة بي كالمقصورة - فلما امسى الليل اقبل ذلك الثعبان على جري عادته ونظر اليّ وقصدني - فلم يقدر ان يبلعني وانا على تلك الحالة والاخشاب حولي من كل جانب فدار الثعبان حولي ولم يستطع الوصول اليّ وانا انظر بعيني وقد صرت كالميت من شدة الخوف والفزع وصار الثعبان يبعد عني ويعود الي ولم يزل على هذه الحالة وكلما اراد الوصول الي ليبتلعني تمنعه تلك الاخشاب المشدودة عليَّ من كل جانب ولم يزل كذلك من غروب الشمس الى ان طلع الفجر وبان النور واشرقت الشمس فمضى الثعبان الى حال سبيله وهو في غاية ما يكون من القهر والغيظ فعند ذلك مددت يدي وفككت نفسي من تلك الاخشاب وانا في حكم الاموات من شدة ما قاسيت من ذلك الثعبان ثم اني قمت ومشيت في الجزيرة حتى انتهيت الى آخرها فلاحت مني التفاتة الى ناحية البحر فرأيت مركبا على بعد في وسط اللجة - فاخذت فرعا كبيرا من شجر ولوّحت به الى ناحيتهم وانا اصيح عليهم - فلما

رأوني قالوا لا بد اننا ننظر ما يكون هذا لعلّه انسان - ثم انهم قربوا مني وسمعوا صياحي عليهم فجاؤا الي واخذوني معهم في المركب وسألوني عن حالي - فاخبرتهم بجميع ما جرى لي من اوله الى آخره وما قاسيته من الشدائد - فتعجبوا من ذلك غاية العجب ثم انهم البسوني من عندهم ثيابا وستروا عورتي وبعد ذلك قدموا لي شيئا من الزاد - فاكلت حتى اكتفيت وسقوني ماء باردا عذبا - فانتعش قلبي وارتاحت نفسي وحصل لي راحة عظيمة واحياني الله تعالى بعد موتي - فحمدت الله تعالى على نعمه الوافرة وشكرته وقد قويت همتي بعد ما كنت ايقنت بالهلاك حتى تخيل لي ان جميع ما انا فيه منام ولم نزل سائرين وقد طاب لنا الريح باذن الله تعالى الى ان اشرفنا على جزيرة السلاهطة فاوقف الريس المركب عليها فنزل اليها جميع التجار والركاب واطلعوا بضائعهم ليبيعوا ويشتروا - قال السندباد البحري فالتفت اليّ صاحب المركب - وقال لي اسمع كلامي انت رجل غريب فقير وقد اخبرتنا انك قاسيت اهوالا كثيرة ومرادي انفعك بشيء يعينك على الوصول الى بلادك وتبقى تدعو لي - فقلت له نعم ولك مني الدعاء - فقال اعلم انه كان معنا رجل مسافر فقدناه ولم نعلم هل هو بالحيوة ام مات ولم نسمع عنه خبرا ومرادي ان ادفع لك حموله لتبيعها في هذه الجزيرة وتحفظها ونعطيك شيئًا في نظير تعبك وخدمتك وما بقي منها ناخذه الى ان نعود الى مدينة بغداد - فنسال عن اهله وندفع اليهم بقيتها وثمن ما بيع منها - فهل لك ان تتسلمها وتنزل بها هذه الجزيرة فتبيعها مثل التجار - فقلت سمعا وطاعة لك يا سيدي ولك الفضل والجميل ودعوت له وشكرته على ذلك - فعند ذلك امر الحمالين والبحرية باخراج تلك البضائع الى الجزيرة وان يسلموها اليّ - فقال كاتب المركب يا رئيس ما هذه الحمول التي اطلعها البحرية والحمالون وباسم من من التجار اكتبها - فقال اكتب عليها اسم السندباد البحري الذي كان معنا وغرق في الجزيرة ولم ياتنا عنه خبر فنريد ان هذا الغريب

يبيعها ويعمل ثمنها ونعطيه شيئا منه نظير تعبه وبيعه والباقي نحمله معنا حتى نرجع الى مدينة بغداد فان وجدناه اعطيناه اياه وان لم نجده ندفعه الى اهله في مدينة بغداد فقال الكاتب كلامك مليح ورايك رجيح - فلما سمعت كلام الرئيس وهو يذكر ان الحمول باسمي طار عقلي وخفق قلبي وقلت في نفسي والله انا السندباد البحـــري - ثم اني تجلدت وصبـــرت الى ان طلع التجار من المركب واجتمعوا يتحدثون ويتذاكرون في امور البيع والشراء فتقدمت الى صاحب المركب وقلت له يا سيدي هل تعرف كيف كان صاحب الحمول التي سلمتها اليّ لابيعها له - فقال لي لا اعلم له حالا ولكنه كان رجلا من مدينة بغداد يقال له السندباد البحري فنزلنا ذات يوم في جزيرة في البحر كثيرة الاشجار والاثمار - فخرج التجار اليها ليستريحوا ويتنزهوا في اشجارها واثمارها - فلما كان آخر النهار اجتمع جميع التجار الى المركب والسندباد نسيناه - فبقي هناك ولا ندري كيف صار امره ولم نعلم له خبرا الى هذا الوقت - فعند ذلك صرخت صرخة عظيمة وقلت له يا رئيس السلامة اعلم اني انا السندباد البحري لم اغرق ولكن لما ارسيت على الجزيرة وطلع التجار والركاب طلعت انا مع جملة الناس ومعي شيء آكله بجانب الجزيرة - ثم اني تلذذت بالجلوس في ذلك المكان فاخذتني سنة من النوم فنمت وغرقت في النوم ثم اني قمت فلم اجد المركب ولم اجد احدا عندي وهذا المال مالي وهذه البضائع بضائعي وجميع التجار الذين يجلبون حجر الالماس رأوني وانا في جبل الالماس ويشهدون لي باني انا السندباد البحري فانني اخبرتهم بقصتي وما جرى لي معكم في المركب واخبرتهم بانكم نسيتموني في الجزيرة نائما وقمت فلم اجد احدا وجرى لي ما جرى - فلما سمع التجار الركاب كلامي اجتمعوا علي فمنهم من صدقني ومنهم من كذبني فبينما نحن كذلك واذا بتاجر من التجار حين سمعني اذكر وادي الالماس نهض وتقدم عندي وقال لهم اسمعوا يا جماعة كلامي اني لما كنت

ذكرت لكم اعجب ما رأيت في اسفاري لما القينا شقق اللحم في وادي الالماس والقيت انا شقتي على جري عادتي فطلع في شقتي رجل معلق بها لم تصدقوني بل كذبتموني - فقالوا نعم حكيت لنا هذا الامر ولم نصدقك - فقال لهم التاجر هذا الرجل الذي تعلق في شقتي وقد اعطاني شيئا من حجر الالماس الغالي الثمن الذي لا يوجد نظيره وعوضني اكثر مما كان يطلع لي في شقتي وقد استصحبته معي الى ان وصلنا الى مدينة البصرة وبعد ذلك توجه الى بلده وودعنا ورجعنا الى بلادنا وهو هذا واعلمنا ان اسمه السندباد البحري وقد اخبرنا بذهاب المركب وجلوسه في هذه الجزيرة واعلموا ان هذا الرجل ما جاءنا هنا الا لتصدقوا كلامي الذي قلته لكم وهذه البضائع كلها رزقه فانه اخبرنا بها في وقت اجتماعه بنا وقد ظهر صدقه في قوله - فلما سمع الرئيس كلام ذلك التاجر قام اليّ وجاء عندي وحقق فيَّ النظر ساعة وقال ما علامة بضائعك - فقلت له اعلم ان علامة بضائعي ما هو كذا وكذا واخبرته بامر كان بيني وبينه لما نزلت معه المركب من البصرة فتحقق اني انا السندباد البحري فعانقني وسلم علي وهنأني بالسلامة وقال لي والله يا سيدي ان قصتك عجيبة وامرك غريب ولكن الحمد لله الذي جمع بيننا وبينك وردَّ بضائعك ومالك عليك قال فعند ذلك تصرَّفت في بضائعي بمعرفتي وربحت بضاعتي في تلك السفرة شيئا كثيرا وفرحت بذلك فرحا عظيما وهنأت نفسي بالسلامة وعود مالي اليّ ولم نزل نبيع ونشتري في الجزائر الى ان وصلنا الى بلاد السند فبعنا فيها واشترينا - وقد رأيت في ذلك البحر شيئا كثيرا من العجائب لا يعد ولا يحصى - ومن جملة ما رأيت في ذلك البحر سمكة على صفة البقرة وشيأ على صفة الحمير ورأيت طيرا يخرج من صدف البحر ويبيض ويفرخ على وجه الماء ولا يطلع من البحر على وجه الارض ابدا - وبعد ذلك لم نزل مسافرين باذن الله تعالى وقد طاب لنا الريح والسفر الى ان وصلنا

الى البصرة فاقمت بها اياما قلائل ودخلت بيتي ـ ثم سلمت على اهلي واصدقائي وقد فرحت بسلامتي وعودي الى بلادي واهلي ومدينتي وديارِي وتصدقت ووهبت وكسوت الارامل والايتام وجمعت اصحابي واحبابي ولم ازل على هذه الحالة في اكل وشرب ولهو وطرب وانا آكل طيبا واشرب طيبا واعاشر واخالط وقد نسيت جميع ما كان جرى لي وما قاسيت من الشدائد والاهوال وكسبت شيئا في هذه السفرة لا يعد ولا يحصى ـ وهذا اعجب ما رأيته في هذه السفرة ٭

حكاية السفرة الخامسة

قال السندباد البحري فلما انهمكت في اللذات و انتهاب المسرات ونسيت جميع ما كنت لقيته وما جرى لي وما قاسيته من شدة فرحي بالمكسب والربح والفوائد ـ حدثتني نفسي في بعض الايام بالسفر والتفرج في بلاد الناس وفي الجزائر ـ فقمت وهممت في ذلك واشتريت بضاعة نفيسة تناسب البحر وحزمت الحمول وسرت من مدينة بغداد وتوجهت الى مدينة البصرة ومشيت على جانب الساحل ـ فرايت مركبا كبيرا عاليا مليحا ـ فاعجبني فاشتريته وكانت عدته جديدة واكتريت له رئيسا وبحرية ونظرت عليه عبيدي وغلماني وانزلت فيه حمولي وجاءني جماعة من التجار فنزلوا حمولهم فيه ودفعوا اليّ الاجرة وسرنا ونحن في غاية الفرح والسرور وقد استبشرنا بالسلامة والكسب ولم نزل مسافرين من جزيرة الى جزيرة ومن بحر الى بحر ونحن نتفرج في الجزائر والبلدان ونطلع اليها نبيع فيها ونشتري الى ان وصلنا يوما من الايام الى جزيرة كبيرة خالية من السكان وليس فيها احد وهي خراب قفراء وفيها قبة عظيمة بيضاء كبيرة الحجم ـ فطلعنا نتفرج عليها واذا هي بيضة رخ كبيرة ـ فلما طلع التجار اليها وتفرجوا عليها ولم يعلموا انها بيضة رخ ضربوها بالحجارة ـ فكسرت ونزل منها ماء كثير

وقد بان منها فرخ الرخ - فسحبوه منها وطلعوه من تلك البيضة وذبحوه واخذوا منه لحما كثيرا وانا في المركب ولم يطلعوني على ما فعلوه - فعند ذلك قال لي واحد من الركاب يا سيدي قم تفرج على هذه البيضة التي نحسبها قبة فقمت لاتفرج عليها - فوجدت التجار يضربون البيضة فصحت عليهم لا تفعلوا هذا الفعل فيطلع طير الرخ ويكسر مركبنا ويهلكنا - فلم يسمعوا كلامي فبينما هم على هذه الحالة واذا بالشمس قد غابت عنا والنهار قد اظلم وصار فوقنا غمامة اظلم الجو منها - فرفعنا رؤوسنا ننظر ما الذي حال بيننا وبين الشمس - فرأينا اجنحة الرخ هي التي حجبت عنا ضوء الشمس حتى اظلم الجو وذلك لما جاء الرخ ورأى بيضته قد انكسرت صاح علينا - فجاءت رفيقته وصارا حائمين على المركب يصرخان علينا بصوت اشد من الرعد - فصحت انا على الرئيس والبحرية وقلت لهم ادفعوا المركب واطلبوا السلامة قبل ما نهلك - فاسرع الرئيس وطلع التجار وحل المركب وسرنا من تلك الجزيرة - فلما رآنا الرخ سرنا في البحر غاب عنا ساعة من الزمان وقد سرنا واسرعنا في السير بالمركب نريد الخلاص منهما والخروج من ارضهما واذا بهما قد تبعانا واقبلا علينا وفي رجلي كل واحد منهما صخرة عظيمة من الجبل فالقى الصخرة التي كانت معه علينا فجذب الرئيس المركب وقد اخطأه نزول الصخرة بشيء قليل - فنزلت في البحر تحت المركب فقام بنا المركب وقعد من عظم وقوعها في البحر وقد رأينا قرار البحر من شدة عزمها - ثم ان رفيقة الرخ القت علينا الصخرة التي معها وهي اصغر من الاولى - فنزلت بالامر المقدر على مؤخر المركب - فكسرته وطيرت الدفة عشرين قطعة وقد غرق جميع ما كان في المركب في البحر - فصرت احاول النجاة لحلاوة الروح - فقدر الله تعالى لي لوحا من الواح المركب - فتشبثت به وركبته وصرت اقذف عليه برجلي والريح والموج يساعداني على السير وكان المركب غرق بالقرب من جزيرة في وسط البحر - فرمتني المقادير باذن الله تعالى الى تلك الجزيرة - فطلعت عليها وانا على آخر نفس وفي

حالة الموتى من شدة ما قاسيته من التعب والمشقة والجوع والعطش - ثم اني انطرحت على شاطىء البحر ساعة من الزمان حتى ارتاحت نفسي واطمأن قلبي - ثم مشيت في تلك الجزيرة - فرأيتها كانها روضة من رياض الجنة اشجارها يانعة وانهارها دافقة وطيورها مغردة تسبح من له العزة والبقاء وفي تلك الجزيرة شيء كثير من الاشجار والفواكه وانواع الازهار فعند ذلك اكلت من الفواكه حتى شبعت وشربت من تلك الانهار حتى رويت وحمدت الله تعالى على ذلك واثنيت عليه ولم ازل على هذه الحالة قاعدا في الجزيرة الى ان امسى المساء واقبل الليل - فنمت وانا مثل القتيل مما حصل لي من التعب والخوف ولم اسمع في تلك الجزيرة صوتا ولم ار فيها احدا ولم ازل راقدا فيها الى الصباح - ثم قمت على حيلي ومشيت بين تلك الاشجار - فرأيت ساقية على عين ماء جارية وعند تلك الساقية شيخ جالس مليح وذلك الشيخ مؤزر بازار من ورق الاشجار - فقلت في نفسي لعل هذا الشيخ طلع الى هذه الجزيرة وهو من الغرقى الذين كسر بهم المركب - ثم دنوت منه وسلمت عليه فرد علي السلام بالاشارة ولم يتكلم - فقلت له يا شيخ ما سبب جلوسك في هذا المكان - فحرك رأسه وتاسف واشار لي بيده يعني احملني على رقبتك وانقلني من هذا المكان الى جانب الساقية الثانية - فقلت في نفسي اعمل مع هذا معروفا وانقله الى هذا المكان الذي يريده لعل ثوابه يحصل لي - فتقدمت اليه وحملته على اكتافي وجئت الى المكان الذي اشار لي اليه وقلت له انزل على مهلك - فلم ينزل عن اكتافي وقد لفّ رجليه على رقبتي - فنظرت الى رجليه - فرأيتهما مثل جلد الجاموس في السواد والخشونة - ففزعت منه واردت ان ارميه من فوق اكتافي - فقرط على رقبتي برجليه وخنقني بهما حتى اسودت الدنيا في وجهي وغبت عن وجودي ووقعت الى الارض مغشيا عليّ مثل الميت - فرفع ساقيه وضربني على ظهري

وعلى اكتافي - فحصل لي الم شديد - فنهضت قائما به وهو راكب
على اكتافي وقد تعبت منه - فاشار لي بيده ان ادخل بين الاشجار
الى اطيب الفواكه واذا خالفته يضربني برجليه ضربا اشد من ضرب
الاسواط - ولم يزل يشير لي بيده الى كل مكان اراده وانا امشي به اليه
وان توانيت او تمهلت يضربني وانا معه شبه الاسير- وقد دخلنا في
وسط الجزيرة بين الاشجار وهو على اكتافي لا ينزل ليلا ولا نهارا واذا
اراد النوم يلف رجليه على رقبتي وينام قليلا - ثم يقوم ويضربني
فاقوم مسرعا به ولا استطيع مخالفته من شدة ما اقاسي منه وقد
لمت نفسي على ما كان مني من حمله والشفقة عليه ولم ازل معه
على هذه الحالة وانا في اشد ما يكون من التعب وقلت في نفسي
انا فعلت مع هذا خيرا فانقلب علي شرا والله ما بقيت افعل مع احد
خيرا طول عمري وقد صرت اتمنى الموت من الله تعالى في كل وقت
وكل ساعة من كثرة ما انا فيه من التعب والمشقة ولم ازل على
هذه الحالة مدة من الزمان الى ان جئت به يوما من الايام الى
مكان في الجزيرة - فوجدت فيه يقطينا كثيرا ومنه شيء كثير يابس -
فاخذت منه واحدة كبيرة يابسة وفتحت رأسها وصفيتها ومشيت بها
الى شجرة العنب فملأتها منها وسددت رأسها ووضعتها في الشمس
وتركتها مدة ايام حتى صارت خمرا صرفا وصرت في كل يوم اشرب
منها لاستعين بها على تعبي مع ذلك الشيطان المريد وكلما سكرت
منها تقوى همتي - فنظرني يوما من الايام وانا اشرب فاشار لي
بيده ما هذا - فقلت له هذا شيء مليح يقوي القلب ويشرح الخاطر -
ثم اني جريت به ورقصت بين الاشجار وحصل لي نشأة من السكر
فصفقت وغنيت وانشرحت - فلما رآني على هذه الحالة اشار لي ان اناوله
اليقطينة ليشرب منها - فخفت منه واعطيتها له فشرب ما كان باقيا
فيها ورماها على الارض وقد حصل له طرب فصار يهتز على اكتافي - ثم انه

سكر وغرق في السكر وقد ارتخت جميع اعضائه وفرائصه وصار يتمايل من فوق اكتافي - فلما علمت بسكره وانه غاب عن الوجود مددت يدي الى رجليه وفككتهما من رقبتي - ثم ملت به الى الارض - فقعدت والقيته عليها فما صدّقت اني خلصت نفسي ونجوت من ذلك الامر الذي كنت فيه - ثم اني خفت منه ان يقوم من سكره ويوذيني فاخذت صخرة عظيمة من بين الاشجار وجئت اليه فضربته على رأسه وهو نائم فاختلط لحمه بدمه وقد قتل فلا رحمة الله عليه - وبعد ذلك مشيت في الجزيرة وقد ارتاح خاطري وجئت الى المكان الذي كنت فيه على ساحل البحر ولم ازل في تلك الجزيرة آكل من اثمارها واشرب من انهارها مدة من الزمان وانا اترقب مركبا يمرُّ عليّ الى ان كنت جالسا يوما من الايام متفكرا فيما جرى لي وما كان من امري واقول في نفسي يا ترى يبقيني الله سالما ثم اعود الى بلادي واجتمع باهلي واصحابي واذا بمركب قد اقبل من وسط البحـــر العجاج المتلاطم بالامواج ولم يزل سائرا حتى رسا على تلك الجزيرة وطلع منـــه الركاب الى الجزيرة - فمشيت اليهم فلما نظروني اقبلوا عليّ كلهم مسرعين واجتمعوا حولي وقد سألوني عن حالي وما سبب وصولي الى تلك الجزيرة فاخبرتهم بامري وما جرى لي - فتعجبوا من ذلك غاية العجب وقالوا لي ان هذا الرجل الذي ركب على اكتافك يسمى شيخ البحر وما واحد دخل تحت اعضائه وخلص منه الا انت والحمد لله على سلامتك - ثم انهم جاؤني بشيء من الطعام - فاكلت حتى اكتفيت واعطوني شيئا من الملبوس لبسته وسترت به عورتي - ثم اخذوني معهم في المركب وقد سرنا اياما وليالي - فرمتنا المقادير على مدينة عالية البناء جميع بيوتها مطلة على البحر وتلك المدينة يقال لها مدينة القرود ولما يدخل الليل تاتي الناس الذين هم ساكنون في تلك المدينة فيخرجون من هذه الابواب التي على البحر ثم ينزلون

في زوارق ومراكب ويبيتون في البحر خوفا من القرود ان تنزل عليهم في الليل من الجبال . فطلعت اتفرج في المدينة . فسافر المركب ولم اعلم فندمت على طلوعي الى تلك المدينة وتذكرت رفقتي وما جرى لي مع القرود اولا وثانيا . فقعدت ابكي وانا حزين . فتقدم الي رجل من اصحاب هذا البلد وقال لي يا سيدي كانك غريب في هذه الديار . فقلت له نعم انا غريب ومسكين وكنت في مركب قد رسا على تلك المدينة فطلعت منه لاتفرج في المدينة وعدت اليه فلم اره . فقال قم وسر معنا وانزل الزورق فانك ان قعدت في المدينة ليلا اهلكتك القرود . فقلت له سمعا وطاعة وقمت من وقتي وساعتي ونزلت معهم في الزورق ودفعوه من البر حتى ابعدوه عن ساحل البحر مقدار ميل وباتوا تلك الليلة وانا معهم . فلما اصبح الصباح رجعوا بالزورق الى المدينة وطلعوا وراح كل واحد منهم الى شغله ولم تزل هذه عادتهم في كل ليلة وكل من تخلف منهم في المدينة بالليل جاء اليه القرود واهلكوه وفي النهار تطلع القرود الى خارج المدينة فياكلون من اثمار البساتين ويرقدون في الجبال الى وقت المساء ثم يعودون الى المدينة وهذه المدينة في اقصى بلاد السودان ومن اعجب ما وقع لي في هذه المدينة ان شخصا من الجماعة التي بت معهم في الزورق قال لي يا سيدي انت غريب في هذه الديار فهل لك صنعة تشتغل فيها . فقلت له لا والله يا اخي ليس لي صنعة ولست اعرف عمل شيء وانما انا رجل تاجر صاحب مال ونوال وكان لي مركب ملكي مشحون باموال كثيرة وبضائع . فكسر في البحر وغرق جميع ما كان فيه وما نجوت من الغرق الا باذن الله فرزقني الله بقطعة لوح ركبتها فكانت السبب في نجاتي من الغرق . فعند ذلك قام الرجل واحضر لي مخلاة من قطن وقال لي خذ هذه المخلاة واملأها حجارة زلط من هذه المدينة واخرج مع جماعة من اهل المدينة وانا أرفقك بهم واوصيهم عليك وافعل كما

يفعلون فلعلك ان تعمل بشيء تستعين به على سفرك وعودك الى بلادك - ثم ان ذلك الرجل اخذني واخرجني الى خارج المدينة فنقيت حجارة صغارا من الزلط وملات تلك المخلاة واذا بجماعة خارجين من المدينة فارفقني بهم واوصاهم بي وقال لهم هذا رجل غريب فخذوه معكم وعلموه اللقط فلعله يعمل بشيء يتقوت به ويبقى لكم الاجر والثواب - فقالوا سمعا وطاعة ورحبوا بي واخذوني معهم وساروا وكل واحد منهم معه مخلاة مثل المخلاة التي معي مملوءة زلطا ولم نزل سائرين الى ان وصلنا الى واد واسع فيه اشجار كثيرة عالية لا يقدر احد ان يطلع عليها وفي ذلك الوادي قرود كثيرة - فلما رأتنا هذه القرود نفرت منا وطلعت تلك الاشجار - فصاروا يرجمون القرود بالحجارة التي معهم في المخالي والقرود تقطع من ثمار تلك الاشجار وترمي بها هؤلاء الرجال فنظرت تلك الثمار التى ترميها القرود واذا هي جوز هندي - فلما رأيت ذلك العمل من القوم اخترت شجرة عظيمة عليها قرود كثيرة وجئت اليها وصرت ارجم هذه القرود - فتقطع ذلك الجوز وترميني به فاجمعه كما يفعل القوم فما فرغت الحجارة من مخلاتي حتى جمعت شيئا كثيرا - فلما فرغ القوم من هذا العمل لمُّوا جميع ما كان معهم وحمل كل واحد منهم ما اطاقه - ثم عدنا الى المدينة في باقي يومنا - فجئت الى الرجل صاحبي الذي ارفقني بالجماعة واعطيته جميع ما جمعت وشكرت فضله - فقال لي خذ هذا وبعه وانتفع بثمنه - ثم اعطاني مفتاح مكان في داره وقال لي ضع في هذا المكان هذا الذي بقي معك من الجوز واطلع في كل يوم مع الجماعة مثل ما طلعت هذا اليوم والذي تجيء به ميّز منه الرديء وبعه وانتفع بثمنه واحفظ الجيد عندك في هذا المكان فلعلك تجمع منه شيأ يعينك على سفرك - فقلت له اجرك على الله تعالى - وفعلت مثل ما قال لي ولم ازل في كل يوم املأ المخلاة من الحجارة واطلع مع القوم واعمل مثل ما يعملون

وقد صاروا يتواصون بي ويدلونني على الشجرة التي فيها الثمر الكثير ولم ازل على هذه الحالة مدة من الزمان وقد اجتمع عندي شيء كثير من الجوز الهندي الطيب وبعت شيأً كثيرا وكثر عندي ثمنه وصرت اشتري كل شيء رأيته ولاق بخاطري وقد صفا وقتي وزاد في كل المدينة حظي ولم ازل على هذه الحالة - فبينما انا واقف على جانب البحـــر واذا بمركب قد ورد الى تلك المدينة ورسا على الساحل وفيه تجار معهم بضائع - فصاروا يبيعون ويشترون على شيء من الجوز الهندي وغيره - فجئت عند صاحبي واعلمته بالمركب الذي جاء واخبرته باني اريد السفر الى بلادي - فقال الراي لك فودّعته وشكرته على احسانه لي - ثم اني جئت عند المركب وقابلت الرئيس واكتريت معه ونزلت ما كان معي من الجوز وغيره في ذلك المركب وقد ساروا بالمركب في ذلك اليوم ولم نزل سائرين من جزيرة الى جزيرة ومن بحر الى بحر وكل اجزيرة رسينا عليها ابيع فيها من ذلك الجوز واقايض وقد عوض الله علي بازيد مما كان معي وضاع مني وقد مررنا على جزيرة فيها شيء من القِرفة والفلفل وقد ذكر لنا جماعة انهم نظروا على كل عنقود من عناقيد الفلفل ورقة كبيرة تظله وتلقي عنه المطر اذا امطرت واذا ارتفع عنه المطر انقلبت الورقة عن العنقود ونزلت بجانبه - فاخذت معي من تلك الجزيرة شيئا كثيرا من الفلفل والقرفة مقايضة بالجوز وقد مررنا على جزيرة "العسرات" وهي التي فيها العود القماري ومن بعدها على جزيرة اخرى مسيرتها خمسة ايام وفيها العود الصيني وهو اعلى من القماري واهل تلك الجزيرة اقبح حالة ودينا من اهل جزيرة العود القماري - فانهم يحبون الفساد وشرب الخمور ولا يعلمون الاذان ولا امر الصلوة وجئنا بعد ذلك الى معاطن اللؤلؤ فاعطيت الغواصين شيئا من جوز الهند وقلت لهم غوصوا على بختي ونصيبي - فغاصوا في تلك البِركة وقد طلعوا شيئا كثيرا

من اللؤلؤ الكبير الغالي وقالوا لي يا سيدي والله ان بختك سعيد فاخذت جميع ما طلعوه لي في المركب وقد سرنا على بركة الله تعالى ولم نزل سائرين الى ان وصلنا البصرة - فطلعت فيها واقمت بها مدة يسيرة - ثم توجهت منها الى مدينة بغداد ودخلت حارتي وجئت الى بيتي وسلمت على اهلي واصحابي وهنأوني بالسلامة وخزنت جميع ما كان معي من البضائع والامتعة وكسوت الايتام والارامل وتصدقت ووهبت وهاديت اهلي واصحابي واحبابي وقد عوض الله عليّ باكثر مما راح مني اربع مرات وقد نسيت جميع ما جرى لي وما قاسيته من التعب بكثرة الربح والفوائد وعدت لما كنت عليه في الزمن الاول من المعاشرة والصحبة - وهذا اعجب ما كان من امري في السفرة الخامسة *

٤ — سفرة ابن جبير الى جزيرة صقلية (سنة ٥٨١ هجرية و ١١٨٥ مسيحية)

(ذكر مدينة مسينة) هذه المدينة موسم التجار ومقصد جواري البحر من جميع الاقطار تغصّ بقاطنيها وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها اسواقها نافقة حفيلة وارزاقها واسعة بارغاد العيش كفيلة لا تزال بها ليلك ونهارك في امان وان كنت غريب الوجه واليد واللسان ومرساها اعجب مراسي البلاد البحرية لان المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسكه وينصب منها الى البر خشبة يتصرف عليها والحمال يصعد بحمله اليها ولا يحتاج الى زواريق في وسقها ولا في تفريغها الا ما كان مرسيا على البعد منها يسيرا - فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجيـاد في مرابطـها واصطبلاتها وذلك لافراط عمق البحر فيها - وهو زقاق معترض بينها وبين الارض الكبيرة بمقدار ثلاثة اميال و يقابلها منه بلدة تعرف بريّة وهي عمالة كبيرة - و هذه المدينة مسينة راس جزيرة صقلية وهي كثيرة المدن والعمائر والضياع وتسميتها تطول - و طول هذه

الجزيرة صقلية سبعة ايام وعرضها مسيرة خمسة ايام وبها جبل البركان وهو يأتزر بالسحب لافراط سموه ويعتم بالثلج شتاء وصيفا دائما وخصب هذا الجزيرة اكثر من ان يوصف وكفى بانها ابنة الاندلس في سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة مشحونة بالارزاق على إختلافها مملوءة بانواع الفواكه واصنافها وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح والشاه بلوط والبندق والإجاص وغيرها من الفواكه - وليس في مسينة هذه من المسلمين الا نفر يسير من ذوي المهن - و احسن مدنها قاعدة ملكها و المسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها ببلارمة وفيها سكنى الحضريين من المسلمين ولهم فيها المساجد والاسواق المختصة بهم والارباض الكثيرة - وبلارمة هذه مسكن ملكهم غليام وهي احفل مدن صقلية وبعدها مسينة - وشان ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة وهو كثير الثقة بالمسلمين هم اهل دولته والمرتسمون بخاصته وعليهم يلوح رونق مملكته لانهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة وما منهم الا من له الحاشية والخول والاتباع ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الانيقة ولا سيما بحاضرة ملكه المدينة المذكورة وله بمسينة قصر ابيض كالحمامة مطل على ساحل البحر وليس في ملوك النصارى اترف في الملك ولا انعم ولا ارفه منه - وهو يتشبه في ترتيب قوانينه ووضع اساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم ابهة الملك واظهار زينته بملوك المسلمين - وملكه عظيم جدا وله الاطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له ان طبيبا او منجما اجتاز ببلده امر بامساكه وادر له ارزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه ومن عجيب شانه المتحدث به انه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما اعلمنا به احد خدمته المختصين به : الحمد لله حق حمده - وبمدينة مسينة المذكورة دار صنعة تحتوي من الاساطيل على ما لا يحصى عدد مراكبه - فكان نزولنا في احد الفنادق واقمنا بها تسعة ايام - فلما كان ليلة الثلاثاء الثاني عشر لرمضان ركبنا في زورق متوجهين الى مدينة بلارمة وسرنا قريبا من الساحل بحيث

بضوء راي العين وارسل الله علينا ريحا شرقية رخاء طيبة زجت الزورق
اهنأ تزجية وسرنا نسرح اللحظ في عمائر وقرى متصلة وحصون ومعاقل في
قنن الجبال مشرفة وابصرنا عن يميننا في البحر تسع جزائر قد قامت جبالا
مرتفعة على مقربة من بر الجزيرة اثنان منها تخرج منهما النار دائما
وابصرنا الدخان صاعدا منهما ويظهر بالليل نارا حمراء ذات السن تصعد
في الجو وهو البركان المشهور خبره واعلمنا ان خروجها من منافس في الجبلين
المذكورين يصعد منها نفس ناري بقوة شديدة يكون عنه النار وربما قذف
فيها الحجر الكبيـــر فتلقي به الى الهواء بقوة ذلك النفس وتمنعه
من الاستقرار والانتهاء الى القعر وهذا من اعجب المسموعات الصحيحة .
واما الجبل الشامخ الذي بالجزيرة المعروف بجبل النار فشأنه عجيب
وذلك ان نارا تخرج منه في بعض السنين كالسيل العرم فلا تمر بشي
الا احرقته حتى تنتهي الى البحر . فتركب ثبجه على صفحه حتى تغوص فيه
فسبحان المبدع في عجائب مخلوقاته لا اله سواه . وحللنا عشي يوم الاربعاء
مرسى مدينة شفلودى وبينها وبين مسينة مجرى ونصف مجرى . ومدينة
شفلودى هي مدينة ساحلية كثيرة الخصب واسعة المرافق منتظمة اشجار
الاعناب وغيرها مرتبة الاسواق تسكنها طائفة من المسلمين وعليها قنة جبل
واسعة مستديرة فيها قلعة لم ير امنع منها اتخذوها عدة لاسطول يفجأهم من
جهة البحر من جهة المسلمين وكان اقلاعنا منها نصف الليل . فجئنا مدينة
ثرمة ضحوة يوم الخميس بسير رويد وبين المدينتين خمسة وعشرون ميلا .
فانتقلنا منها من ذلك الزورق الى زورق ثان اكتريناه لكون البحريين الذين
صحبونا فيه من اهلها . وثرمة هذه احسن وضعا من التي تقدم ذكرها وهي
حصينة تركب البحر وتشرف عليه وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد
ولها قلعة سامية منيعة وفي اسفل البلدة حمّة قد اغنت اهلها عن اتخاذ
حمام . وهذه البلدة من الخصب وسعة الرزق على غاية . والجزيرة
باسرها من اعجب بلاد الله في الخصب وسعة الارزاق . فاقمنا بها يوم

الخميس الرابع عشر للشهر المذكور ونحن قد ارسينا في وادٍ باسفلها
ويطلع فيه المد من البحر ثم ينحسر عنه وبتنا بها ليلة الجمعة . ثم
انقلب الهواء غربيا فلم نجد للاقلاع سبيلا وبيننا وبين المدينة المقصودة
المعروفة عند النصارى ببلارمة خمسة وعشرون ميلا . فخشينا طول المقام
وحمدنا الله تعالى على ما انعم به من التسهيل في قطع المسافة في
يومين وقد تلبث الزوارق في قطعها على ما اعلمنا به العشرين يوما
والثلاثين يوما ونيفا على ذلك . فاصبحنا يوم الجمعة منتصف الشهر
المبارك على نية من المسير في البر على اقدامنا . فتحملنا بعض اسبابنا
وخلفنا بعض الاصحاب على الاسباب الباقية في الزورق . وسرنا في طريق
كانها السوق عمارة وكثرة صادر ووارد وطوائف النصارى يتلقوننا فيبادرون
بالسلام علينا ويؤنسوننا حتى انتهينا الى قصر سعد وهو على فرسخ
من المدينة وقد اخذ منا الإعياء . فملنا اليه وبتنا فيه . وهذا القصر على
ساحل البحر مشيّد البناء عتيقه قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين
للجزيرة وبازائه عين تعرف بعين المجنونة وله باب وثيق من الحديد
وداخله مساكن وعلالي مشرفة وبيوت منتظمة وهو كامل مرافق السكنى
وفي اعلاه مسجد من احسن مساجد الدنيا بهاء مستطيل ذو حنايا
مفروش بحصر نظيفة لم ير احسن منها صنعة وقد علق فيه نحو الاربعين
قنديلا من انواع الصُفر والزجاج وامامه شارع واسع يستدير باعلى القصر
وفي اسفل القصر بئر عذبة . فبتنا في هذا المسجد احسن مبيت واطيبه .
وبمقربة من هذا القصر نحو الميل الى جهة المدينة قصر آخر على صفته
يعرف بقصر جعفر وداخله سقاية تفور بماء عذب . وابصرنا للنصارى في
هذه الطريق كنائس معدة لمرضى النصارى ولهم في مدنهم مثل ذلك
في صفة مارستانات المسلمين وابصرنا لهم بعكة وبصور مثل ذلك . فعجبنا
من اعتنائهم بهذا القدر . فلما صلينا الصبح توجهنا الى المدينة . فجئنا
لندخل فمنعنا وحملنا الى الباب المتصل بقصور الملك الافرنجي غليام

وادينا الى المستخلف من قبله ليسالنا عن مقصدنا وكذلك فعلهم بكل غريب - فسلك بنا في رحاب وابواب وساحات ملوكية وابصرنا من القصور المشرفة والميادين المنتظمة والبساتين والمراتب المتخذة لاهل الخدمة ما راع ابصارنا واذهل افكارنا - وابصرنا فيما ابصرناه مجلسا في ساحة فسيحة قد احدق بها بستان وانتظمت بجوانبها بلاطات والمجلس قد اخذ استطالة تلك الساحة كلها - فعجبنا من طوله واشراف مناظره فاعلمنا انه موضع غذاء الملك مع اصحابه وتلك البلاطات والمراتب حيث تقعد حكامه واهل الخدمة والعمالة امامه - فخرج الينا ذلك المستخلف يتهادى بين خديمين يحفان به ويرفعان اذياله - فابصرنا شيخا طويل السبلة ابيضها ذا ابهة - فسالنا عن مقصدنا وعن بلدنا بكلام عربي لين - فاعلمناه فاظهر الاشفاق علينا وامر بانصرافنا بعد ان احفى في السلام والدعاء - فعجبنا من شأنه وكان اول سؤاله لنا عن خبر القسطنطينية العظمى وما عندنا منه فلم يكن عندنا ما نعلمه به - وخرجنا الى احد الفنادق فنزلنا فيه وذلك يوم السبت الثاني والعشرين لدجنبر - وفي خروجنا من القصر المذكور سلكنا بلاطا متصلا مشينا فيه مسافة طويلة وهو مسقف حتى انتهينا الى كنيسة عظيمة البناء - فاعلمنا ان ذلك البلاط ممشى الملك الى هذه الكنيسة - (ذكر بلارمة) هي بهذه الجزائر ام الحضارة - والجامعة بين الحسنيين غضارة ونضارة - فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر - ومراد عيش يانع اخضر - عتيقة انيقة - مشرقة مؤنقة - تتطلع بمرأى فتان - وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان - فسيحة السكك والشوارع - تروق الابصار بحسن منظرها البارع - عجيبة الشان - قرطبية البنيان - مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذان - يشقها نهر معين - ويطرد في جنباتها اربع عيون قد زخرفت فيها لملكها دنياه - فاتخذ حضرة ملكه تنتظم بابنتها قصوره انتظام العقود في نحور الكواعب - ويتقلب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب - فكم له فيها من مقاصير ومصانع - ومناظر ومطالع - وكم له بجهاتها من ديارات

قد زخرف بنيانها - ورفه بالاقطاعات الواسعة رهبانها - وكنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها - وللمسلمين في هذه المدينة ارباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى والاسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ولهم بها قاض يرتفعون اليه في احكامهم - ولهذه المدينة شبه بقرطبة ان لها مدينة قديمة تعرف بالقصر القديم هي في وسط المدينة الحديثة وعلى هذا المثال موضع قرطبة وبهذا القصر ديار كانها القصور المشيدة لها مناظر في الجو مطلة تحار الابصار في حسنها - (كنيسة بلارمة) ومن اعجب ما شاهدناه بها من امور النصارى كنيسة تعرف بكنيسة الانطاكي ابصرناها يوم الميلاد وهو يوم عيد لهم عظيم وقد احتفلوا لها رجالا ونساء - فابصرنا من بنيانها مرأى يعجز الوصف عنه ويقع القطع بانه اعجب مصانع الدنيا المزخرفة - جدرها الداخلة ذهب كلها وفيها من الواح الرخام الملوّن ما لم ير مثله قط قد رصعت كلها بفصوص الذهب وكللت باشجار الفصوص الخضر ونظم اعلاها بالشمسيات المذهبات من الزجاج فتخطف الابصار بساطع شعاعها وتحدث في النفوس فتنة - واعلمنا ان بانيها الذي تنسب اليه انفق فيها قناطير من الذهب وكان وزيرا لجد هذا الملك - ولهذه الكنيسة صومعة قد قامت على اعمدة سوار من الرخام ملوّنة وعلت قبة على اخرى سوار كلها فتعرف بصومعة السواري وهي من اعجب ما يبصر من البنيان - وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين - فصيحات الالسن ملتحفات متنقبات خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الاخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر وكان مقامنا بهذه المدينة سبعة ايام ونزلنا بها في احد فنادقها التي يسكنها المسلمون - وخرجنا منها صبحة يوم الجمعة الثاني والعشرين لهذا الشهر المبارك والثامن والعشرين لشهر دجنبر الى مدينة اطرابنش بسبب مركبين بها احدهما يتوجه الى الاندلس والثاني الى

سبتة . فسلكنا على قرى متصلة وضياع متجاورة وابصرنا محارث ومزارع لم نر مثل تربتها طيبا وكرما واتساعا - فشبهناها بقنبانية قرطبة او هذه اطيب وامتن - وبتنا في الطريق ليلة واحدة في بلدة تعرف بعلقمة وهي كبيرة متسعة فيها السوق والمساجد وسكانها وسكان هذه الضياع التي في هذه الطريق كلها مسلمون وقمنا منها سحر يوم السبت - فاجتزنا بمقربة منها على حصن يعرف بحصن الحمة وهو بلد كبير فيه حمامات وقد فجرها الله ينابيع في الارض واسالها عناصر لا يكاد البدن يحتملها لافراط حرها - فاجزنا منها واحدة على الطريق فنزلنا اليها عن الدوابّ وارحنا الابدان بالاستحمام فيها - ووصلنا الى اطرابنش عصر ذلك اليوم فنزلنا فيها في دار اكتريناها - (مدينة اطرابنش) وهي مدينة صغيرة الساحة غير كبيرة المساحة مسوّرة بيضاء كالحمامة مرساها من احسن المراسي واوفقها للمراكب ولذلك كثيرا ما يقصد الروم اليها ولا سيما المقلعون الى برّ العدوة فان بينها وبين تونس مسيرة يوم وليلة - فالسفر منها اليها لا يتعطل شتاء ولا صيفا الا ريثما تهب الريح الموافقة فمجراها في ذلك مجرى المجاز القريب وبهذه المدينة السوق والحمام وجميع مايحتاج اليه من مرافق المدن لكنها في لهوات البحر لاحاطته بها من ثلاث جهات واتصال البر بها من جهة واحدة ضيقة والبحر فاغر فاه لها من سائر الجهات فاهلها يرون انه لا بد له من الاستيلاء عليها وان تراخى مدى ايامها - وهي مرفقة موافقة لرخاء السعر بها لانها على محرث عظيم وسكانها المسلمون والنصارى ولكلا الفريقين فيها المساجد والكنائس - وبركنها من جهة الشرق مائلا الى الشمال على مقربة منها جبل عظيم مفرط السمو متسع في اعلاه قنة تنقطع عنه وفيها معقل للروم وبينه وبين الجبل قنطرة ويتصل به في الجبل للروم بلد كبير وبهذا الجبل الكروم والمزارع واعلمنا ان به نحو اربعمائة عين متفجّرة و هو يعرف بجبل حامد والصعود اليه هين من احدى جهاته وهم يرون ان منه يكون فتح هذه الجزيرة ولا سبيل ان يتركوا مسلما يصعد اليه

ولذلك اعدوا فيه ذلك المعقل الحصين فلو احسوا بحادثة حصنوا حريمهم فيه وقطعوا القنطرة واعترض بينهم وبين الذي في اعلاه خندق كبير - وشأن هذا البلد عجيب فمن العجب ان يكون فيه من العيون المتفجرة ما تقدم ذكره - واطرابنش في هذا البسيط ولا ماء لها الا من بئر على البعد منها وفي ديارها آبار قصيرة الارشية ماؤها كلها شريب لا يساغ - والفينا المركبين اللذين يرومان الاقلاع الى المغرب بها ونحن ان شاء الله نؤمل ركوب احدهما وهو القاصد الى بر الاندلس والله بمعهود صنعه الجميل كفيل بمنّه - وفي غربي هذه البلدة اطرابنش ثلاث جزائر في البحر على نحو فرسخين منها وهي صغار متجاورة احداها تعرف بمليطة والاخرى بيابسة والثالثة تعرف بالراهب نسبت الى راهب يسكنها في بناء اعلاها كانه الحصن وهو مكمن للعدو والجزيرتان لا عمارة فيهما ولا يعمر الثالثة سوى الراهب المذكور - ثم اتفق كراؤنا في المركب المتوجه الى بر الاندلس ونظرنا فى الزاد والله المتكفل بالتيسير والتسهيل *

٤ — ذكر الشام لابي الفداء

لما فرغ من ذكر الجزائر التي ببحر الروم انتقل الى ذكر الشام وقد حددوا الشام على وجه دخل فيه بلاد الارمن وهي المعروفة في زماننا ببلاد سيس - والذي يحيط بالشام من جهة الغرب بحر الروم من طرسوس التي ببلاد الارمن الى رفح التي في اول الجفار بين مصر والشام ويحيط به من جهة الجنوب حد يمتد من رفح الى حدود تيه بني اسرائيل الى ما بين الشوبك وايلة الى البلقاء ويحيط به من جهة الشرق حد يمتد من البلقاء الى مشاريق صرخد آخذا على اطراف الغوطة الى سَلَمْيَة الى مشاريق حلب الى بالس ويحيط به من جهة الشمال حد يمتد من بالس مع الفرات الى قلعة نجم الى البيرة الى قلعة الروم الى سميساط الى حصن منصور الى بَهَسْنا الى مرعش الى بلاد سيس الى طرسوس الى بحر الروم من

حيث ابتدأنا - وبعض هذه الحدود تقع شرقية عن بعض الشام وهي بعينها
جنوبية عن بعض آخر مثل البلقاء فانها جنوبية عن حلب وما في سمتها
وهي شرقية عن مثل غزة وما في سمتها - فليعلم العذر في ذلك - وانما سمي
شأما لان قوما من بني كنعان تشاءموا اليه اي تياسروا اليه لانه عن
يسار الكعبة وقيل سمي شأما بسام بن نوح واسمه بالسريانية شام بشين
معجمة وقيل سمي شأما بشامات له بيض وحمر وسود اي ان به اراضي
على هذه الالوان - ووقعت على كتاب لاحمد بن ابي يعقوب الكاتب في
المسالك والممالك قد اثنى فيه على العراق وذم الشام ومصر - فقال عن
الشام الوبي هواؤه الضيقة منازله الحزنة ارضه المنصلة طواعينه الجفاة
اهله - وقال عن مصر هي بين بحر رطب عفن كثير البخارات الردية التي
تولد الادواء وتفسد الغذاء وبين جبل وبرّ يابس صلد ولشدة يبسه لا ينبت
فيه خضراء ولا ينفجر فيه عين ماء - قال ابن الاثير واعلم ان الشام خمسة
اجناد اولها من الفرات جند قنسرين ثم جند حمص ثم جند دمشق ثم
جند الاردن ثم جند فلسطين - قال وكل جند من هذه عرضه من ناحية
الفرات الى ناحية فلسطين وطوله من الشرق الى البحر - قال وفلسطين
كورة كبيرة تشتمل على بيت المقدس وغزة وعسقلان - قال ابن حوقل
جند فلسطين اول اجناد الشام من جهة الغرب من رفح الى حد اللجّون
وعرضه من يافا الى ريحا نحو يومين واما زغر وديار قوم لوط والجبال
والشراة فمضمومة اليها وهي منها في العمل الى حد ايلة - وديار قوم لوط
والبحيرة المنتنة وزغر الى بيسان والى طبرية يسمى الغوَر لانه بين
جبلين وسائر بلاد الشام مرتفع عليه وبعضها من الاردن وبعضها من
فلسطين في العمل - وقال ابن حوقل ايضا الغور اوله بحيرة طبرية
ثم يمتد على بيسان حتى ينتهي الى زغر واريحا الى البحيرة المنتنة
ويمتد كذلك الى ايلة - وفلسطين ماؤها من الامطار واشجارها وزروعها
اعذاء الا نابلس فان فيها مياها جارية وفلسطين ارخى بلدان الشام

ومدينتها العظمى الرملة وبيت المقدس يليها في الكبر - وبيت المقدس مرتفع على جبال يصعد اليها من كل مكان وبه مسجد ليس في الاسلام اكبر منه وبه الصخرة وهي حجر مرتفع مثل الدكة وعلى الصخرة قبة عالية جدا وارتفاع الصخرة من الارض قريب القامة وينزل الى تحتها بمراق الى بيت يكون طوله بسطة في مثلها وليس ببيت المقدس ماء جار سوى عيون لا تتسع للزروع وهي من اخصب بلاد فلسطين ومحراب داؤد بها - قال الحسن بن احمد المهلبي في كتابه المسمى بالعزيزي ان الوليد بن عبد الملك لما بنى القبة على الصخرة ببيت المقدس بنى ايضا هناك عدة قباب وسمى كل واحدة باسم - فمنها قبة المعراج وقبة الميزان وقبة السلسلة وقبة المحشر - قال وانما فعل ذلك ليعظم موقع القدس في نفوس اهل الشام فيتلهون به عن الحج الى بيت الله الحرام - قال فانه كان يكره مسير الناس الى الحجاز لئلا يطلعوا من اهل الحجاز على فضل آل بيت رسول الله صلعم فيتغيرون على بني امية والعهد عليه في ذلك - ومن بلاد فلسطين لدّ قال في اللباب بضم اللام وتشديد الدال المهملة وهو موضع بالشام وبه يقتل الدجّال ولدّ على شوط فرس من الرملة - ومن تلك الاماكن اللجون بفتح اللام وضم الجيم المشددة وهي قرية على نصف مرحلة من بيسان في جهة الغرب عن بيسان ومن الاماكن المشهورة بالشام الرقيم وهو بليدة صغيرة بقرب البلقاء وبيوتها كلها منحوتة من صخر كانها حجر واحد - والبلقاء احدى كور الشراة وهي خصبة وقاعدة البلقاء حُسْبان وهي بلدة صغيرة ولحسبان واد وبه اشجار وارحية وبساتين وزروع ويتصل هذا الوادي بغور زغر - والبلقاء عن اريحا على مرحلة واريحا عن البلقاء في جهة الغرب - وبحيرة زغر جنوبي اريحا على بعد شوط فرس وتعرف هذه البحيرة بالبحيرة المنتنة وليس فيها حيـوان ولا سمك ولا غيره وهي تقـذف بشيء يسمى الحمّر ويلطخ منـه اهل تلك البـلاد كرومهـم واشـجار تينهـم ويزعمـون

انه للشجر كالتلقيح للنخل - وعلى القرب من البحيرة المنتنة ديار قوم لوط وهي ديار تسمى الارض المقلوبة وليس بها زرع ولا ضرع ولا حشيش وهي بقعة سوداء قد فرش بها حجارة كلها متقاربة في الكبر ويروى انها من الحجارة المسوّمة التي رمي بها قوم لوط - ومن الاماكن المشهورة بالشام جبل عاملة وهو ممتد في شرقي الساحل وجنوبيه حتى يقرب من صور وعليه الشقيف الذي استرجعه الملك الظاهر بيبرس من ايدي الافرنج وكانت رعاياه في حكم الفرنج - وفي شرقيه وجنوبيه جبل عوف وكان اهله عصاة فبنى عليهم اسامة حصن عجلون حتى دخلوا في الطاعة وهو معقل حصين مشرف على الغور ولبلده اشجار وانهار وخصب كثير - وفي شرقيه وجنوبيه جبل الصلت كان اهله عصاة فبنى عليهم الملك المعظم حصن الصلت حتى دخلوا في الطاعة وبينه وبين عجلون مرحلتان وكذلك بينه وبين الكرك - وجبل الشراة في جنوبي البلقاء وخلفه البرية ويسكنه الآن فلاحون وفي جهة جبل الشراة الحميمة التي خرج منها بنو العباس الى الخلافة بالعراق وهي قرية على مرحلة من الشوبك - ومن الاماكن المشهورة بتلك الناحية معان - قال ابن حوقل ومعان مدينة صغيرة سكانها بنو امية ومواليهم وهو حصن من الشراة - اقول وهو الآن خراب ليس به احد وهو على مرحلة من الشوبك - ومن الاماكن المشهورة قارة وهي قرية كبيرة بين دمشق وحمص على نحو منتصف الطريق وهي منزلة للقوافل وغالب اهلها نصارى وهي عن حمص على مرحلة ونصف وعن دمشق على مرحلتين - ومن الاماكن المشهورة انطرطوس وهو حصن على بحر الروم وهو ثغر لاهل حمص وكان به مصحف عثمان رضه وفتحها المسلمون وخربوا اسوارها وهي آهلة - ومدينة مصياف هي بلدة جليلة وبها انهر صغار من اعين ولها بساتين ولها قلعة حصينة وهي مركز دعوة الاسماعيلية وهي في لحف جبل اللكام الشرقي - ومصياف عن بارين في جهة الشمال على مسافة فرسخ وعن حماة في جهة الغرب على مسيرة يوم

وعين الجر المذكورة في ترجمة صيدا بها آثار عظيمة من الصخور وهي عن بعلبك في جهة الجنوب على مرحلة قوية وبالقرب من عين الجر ضَيعة تعرف بالمجدل وهي على الطريق الآخذ من بعلبك على وادي التيم وينبع من عين الجر نهر كبير ويجري الى البقاع - قال ابن حوقل ومخرج انهر دمشق من تحت كنيسة يقال لها الفيجة وهو اول ما يخرج مقداره ارتفاع ذراع في عرض ذراع ثم يجري في شِعْب يتفجر منه العيون ثم يجتمع مع نهر يقال له بردى ويستخرج من ذلك سائر انهر دمشق - وبه مسجد ليس في الاسلام احسن ولا اكثر نفقة منه - فاما الجدار والقبة التي فوق المحراب عند المقصورة فمن بناء الصابئين وكان مصلاهم . ثم صارت لليهود وعبدة الاوثان - فقتل في ذلك الزمان يحيى بن زكرياء عم ونصب راسه على باب هذا المسجد المسمى باب جيرون ثم تغلب عليه النصارى وعظّموه حتى جاء الاسلام - فصار للمسلمين مسجدا وعلى باب جيرون حيث نصب راس يحيى بن زكرياء نصب راس الحسين بن علي رضهما - ولما كان في ايام الوليد بن عبد الملك عمّره - فجعل ارضه رخاما مفروشا وجعل وجه جدرانه رخاما مُجزعا واساطينه رخاما موشّى ومعاقد رؤس اساطينه ذهبا وسطحه رصاصا ويقال انه انفق عليه خراج الشام - قال المهلبي انه وجد في ركن من اركان الجامع بدمشق مكتوب بنى هذا البيت ذامسقيوس على اسم اله الآلهة زيوش - قال وذامسقيوس اسم الملك الذي بناه وزيوش تفسيره بالعربية المشتري - ومن الاماكن المذكورة مرج راهط قال في المشترك وهو في غوطة دمشق من ناحية المشرق وبه كانت الوقعة بين اليمانية والقيسية وكانت الغلبة فيها لمروان واليمانية وانهزمت القيسية واستقر امر مروان بن الحكم المذكور في الخلافة وكان ذلك في سنة اربع وستين للهجرة واكثرت الشعراء ذكر هذه الوقعة ومرج راهط . ومن الاماكن المشهورة معرة نسرين بالنون والسين المهملة عن السمعاني والمشهور انه معرة مصرين بميم وصاد مهملة - قال ابن حوقل ومعرة نسرين

مدينة متوسطة وما حولها من القرى اعذاء ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين وكذلك اكثر ما بجميع جند قنسرين اعذاء ومياههم من السماء - ومن الاماكن المشهورة بالشام الاثارب - ومن بلاد الشام المشهورة كورة قورُس - ومن الاماكن القديمة المشهورة مدينة الوستن وكانت عامرة في قديم الزمان وهي اليوم خراب وبها بيوت كالقرية وآثار العمارة والجدران وبعض العُقود بها ظاهر وكذا بعض ابواب المدينة واسوارها وقُنيّها وهي في جنوبي نهر العاصي على جبل اكثره تراب سطحها في المنبسط الآخذ الى حمص وهي بين حمص وحماة ويقال انها خراب من زمن فتوح الشام - ومن الاماكن المشهورة مدينة الفوعة وهي وسرمين ومعرة مصرين في بقعة واحدة من اعمال حلب في جهة الجنوب على مرحلة منها ولهذه البقعة الاشجار الكثيرة من الزيتون والتين وغير ذلك - ومن الاماكن المشهورة عزاز وهو حصن مشهور وعمل وهو في شمالي حلب بميلة الى الغرب قال ابن سعيد ولهذه المدينة اعني اعزاز جهات في نهاية الحسن والطيبة والخصب وهي من انزه الاماكن التي في جهاتها - قال في اللباب ومن اعمال حلب عَزَازٍ قال وهي قلعة بالقرب من حلب - ومن الاماكن المشهورة حصن تل باشر - قال ابن سعيد حصن تل باشر على مرحلتين من حلب فيه المياه والبساتين - ومن الاماكن المشهورة خناصرة وهي في طرف البرية شرقي حلب بميلة إلى الجنوب على مرحلتين منها وقال في كتاب الاطوال للفرس طولها اثنتان وستون درجة ونصف درجة وعرضها خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة - قال ابن حوقل كان يسكنها عمر بن عبد العزيز احد خلفاء بني امية - ومن كور حلب كورة الحيار وهي في زماننا برية ليس بها غير الوحوش ولكورة الحيار ذكر في كتب البلدان - قال احمد الكاتب وكورة الحيار وتعرف بحيار بني القعقاع قال واهلها عبس وفزارة وغيرهم - قال ياقوت الحموي في المشترك الاحص وشبيث هما موضعان بنجد وهما ايضا موضعان ببلاد حلب - قال فاتفاق الاحص وشبيث بهذين الموضعين المتباعدين عجيب

والاحص جبل متسع فيه عدة قرايا وهو شرقي حلب بينها وبين خناصرة وخناصرة في طرفه الشرقي واما شبيث فهو جبل اصغر من الاحص وهو شرقيه وبينهما واد سعته شوط فرس وفيه خناصرة - ومن الاماكن المشهورة بالشام العواصم - قال ابن حوقل واما العواصم فاسم للناحية وليس موضعا بعينه يسمى العواصم وقصبتها انطاكية وعدّ ابن خرداذبه العواصم فكثرها وجعل منها كورة منبج وكورة تيزين وبالس والرصافة وهي التي تقدم ذكرها وتعرف برصافة هشام وكورة جومة وعد منها ايضا اقليم شيزر وافامية واقليم معرة النعمان واقليم صوّران واقليم الإِطّمين واقليم تل باشر وكفرطاب واقليم سلمية واقليم جوسية واقليم لبنان الى ان بلغ الى اقليم القسطل بين حمص ودمشق - ومن بلاد الشام السويديّة - قال ابن سعيد السويدية على مصبّ نهر العاصي وقال والى هنا ينتهي بحر الزقاق مشرقا ثم يلتوي الى الشمال فيكون في القوائم جون الارمن والمدن المشهورة عليه على شمالي البحر اول ما يكون من البلاد المصيصة على نهر جيحان - قال ابن سعيد وبين منبج والفرات حيث قلعة نجم والجسر اعني جسر منبج خمسة وعشرون ميلا - وهذه القلعة في السحاب وكان يقال لذلك المكان حصن منبج فصار يعرف بقلعة نجم وهو من بناء السلطان محمود ابن زنكي - قال وهذا الجسر جزنا عليه الى حران وفوقه بمرحلة جيدة حصن بدّايا يجاز عليه الى سروج - ومن الاماكن المشهورة بالشام زبطرة - قال ابن حوقل واما زبطرة فانها حصن من اقرب الثغور الى بلد الروم خربها الروم وزبطرة اليوم خراب خالية من الزرع والسكان ولم يبق منها غير رسم سورها وليس بالكثير وهي في ارض مستوية والجبال تحيط بها والشعرة من جميع جهاتها على القرب منها وهي في الجنوب عن ملطية على نحو مرحلتين وهي في جهة الغرب عن حصن منصور على نحو مرحلتين ايضا وبينها وبين حصن منصور الجبل والدربند ولقد اجتزت بها فى عام وتحِنا ملطية فى المحرم سنة خمس عشرة وسبعمائة وكان فى شهر

نيسان واصطدنا من ارض زبطرة بين شجرة البلوط صيودا كثيرة وهي ارانب كبار الى الغاية لا يوجد في الشام ارانب تقاربهن في القدر - قال في المشترك الثغر بفتح المثلثة وسكون الغين المعجمة وفي آخرها راء مهملة - قال وهو اسم لكل موضع يكون في وجه العدو - فثغور الشام كانت اذنة وطرسوس وما معهما فاستولى عليها الارمن وكذلك كان ببلاد ما وراء النهر بلاد تسمى الثغور - فاستولى عليها الكفار - وكذلك كان بالاندلس وغيرها - قال في اللباب والارمن طائفة من الروم ويقال لبلادهم بلاد الارمن - وقد عد ابن حوقل ملطية من جملة بلاد الشام - فقال وملطية مدينة كبيرة من اكبر مدن الثغور التي دون جبل اللكّام - ثم قال وهي من قرى بلد الروم على مرحلة واما نحن فعددناها في بلاد الروم وهو اليق بها - واما ابن خرداذبه فقد جعل ملطية من الثغور الجزرية وعدها منها - ومن الاماكن المشهورة من هذا الاقليم الكنيسة والهارونية وهو من جملة بلاد الارمن والهارونية نسبة الى بانيها هرون الرشيد - قال في المشترك والهارونية مدينة صغيرة اختطها هرون الرشيد بالثغور في طرف جبل اللكام - قال في العزيزي ومدينة الهارونية آخر حدود الثغور الشامية مما يتصل بالحدود الجزرية وبينها وبين الكنيسة السوداء اثنا عشر ميلا - ومدينة ريحا المذكورة قال في المشترك ويقال لها اريحا بزيادة الف في اولها قال وهي قرية الجبارين اقول ولها ذكر في كتب الاسرائيليين - قال في العزيزي هي اول مدينة فتحها يوشع بن نون من اعمال الشام على اربعة اميال منها مشرّقا نهر الاردنّ ويزعم النصارى ان المسيح تعمّد في ذلك الموضع وعنده مقالع الكبريت وليس بفلسطين معدن غيره - قال وباريحا يزرع الوسمة فيعمل منها النيل وبينها وبين بيت المقدس اثنا عشر ميلاً في جهة الغرب *

القسم الخامس من الجزء الاول

نخبة من رحلة صادق باشا الى صحراء افريقية الكبرى

قد ذكرنا آنفا انه قد عزمنا على السفر من بنغازي سلخ شهر ايلول يوم السبت - فاخبرنا زعيم القافلة ان الابل التي استأجرناها قد حضر بعضها الى البلدة ليلاً وبعضها خارج البلدة - فركبنا من بنغازي ذلك اليوم اعني يوم السبت الساعة ٥ ٣/٤ نهاراً وتوجهنا نحو الثكنة العسكرية التي هي في خارج البلدة على مسافة نصف ساعة منها حيث تقرر اجتماع القافلة هناك - وخرج معنا رجل له ولع بالتصوير فاخذ رسم القافلة - ولما وصلنا الى الثكنة لم نجد الابل التي اخبرنا صاحبها انها وصلت الى خارج البلدة - فبقينا تلك الليلة في الثكنة ولا يخفى ان عرب البادية يقربون البعيد لاعتيادهم على قطع المسافات الشاقة ولانهم لا يستعملون الساعات ولا يعرفون حساب الاوقات لذلك ترى احدهم يقول لك ها هي البئر الفلانية ويشير باصبعه الي جهتها فتظن ان بينك وبينها ربع ساعة او ساعة هيهات هيهات فاذا بينك وبينها مسافة يوم او يومين واذا قال لك قد وصلت اليها فتسير الى آخر النهار ولا تبلغها - فكان اخبار صاحب الابل لنا بالامس عن وصولها الى خارج البلدة كان من هذا القبيل ومن عادتهم في تقريب البعيد ومن ثم لا يوثق بكلامهم قط - فلما امسينا ولم تحضر الابل ضاق صدري فاحضرت صاحبها وقلت له اين ابلك فقال الآن تحضر وهو كاذب فامرت جنديا ان يذهب معه ولا يمكنه من الاستراحة في محل ابداً حتى يجدا الابل ويأتيا بها - فخرجا من الثكنة الساعة ٤ ليلاً وبقينا في انتظارهما - فلما كانت الغداة ومضى من النهار تسع ساعات ولم يرجعا

ولم تحضر الابل عزمت على السفر في ذلك اليوم البتة على ان نستعير من ابل الجنود السلطانية مقداراً كافياً تحمل اثقالنا الى حيث نجتمع بابل القافلة ثم نعيدها الى محلها واتفقنا على ذلك فخرجنا من الذكنة الساعة ٩ نهاراً وسرنا وخرج معنا الناس من اهالي بنغازي بنية ان يصحبونا لاول مرحلة للوداع - فبعد ان ساروا معنا قدر ساعة شكرت لهم سعيهم واقسمت عليهم ان يعودوا فرجعوا ثم سرنا فلما مالت الشمس للغروب استقبلنا على الطريق رجل اسمه مصطفى الرخيص وله بستان هناك فكلفنا للطعام عنده في بستانه وكان قطع المسافة احب الي من الطعام لكنه اصر على تكليفه ووافقه اصحابنا وقالوا دع القافلة تسير امامنا فمهما قطعت الابل بسيرها فان جيادنا تلحقنا بها فما رأيت ان اخالفهم وتحاشيت من كسر قلوبهم - فاجبت الدعوة وفي الحال نحر لنا شاةً ووضعت في المرجل وقد كنت اعهد انهم يأكلون اللحم قبل ان ينضج - فامرت رجلا كان معنا من المهاجرين من اهالي بوسنه ان يشوي لنا شيئا من قلب الشاة ويحضره لي مع الطعام لانه لا يمكن التخلف عن الجلوس معهم على المائدة ولا اظهار الانفة من اكل طعامهم الغير الناضج - فلما طعمنا ركبنا في الحال - فخرج صاحب البستان لوداعنا فودعنا - ثم سرنا فاذا الذين تخلفت واياهم عن القافلة ليس فيهم من يعرف الطريق فكانت اجابتنا لدعوة ذلك الرجل بلاء علينا فغدا كل منهم يسلك بنا طريقاً غير الثاني وهم على غاية الخجل ولم نزل نخبط في الليل خبط عشواء راكبين متن عمياء حتى سمعنا نبح كلب - فسرنا نحوه فاذا ثم مزرعة - فقرعنا الباب - فخرج الينا اناس من البدو فرافقنا رجلان منهم وسلكا بنـــا الطريق حتى اوصلانا الى خوابي وهي المرحلة الاولى التي نحن متوجهون اليها - فلما وصلنا الى المرحلة وجدت خيمتي قد ركزت على ما يرام وكانت هذه الليلة اول ليلة بت فيها في خيمة *

يوم الاثنين ٢ تشرين اول فلما اصبح الصباح اذن المؤذن واقيمت

الصلوة وبعد ان قضيت الفريضة سرنا من هناك الساعة ١٢ - فوصلنا الى ابو ادريس بعد الظهر- فوجدنا الجندي والبدوي اللذين ارسلناهما من بنغازي من الكنة العسكرية قبل يومين لاحضار الابل ينتظراننا في المرحلة وكان حضرة متصرف بنغازي قد ارسل بعد ان ارسلناهما ضابطاً وجنديين على اثرهما ولولا ذلك لما وجدناهما ايضاً هناك - ففي الحال نقلنا احمالنا عن ابل العساكر التي استعرناها الى الابل المستأجرة - ثم سرنا فاجتمعنا في الطريق بقافلة مركبة من اربعين جملا مقبلة من واداي - فلما علم اهل تلك القافلة اني من خدم حضرة امير المؤمنين وحاشيته قابلني جميعهم بالاحترام والتعظيم وهرعوا الى تقبيل يدي وكذلك كل من رأيته من العرب ومشائخهم في الطريق فانهم كانوا يعاملوني بالاكرام والتعظيم - ثم اخبرتنا القافلة انه قد اتت شرذمة من الدراويش المتمهدية الى جوار واداي الا انهم لم يتعرضوا لاحد ولا اقتتال ثم كروا راجعين - وانهم رأوا حضرة السيد محمد المهدي السنوسي في كفرة وان اناساً كثيرين دعوه للاقامة في ريان وهي ارض لطيفة الهواء عذبة الماء فلم يجبهم الى ذلك ولم يرض بمفارقة كفرة واخبرونا ايضاً انه مضى على خروجهم من واداي مائة يوم ورأيت مع هذه القافلة شيئاً من العاج (سن فيل) وريش النعام - وفي الساعة ٧ نهاراً تراءت لنا في وسط البر قربة سيدي كيلاني احد الاولياء الكرام - فانفردت عن القافلة وسرت اليها - فنزلت عندها للراحة في ظل ذاك البناء وقعدت اتفكر معجبا بتلك الارض التي قطعناها ذاك اليوم وهي برقة الحمراء وهي ارض لينة التراب جداً مع قوتها يزرع العرب فيها قليلا من الشعير والحنطة فيحرثونها بسكك صغيرة لا فرق بينها وبين محافير الدهاقين وزناً وحجماً - فيحرثون تلك الارض بتلك السكك على جمل او على اتان فان لم يجدوا ذلك اجتمع اثنان منهم ويأخذ كل منهما باحد طرفي السكة - فيحرثون الارض بايديهم ولا يحتاجون الى دابة ولا غيرها . فتدخل السكة في الارض

مقدار اربعة اصابع - ولا يعمرون الارض بالسبخ الا ان المواشي التي تمر بها
يبقى فيها اسباخها فتكتفي الارض بها فقط - وترى تلك الارض مع ترك
الاعتناء بشانها وحراثتها وفقدان الماء الجاري بها واكتفائها بماء المطر
يحصل فيها مائة صاع من صاع واحد وتؤتي اكلها في العام مراراً وقد
اخبرني الشيخ عبد العزيز افندي ان الحبة الواحدة من الشعير في سنين
الخصب متى نبتت وخرج شطؤها يرى لها ساق غليظ يربطون ارسان
دوابهم به لقوته فلو اسكن فيها اناس من المهاجرين واعطوا الارض حقها
من العمل والحرث وحفروا بها الآبار للسقي لاخرجت تلك الارض كنوزها
واغنت اهلها بدخلها لان العرب الذين هم مقيمون بها لا يحسنون الزراعة
ولا يعملون حق العمل لان غذائهم التمر والبان الابل ودقيق الشعير
فقط قد اكتفوا بها عما سواها فمن ثم ليس لهم همة ولا رغبة في الزراعة
نعم اهالي البلاد القريبة من الساحل هناك يعتنون قليلاً بالزراعة وينشئون
بساتين ذوات آبار يسمونها سانية الا ان ما يزرعون ويعتنون به بالنسبة الى
تلك الاراضي الواسعة وقابليتها هو واحد من الف - ثم سرنا متوجهين
الى طيلمون التي هي المرحلة الثانية من بنغازي ومعرسنا تلك الليلة
وفي اثناء الطريق رأيت حية عظيمة فقتلتها - ولما قربنا من طيلمون
استقبلنا قبل الوصول الى البلدة شيخ قبيلة سيدي درمامه احد مشايخ
ارض برقة فرافقنا الى البلدة وبرقة هذه كانت تعرف في العصور الخالية
ببلدة (كيرَنابكا) بالنسبة الى بلدة كيرَنه التي كانت هي البلدة الوحيدة
في تلك الجهات وانما سميت اخيراً برقة تسمية لها باسم بلدة براقة
القديمة وارتفاع هذه البلدة عن سطح البحر ٣٠٠ متر وكانت تعرف في
زمن البطلميوسين ببلدة بنتابوليس بالنسبة الى البلاد الخمسة التي كانت
مشهورة اذ ذاك وهذه الارض اعني ارض برقة كما انها ممتازة بقوة الانبات
فان في جهتها الشمالية الجبل الاخضر الذي هو مجاور لساحل البحر
فيه الاحراش الواسعة والمرتبعات الجميلة والعيون الجارية وفيه احراش

زيتون كثيرة باقية من القرون الماضية يستحصل منها عرب تلك البادية الى اليوم زيتاً طيباً جيداً للغاية على الاصول القديمة المستهجنة وهو انهم يجعلون حب الزيتون بين حجرين فيكسرونه ثم يغلونه بالماء فيستخرجون الزيت بهذه الصورة - واذا ارادوا ان ينقلوا ذلك الزيت الى ساحل البحر اوصلوه بواسطة مجار يصنعونها شبيهة بميازيب الماء وتلك المجاري باقية الى اليوم وفي هذه الاحراش الموجودة في ذلك الجبل اشجار من السرو ايضا ومنها جلبوا الاعمدة والاخشاب وسائر الآلات الخشبية التي بنوا بها الثكنة التي بنيت منذ سنوات في بنغازي ولذلك من دخلها يشم منها راحة عطرية وفي صحاري برقة هذه كثير من الغزلان والحجل والارانب ويوجد في اطراف ذلك الجبل كثير من الحمام البري والحجل وسائر طيور الصيد *

وقد كان هاجر منذ سنوات الى هذا الجبل خلق كثير من المانيا للاقامة هناك على ان يكونوا من تبعة الدولة العلية وهذا برهان على لطافة هواء تلك الارض ومائها ووجود قابلية طبيعية فيها للترقي والعمران - وفي الساعة ٩ وصلنا الى طيلمون - فاستقبلنا شيخ زاوية السنوسية ومريدوه وطائفة من العرب افواجا فانزلونا في حجرة لطيفة في الطبقة العليا من الزاوية المذكورة واكرموا منزلنا ولما اخذنا مجلسنا جاؤا الينا باناء كبير فيه لبن ابل عوضا عن القهوة فشربنا منه - وقد كنت في رحلتي الاولى الى هذه الارض وجدت ضعفا في المعدة من شرب البان الابل فكنت عازما على ان لا اشرب منه في هذه المرة غير ان قلة الماء وبلوغ الظماء من الانسان في هذا السفر الشاسع يضطره لشربه طوعا او كرها *

ولما اخذنا حظا من الراحة في الزاوية كانت قافلتنا قد وصلت الى البلدة ونصبت لنا خيامنا خارجها - فاستأذنّا القوم بالخروج الى خيامنا اذ لم يبق للمبيت في الزاوية لزوم وشكرناهم على اكرامهم وخرجنا الى الخيام وبعد ان وصلنا اليها جاء اليّ شيخ معه رجال يحملون

هدية قد ارسلت الي من الزاوية - فهممت بردها لكفاية الزاد الذي معي لمؤنتي - فقال لي احد اصحابي الذين معي ان رد هديتهم يعدونه احتقارا لهم حسب عوائدهم ومن ثم لم اجد سبيلا الى ردها . فقبلتها وشكرتهم واثنيت عليهم خيرا - ثم بتنا تلك الليلة في طيلمون بجوار الزاوية وفي الساعة ٩ ليلاً انتبهنا من النوم وبعد ان شربت شيئا من حليب الابل عمدت الى قطع قد صنعتها في بنغازي من القصدير في حجم المجيدي وكتبت عليها ارقاماً بالقطران من واحد الى مائة - فجعلت في عنق كل جمل واحدة منها وعلى كل حمل من الاحمال ايضا لئلا تتشابه علينا - ثم كتبت النمر التي جعلتها على الاحمال في دفتر وكتبت تحت كل نمرة من نمر الاحمال ما في ذلك الحمل من المتاع - فصرت اذا اردت ان اخرج منها شيئاً نظرت في الدفتر - فقلت لمن معي اخرجوا كذا من الحمل الذي نمرته كذا ولولا هذه القاعدة التي اتخذتها لصعب علينا اخراج ما نريده من احمالنا لتشابهها وكثرتها *

وفي هذه الساعة اهدي الينا ثلاثة خرفان وشاة - ثم جاء عندنا مشائخ العرب للوداع وبعد ان جلسوا هنيهة ودعناهم وسرنا وكانت درجة الحر في ذلك اليوم ثلاثين سانتيغراد في الظل واربعين خارج الظل - فرأيت درجة الحر في هذه السنة ليست بشيء بالنسبة لدرجة حر السنة الذي شاهدته في سفري الماضي اذ كان ميزان الحرارة فيها خمسين في الظل واثنين وستين خارج الظل وفي الساعة ٧½ وصلنا الى اراضي الكريسا فوجدنا هناك بيوت عرب وبيادر حنطة وشعير ورأيت من الجملة ترابا قد جمع - فجعل كالتلال - فتعجبت من ذلك ولم ادر لم صنعت تلك التلال - فسألت عنها فقيل لي ان من عادة عرب هذه البادية متى خرجت محصولاتهم يرفعون ما يحتاجون اليه منها وما بقي يجعلونه تحت هذه التلال وحيث كان ذلك التراب لزجاً فاذا اصابه الماء عند نزول المطر فيبقى الحب تحته محفوظاً هكذا ولو مكث عشر سنين وفي هذه البقعة

الارض المعروفة بالزفارير على مسافة نصف ساعة منها وفي اثناء وقوفنا ثمة جاء الينا طائفة من العرب وسألوا عني حاشيتي وقالوا من منكم ياور الخليفة فاشاروا اليّ فهرعوا نحوي فمنهم من قبل يدي ومنهم من ترامى على اقدامي ورحبوا بي وغدوا يهنئوني بما نلته من السعادة بخدمة سيدنا ومولانا امير المؤمنين - ثم رغبوا الي بالنزول للاستراحة فشكرتهم ولزمنا السير واني لاعجب من اتصال الاخبار بسرعة في هذه البادية التي لا بريد فيها ولا تلغراف فاني بوصولي الى بنغازي كان اتصل خبر سفري الى كفرة باهل تلك البوادي كلها ولا يعجب من ذلك فان من عوائد اهل البادية متى اجتمع احدهم في اثناء سيره بآخر او قافلة مع قافلة اخرى استقبل بعضهم بعضاً واخذ يسأل كل منهم الآخر من اين اتى والى اين هو ذاهب وما رأى في البلدة التي فارقها وما سمع - ثم يختمون ذلك بقراءة سورة الفاتحة ويتفرقون لا سيما القوافل التي تمر بالساحل هناك فانها تضطر للوقوف في الطريق مرات عديدة لكثرة من يتلقاها من اهل تلك الارض وحرصهم على معرفة الاخبار و الوقوف على الآثار الا انهم لا يستوقفون القافلة ولا يؤخرونها عن السير بل يمشون مع القافلة ريثما يتلقون الاخبار منها ثم يرجعون الى مواطنهم - وبهذه الوسيلة يتوصلون الى معرفة الاخبار ويتداولونها فيما بينهم بسرعة - ثم توجهنا من الكريسا فصحبنا احد مشائخها مشيعاً لنا الى المرحلة التي بعدها - فوصلنا الساعة ٩ الى زماخ وفي الساعة ١٠ الى آبار شربقة والساعة ١ ليلاً الى بئر بيضفيم - فوجدنا هناك مدير جدابية ومعه ثلاثون جنديا من البيادة و اربعة وعشرون جندياً من السواري وضابطان احدهما سواري والآخر بيادة - فاستقبلونا ورحبوا بنا واكرمونا غاية الاكرام وقدموا لنا اطعمة نفيسة بالنسبة لحال السفر والمسافر - فبتنا تلك الليلة هناك - فلما اصبحنا توجهنا منها الساعة ١ - فوصلنا الى بساتين الاجرد بعد الساعة ٣ نهاراً - فنزلنا هناك لاجل الطعام وفي الساعة ٦ سرنا منها وفي هذه الاثناء ندّ بعير من جمال

الاحتياط فتبعه بدوي كان معنا فلم يزل في اثره حتى امسكه بعد ان قطع مسافة ٦ او ٧ كيلومترو - فاستغربت ما رأيت من جلده وصبره على قطع هذه المسافة وشدة جريه فاخبرني من معي من اصحابي ان هذه المسافة ليست بشيء بالنسبة الى المسافات التي تقطعها البدو في سيرها وحدثوني بجملة حكايات عنهم منها ان بدوياً ند له بعير في ارض سيوا فتبعه فلم يزل يجري في اثره بلا وقوف حتى لحقه في جغبوب فامسكه والمسافة بين سيوا و جغبوب ثلاثون ساعة على سير الابل وهذه الحكاية مشهورة عند اهالي سيوا - ومنها انه لزم يوماً من الايام للحكومة في بنغازي ابل لاجل نقليات العسكرية فارسلت الحكومة صالحين افندي ابو زبلح احد اعيان البلدة لجلب ابل من عند العرب - فذهب فاستأجر مائة بعير - فوصل بها الى ثكنة الجنود في بنغازي الساعة ٩ ففي هذه الاثناء نفخ بالبوق من الثكنة فنفرت الابل وتفرقت في البادية فتبعت الجنود اثرها حتى جمعوها بعد اللتيّا والتي الا ستة منها لانها كانت توغلت في السير وقطعت بنفورها مسافةً فارسل في اثرها صالحين افندي المذكور واثنان من الجند السواري وبدوي فلم يزالوا يجرون خلفها والبدوي يجري معهم على اقدامه حتى امسكوا اربعة منها بعد قطع مسافة ثلاث ساعات وقد كلت الخيل من الجري وارفضت عرقاً ودخل الليل - فحينئذ رجع صالحين افندي والجنديان بالاربعة التي امسكوها وبقي البدوي يقفو اثر الآخرين الى الساعة الثالثة من الليل حتى امسكهما ورجع بهما الى الثكنة منتصف الليل - اخبرنا بهذه الحكاية صالحين افندي المذكور *

يوم الخميس ٥ تشرين الاول انتبهنا ذلك اليوم الساعة ١٠ صباحاً - فشددنا رحالنا وفارقنا محلنا الساعة ١٢ - فوصلنا الى بئر سبيكة الساعة ٢ فوقفنا في ذلك الموضع ريثما سقيت الابل وملئت القرب ماءً وذبح شاة لطعامنا تلك الليلة لان من عادة العرب اذا ذبحوا شاة او بقرة لا يزالون يغلونها بالماء حتى لا يبقى في نحرها اثر للدم فادلك امرتهم بالذبح ثمة

خوفاً من نفاد الماء لاني اعلم ان محط رحالنا تلك الليلة في مفازة ليس فيها ماء ابدا ولما سلخت الشاة امرت بتفريقها على اهل القافلة و سبب ذلك ان القافلة مركبة من اجناس متنوعة مختلفة الاذواق وعاداتهم متباينة في الطبخ اما انا ومن معي من العساكر السلطانية فكان يهيىء لنا طعامنا سليمان الاونباشي احد افراد تلك العساكر و هو الطعام العثماني المألوف واما من صحبني من اهالي بنغازي فكان يطبخ لهم طعامهم خدامهم وعبيدهم فيمزجونه لهم بالفلافل المختلفة والبهارات المتنوعة على عادة اهالي بنغازي واكثر البلاد الحارة وكنا نتهادى الطعام فهم يهدون الينا طبقاً ونحن نقابلهم بمثله اما هم فكانوا يضعون للطعام الذي نهديه الفلافل والبهارات على حسب ذوقهم ثم يأكلونه و يتلذذون اما طعامهم الذي كانوا يرسلونه الينا فكنا لا نكاد نسيغه الا بالتوكل وحسن الظن فكنا نأكل منه شيئاً بغاية التكلف *

لا سيما اللحوم التي كنا نطبخها فكان بين ما يطبخونه منها وما نطبخه نحن فرق عظيم اذ عادتهم في اللحم انهم يجعلونه على النار ثم ينزلونه قبل ان ينضج فيأكلونه بهذه الصورة غير ناضج اما كيفية اكلهم فهي غريبة جدا فانهم يعمدون الى قصعة فيضعون فيها قطعا كبيرة من اللحم - ثم يجلسون حول القصعة حلقة - فيأخذ كل منهم قطعة من اللحم باحدى يديه او بكلتيهما على حسب كبر القطعة فينهشها ثم يمضغها مضغاً متوالياً - واغرب ما يرى اذ ذاك تعاقبهم على القطع فهذا يلقي القطعة التي في يده للآخر وذاك يقابله بمثلها لانه عند ما يحضر الطعام ويجلسون للاكل هذا يأخذ فخذ الشاة وذاك يتناول رقبتها وذاك يأخذ من اعضاءها السائرة - فاذا نال احدهم حظاً من القطعة التي في يده ناولها للآخر لينال منها حظاً - فيقابله الآخر بالتي في يده لا سيما اذا كان بينهم ضيف فالذي يكون في يده قطعة ذات دسومة فانه يقدمها للضيف ويكرمه بها بعد ان ينال منها - فهذه عادتهم في موائدهم الا ان هذه العادة مختصة

بقبائل دون اخرى لا بجميع اهالي بنغازي فان من يحضر موائد الاغنياء والمتمدنين منهم يظن انه جالس على مائدة احد اعاظم الاستانة واكابرها لانتظامها وحسن ترتيبها *

اما المكارية فانهم يأخذون الاكارع والرأس والكرش والقلب وغير ذلك فيجعلونها في وعاء ويرفعونها على النار فيغلونها قليلا - ثم يلقون عليها شيئاً من الدقيق والارز والبرغل او الكسكسون او ما يجدونه - فاذا تم طبخ ذلك صبوه في قصعة من الخشب - ثم يتناولونه ويتخاطفونه قبل ان يبرد *

فبعد ان استرحنا عند بئر سبيكة قدر ثلاث ساعات وطبخنا طعامنا وملأنا القرب توجهنا من هناك وقد ذهب شطر النهار - فبينما نحن نسير وقد مالت الشمس للغروب عرض لنا سرب ظباء من بعد على مسافة كيلومتر - فجعل صالح وسعيد من افراد العساكر الذي معنا يرميانها بالرصاص - فلم يصيبا منها شيئاً - فذعرت الظباء وتفرقت في البادية الا انها كانت لا تبعد عنا وقد احاطت بنا كالدائرة - فاسرع مصطفى الاونباشي وهو ارمى العساكر التي معنا فرمى واحداً منها فاصابه فاسرعنا اليه لنذبحه - فلما رآنا صرخ وقام يجري وهو مجروح يريد النجاة منا وكان الرصاص لم يصل الى داخل جسده الا انه قد شق جلده وجرحه في ظهره جرحاً عظيماً - فلحقه مصطفى المذكور وامسكه بعد ان راوغه قليلاً - ثم ذبحه - وكان عويل هذا الظبي لما اقبلنا عليه لنمسكه قد احزنني فما استطعت ان آكل منه شيئا *

يوم الجمعة ٦ تشرين الاول - انتبهنا ذلك اليوم الساعة ١٠ صباحاً ثم فارقنا سبيكة الساعة ١٢ وكانت العساكر سائرة امام القافلة مشاة لان الهواء كان رخيما لطيفاً عند الصباح - فصادفوا ذلك اليوم ايضاً سرباً من الظباء - فرمى منها مصطفى الاونباشي ظبياً فاصابه وكان سميناً - ففرحت به عرب القافلة - فسلخه شاب منهم اسمه سليمان وهو على ظهر الجمل بدون ان يمزق شيئاً من جلده - ثم شق صدره واخرج معاه وحفظه ليطبخوه

في المساء - وهذا ايضاً مما امتاز به البدو من انهم يعملون في حالة الظعن ما يعملونه وهم مقيمون ومن ذلك ايضا اذا وجد احدهم جملاً خفيف الحمل وركبه خاط لنفسه او لابنه او لعبده وهو راكب قميصاً او صنع حذاء او اخذ شيئاً من الليف بيده وصنع منه حبلاً متيناً الى غير ذلك من الاعمال او إنه ينكب على ظهر الجمل على وجهه او يستلقي على قفاه متعرضاً للشمس - فينام غير مبال بهزة الجمل التي لا نقوى نحن عليها *

فلما كانت الساعة الخامسة ونصف من ذلك اليوم الذي فارقنا فيه سبيكة اعني يوم الجمعة وقفنا في الطريق قدر نصف ساعة لاجل الطعام - ثم سرنا فمررنا الساعة ٩ بوادي الفارغ المرسوم في خريطة هذا الكتاب وكان بئر الوقادية اعن شمالنا - فعرسنا تلك الليلة في وسط البادية -

فلما اشرت الى القافلة بالوقوف بادر كل واحد من العسكر والساقة لعمله - فاشتغل صالح الجاويش ورفيقه سعيد والاونباشي مصطفى بنصب الخيام وركزها وسليمان الاونباشي بانتخاب محل للطبخ وصف صناديق الذخيرة من جهة مهب الرياح لتكون واقية منها ثم بادر لطبخ الطعام - واخذ البيطار حسين الاونباشي الخيل يروحها من التعب ويضرب لها اوتاداً ويربطها بها ويسقيها ويقدم لها علفها - اما ساقة الابل فانهم اشتغلوا بانزال الاحمال عن ظهور الابل وبعد ان انزلوها وصففوها على الترتيب في اطراف الخيمة المختصة بي فمنهم من اشتغل باصلاح شأن الله ومنهم من اشتغل بطبخ طعامه - اما انا فكنت اراقب اعمال الجماعة واشغالهم وبعد ان اتم كل عمله اخذت كرسيا فوضعته امام مدخل الخيمة وجلست اسرح طرفي في محاسن الطبيعة وما اودع الله بها من حسن المنظر واللطافة - فلما اخذت حظا من الراحة وجدت ان الانحطاط الذي كنت احسه في النهار من الحر والتعب قد زال اثره - ولا بدع ان الذي يتمتع بمثل تلك المناظر التي رسمتها يد الطبيعة وبشميم عرف العرار والبشام وتتغذى روحه بسماع الحان اهل البادية المؤثرة لا سيما في ليالي القمر وقد اضاء على الصحاري فامطر

فوقها رواق من النور يكاد يأخذ بالابصار لجدير بأن ينسى جميع ما قاساه قبل ذلك من التعب والنصب.

ثم بعد ان استرحت قدر ساعتين حضر الطعام فاكلت بلذة عظيمة. ثم ذهبت الى خيمة رفقائي فجلست معهم واخذنا نتعاطى اقداح الجاي فان اهل تلك البلاد كلهم مغرمون بشرب الجاي صيفا وشتاء خريفا وربيعا فلا بدّ ان يتناولوا منه في كل يوم ثلاث مرات البتة حتى في السفر وهكذا رفقائي فانهم متى عرست القافلة كانوا يجلسون في خيامهم ويروحون انفسهم بالجاي الى ان يحضر الطعام ويشربون من الجاي الاسود والاخضر انما يطبخونه بخلاف ما نطبخه نحن فان الماء الذي نضع فيه نحن قدر ملعقة صغيرة من الجاي فانهم يضعون فيه قدر عشر ملاعق او خمس عشرة ملعقة ومن ثم يكون شديد السواد مرا ولذلك يضعون فيه سكرا بتلك النسبة لنزول مرارته ولأجل هذا لا يمكننا نحن ان نشرب منه ولكني كنت اذا جلست اليهم واسقوني منه اخذت مقداراً من القدح الذي يقدمونه الي فجعلته في قدح كبير فاصب عليه من الماء الفاتر بقدر ما يصير في قوام الجاي الذي نستعمله في بلادنا ثم اشربه.

ثم بعد ثلاث ساعات سكنت القافلة وهدأت الاصوات واخذ كل مضجعه ما عدا الحرس وغرق القوم في النوم *

يوم السبت ٧ تشرين اول — فلما مضى ثلثا الليل نودي في القافلة بالتهيؤ للسير وبعد ساعة سرنا وفي مقدمتنا دليل القافلة يحمل مصباحاً لاجل رؤية الطريق ولئلا يتكلف الدلالة بالكلام بمثل سر يميناً او شمالاً ونحو ذلك وفي الساعة ٦ نهاراً وصلنا الى آبار رسم. فلما تراءى النخيل التي بقربها سقت فرسي نحوها فنزلت تحت نخلة منها ولجأت الى ظلها. وكان حر هذا اليوم معتدلا غير شديد الا ان الرياح كانت تهب في ذلك اليوم من جهة الجنوب والارض رملية شديدة اللين يسير فيها الانسان بين انجاد واتهام ولاجل ذلك تعبنا كثيراً في هذا اليوم. ومما لاقيناه

من العناء في هذا اليوم ان ماء البئر التي نزلنا عندها كان ملحا اجاجاً لم تسغه الا الابل وساقة الابل كرهاً فاضطررنا حينئذ لدفع الظمأ بالماء الذي كنا تزودنا به منذ ستة ايام من طيلمون وكان قد بقي منه قليلا واكتسب لونا وطعماً لا اقدر على وصفه حيث اننا كنا طلينا القرب قبل السفر بزيت لاجل سد مساماتها فمن طول المكث والمخض على متون الابل والحرارة واكتسابه من مادة الجلد والزيت غدا آسناً متغيراً لا يكاد يسقيه احدنا دوابه في بلادنا فضلاً عن ان يشربه هو بل يأنف احدنا ان يغسل به اقذر الثياب واوسخها وحيث لم استحضر قبل السفر على مصفاة من القاؤوجوق التي تستحضر لمثل هذه المياه المشوبة لخروجي من الاستانة على عجل كما تقدم بيانه اضطررت للشرب منها على شوائبها كرها *

وفي الساعة ٩ فارقنا آبار رسم ولم نزل سائرين الى الساعة ١٢ وكنت اريد ان انال في هذه الليلة حظاً من النوم لاني لم اكتف في الليلة الماضية منه غير ان منزلنا تلك الليلة كان رمله في غاية اللين فلم تعلق الاوتاد في الارض كما ينبغي - ثم هبت ريح في نصف الليل شديدة وما زالت تشتد حتى اقتلعت الاوتاد فاشتغلنا مدة بدق الاوتاد وركز الخيام - فلما لم يجدنا ذلك نفعا قلعنا الخيام الساعة ٨ وفي الساعة ٥ , ٩ فارقنا المنزل وبعد ساعتين وصلنا الى بئر مرق ومررنا عليها *

يوم الاحد ٨ تشرين الاول - قد استرحنا اليوم في الطريق اكثر من نصف ساعة لأُجل الطعام - ثم دأبنا في السير وطي الفدافد فامسينا تلك الليلة ايضا في وسط الصحراء - فظللت انفكر في هذه الاراضي الرملية التي نحن نطويها اليوم وصحاري برقة التي مررنا عليها قبل ذلك فرأيت بينهما بوناً بعيدا فصحاري برقة تنقسم الى قسمين يسمى احدهما برقة الحمراء والثاني برقة البيضاء تسمية لكل قسم بلون ترابه فاما برقة البيضاء فانها تنتهي الى اراض رملية كلسية صلبة غير صالحة للزراعة كما ينبغي واما برقة الحمراء فهي صحار واسعة ترابها احمر لين ذو مادة

دهنية وقد سمى بعضهم بنغازي برقة الحمراء ورأيت ذلك في بعض الجغرافيات وقد تقدم الكلام على هاته الاراضي وقابليتها للزراعة بحيث يستغل اهلها مع عدم معرفتهم بالزراعة وتهاونهم بما يصلحها في سنين الخصب من الواحد مائة وعشرة وعائة وعشرين غير ان السنين التي يكون المطر فيها قليلا يقع بها القحط والغلاء لفقدان الماء فيها وتوقف سقياها على الغيث واما اراضي برقة التي لاتزرع فهي مملوءة بالعشب والكلأ المنوّع الذي يكفي الوفا من المواشي ولبعض تلك الاعشاب رائحة لطيفة لا سيما في الابكار فمن مر بها خيل له انه في روض معطار ولو حفرت آبار في بوادي برقة لسقي المزروعات لاستغلوا منها دخلاً عظيما من الحبوب كالذرة والفول والبتاتس ونحو ذلك ويكفي برهانا على قوة تلك الاراضي في الانبات وانها ليست باقل انباتا من سائر الاراضي المنبتة كثرة المواشي في بنغازي كالبقر والمعز والابل والغنم ونحوها ودسامة الابازير التي تنبت في بساتينها ولذتها حتى ان البطيخ الذي يخرج في تلك الاراضي التي لاسقيا لها الا من الغيث وحده ويزرع فيها باصول بسيطة جدا لهو الذ طعما واعظم حجماً من بطيخ ديار بكر المشهور الذي يعتنى بزرعه على شاطئ الدجلة *

يوم الاثنين ٩ تشرين اول - سرنا ذلك اليوم من محلنا الذي كنا فيه الساعة ١١ و٥٥ دقيقة ولم ننزل ذلك اليوم لطعام الغداة لاننا كنا علي وشك الوصول الى بئر سبيل التي هي في جوار نخيل جالو وقد كان العربان الذين هم معنا اثنوا لنا على لطف مائها فاكلت هذا اليوم شيئا قليلا في راحلتي وانا على ظهر الجمل اما رفقائي فقد نالوا من الطعام كفايتهم واما انا فقد اجلت تناول الطعام للوصول الى تلك البئر حيث كنت متحسرا على جرعة من الماء البارد العذب لاغسل بها ادران المياه الملحة المشابة التي كنت اتجرعها ولا اكاد اسيغها منذ خروجي الى هذا السفر الذي بعدت عليّ فيه الشقة - فكنت كلما سمعت اوصاف ماء هذه

البئر من لسان اهل القافلة ازددت شوقا وظمأ الى وروده - فلما قربنا من البئر سقت فرسي نحوها قبل ان يرى وكانت الساعة اذ ذاك ٩ فما زلت اجد في السير حتى وصلت اليها بعد ان بلغ الجهد مني وتعبت فرسي - فلما وقفت عليها وجدتها عبارة عن حفرة بين الرمل جوفية الشكل عمقها نحو متر ونصف ودائرتها نحو ستة امتار ورأيت عندها صبية وعبدا قد نزلا فيها فلم يجاوز الماء كعبيهما وهما يملآن قربة والماء اسن كدر فلم استطع ان اسيغ قطرة منه - فسألت العبد اثمة بئر غير هذه فاجابني ان هناك بئرا ماؤها بارد عذب في غاية الصفاء - فسألته ان يوصلني اليها واعطيه شيئا من الدراهم - فمشى امامي وسار نحو النخيل التي هناك وانا سائر خلفه وبعد ان سرنا نحو ربع ساعة وصلنا الى النخيل ولم نر البئر وكنت كلما سرت خطوة شعرت بالتعب والظماء - فسألته وقد عيل صبري عن البئر - فقال هاهذا امامنا واشار باصبعه الى رابية - ثم اسرع وهو يجري على ساقين دقيقين لا يمسهما تعب ولا يلحقهما فتور - فسرنا ربع ساعة اخرى ولم ار البئر - فتلهفت وكانت كل دقيقة قطعتها في تلك المسافة مقدرة عليّ بساعة فازداد تلهفي على الوصول الى ذلك الماء العذب الصافي واغتظت من ذلك البدوي الكذاب وتأثرت من تغريره وتقريبه لي البعيد - فسقت فرسي فانطلت بي مسرعة والزمت البدوي ان يلحق الفرس في سرعتها جزاء له على كذبه واملا بالوصول الى الماء لنقع الغلة والظماء الذي اشتدت علي وطأته وظننت اني بذلك قد جازيت البدوي على كذبه هيهات فانه انطلق يجري امام الفرس حتى كادت الفرس تعجز عن اللحوق به - وكنت اسأله وهو يعدو امامي عن اشياء - فكان يجيبني بلا توقف ولا تلعثم - فسرنا على هذا المنوال نحو نصف ساعة اخرى - فوصلنا الى حفرة بين تلك النخيل وكانت تلك الحفرة هي البئر التي اخبرني بها البدوي - فنزلت عن الفرس وهي تتنفس تنفساً متتابعاً مما لحق بها من التعب اما البدوي فانه لم يتغير ولم يو عليه اثر

للتعب . فجلس يحادثني كانني اجتمعت به عند البئر ولم يخط خطوة واحدة والحق ان صبر الاعراب على قطع المسافات وشدة عدوهم . لما يقضي على الانسان بالعجب والحيرة *

وكانت البئر التي وصلنا اليها مثلثة الشكل قد ساوى فمها الارض وكان عمقها نحو ٥ او ٦ امتار فاخذت اتفكر كيف نستقي منها وليس هناك رشاء ولا دلاء - فقال لي البدوي هل معك اناء . فاخرجت له في الحال من المحفظة التي في سرج الفرس مشربة من الجلد فناولته اياها فلما اخذها تدلى في البئر في الحال وغاب عن عيني بضع ثوان ثم خرج وفي يده المشربة مملوءة بالماء . فلما رأيت صفاء الماء فرحت به فرحاً كفرح الاطفال - فتناولت الاناء بسرعة واهويت به الى فمي فوجدت ماءً اجاجاً حاراً فتبدل فرحي بترح ولم اسغه حتى مزجته بشيء من روح النعنع . فشربت منه مع كمال الكراهة جرعاً قليلة سكنت بها الظمأ - وكان البدوي ينتظر ان اشكره اذ كان جازماً بأني اسر بهذا الماء سروراً عظيما . فلما رأى البشر الذي كان يلوح في وجهي عند وصولنا الى البئر زال وتبدل بعبوس وانقباض حينما ذقت الماء تعجب وامسك عن الكلام . اما انا فكنت اتفكر مستغرباً وصف البدوي لهذا الماء بالعذوبة والبرودة وعرفت حينئذ اننا لم نقدر بلادنا العامرة حق قدرها وجعلت اشكر الله على ما اولانا من النعم الجليلة التي لو طلبناها في مثل هذه القفار وبذلنا فيها الدنيا بحذافيرها لا نكاد نجدها . والحاصل انني اضطررت للشرب من ذلك الماء ما اسكن به ظمأي ولكن لم استحسن الاستراحة عنده . فقال لي البدوي ان بين النخيل التي نحن فيها بئر اخرى مشهورة احسن من تلك فسرنا اليها معاً واجتمعنا في الطريق بصبي فارسلناه الى القافلة ليعلمها بمكاننا *

وكانت جدران تلك الآبار الموجودة في تلك الارض عبارة عن اصول من شجر التمر في شكل مثلث صف بعضها فوق بعض اذ ليس هناك

حجارة - فكان البدوي لما نزل الى البئر ليخرج لي ماءً يضع رجله على الانفراج الحاصل بين الخشبة والاخرى وكذلك لما صعد - فكان ذلك له كالسلم نزل عليه و صعد بكل سهولة وكذلك سائر العرب ينزلون الى تلك الآبار ويصعدون منها بلا عناء *

فبعد ان سرنا نحو نصف ساعة وصلنا الى البئر التي اخبر عنها فوجدت ماءها في الحقيقة احلى من ماء البئر الاولى اعني انه لا ملوحة فيه و كنت قد تضايقت كثيرا من حر هذا اليوم الذي لم تخف وطأته الى الغروب - فنزلت في ظل نخلة عند البئر - ففرشت عندها طنفسة وجلست عليها وبعد ساعة اي عند ما مالت الشمس للغروب وصلت القافلة - فنهضت على العادة لملاحظة ارتياد محل للخيام وللمطبخ ومناخ للابل - فبينما انا مشتغل بذلك اذ تقدم اليّ مصطفى الاونباشي واخبرني ان احد رفقائه يتوعك وكان ذلك سليمان الاونباشي فانه ظمى في الطريق ظمأً شديدا فلما بلغ الماء خالفني فيما كنت اوصيهم به اي بالاقلال من الماء فما زال يشرب حتى اصابه مغص - فوجدته منطرحاً على الارض يتقلب على الرمل وكان في المحفظة الموضوعة على سرج فرسي بعض ادوية غير الأدوية الموضوعة في الصناديق - فاخرجت من المحفظة قليلا من روح النعنع واسقيته - فما افاق الا بعد ان نام نحو ساعتين ونال حظاً من الراحة *

وكان رمل ذلك المحل الذي بتنا فيه تلك الليلة كثيفا لينا بحيث كانت تهوي ارجلنا فيه الى الكعبين - وكانت تلك الليلة ذات ريح فاخذت تذرو ذلك الرمل الدقيق في قدور الطعام حتى امتزج به - فما امكننا ان نأكل تلك الليلة الا الشوربة *

يوم الثلثاء ١٠ تشرين الاول - سارت بنا القافلة في هذا اليوم الساعة ٩ و دقيقة ٥٠ صباحاً - فلما طلعت الشمس وعلت قليلا في الافق اشار ساقة الابل باصابعهم الى رابية وقالوا ها قد تراءى نخيل جالو - فنظرت وامعنت النظر فلم ار شيئا فاخذ النظارة ونظرت بها فلاح لي من بعد شبح

كالغمام وبعد ساعتين ظهر ان ذلك الشبح الذي رأيته هو جنة من نخيل ولا بدع ان رآها الساقة على بعد المسافة فان الذين يقطنون البوادي ابصارهم حديدة يرون المكان الشاسع بخلاف سكان الامصار فان ابصارهم كليلة لا ترى الا الاماكن والاشياء القريبة *

وحيث انني كنت بعثت ابا مدين منذ يومين الى جالو يصل سير النهار بالليل ليخبر بقدومنا كان مأمورو البلدة ينتظرون قدومنا في هذا اليوم - فلما قربنا من النخيل اجتمعنا بجندي من الضبطية ارسلوه من جالو ليرقب قدومنا فأمرته ان يسير امامي وتبعته ميمماً البلدة لأُعد مكاناً للقافلة بها - فوصلت الى دار الحكومة الساعة ٦ - فوجدت وكيل القائممقام وشكري بك القول اغاسي وجماعة من المأمورين واعيان البلدة منتظرين ورود الجندي بخبر قدومنا ليسيروا الى استقبالنا - فنزلت في دار الحكومة واخذت استقبل الذين يأتون للسلام - فلما نلت حظاً من الراحة وصلت القافلة فانتخبنا لها محلاً خارج البلدة قريبا من دار الحكومة ونصبنا خيامنا فيه وكنت عازما على ان اقيم في جالو يوماً واحدا فقط فما تمكنت من ذلك لاحتياج الابل للراحة ولأُجل تدارك اللوازم السفرية لمن يريد ان يصحبنا من اهالي هذه البلدة الى كفرة ولاحتياج ساقة الابل لتدارك علف لابلهم من الحشف واستحضار قرب للماء فتأخر سفرنا الى يوم الخميس *

وبما انني اعرف عدم مبالاة العرب بالاحتياط للسفر امرتهم بان يتزودوا بكثير من التمر لعلف ابلهم في تلك الصحراء المدهشة والفضاء الذي لا يتناهى وان يستحضروا قرباً كافية للماء واعلمتهم بأن الماء الذي اعددته لنفسي لا اسقي منه الا رفقائي الجنود وانني عزمت قبل السفر على وزن التمر الذي يتزودون به لاعلم هل هو كاف للابل ام لا وعزمت كذلك على عد القرب وحينئذ سارع كل الى استحضار ما يلزمه واكمال نواقصه فبعد ان طعمنا طعام الغداة عمدت الى اكياس الزاد والذخيرة ففتحتها

واخرجت منها مايكفينا من جالو الى كفرة ومن كفرة الى جالو ذهاباً وايابا واودعت البقية عند وكيل القائممقام وقصدت بذلك تخفيف الاثقال ليمكننا ان نستصحب ماء كثيراً لاننا مجبورون على حمل ماء يكفينا مائة ساعة وهي المسافة التي بين آبار ابي الطفل وابار زيغين *

اما جالو فهي بلدة كالجزيرة محاطة ببحر من الرمل وهي مركز قضاء جالو احد اعمال لواء بنغازي - فيها ٢٠٠٠ بيت و ١٢ مسجدا وزاويتان في كل زاوية مكتب على الاصول القديمة وعدد نفوسها نحو ٦٠٠٠ ذكوراً واناثا وعدد النخيل المحيطة بالبلدة نحو ٦٦٠٠ نخلة فجالو اذاً بلدة محاطة ببحر من رمل وبحر اخر من النخل واهل هذه البلدة يتجرون من زمن قديم بما يجلب من السودان ويقال ان في جالو كثيرا من الاغنياء حيث كان الاتجار بالرقيق مباحاً من قبل وكان العاج وريش النعام مرغوباً وثمينا غير انه لما منعت تجارة الرقيق اخيراً وغدا يجلب كثير من العاج وريش النعام من جميع سواحل افريقية فقدوا التجارة التي كانوا يرتزقون منها فانحصر رزقهم في النخل الكثير المغروس في قريتهم لان ارضهم غير صالحة للزراعة كما تقدم بيانه لكونها رملية فهم يأكلون التمر بدلا من الخبز وما يفضل عنهم منه يبيعونه للقوافل التي تسافر الى كفرة والسودان ويبتاعون بالثمن سائر لوازمهم وهي قليلة ومختصرة جدا ومنهم من يزرع في الاراضي التي يجعلونها بعد العناء الشديد صالحة للزرع بين اشجار النخل شيئا من الكوسى والبنادورة والفلفل ونحو ذلك من الخضراوات الجزئية *

اما ابنيتهم فهي مبنية بالحجارة الرملية التي تخرج من الطبقة الرملية الاولى وبطين رملي لزج يستخرج ايضاً من الطبقة المذكورة ومن اغصان النخل واصوله وبعضهم لا يستعملون الطين بل يكتفون بفروع النخل اذ المقصد من ذلك التوقي من حر الشمس لا من المطر فان المطر لا ينزل في جالو الا مرة واحدة في كل ٨ او ١٠ سنوات فاذا نزل

استغاث اهل القرية ودعوا الله بان يصرفه عنهم لانه اذا دام قليلاً ذابت منازلهم كما يذوب الملح في الماء كما انهم لا يحتاجون للمطر اذ لا زرع لهم اما نخلهم والذي يزرعونه من الخضراوات فانهم يسقونها بالماء الاجاج الذي يخرجونه من آبارهم - فليس في جالو بئر ماؤها عذب بل هو شديد الملوحة والمرارة بحيث لو وضع مقدار جزئي منه في جوزة قهوة لا يمكن الانسان ان يمتص منها جرعة فمن عادتهم انهم يبردون الماء بالليل في القرب فيزول اثر الملوحة منه قليلاً غير انه متى سخن عاد طعمه كما كان فمن كان مثلنا لا يمكنه ان يشرب منه - وعموم اهل جالو يشربون من هذا الماء ومن كان منهم مترفهاً او له ولع بشرب الجاي يجلب الماء من آبار ابي الطفل الكائنة على مسافة ٨ ساعات من القرية وليس لدور هذه القرية نوافذ الى الخارج كما انه ليس للنوافذ التي هي داخل الدور زجاج بل يجعلون لها اغلاقاً غليظة من خشب *

اما ارض الدور فليست مفروشة كالبلاد المتمدنة بالحجر او بالخشب بل هي رمل متروك على حاله ولذلك كل من تنقل في شوارع جالو او في بيوتها تسيخ قدمه في الرمل الى كعبيه - فلا يتمكن الانسان من الطواف بها بخف (قونذره) ولا بجرموق (بوتين) فلا بد لمن يريد التنقل فيها من (جزمة) والبعض من اكابر القضاء يفرشون في بيوتهم لاجل القعود والنوم طنافس او لباداً ونحو ذلك غير ان السواد الاعظم لا يتكلفون من ذلك شيئاً بل يجلسون على الرمل وينامون عليه - فاذا توسخ وفسد بمرور الازمنة نزحوا منه قدر شبرين فيلقونه خارج المدينة ويأتون برمل جديد يلقونه في موضع القديم فيكونون بذلك جددوا مهادهم واثاثهم *

وهذا الرمل مع كونه رقيقا وطرياً جداً فهو نقي للغاية - فلو اضطجع عليه رجل ابيض الثوب وتقلب فيه لا يلحق بثوبه اقل درن - وكون ارض جالو رملية شوارعها وبيوتها وسائر اطرافها اكسب اهلها ملكةً تامةً في معرفة الاثر فانهم يعرفون بعضهم بآثار اقدامهم على الرمل كما يعرفون

بعضهم بعضا بالصورة - فلو مر مثلا زيد من محل مع بعض اشخاص فالذي يعرف زيداً في ذاك المحل يعرف من اثر القدم من غير ان يعلمه احد انه اثر قدم زيد ويقول لك مر زيد من هنا - واعجب من ذلك انهم يعرفون ما مضى على مروره من النظر في العمق الحاصل بالرمل من اثر الوطأة وقد احببت ان اذكر هنا بعض اخبار سمعتها عن فرط معرفة اهل جالو في الاثر وهي :

بينما مدبر مالٍ من اهالي بنغازي يسأل عن رجل من اهل جالو في شوارعها اذ مر بامرأة - فسألها عنه هل رأته مر من ذلك المحل ام لم تره فاجابته على الفور انها لم تره ونظرت في الحال الى الارض ثم رفعت رأسها وارته اثر وطئه وقالت له نعم مر رجل من هنا فامش على هذا الاثر تجده حيث كان - فذهب مدير المال كما قالت له على اثره حتى انتهى الى آخره فوجد الرجل عنده - وقد اخبرنا بهذا مدير المال المذكور من فمه *

ويقال انه لا يسرق شيء في جالو لمعرفة اهلها بالاثر مع ان السرقة فيها تقع نادرةً ويقبض بالحال على السارق - يروى ان رجلا اراد يوما من الايام ان يسرق شيئا من التمر من احد البساتين - فتصور ان يستعير اتان احد اصحابه ويسرق التمر عليها لئلا يعرف اثره - فلما أتى الليل عمد الى جراب كبير فوضعه على ظهر الاتان - ثم ركب عليها وذهب الى البستان الذي كان تصوره - فنزل على نخيله من غير ان يطأ الارض - فقطع كثيراً من عناقيدها ووضع ذلك في الجراب الذي هيأه حتى امتلا ثم عاد الى بيته - ولما كانت الغداة اعاد الاتان الى صاحبها اما ما كان من صاحب النخل فانه لما رأى ان متاعه سرق اشاع ذلك في القرية - فذهب بعض اناس من الشيوخ الى محل السرقة واخذوا يتحرون الاثر - فلم يجدوا اثراً هناك لانسان فاستغربوا ذلك غير انهم وقع بصرهم بعد هنيهة على اثر اتان فقالوا لصاحب النخل ان الذي سرق متاعك هو اتان فلان - فذهب

الرجل والشيوخ الى صاحب الاتان وقالوا له ان اتانك سرقت البارحة كثيراً من التمر من نخيل فلان ـ فاستولت على الرجل الحيرة في بادئ الامر ثم سكن روعه وقال ان اتاني كانت البارحة عند فلان وقد اعادها اليّ الآن ـ

فلما سمعوا ذلك منه عاد الشيوخ وصاحب التمر الى النخيل ونظروا في اثر الاتان واخذوا يمشون على اثرها حتى انتهى بهم السير الى بيت الرجل الذي استعار الاتان بالامس ـ فلما فتشوا البيت وجدوا التمر فيه ـ فرفع امره الى الحكومة فلم يستطع درء الشبهة عن نفسه ـ فجوزي على فعله *

والذباب في جالو كثير جدا فمن راى الذباب الذي فيها ظن ان هناك وطن الذباب الاصلي *

ولم اجلس المدة التي بقيتها هذا اليوم في الخيمة بلا حاجز ـ بل امرت بنصب الستارة التي استصحبتها ووضعت المائدة والكرسي ايضاً داخلها وهكذا اكلت طعام الغداة وكتبت ايضاً ما اردت كتابته داخل الستارة فلما كان الليل ذهب اثر الذباب ـ وفي هذه الليلة طعمت في بيت القائممقام وبعد ان مكثت قليلا عدت الى خيمتي وبت في القافلة *

يوم الاربعاء ١١ تشرين الاول ـ رأينا ان نبقى اليوم في جالو لاجل ان يتم رفقاؤنا نواقصهم ولاجل ان تكتفي ابلنا من الكلأ والماء لان العادة اذا اريد قطع مسافة بعيدة في ارض لا ماء فيها انهم يسقون الابل ماء كثيرا هناك ويرسلونها الى المرعى فاذا عادت من المرعى سقوها مرة ثانية لكيلا تظمأ في الطريق بسرعة ـ وكانت ريح الجنوب في هذا اليوم تهب بشدة في جالو فتذرو الرمال فلم اجد راحة في الخيام وكان جسدي محتاجاً للتطهير مما لحق به في السفر ـ فذهبت الى بيت القائممقام واستحممت به ـ ثم تمكنت من حلق ما زاد من شعري بعد فوقف اثنان عن يميني وشمالي بايديهما مراوح يذبان الذباب عني ـ ثم دخلت حجرة القائممقام التي اتخذها للنوم ـ واضطجعت في الفراش بعد ان اغلقت الباب والنوافذ ـ وقد وجدت بيت القائممقام هذا نظيفا منتظما

مع انه لا عائلة له في جالو وكان الفراش الذي اضطجعت عليه نظيفاً عليه ستارة (ناموسية) فاحتطت جداً بان لا يدخل فيها ذباب فلم يجد الاحتياط ودخلت ذبابات حالت بيني وبين الراحة التي انا محتاج اليها بعد الاستحمام ووقت الهاجرة *

فذكرني الناموس بما كان من امري معه قبل تسعة اعوام في جغبوب حين لم يكن معي ستارة - فكنت مدفوعاً به في عزلتي الى قفل الابواب واغلاق النوافذ والمكث في الظلمة القامة لتستريح يدي هنيهة من الحركة لذب الناموس - فانه لا يألف الظلام فينهزم في الحال من الثقوب التي في الحائط الى الخارج *

فكان من الحرام ترك المآكل غير مغطاة في جالو وجغبوب لان الناموس بجيوشه الجرارة يغزوها ويغصبها - ولما كنا نتناول الطعام في جغبوب مع الرفقاء في مكان يدخله النور كان يقف واحد فوق رأس كل فردٍ منا وفي يده مروحة لذب الذباب عنا وربما لا يكفي فتمس بنا الحاجة الى ان نتناول الطعام بيد واحدة ونطرد الناموس بالاخرى - وينبغي لكل من اراد الكتابة بالنقس ان يذب الناموس متصلاً بيده اليسرى والا رأى عند كتابة السطر الثالث ان السطرين الاولين قد محيا - اما انا فكنت اضبط وقائع رحلتي في تلك الديار بقلم الرصاص *

والرمال انضمت الى هجمات الناموس وصدمات الذباب في جالو - ومهما احتاط الانسان وافرغ من الطاقة والوسع فمحال ان يتناول شيئاً من الماكل يكون عاريا من الرمل وهو كثيراً ما ينتشر في وجود الانسان قاطبة وقد اشبع الهواء بحبوب الرمل الدقيقة ولذلك لا ينبغي مضغ الطعام كثيراً عند الاكل بل يجب ان ترجح المآكل المائعة كاليخنة والشوربة على سواها - ورغماً عن كل ما يبذله الطباخون من الاعتناء العظيم بامر الطبخ فان الذباب والرمل يختلطان مع الماكل في الطناجر - وعند وصول الطعام الى المائدة ورفع الغطاء عن القصع والصحون يهجم

الذباب على المآكل فيغطيها تماماً ـ والتخلص من تلك الحشرات المزعجة غير ممكن الا بالمحاربة الشديدة وكانه من الضروري ان يبقى في كل لقمة عدة من الناموس حتى اني في اقامتي في جالو لم اشرب قهوة البتة دون ان ارى في قعر الفنجان ذبابة او اثنتين *

وكان يجيبني اهل البلدة كلما اشتكيت لهم من امري مع الذباب بقولهم ماذا تفعل لو اتفق وجودك عندنا في شهري تموز وآب عند نضوج التمر حين يزداد عدد الناموس اضعافاً *

ولم اتمكن لهبوب ريح القبلة من البقاء في الخيام فتناولت الطعام في منزل القائممقام وبت تلك الليلة عنده وعند الفجر هببت من الفراش وذهبت الى المكان الذي امسى فيه صحبي واخذنا باعداد اهبتنا للمسير *

الخميس ٢١ تشرين اول ـ ومتى حط البدويون رحلهم في محل مسكون فحينئذ يطول انفكاكهم منه ورحيلهم عنه مهما امكن والدليل على ذلك ان نهوضنا في هذا الصباح من جالو الى موقع ابي الطفل كان في الساعة الواحدة ونصف *

وفي اثناء الطريق تلاقيت مع الفقيه يوسف " عقيد " حاكم وادابي اي احد امرائه ـ وكان المومأ اليه قد أخذ قافلة تخص الحاكم الى بنغازي وباع بضاعتها واستبدلها بأشياء أخر وكرّ راجعا الى وادابي وكانت هذه القافلة مركبة من خمسة وعشرين تابعاً ومائة بعير ـ وبمجرد وقوع الملاقاة الاولى بيني وبين المومأ اليه الفقيه يوسف حصلت محبة قوية بيننا فالمومأ اليه وان كان زنجياً لكنه ذو تربية للغاية وهو لطيف وفصيح وعلى حسب الامكان عالم وشاعر وتلمع في عيونه آثار الذكاء القوية وكما ان منظره وقور فهو كذلك بشوش على الدوام ـ وانه وان كنت ما سألته عن مدة عمره لكنني خمنته ان ذلك بما بين الاربعين او الخمسة والاربعين ـ فبعد ان تحادثت معه برهة يسيرة افترقت منه واعداً اياه بالملاقاة في الايام وما رأيت مرافقته مناسبة نظراً لوجود النسوة في قافلته *

وكان وصولنا الى ابواب ابي الطفل في الساعة الحادية عشرة ونصف

وفي اثناء غروب الشمس وصلت ايضا قافلة الفقية يوسف وحطت رحالها في محل يبعد عنا مقدار مائة من المترات - ولما ان ذبحت الاغنام لاجل قافلتنا ارسلت اكراماً للموماً اليه رأس غنم سمينا جداً *

وقد رافقنا مع الذوات الذين كانوا قد خرجوا لتشييعنا الالوف من الذباب وصارت تقبل ايدينا وافواهنا ووجوهنا بصورة مزعجة مدة دوام النهار حتى انها بقيت عندنا مسافرة في تلك الليلة- فكان داخل الخيمة مملوءا بهذه الحشرات المسافرة التي لا تستثقل من شيء بصورة يظن بها الأنسان ان داخل الخيمة مفروش بالجوخ الاسود *

واما ابواب ابي الطفل فواقعة في نصف الصحراء وهي عبارة عن حفر مقدار عمقها لا يتجاوز المتر او المترين واذا حفر ههنا مقدار متر او مترين من اي نقطة كانت يخرج ماء لا ينقص ابداً مهما أخذ منه و ماء ابي الطفل وان كان عذباً براقاً لكن بناء على وجود مادة النطرون فيه يتمزق كل ما يغسل به من الحوائج والالبسة بأقل من القليل - حتى ان المأمورين البنغازيين الموجودين في قضاء جالو لا يغسلون ثيابهم في جالو ان كان الماء الذي فيها مالحا فلا يرغو به الصابون فيرسلونها الى بلدتهم التي تبعد عن القضاء مقدار ثمانين ساعة - وكما ان القوافل الذاهبة الى واداي تملا قربها من المياه اللازمة للقسم الذي ستطويه في تلك الصحراء الكبرى من هنا فكذلك الذين يأتون من واداي يأخذون ما يحتاجونه من الماء من الآبار المسماة بآبار زيغن البعيدة جداً عن موقع ابي الطفل الذي هو المحطة الاولى ذات السلامة - فان اهالي جالو كما ذكرنا آنفاً ينقلون الماء في القرب من هذا الموقع - والمشكل عدم وجود علامة عند هذه الآبار كالشجر وغيرها اذ بدون ان يصل اليها الانسان لا يمكنه فرقها عن غيرها *

وقضينا ليلتنا في خيمتنا المملوءة بالذباب بالراحة على حسب الامكان وفي الصباح أملت الدوام في المسير ولكن بناء على بيان العرب وايضاحهم ان القوافل التي تأتي الى ابي الطفل بدون ان تمكث مدة

خمسة او ستة ايام وعلف الظعن واسقائها بهذه النسبة جيداً لا يمكنها الاجتراء على الدخول في الصحراء حولت فكري عن الرحيل واعطيت قراراً بالمكث ههنا *

الجمعة ١٣ تشرين اول — كان هذا اليوم ليس من الايام التي يجب الانتباه فيها من النوم وعليه بقيت نائماً حتى اكتفيت ولما فتحت اجفان عيني من النوم لاح لي ان الشمس قد طلعت منذ زمن طويل وكانت خيمتي اذ ذاك قد امتلات بالزائرين منهم الفقيه يوسف وعبيداه وعبدالرحمن والشيخ شعيب يونس من معتبري جالو الذي رافقنا بالذهاب الى كفرة وابن عم السيد السنوسي السيد محمد بن سلتان ونجلاه ومنصور افندي وغيرهم من رفقائي في الطريق - فاجتمعنا مع بعضنا البعض وشكلنا حلقة بجلوسنا ولم يكن عندي شيء يجلس عليه سوى كرسيين فقدمت احدهما الى الفقيه يوسف وجلست مع الباقين على الحصير وكان مجلسنا ذا سكينة وقد اجتمعنا فيه لاجل المحبة والمصاحبة ولكنه كان يشبه هيئة محكمة ذات وقار وهيبة - وعادة التشريفات مرعية جداً بين العربان لانك اذا لم تقل عدة مرات " تفضل اجلس " ولم تر كل شخص محله لا يمكن الجلوس - فلما دخل اصحابنا ايضاً الى خيمتنا وقفوا على اقدامهم مطرقين تبعاً لقاعدة هذه المراسم فبعد تكليفاتي المكررة بأن يأخذوا راحتهم جلس متقدموهم بكل ادب واحتوام واما الشبان كعبيداه وعبدالرحمن ونجلي ابن سلتان فاطرقوا بروؤسهم وجلسوا على ركبهم وابرزوا مزيد الحرمة لمتقدميهم في السن فوق الغاية بحالة لم يفتحوا بها افواههم ولم يتكلموا ببنت شفة - وكانوا اذا وجّه الخطاب اليهم يعطون الجواب الوجيز المختصر بالصوت الخفيف المنخفض جداً - وان كان هناك صوت يسمع حتى خارج الخيمة فانما هو صوتي - وبعد نصف ساعة من الزمن تفرق الزائرون وذهب كل واحد منهم الى

محله - وكان الآن من الواجب علينا اعادة الزيارة للفقيه يوسف ولما اخذت بالتهيؤ للذهاب اليه اتتني بطاقته مشعرة بدعوته اياي وسائر رفقائي الى تناول طعام العشاء عنده - وكانت وطأة الحر في هذا النهار شديدة بزيادة عن غيره - وحيث ان هبوب الهواء كان من الجهة الجنوبية فكما ان خيمتنا صارت ملأى بالهواء الحار المخنق بدرجة لا يمكن الجلوس داخلها كذلك كان لا يمكن الخروج الى خارج الخيمة لاجل التفسح بسبب تأثير كل من الهواء المشبع بالرمل وضوء الشمس على الخيمة - وعلى كل حال جلست في الفيء الموجود بحذاء الخيمة بمقدار ذراع واحد انظر الى اهتمام افراد القافلة باشغالهم - فكان بعض العربان حال كونهم متعرين من الملابس حتى خواصرهم يشتغل بغسل احرامه وبعضهم بغسل قميصه والبعض باملاء قربته - فالكل كانوا يستفيدون من الماء بكثرة كانهم يودعون الماء لاجل امد بعيد - وكان اجتهاد واشتغال العربان بكل نشاط اثناء الساعة الثامنة حين كانت الحرارة بدرجة الاربعين في الفيء وبدرجة الثمانية والاربعين في الشمس حال كونهم مجردين الملابس من نصف الجسم مكشوفي الرؤس تحت الشمس ذلك لمن الاشياء التي تعطي الناظر حيرة واندهاشاً حين وقوعه عليها - واما انا فمع اني كنت جالساً تحت ظل الخيمة كنت لا اقدر على رمي المظلة من يدي ورفع النظارة المائية اللون من على عيوني - وفي هذه الاثناء صار بصري متوجها نحو وجه السماء - فكان لسان حالي يقول سبحان الله ما اغرب هذا المنظر فان وقوفي هذا امام مثل هذه اللوحة كان اول مرة في مدة عمري *

السبت ١٤ تشرين اول - فلما ان كان الصباح بدرياً اخذنا بتدارك السير وكانت الساعة اذ ذاك احدى عشرة - ومن الان فصاعداً تبتدئ السياحة الحقيقية في القفار - وحيث ان قافلة الفقيه ما سارت معنا ذهبت اليه وبعد الوداع وجهنا وجهتنا نحو المقصود - لكن الجماليين بناء على

بطئهم بتحميل الاحمال وتأخير القافلة عن السير مقدار ساعتين صاروا مستحقين للمجازاة الخفيفة وعليه سيرتهم بلا توقف ولو دقيقة واحدة حتى الساعة الواحدة والنصف من المساء وصاروا مجبورين على تناول الطعام وهم على اظهر الجمال امتثالا بي لاني تناولت طعام الظهر راكباً - وهذا اليوم خال من آثار الريح فكانت درجة الحرارة في الظل ثمانية وثلاثين وثمانية واربعين في الشمس فتضايقنا جداً من الحرارة وبسبب ما اكلته من التمر والبكسمات والجزء من لسان الجمل الذي سلقته في جالو وحليب الجمال كنت في كل برهة يسيرة اعطش جداً واجتهد لتسكين حرارتي بشرب حليب الجمال على التمادي - ولا تنظروا الى قولي بأن درجة الحرارة في الظل ثمانية وثلاثون وفي الشمس ثمانية واربعون اوتقولوا بأننا تصادفنا بالاحراش ذات الاشجار والظلال ذات الهواء اللطيف لان سيرنا كان في قفر مستقيم الطريق ومن الصعب التصادف بشجرة بل بالحطب اليابس ! فمقصودي ان اقول بأنني لما اخرجت الميزان (ترمومتر) من محفظته كانت الحرارة بالدرجة الثامنة والثلاثين - واما ان وجهت آلة الترمومتر نحو الشمس على الاصول ارتفع زئبقها الى درجة الثمانية والاربعين . فحينئذ يكون النسيم الذي احاط بنا اذ ذاك بل السموم الجحيمي في هذه الدرجة - ولو لم يكن في نفس الامر تفاوت في الشكل لكانت هذه القطعة من صحراء افريقيا الكبرى لا فرق بينها وبين البحر الذي لا أمان له - لان الانسان السائح فيها يخال نفسه سائحا في البحر لانه مهما سار فيها رأى عدم تغير الافق الخالي من كل شيء الواسع جداً ! في كان لا يوجد فيها لا بناء ولا اشجار يتسلى بها من التعب الذي يحصل من المناظر العارية من كل شيء - حتى انه يستحيل احياناً التصادف بطوير في بعض جهات هذه الصحراء العظيمة - ولكن يوجد فرق وهو ان الذين يسيرون في البحار ان لم يصلوا الى البر فمنظرهم يبقى منحصرا في سطح البحر المتموج ولا يتخيل لهم التخيلات البرية - واما في الصحراء

فان العيون تجتلي على الدوام تلك البحيرات غير الحقيقية والبحار الخيالية والسراب الذي وجوده ليس الا عبارة عن الانعكاس الهوائي . ففي هذا اليوم كنا هكذا كأننا على العادة نسبح بين المرئيات الكثيرة ذات المنظر البديع . وكانت تأثيرات الضياء والشمس اذ ذاك شديدة وعلى الخصوص وقت الزوال حتى ان الخطوط الشعاعية المنعكسة عن الرمل كانت تلمع بصورة عاد بها اديم الغبراء شعلة نارية . والحاصل كانت الصحراء بحر لهب . واما عيون البدويين السوداء فانها قد تعودت هذه الاحوال فكانت لا تتأثر من ذلك الحر الشديد ولمعان تلك الخطوط الشعاعية اصلا . واما انا فكنت حال كوني واضعاً النظارات على عيوني وقد صرت مجبوراً على عدم رفعها ولو لحظة واحدة أتأثر من عدم تأثر البدويين . وبلورات نظارتي هذه ذات اللون المائي كانت بحكم العاجز في الصيانة لها . وكنت اذا رفعت النظارة عن عيني لانظفها وامسحها حسب الاقتضاء احس بهيجان عيوني فاعيدها حالا . فان درجة لزوم وفائدة النظارات ذات اللون المائي للمسافرين في القفار لا يمكن تعريفها لانها فضلاً عن كونها تحفظ العيون من الضياء الشديد فانها تقيها ايضاً من الهواء وعلى الخصوص السمومي والرمال التي ينسفها الهواء بكل سهولة . وكنت اذا اردت مسح النظارة حين سكون الهواء ارى الرمال الرقيقة الناعمة قد بنت عليها بصورة مزعجة فامسحها حالاً . ثم اخذت الشمس بالغروب واخذ ما اصابنا من التعب الشديد منذ ثماني او عشر ساعات يخف وعداه القرب تجف . فتوقفنا في الساعة العادية عشرة ونصف وضربنا خيامنا وكان تعبنا اكثر من التعب الذي اصابنا اولا وقد قطعنا من المسافة المدهشة المتصورة امامنا مقدار اثنتي عشرة ساعة وحيث اني اخذت اصول الاستكشاف وخريطة لاجل كشف الآبار بها والمواقع التي مررنا بها منذ خروجنا من بنغازي . فبعد ان توقفنا كما ذكرت آنفا دققت النقطة التي نزلنا فيها كعادتي في الايام الماضية . ثم خرجت حسب المعتاد اتجول في هذا الموقع لتدقيق اطرافه الى حين نضج الطعام واحضاره *

الاحد ١٥ تشرين الاول — ففي هذا الصباح اهتممنا بالتداركات السفرية حتى الساعة الحادية عشرة ونصف وفي النهاية سرنا وبعد نصف ساعة مررنا من الجبال المسماة بفور الصـــدر - فهذه الجبال الواقعة بالجهة اليسرى من سيرنا هي على العادة كالمبشر للقوافل التي تأتي من واداي او من الكفرة بأنها بعد يومين ستتخلص من الصـــحراء الكبرى - واما البدويون فلا يعرفون كمية المســـافة التي يطوونها ولا يحسنون حساب الساعات والاوقات بل يخمنون مثلاً المحل الذي وصلوا اليه وفي اي وقت يصلون الى المحل الفلاني وذلك بواســـطة العوارض الارضية - وكانت الريح في هذا اليوم تهب من جهة الشرق وتعدل حرارة الشمس وعليه لم نجد مشقة من الحرارة كالبارحة - وقبيل الظهر نزلنا واكلنا الطعـــام واسترحنا مقدار اربعين دقيقة بدون ان ننزل الاحمال من على ظهور الجمال - ثم اخذنا بالمسير وصار المساء ولم نزل سائرين في طريقنا - وفي الساعة الثانية ونصف من الليل حططنا رحلنا وعلى هذا الحساب نكون قد قطعنا في هذا اليوم مسافة اربع عشرة ساعة ونصف - وكنت في اثناء الطريق اتحدث مع رفيقنا منصور افندي وبهذه المناسبة انتقل الحديث بنا الى الكفرة - فاخذت من هذا الرفيق المعلومات المجملة الآتية : ان الكفرة هي احدى الواحات التي كان يسكنها الزنجيون المدعوون بتبو وبسبب وسعها وكثرة التمر فيها جلبت حرص وطمع عرب الزويا الذين يمرون على الدوام من هذه الجهة الى جهة واداي ولما كان عرب الزويا مسلحين بالاسلحة النارية والتبويون لا يحملون غير الاسلحة العارية عن الاهمية كالسيف والرمح والجريد هجموا عليهم قبل خمسين او ستين سنة فغلبوهم محاربةً واستملكوا واحة الكفرة التي هي بحكم جزيرة في نصف الصحراء بعيدة عن القسم الآخر من اراضي التبويين - فالآن وان كان يوجد هنالك البعض من التبويين الا انهم قليلوا العدد يستخدمون في صنعة الفلاحة

وكروم تمر الزوياويين وان شاء الله تعالى حين وصولي الى الكفرة اكمل هذه الايضاحات الجزئية التي اخذتها عن منصور افندي بالتفصيلات التي سأتلقاها - وحينما حل وقت النوم في هذه الليلة اخذت المناقشة التي ينصدع منها الرأس صباحاً ومساء بين الجمالين - فكانوا يرددون قولهم (كان حمل جملي في هذا اليوم ثقيلاً وحمل جملك خفيفاً) فما كان ثم شيء يزعج خاطر الانسان كهولاء - بناء على ذلك رأيت لزوم الملاحظات الآتية بخصوص تدارك الجمال لاجل الاحمال في هذه المسافة الطويلة : كانت الجمال التي استأجرتها من بنغازي لاشخاص متعددة لا لشخص واحد ومحبة هؤلاء البدويين لجمالهم عظيمة ولا تقدر على وصف رأفتهم بها وشفقتهم عليها حتى أنهم ربما يؤذون ارواحهم بدل جمالهم - ولكن اعطاء هؤلاء المساكين جمالهم للكراء وان كان بالمجبورية لتأمين معيشتهم لكنهم لا ينسون مادة تحميل جمالهم احمالاً خفيفةً مهما امكن - وفي تلك الاثناء احسست بلزوم استئجار جمل على ان لا يكون حمله اكثر من مائة اقة مع اني كنت مصمماً على الاسراع بالمسير وقطع المسافة الطويلة - وحيث ان البدو حينما يأخذون اغراضهم وذخائرهم يحملون منها على كل جمل من جمالهم ما ينيف ثقله عن مائتي اقة فما بقي لهم وجه ليتكلموا معي بأن احمالي هذه ثقيلة ولكن نظراً لاهتمامهم حين تحميل الاحمال بأخذ الخفيف منها وترك الثقيل لغيرهم لم تكن المنازعة بينهم ساكنة بل متحركة جداً - وهذا هو الذي يسبب تأخر خروجنا الى الطريق وسيرنا فيه بوقت الصباح واما الاحمال فانها وان كانت قد قسمت ووزعت في ابتداء السياحة وكان قسمها الاعظم عبارة عن مأكولاتنا ومشروباتنا وعن شعير ومياه الحيوانات وهذه بالطبع قد اخذت بالتناقص والخفة من يوم الى يوم فكان من الممتنع المحافظة على المساواة الاولى بينهم - ومع انه كان من الواجب على هؤلاء ان يصيروا ممنونين نظراً لاخذ الاحمال بالتنقص والخفة فبالعكس كانوا يظهرون -

نعم اذا أخذ بالامس من الماء الموجود في القرب المحمولة على جمل زيد لسقاية الجمال مثلاً فلمَ يؤخذ من هذا الماء ايضا في هذا اليوم ؟ ولم لا يؤخذ من الماء المحمول على جمل عمرو ؟ وهكذا كان كل واحد يريد نفاد الماء من عنده قبل دقيقة ولكنهم لم يصرحوا امامي بشيء من ذلك بل كان يظهر عليهم ذلك من حالهم والطوارهم - وكان احد المزعجات التي صادفتني في الطريق هي مسئلة توزيع الاحمال - وعليه اكرر توصيتي للذين يخرجون للسياحة الطويلة في هذه الاصقاع بانه يجب عليهم :

اما ان يشتروا الجمال وتؤخذ الجمالون بصفة الخدمة واما ان تكون جميع الجمال التي تستأجر لرجل واحد فقط *

واما اذا وجدت الجمال التي ذهبت الى المحل الذي يقصده المسافر اي التي تمرنت بالذهاب اليه فيكون اولى واحسن لان من جملة خصائل الجمال الغريبة عدم نسيانها المحل الذي تذهب اليه ولو مرة واحدة وحينئذ تذهب هي الي المحل المقصود بدون دليل في الطريق وتذهب ايضاً الى المحل المقصود الذي تعرفه رأساً بدون توقف وان كان الطريق غير مستقيم صعب المسلك - وبناء عليه من العادة استصحاب جملين او ثلاثة مع القافلة التي جمالها لم تعتد بعد على شيء من ذلك اذ الجمال الثلاثة تؤدي وظيفة الدليل لغيرها ماشية امام القافلة كلها *

وفي هذا اليوم سمعت من رفقائي الحكايات الكثيرة بخصوص رجوع الجمال بذاتها من المحل الذي تذهب اليه بشرط ان تكون تعرفه من قبل فمن المعلوم ان عربان القبائل المختلفة تهجم احياناً كثيرة على بعضها البعض للغزو ونهب الاموال والمواشي ومن هذا القبيل انه اتى بعض العربان المجاورين للخطة المصرية منذ امد طويل الى حد جدابية التي تبعد عنهم بمسافة خمسة عشر او عشرين يوماً وبعد ان

سرقوا كمية من الجمال فروا هاربين . فبعد مرور ثلاث سنين اتى الى جدايية احد الجمال المنهوبة وكان معتاداً على الشرب من بئر فيها ووراءه اربعون جملاً *

نهار الاثنين ١٦ تشرين اول — كان ابتداء سيرنا في هذا اليوم صباحاً قبل الساعة الثانية عشرة بخمس عشرة دقيقة وتلاقينا في النهار اثناء الساعة الرابعة مع قافلة آتية من الكفرة . ومن عادات السائحين في القفار انه اذا التقت قافلتان ببعضهما ولو عن بعد وكان من مقتضيات الحال عدم مماشاة بعضهما البعض لسبب اختلاف المحل المقصود يفترق من القافلتين رجلان ويذهبان حيث يتلاقيان بدون ان تقف القافلتان ومتى تلاقيا يسألان عن خاطر بعضهما البعض وعن كيفهما ومن أي مكان أتوا وأي محل يقصدون وينقل كل منهما الى صاحبه ما رأوه اثناء سفرهم من الحوادث والوقائع . ثم يفترقان مسرعين بخطوات طوال الى ان يصلا الى قافلتهما ومن ثمة يباشران حينئذ بنقل وحكاية ما سمعه كل من الاخر الى قافلته . فالقافلة التي ذكرنا ملاقاتنا معها حيث ان طريق مقصودها يصادف طريق مقصودنا لم نر حاجة لاخراج رجل من قافلتنا ورجل من قافلتهم فاذنا تلاقينا معها في منتصف الطريق فتعاطينا السلام والثناء والاسئلة والاجوبة والحاصل جرى بيننا من الالفة والمحبة ما لا يجري مع احباب اربعين عاماً *

ومنذ ابتعادي عن السواحل كنت اكتب المكاتيب واعطيها الى من اصادفهم على النادر ليوصلوها الى بنغازي ومنها الى دار السعادة ففي هذا اليوم امكن ايضا ان اكتب مكتوبين وانا واقف على اقدامي وسلمتهما الى شخص من اركان قافلة كفرة وكان اذ ذاك كل احد يسأل عما يخطر بباله وانا ايضاً فهمت انه قد مضى مدة عشرة ايام من خروج هذه القافلة من كفرة . ومع ان البدويين لا يخافون بقدر ما نخاف من قلة الماء كذلك لا يرون لزوماً لقطع ثمان ساعات او عشر ساعات ولو كان طريقهم كثير المياه .

وعليه ونظراً لكوني اعهد ذلك قديماً لم اظهر تعجبا ما بوصول عربان هذه القافلة من كفرة الى هنا بظرف اثني عشر يوماً بل كنت لا اشكّ في وصولنا الى هناك بمدة اقل من هذه المدة - فبعد فراغ القافلتين من المصاحبة والتحابب رفعوا ايديهم بالضراعة حسب العادة وقرؤا الفاتحة الشريفة فافترقنا عن بعضنا ثم جلست قافلتنا قبيل الظهر وقضت مقدار ثلاثة ارباع الساعة بالطعام والاستراحة وبعد ذلك اخذنا بالمسير حسب عادتنا وبدوامنا في هذه الليلة على المسير الى الساعة الثانية ونصف قطعنا مسافة اربع عشرة ساعة من طريقنا وبعد ما حططنا الرجال قمت لانظر حسب العادة الي توزيع المياه - فكنت اجد مع الاسف بعض القرب جافة خالية من الماء واما بقية القرب فبسبب مرور الايام عليها تناقصت مياهها نوعا ما - ومن المعلوم ان جميع القوافل التي تذهب الى داخليّة بنغازي او السودان تملأ قربها بالماء لان من احوج الاماكن في افريقيا الى الماء هذه المواضع فانه يعز وجوده فيها - وحيث كانت قربنا التي اخذناها من بنغازي من جلود المعز فقد تعطلت كما بينا - فالقرب المحليات والوادائيات حسب الجنسية تنقسم الى قسمين - فالمحليات صغيرات الحجم بالنسبة للوادائيات وجنسها دنيء فلا تحفظ الماء الا مدة قليلة ويتغير فيها طعم الماء ببرهة يسيرة - واما الجنس الثاني وهو الوادائيات فانها اكبر حجما وجنسها احسن من المحليات فانها تحفظ الماء كثيراً ولا تعطل طعمه ولذته وبذلك كانت مرجحة على غيرها لكن قيمتها زائدة نوعا ما وهذا الرجحان جربته جيداً في سياحتي الاولى والثانية - وهنا شيء يحتاج الى ذكره وهو ان من يريد السياحة في القفار يجب عليه ان يملأ قربته ماء قبل سفره بخمسة او ستة ايام ويعلقها في محل مخصوص لانه بظرف المدة المذكورة تظهر القربة العاطلة التي تغير طعم الماء وتعطل لذته فتعيدها الى صاحبها وتأخذ غيرها - وحيث اني ما راعيت هذا الاحتياط الواجب وقعت بعد ذلك في ورطة الندم للغاية - والتجارب تعلم الانسان كل شيء *

الثلاثاء ١٧ تشرين اول — في هذا اليوم ايضاً كانت حركتنا اثناء الساعة الثانية ولما صار وقت الظهر استرحنا مقدار خمس وثلاثين دقيقة . ثم سرنا نطوي المراحل الى الساعة الثانية ونصف من الليل *

الاربعاء ١٨ تشرين اول — ولما اخذنا بالمسير في هذا الصباح كانت الساعة نحو الحادية عشرة وفي اثناء الطريق رأينا آثار مشي جمال امامنا وبالسوال اجاب بدويوا القافلة ان هذه الآثار هي آثار اقدام جمال مرت قبل ايام وادعى دليل قافلتنا أنه رأى آثار اقدام صالح البدوي الذي ارسلته من جالو الى كفرة لايصال مكتوب وهو ضائع عن الطريق فارشده واوصله الى القافلة *

وفي هذا اليوم لم يشتد مرض سليمان منينه افندي احد رفقائنا الذي كانت طرأت عليه الاوجاع منذ ايام وعليه لم ننظر في مرضه بل مددناه على ظهر الجمل وسرنا هكذا الى ان قطعنا مسافة خمس عشرة ساعة لانا ما تجاسرنا على الوقوف والتمهل في هذه الجهات *

الخميس ١٩ تشرين الاول — وفي هذا النهار اخذنا بالمسير عند الصباح وفي اثناء الساعة الواحدة لاح لنا من الجهة اليمنى خيال قافلة آتية من واداي وحسب العوائد التي ذكرنا فيما قد مر اخرج كلا الفريقين رجالاً تخابروا مع بعضهم . ثم عاد مخبرونا ففهمنا منهم انه قد تلاقى البدوي الذي ارسلناه من جالو كما ادعى دليلنا مع احدى القوافل في اثناء الطريق ووصل من ذلك الى بئر زيغن . ونظراً لتأييد ادعاء دليلنا المذكور على هذه الصورة المحكية انتقل الكلام الى دليلي القوافل ومهارتهم وفراستهم واخذ كل واحد يورد فقرة بذلك . فضبطت من الفقرات المذكورة اشهرها واغربها على الوجه الآتي . وقع بحث بين مرتضى السنوسي الذي مهنته دلالة القوافل التي تذهب الى داخلية واداي وسودانها واخيه . فغرس مرتضى عصا في نقطة غير معينة في اواسط الصحراء

حينما كان ذاهباً الى واداي وبعد ان وصل اليها واقام فيها عدة اشهر تهيأ للرجوع وفي اثنائه سار الى النقطة الغير المعينة التي وضع فيها العصا متّبعاً خط الاستقامة بدون تفكر وانحراف الى جهتي اليمين واليسار الى ان وصل اليها فاخذها وفاز في البحث مع اخيه *

وفي هذه الليلة ايضاً دام سيرنا الى الساعة الثانية ونصف فيكون جملة سيرنا مقدار خمس عشرة ساعة تماماً *

الجمعة ٢٠ تشرين الاول — وحيث كنا قد قاربنا الوصول الى آبار زيغن وكنا نريد التوقف والاستراحة هناك رأينا من اللازم تعجيل السير - فسرنا الى ان وصلنا الآبار المذكورة نحو الساعة الرابعة - واذا دققت النظر في خريطة افريقيا تظهـــر اشارة واحة عند كلمة زيغن ونظـــراً لذلك يظن ان تلك المحلات مسكونة معمورة - والحال بمجرد الوصول اليها يتضح خطأ هذا الظن عياناً - واما الفرق بين اراضي زيغن وبعض اقسام الصحراء الاخرى فهو ان الاقسام المذكورة يابسة لا نبات فيها البتة واراضي زيغن تنبت نوعاً من الشجر يشبه شجر الدوالي وبعض اشجار غيرها ولما ينزل المطر وهو نادر تخـــضر الاشجار المذكورة وتصير الارض خضراء كانها مرعى - فتعرج القوافل سواء كانت ذاهبة من الساحل الى السودان او من السودان الى الســـاحل بمـــا حل بها من النصب وبجمـــالها الجائعة اليها فتســـتريح وترعى جمـــالها مدة اسابيع - ولكن بناء على عدم نزول الامطار على الاراضي المذكورة منذ تسع سنين يبســـت اشجـــارها وصارت بدرجة ما لو امسكها احد لتكسرت من تأثير حرارة الشمس فيها بل صارت كالرماد حتى اننا لم نجد حاجة لآلة جارحة لكي نقطع من حطبها لاشعال النار فان اعظم غصن فيها كما يظن بمتانته كان بمجرد ضربه باليد ينكسر - ولما اردنا تصغير حجم الحطب الذي اخذناه منها لتشعيل النار اثناء سيرنا من زيغن الى كفرة لكي نضعه في اخراجنا صرنا نضرب اعظم حطبة باختها الى ان تكسر الكل بحجم كسرات الفحم بدون ان تمس

بنا الحاجة الى آلة قاطعة . ولما دخلت انا في اراضي زيغن المذكورة
ظننت اني دخلت الى كرم جسيم قد يبس شجر عنبه وعليه اخذت جمالنا
وكانت منذ اسبـــوع كامل لم تأكل سوى التمر تقطف من الاشجار المذكورة
وتأكل بكل انشراح واشتهاء وهذه الاراضي قطرها نحو من عشر ساعات
ويوجد فيها بئران تبعد احداهما عن الاخرى خمس ساعات ونظراً
لوقوعهما في استقامة الشمال والجنوب يتحقق ان القوافل التي تسلك
هذا الخط تستفيد منهما - وكان وصولنا الى البئر الاولى اثناء الساعة الرابعة
ويوجد هنا شجرتا تمر كنا قد رايناهما عن بعد ساعة او ساعتين - فرؤية هاتين
الشجرتين تستوجب المسرة العظيمة للقوافل العطشى الواقعة في ورطة
التعب والمشقة كرؤية ليلة القدر - ومن عادات البدويين الذين يقطعون
المسافات الطويلة في المحلات اليابسة الخالية من المياه ان يظهروا علامات
الفرح والسرور حينما يقع نظرهم على هذه الاشجار النابتة بجانب الآبار
وذلك بالغناء المعتاد عندهم واجراء الحركات كانهم يهجـــمون على عدو -
فيسيرون بسرعة ثم يرجعون بغتة مطلقين نار سلاحهم واما جمالونا فانهم
قد اجروا ذلك بصورة جيدة جداً ويمكننا ان نفسر اسباب فعلهم ذلك بشيئين
احدهما ان جمالهم وانفسهم قد قطعوا بالسلامة ذلك القسم الصحراوي
المملوء بالمهالك على الدوام - وثانيهما ملاحظتهم واملهم بنوال الضيافة
المعتادة و زيادة الاستراحة اكثر من سائر الاوقات بجانب بئر الماء - ونظراً
لكون البدويين يرجحون جمالهم التي بها مدار تعيشهم وحياتهم على انفسهم
واولادهم رأيت من المنـــاسب ان أقدم ذكر الجمال على ذكرهم -
واما المقصود من " الضيافة المعتادة " فهو عبارة عن انه متى وصلت
القافلة الى مثل هذه المحـــلات يعمل صاحب القافلة او كبيرها ضيافة
لهم وذلك دين عليه *

ذلك فيما لو استأجر تاجر جمالاً كثيرة او سافر بجمال هي ملكه
يجب عليه احضار ضيافة على كل حال واما اذا لم يوجد هو بنفسه

مع القافلة فتترتب الضيافة على وكيله - والذين لا يريدون مراعاة هذه العادة يستحقرهم البدويون ويغنون المواليات المشعرة بخستهم ولؤمهم *

وهناك شيء مهم وهو انه يجب على السائرين في تلك الجهات ان لا يسرفوا بصرف المياه قائلين ها قد قاربنا الوصول الى مواقع الابار فنأخذ حاجتنا - اذ كان من المحتمل عدم الماء فيها وليس من المستبعد ايضا ان يتشوش فكر الدليل فيضل عن الطريق المستقيم و يكون الخطر في عدم المرور بالابار او الوصول اليها - حتى اننا قد املنا في سياحتي الاولى حينما كنت راجعاً من جغبوب املاً قوياً بوجود الماء في آبار حكيم فاسرفنا وصرنا نطوي المراحل الى ان وصلنا اليها فلم نجد ما اروى دابتين وبكل صعوبة ومشقة تمكنا من املاء عدة قرب من تلك المياه الوسخة المتعفنة - واما بقية الحيوانات فقد تلف منها البعض من الحرارة بسبب كونها بقيت محرومة من الشرب مدة اربعة ايام مع السير المتمادي الى آبار حمارين - وفي الواقع ان آبار حكيم هي عبارة عن صهاريج بسبب امتلائها من ماء المطر ولكن وان كان لا يستبعد وجودها خالية جافة فانه من الممكن عدم خلو غيرها من الابار وعدم جفافها - ويروى انه كانت قافلة اتية من السودان قبل عشرين سنة قد قطعت سائر طريق الصحراء الى ان وصلت الى يوم تؤمل فيه الوصول الى نقطة السلامة وهي موقع ابي الطفل المار الذكر فاسرفت بصرف الماء قائلة ها قد قاربنا الوصول الى الماء الجديد وبالصدفة كان ذلك النهار بغاية الشدة للحرارة وكثرة هبوب ريح السموم فازعجوا انفسهم بالسير املاً بالوصول الى آبار الماء وفي هذه الاثناء ضيع الدليل استقامة سيره واخذ يزعج ارباب القافلة بتردده يميناً وشمالاً وتخلصاً من ذلك ومما سيؤل اليه امرهم جلسوا في جهة قائلين للدليل اذهب انت بنفسك وفتش على بئر وعد مسرعاً - فذهب الدليل وبعد ان سار وفتش تلك الجهات مقدار ساعة او ساعتين رأى بئراً تبعد عن النقطة التي ترك فيها القافلة بنصف ساعة ولكن هيهات هيهات ما عاد اليها مسرعاً الا ووجد

جميع القافلة قد تلفت ووقعت في ربقة الهلاك بسبب شدة الحر وفقد الماء - ونظراً لما يرويه اهالي جالو يظهر ان القافلة المذكورة كانت مؤلفة من اربعمائة شخص وكلهم دفنوا بالرمل في المحل الذي قضي به عليهم وامثال ذلك معروفة متواترة بين العربان والقبائل بما لا يعد ولا يحصى - ومن المستغرب مع انه قد وقع عدة فاجعات ان لم يفتكر احد بغرس اشجار التمر على جانب الآبار مثلاً علامة على وجودها هناك - وفي اثناء الطريق كنا نصادف اشلاء بني آدم فرأينا في هذا النهار جسم انسان في محل يبعد عن بئر الماء نحو عشرين او ثلاثين ذراعاً - وبناء على عدم دفن الجسد في حفرة عميقة يخرج الى سطح الارض حين اشتداد الهواء ونسفه الرمال نسفا - ولا يستوحش البدويون من هذا المنظر الرهيب اصلاً لانهم تعودوا عليه - والمحلات التي توجد فيها آبار زيغن (والصحيح انها حفر) تبعد عن بعضها البعض مقدار خمس ساعات - ومع ذلك لا تسير اي قافلة كانت ما لم تحط رحلها في كل واحدة من هذه الابار عدة ايام لا تسير عنها اصلاً - وعليه بين الجمالون ورفقاؤنا ذلك وقالوا ينبغي ان نبقى في زيغن يومين او ثلاثة ايام على الاقل ولكني اجبرتهم على المسير حسب العادة وقت الصباح وفي ثاني يوم من ذلك لم اترك لهم مجالاً لحط الرحال عند البئر الثانية الا مقدار تناول الغداء وعليه اخطرتهم بلزوم املاء القرب من الان وبالطبع بقوا مجبورين على الامتثال *

السبت ١٢ تشرين الاول — في الساعة الاولى من الصباح سرنا برواحلنا الى ان وصلنا لحد الابار الثانية عند الساعة الخامسة وعشرين دقيقة - فنزلنا هناك وتناولنا الطعام وبعد حمده تعالى اتاني احد الرفقاء وهو السيد محمد بن الشفيع وقال نظراً لما قد طرأ من المرض على جمله وعدم امكان سيره ينبغي البقاء هذا اليوم في هذا المحل فاجبته معتذراً بان الوقت لا يساعدنا على الوقوف ووعدته بان أنبه على القافلة ان تأخذ حمل الجمل المريض وتقسمه على بقية الجمال - ثم نبهت عليهما

بالتحضر للمسير في الساعة السادسة ونصف . وما اتت الساعة التاسعة الا وكنا قد خرجنا من اراضي زيغن ولكنا وقعنا في العواصف الرملية التي لا قرار لها ومع ذلك بقينا سائرين حتى الساعة الثانية من الليل *

الاحد ٢٢ تشرين اول — لقد حضرنا في الصباح جميع اشغالنا وبعد اكمالها اركبنا الجمال وسرنا في القسم الداخل في جهة (دفه) من جهة (غرد) اي على تلك الهضبات السيارات التي تتشكل من الهواء الشديد ونظراً لكثرة انحدارها ومجبوريتنا على السير فيها وقعنا في ورطة التعب والمشقة بحالة لا تتحمل وفي هذه الاثناء وقع نظرنا على جسدين نصفهما مدفون في الرمل والاخر لا غبار عليه - وفي الساعة العاشرة اكملنا السير على هاته الهضبات والبحار الرملية ودخلنا في محل محجر يدعى بغور الافاعي وهو عبارة عن جبال مؤلفة من الحجر الاسود وبين هذه الجبال العدد الكثير من احجار القدحة والعظام المتحجرة وبعض اعضاء الحشرات والذي جلب دقة نظري هو تلك الاحجار الشديدة السواد الكروية الشكل المختلفة الجسامة - فكسرت بعضها فرايت داخلها مملوءاً بالرمل فقط - واما الطبقة الحجرية التي هي محيطة بالرمل فهي عبارة عن مقدار قشرة الجوزة الهندية المعلومة - وهذه الاحجار الكروية الشكل يستعمل البدويون صغيرها بدل الرصاص في بواريدهم - ويتضح من اقاويلهم انه يظهر بداخل الاحجار المذكورة في بعض الاحيان بعض احجار ذات قيمة ثمينة وبناء على ذلك قد كسرت الكثير منها لكني ما توفقت لهذه الغنيمة الباردة ومع ذلك جمعت اثناء العودة الى دار السعادة مقداراً وافراً لاراءتها لاربابها ولمن يريد ان يقف على حقيقة امرها *

يوجد في غور الافاعي كما يفهم من اسمه عدد كثير من الحيات المسمات ومع اننا لم نصادفها وما رأيناها بالعيان لكنا رأينا بعض آثارها المدهشة اذ من المعلوم البديهي ان هذه الحشرات لا تخرج من اوكارها في النهار على الاكثر وبسبب وجودنا في المحلات المملوءة بها انتقل

كلامنا الى الجهات والمحلات التي توجد فيها بكثرة - فمن الجملة حكى بعض البدويين حكاية من كيفية الاحتياطات التي يتخذها الذين يذهبون لطلب الذهب في معادنه لصيانة جمالهم من اضرار الحيات في تنبوقتو وهي : بناء على وجود تراب الذهب المعبر عنه بالتبر مختلطا بتراب الارض بالقرب من تنبوقتو ونظراً لكونه يرى في الليل اكثر من النهار بسبب لمعانه يلبس الذين يخرجون لجمع التبر في الليل جمالهم جزمة من الجلد الثخين من حوافرها حتى صدورها وقاية لها من لسعات هذه الحشرات ويأخذون بايديهم قصبة مجوفة يملؤونها من صفوة النار فمتى احسوا بلمعان ما يوجهون فم القصبة نحوه وينفخون مما فيها عليه وبهذه الصورة يضعون الاشارات على كل محل فيه لمعان حال كونهم راكبين على جمالهم الى ان يأتي الصباح ويبزغ نور الشمس الوضاح فيلمون التبر من تحت اشاراتهم التي هي عبارة عن صفوة النار بكل سهولة - ومن المعلوم ان الكلام يجر بعضه فلما كنا نبحث عن الحيات ومضراتها انتقل بنا البحث الى التبر والان انتقل كلامنا من الذهب الى مادة لها قيمة ثمينة عند العربان *

وهي عبارة عن الملح الذي نشتري اقته في بلادنا بقرش واحد - وبنسبة التباعد عن السواحل في افريقيا وبناء عليه عن المملحات تزداد قيمة الملح كثيراً حتى نظراً لطبيعة بعض المحلات الارضية ينجبر سكانها على ادخار الملح لهم ولدوابهم - فيتضح من ذلك ان من اهم المواد التجارية التي تدخل في داخليّة افريقيا الملح لانه اندر من الجميع وجوداً - حتى ان الذي يملك مقدار اقة منه في تلك الجهات يعد سعيداً كانه يملك شيئاً عظيماً وتصل درجة ارتفاع قيمته الى غاية يرجح بها الذي يريد اخذ وتقديم هدية الى اكابر حكام الممالك السودانية هذا الملح - والسكر و الجاي والصابون وما ماثلها من مقبولة جداً لدى المهدي اليه لكن هدية الملح مقدمة على ذلك وتقبل بصورة فائقة بكل

انشراح وسرور - ونقل لنا حمد قليدا دليلنا المار الذكر قوله " كنت مرة ترجيت احد احبابي من التجار اثناء عزيمته الى وادايي ان يبيع مقدار اقتين من الملح على حسابي - ففعل ذلك بانه استبدل المقدار المذكور في بلدة سيلة التي تبعد عن وادايي ستة ايام باقتين من سن الفيل واتاني به وسلمني اياه - فيستنتج من ذلك ان قيمة الملح في هاتيك الاصقاع تعادل قيمة سن الفيل - وعلى الخصوص عادة الوادائيين وسائر البلاد السودانية وهي ان وعاء مملوءاً بالملح يقدم بدل القهوة للمسافرين اثناء الضيافات الكبيرة وبمجرد اكرامهم بذلك يأخذ كل واحد من الحاضرين مقداراً من هذ الوعاء ويمتصه - ولما صار وقت ظهر هذا النهار اخذ بدويوا قافلتنا يصيحون بقولهم " هاك الخويمة ! .. ها ك الخويمة ! .. ,, ويشيرون بايديهم الى هضبة صغيرة - ومن المعلوم أن الخويمة هي تصغير خيمة فاشارة هؤلاء الى الهضبة بهذه الصورة نظراً لكون الهضبة المذكورة تشبه الخيمة حين وقوع النظر عليها عن بعد بصورة لا يمكن تمييزها عنها - لان ارتفاعها بالنسبة لمحيطها قليل جداً وعدا عن كون شكلها بغاية الانتظام كانه بهيئة الاهرام القائمة لكن دورتها ليست كالاهرام بل كانها بصورة الخيمة المقطوعة المستوية - ولقد سألني احد البدويين ممتحناً ممارستي في تقدير بعد المسافات بقوله بكم ساعة نصل الى هذه الهضبة - فاجبته قائلاً ,, اما بساعتين او بثلاث ,, فقال ,, أ بعد ثلاث ساعات ؟ لقد قربتم المسافة كثيراً لانا ان وصلنا اليها بعد ظهر نهار الغد فيكون جيداً ,, والبقية صادقوا على قوله - وحيث كانت هذه المسافة مستغــــربة ومستبعدة لديّ ضحكت وقلت على كل حال عند المساء نصل اليها ونركب خيامنا على ذروتها - ثم اخذت منصور افندي معي واسرعنا بالسير - وبناء على وجود الهدف المرئي على استقامة سيرنا لم يكن هناك مخاطرة بالابتعاد والافتراق عن القافلة وان ذاك نبهت افراد القافلة وخصوصا العساكر بأن يهتموا بالالتحاق بنا عند الخويمة - وخاطبت منصور افندي بقولي

لنسر عاجلاً ! هلا نصل الى هذه الهضبة قبل الغروب ؟ واخذت نخزات المهموز (قطعة من الحديد توضع في اسفل القوندرة التي يلبسها العسكري في الاكثر) تعقب تشويقاتي بتسريع المسير . فكانت حيواناتنا تسير بكل جهدها وطاقتها - ولكن هيهات ! فانه كلما سقنا دوابنا بامل الاقتراب والوصول الى هذه الهضبة كانت هي تبتعد عنا وتفر منا ولا نصل اليها . ولم نزل في الطريق ولم نزل بعيدين عن الهضبة بكثير وحيث كانت الاراضي التي عليها سيرنا تتموج بالعواصف الرملية فكنا تارة نوجد بصعود وتارة بهبوط كانت الهضبة تارة تظهر امامنا وتارة تختفي عن اعيننا - واما منصور افندي فانه وان كان قد قال لي بعدم السير ولزوم انتخاب نقطة للتوقف فيها الى حين ورود القافلة لكنني قد رجعت والتزمت جهة ادامة السير في طريقنا والانشراح بنور القمر الذي يبزغ كانه ذلك الفانوس العظيم المتشعب الاشعة ولم اقدر على ترك المحجوبية في حوصلتي تلقاء البدويين . واخذنا بالمسير فكانت الخويمة تارة تظهر ايضاً وتارة تغيب - ولكن بنسبة سيرنا كان تجسمها يزداد في نظرنا ومع هذا فكاننا كالذين يمشون في نومهم اذ للان ونحن بعيدون عنها والحاصل وقع وصولنا الى طرف الخويمة في الساعة الرابعة من الليل مع اني كنت جزمت باننا لا نصل اليها الا في الساعة الرابعة من النهار الثاني . وبهذه الوسيلة صار مجموع سيرنا في هذا اليوم ست عشرة ساعة بالتمام - وكل ذلك لم ننظر اليه بل ما نمنا حتى طبخنا الطعام الجديد واكلناه *

الاثنين ٢٣ تشرين اول — نظراً لما قد اصابنا بالامس من التعب والمشقة ما امكنا القيام صباحاً حسب العادة . ولما ان بوشر بشد الرحيل وتحميل الجمال اخذت بالسير في اطراف الخويمة وامرار النظر عليها . فرأيتها عبارة عن حجر اسود وفي اطرافها بعض احجار سوداء مختلفة الاشكال غير منتظمة ولكن الخويمة نظراً لحجمها وجسامتها وانتظام شكلها تعد احسن الجميع ومحيطها بالتقريب بمقدار سبعمائة متر وارتفاعها بمقدار

سبعين او ثمانين مترا ونظراً لوقوعها في منتصف الخط المستقيم بين زيغن وكفرة تعد هذه النقطة نصف الطريق بين هذين المحلين *

وفي هذا اليوم باشرنا بالسير قبل الساعة الواحدة بخمس عشرة دقيقة الى ان انتصف النهار فاكلنا واسترحنا بمقدار ثلاثة ارباع الساعة - ثم واصلنا السير حتى الساعة الثالثة ونصف من الليل وبهذا الحساب يظهر ان مقدار سيرنا كان قريباً من ثلاث عشرة ساعة ونصف *

الثلاثاء ٢٤ تشرين الاول — ان قافلتنا التي اخذت تسير من الساعة الثانية عشرة ونصف قد وصلت اثناء الساعة السادسة ونصف الى الواحة الصغيرة المسماة (هواري) وهي من ملحقات (كفرة) المار ذكرها - ونظراً لوجود السكان واشجار التمر والمياه في هذه الواحة اظهر رفقائي وعلى الخصوص الجمالون أملهم بالتوقف والبيتوتة هنا ففي الحقيقة كان بيننا وبين كفرة اكثر من ثماني ساعات ولكن لو بقينا في هواري فلا شك بانه لا يمكننا الوصول الى كفرة في اليوم الثاني لان من العادات المحلية ان القوافل اذا ارادوا الدخول الى محل كبير وعلى الخصوص الى كفرة التي هي المقر الجديد لحضرة الشيخ السنوسي ينبغي ان يكون هذا الدخول في الوقت المناسب وان يكونوا مترديين بافخر واطهر الثياب الموجودة عندهم وعليه افهمتهم باننا اذا بقينا في واحة هواري لا يمكنا الدخول الى كفرة بل نكون مجبورين على التوقف في الخارج الى بعد الغد وبهذه الصورة نكون قد ضيعنا يوماً كاملاً وبناء على ذلك توقفنا هنا مقدار ساعة ونصف استرحنا فيها واكلنا الطعام ثم باشرنا بالمسير الى الساعة الواحدة وربع من اول الليل واذ ذاك اختارت القافلة محلاً مناسباً يبعد عن زاوية الشيخ المشار اليه بمقدار ساعة لحط الرحل والاقامة فيه على ان بعض رفقائي الذين كانوا يريدون مخالفة افكاري حين شد الرحل من هواري حينما وقع نظرهم على مناظر كفرة فرحوا فرحاً عظيماً واخذوا يصوبون افكاري على ابرامي بالخروج من هواري

فكانت اثار الشوق والمسرة في هذه الليلة عظيمة جداً بصورة ان موقع اقامتنا كان شبيها بمحلات الاعراس - ثم ان دليلي ارسل احد رفقائنا وهو الشيخ السيد محمد الفاتوري الى الزاوية ليخبر بوصولنا واننا سندخل الى كفرة وكانت مسافة سيرنا في هذا اليوم بمقدار احدى عشرة ساعة وربع *

الاربعاء ٢٥ تشرين الاول — وبعد ان قضينا اكثر ليلة البارحة بانواع الافراح والمسرات نمنا واستيقظنا باكراً - فقام رجال القافلة منهم من يربط الاحمال ومنهم من يزين رأسه ووجهه ومنهم من يغير ثيابه وينظفها الى ان قرب الوقت من الساعة الثالثة وعليه لبست انا ايضا سترتي الجديدة ذات الفورما والبست العساكر الشاهانية الموجودة معي الألبسة الجديدة السوداء - ثم سرنا نريد كفرة على غاية الانتظام في السير تخفق فوق رؤسنا الراية العثمانية المنصورة وقبل وصولنا ببضع دقائق خرج لاستقبالنا عموم سكان الواحة تقريبا من مشايخ ودراويش وطلبة علوم يتقدمهم السيد محمد البسكري اكبر مريد لحضرة السيد السنوسي وبعد ان ادوا واجبات الادعية بطول بقاء امير المؤمنين بلغونا سلام الشيخ السنوسي ثم سرنا من هناك الى الزاوية فوصلناها في الساعة الرابعة *

الجزءُ الثاني

نُخَبٌ من كتاب الواسطة في معرفة احوال مالطة وكشف المخبّا عن فنون اوربّا لاحمد فارس افندي صاحب الجوائب

فصل في هوآء مالطة ومنازهها وغير ذلك

انما قدمت هذا الفصل من كلامي لاهميته فان العافية خير ما ملك الانسان و ان ارضا لتأكل من نازلها لجديرة بان لا يؤكل منها فاقول قد تقدم فيما مر بك موقع هذه الجزيرة وبقي الآن الكلام على هوائها من حيث هو هو فان الهواء لا يعرف غالبا من مجرد نسبة الموقع اما هواء مالطة فلا يحمده من الف البرور الواسعة لانه كثير التقلب فيختلف في الليل والنهار عدة مرار فقد يكون في الصباح صحو فلا تشعر الا والغيم قد طبق اعنان السماء فيكفهر الجو ويهيج البحر وتثور الزوابع وتزمر الرياح فترقص لها الابواب بل قد يكون في النهار برد وفي الليل حر هذا في الشتآء فاما في الصيف فلا ترى في الجو لطخة سحاب ولا غادية اصلا وفصل الشتاء يبتدئ فيها من شهر تشرين الاول وينتهي الى ايار والباقي صيف شديد وان وقع في خلال ذلك يوم معتدل فتاتي فيه نفحة من الريح باردة واخرى حارة او تكون النعور وهي من الرياح ما فاجأك ببرد وانت في حر او عكسه وفي الجملة فانها جديرة بان تسمى مخزن الرياح فهي لا تخلو منها باردة كانت او حارة واكثر رياحها في الصيف السافياء تأتي بغبار وتراب دقيق تطيره على وجوه الناس وتدخله في الديار من خصاص الزجاج - ومن الغريب ان الريح الشرقية التي تكون في الشتاء زمهريرا تصير في الصيف سموما فتتشقق بها اخشاب المنازل وهي مصبوغة وتصرصر بها

روافد السقوف ويجف بها الزجاج ويتصلب - فيكسر بادنى مس ويقوصد بها الجلد والورق بل يتأثر بها الحديد والنحاس والعظم ونحوه وينتن شمع الشحم فتكون الشمعة في البيت كالجيفة وقد تبلغ درجات الحر فيها فوق المائة فيقضي الومد حينئذ باللباس الخفيف من الكتان وبالنوم من دون غطاء واكثر اهل مالطة ينامون ليلا على السطوح لكون سطوح ديارهم غير مسنمة بخلاف الديار في اوربا واذا مشى الانسان خطوات في الصيف يعوم في عرقه ثم لا يلبث ان تلفحه لفحة من الريح - فينبغي ان يكون احذر من غراب - هذا ولما كانت ارض الجزيرة خالية عن الاجم والغياض والجبال والانهار اذ هي عبارة عن صحن في وسط البحر فمتى اصابتها الشمس مسحتها مسحا على السواء فلا مظلى فيها من شيء وربما زاد حرها ايضا بسبب النار التي تخرج من جبل صقلية ومع قربها من ايطاليا فليس في ديارها رخام كديار تونس وليس في شيء منها مياه جارية كديار الشام - و من جملة الاسباب التي تجعل شتآءها عارما مكروها كون بنائها من حجر رطب لو جعل في مقمأة بضع سنين لاكلأ وحين يستخرج اولا من مقطعه يكون اخضر مائيا ولا يبيض الا اذا نصب للهواء والشمس سنين ومن خواصه انه قابل للنقش فلهذا ترى منه في الديار والكنائس نصمات شتى وقد يبعث منه على سبيل التجارة الى جميع البلاد - وكثيرا ما تتوارى الشمس في فصل الشتآء فلا تطل فيه ولا من شباك فاين هذا من شتاء مصر حين يترحب بالشمس طالعة و تشيع غاربة وفي الصيف يطفو نيلها فيرطب الارض وينتظم به شمل الاحباب وعقود المسرات - واذا اتفق في مالطة يوم صحو في الشتاء رأيت الناس جميعا يعددون محاسنه و يصفونه ويلهون عن سوء ايامهم الاخر حين اذ الرياح تأخذ بناصية السائر والمياه تهطل من انف كل سحاب والزكام ملازم للانوف والسعال قابض على الحلقوم واشد ما يسوء منها استمرار الرياح اياما متوالية من دون مطر فانه قد يأتي عليها من السنين ما لا يغزر فيه المطر والرياح مع ذلك لا تهدأ اصلا وقد احتاجوا في بعض

السنين الى الغيث غاية الاحتياج حتى فرض عليهم اسقفهم دعاء للاستمطار في الكنائس مع الصيام والريح مع ذلك تزيد عصوفا وفي الجملة فان صيف مالطة وشتاءها شاقان جاهدان يهجمان بغتة فآخر ذنب الشتاء معقود بناصية الصيف فليست كمصر والشام فان الانسان فيهما يتعود على تخالف الفصول شيئا فشيئا وليس من علامات الربيع شيء بمالطة سوى تكاثر البراغيث فهي آفة من الآفات ولا من علامات الخريف سوى تناثر اوراق الشجر المعدودات ومع ذلك فان كثيرا من الانكليز يأتون اليها ليقضوا فيها الشتاء اما عدم المطر فيها في الصيف فسببه قلة الشجر والغياض فان السحب اذا مرت فوقها لم تجد ما تجذب منه رطوبة ولعل الادوية والعقاقير التي تبقى مدة طويلة في مالطة تفسد بالكلية ويزول ما بها من الخاصة فان التبغ والنشوق والخمر اذا بقيت فيها زمانا يزول طيبها رأسا لان مبلط الديار وحيطانها وسقوفها من حجر ند كما مر فاذا وضعت مثلا ملحا في خزانة لا يلبث ان يندى كانه خلط بالماء وكذلك تعفن المأكولات والمشروبات اذا وضعت في مخدع من خشب مصبوغ فان النداوة تسري الى الصبغ ولذلك كان البدل وهو داء المفاصل شائعا في مالطة وقل من يسلم منه وقد اصبت به اول سنة فكنت اقوم في الصباح موجع الاعضاء لا انشط الى شيء وما زال ذلك يتزايد بي حتى لزمت الفراش فلما عادني الطبيب ورأى مبلط المنزل اخبرني بالسبب فعظم عليّ ذلك ثم لما سمعت بان اكثر الناس ممنيون به هان عليّ ما لاقيت وتأسيت بهم ودواء هذا الداء الاقامة في محل مواجه للشمس عند طلوعها وقد كان يعلو كتبي من اثر النداوة عطن يلتصق به بعض الورق ببعض ومن جعل مرقده قرب حائط فلا يأمن غائلة صداع او وجع اسنان ومن يكن ذا علة في صدره فاعظم خطر عليه التعرض للريح بعد ان يكون في محل دفيء مع ان الغالب على اهل مالطة الشدة والقوة غير انهم ولدوا على هذه

الحال فلا تؤثر فيهم رداءة المكان ولا الزمان ومما توصي به الاطباء هنا
اتخاذ غلائل الصوف المسماة فلانله صيفا وشتاء اما في الشتاء فللدفء
واما في الصيف فلتنشيف العرق ومنع ضرر الريح النافذة في المسام حتى
انهم يخشون من الريح على الحيوانات فانهم اذا اوقفوا الحصان في
سيره اداروا وجهه الى غير جهة الريح وقس على ذلك ـ اما ارض مالطة
فانها ملطة صخرة جرداء قليلة الثرى والشجر والنبات ودائرها كله صخر
لا ينبت فيه شيء الا انه لشدة اجتهاد اهلها وفرط كدحهم ينبت فيها
اكثر اصناف البقول والفاكهة لكن غلتها لا تكفيهم اكثر من اربعة اشهر والباقي
يجلب اليهم من بلاده ـ فيجلبون القمح والقطاني من مصر ومن بلاد
الترك والروم ويجلبون الفاكهة والخمر من صقلية والبقر والضان والزيت
من افريقية وهلم جرا وزعم بعض ان ترابها مجلوب في الاصل من
صقلية وترى شجر الخرنوب والصبار التي لا تتوقف على كثير من الثرى
اعزمن شجر الجوز في الشام اما شجر الخرنوب فيكون لاصقا بالارض
كأنما هو ازرار واما الصبار فتراه محوطا بالجدران العالية كأنما هو حديقة
وينوطون بكل منها ورقة من الثوم منعا لاصابة العين مع انها مما تنبو
عنه العين واذا سألت احدهم عن قلة الغياض عندهم قال نحن معاشر
الافرنج لا نصرف همنا الا الى زرع الارض فما اقل ظلمهم واكثر ظلمهم ـ واذا
ضحيت الى الخلاء وجدت بين كل حقلين جدارا عاليا لحجز رؤية
ما دونه فاين هذا من سهول فرنسا وانكلترة البادية للعين على نضرتها وريعها
وعلى كثرة ما فيها من اكاديس الغلال والعشب من دون ناطور يحفظها
او حائط يسترها ـ ويوجد في مالطة اكثر اصناف الاشجار المثمرة والبقول
المأكولة وفاكهتهم طيبة في الجملة الا الليمون الحلو وقصب السكر والخيار
فاما الصبار فاكثره نوى وكذا الرمان واكثر الفاكهة يباع فجا وقلما يدعونها
تنضج خوفا من اللصوص ان تسرقها وجميع اصنافها ارخص منها بمصر
والتين على اصناف متنوعة والعنب لا يدوم اكثر من ثلاثة شهر اما

البرتقان فانه يدوم نحو سبعة اشهر ويرسل منه الى بلاد الانكليز وغيرها كالطرفة فاما ما يأتيها من الثمر من صقلية فانما هو سداد من عوز وعندهم من الفاكهة اصناف لا توجد في بلادنا منها صنف يقال له الفراولي وهو حب احمر صغير بقدر ثمر العليق حامض يصلحه السكر وآخر يقال له نصبلي وهو شبيه بالمشمس او بعين البقر ونواه كبير وآخر اسمه زربي وهو اشبه بالزعرور شديد الفججة يجعلونه اعذاقا كاعذاق التمر فينضج منه كل يوم حبات ويدوم العذق بجملته اشهرا ولا يعرفون حفظ الفاكهة الى اوان الشتاء كما يفعل في بلاد الافرنج فان العنب والتفاح في فرنسا وانكلترة لا ينقطعان اصلا اما بقولهم فغير طيبة وذلك لكثرة مائيتها فاذا رأيتها في السوق سرك نضارتها ولكن متى طبخت جاءت مسيخة حتى ان البصل والفجل وما اشبههما مما طبعه الحرافة لا طعم له عندهم لا بل اذا جلبت من بلاد اخرى يتغير طعمها وكذا الكرنب والباذنجان ونحوه ولا يكاد يبدو نوع منها الا ويغلظ ويجسو ومن الغريب ان نباتها مع كونه بهذه الصفة فعسلها في غاية الجودة ومما لا يوجد عندهم من الخضرة الكوسى والقثاء والملوخية ومن غيرها اللبن والقشطة والسمن وانما يجلبون نفاية هذا احيانا من طرابلس الغرب واهل مالطة جميعا يتقززون منه ويطبخون ادامهم بشحم الخنزير . اما ماؤها فانه ماء المطر مخزونا في الآبار غير سائغ فما شربه ذو تعب او ظمأ الا واصابه سعال وكثيرا ما يحدث عن شربة واحدة نفث الدم فشتان بينه وبين ماء النيل الذي يطيب شربه على التعب والظمأ ولا يزيد الشارب الا صحة ونماء جسم فلا ينبغي لاحد ان يشرب من ماء مالطة الا ترشفا ونقل عن ارسطو ان الماء الراكد الذي لا تقع عليه الشمس لا يكون الا ثقيلا وتتولد فيه مادة طينية . اما حدائقها فاشهرها حديقة صانت انطونيو مقر الحاكم في الصيف وهي التي نزل بها الامير بشير شهاب باهله اخلاها له الحاكم اجلالا لشأنه وهي نضيرة حسنة الوضع الا انها في منخفض من الارض وليس

فيها مقاعد او مواضع ليأكل فيها المتفرج او يشرب وليس للمالطيين عادة
ان يأخذوا الى مثل هذه المنتزهات طعاما لا في الاعياد ولا في غيرها
اتباعا لعادة الانكليز اذ لا يمكن لهم الجلوس الا على كرسي فغاية حظهم
من ذلك انما هو المشي او ان يضع احدهم ذراعه بذراع صاحبه ويمشيان
الخيلاء او ان يمشي وحده وهو يصفر ويمكو وعلى تقدير وجود رصف عندهم
او روضة فلا يعرفون كيف ينبسطون عندهما سوى بالمشي واعرف رصفا
يسمى البياذا انيقا جدا ولكن ليس فيه محل للقهوة ولا للمثلوج ولا مطعم
ولا آلة طرب ولا كرسي يجلس عليه ولو كان مثله في باريس او في مصر
او الشام لرأيته من اوله الى آخره موصوفا بالكراسي والمتكآت ومشتملا
على كل ما تطيب به النفس وفي الجملة فان الانكليز والمالطية جميعا
لا ذوق لهم في مثل هذه الامور - ثم البوسكت ومعناه الغيضة وهو على
بعد ثلاث ساعات من فالتة وهو سيّئ المنحدر قليل الجدوى فانه عبارة
عن شجرات معدودات وزهرات شعث لا صنعة في تنبيتها الا ان فيه
قبوة فيها عين نضاحة وحولها مائدة ومقاعد من حجر يقعد عليها الآكلون
فهذا الموضع انزه موضع في الجزيرة وذاك الماء اعذب ماء بها وبقربه
برج كان في القديم سجنًا يعذب فيه من يخالف الكنيسة كما كانت
العادة ايضا في اسپانيا وغيرها - ثم المطحلب وهو انضر من البوسكت
وابعد لكونه عند اقصى مالطة طولا - وفيه بركة يعلو مآءها طحلب وكانّ
الموضع سمي به - ونواعيرهم نحو نواعير الشام ومصر - والحاصل ان
جزيرة مالطة لا تعجب من الافرنج الا القليل وذلك لانهم اذا جاؤها
لم يجدوا فيها شيئا غريبا لا يوجد في بلادهم فان كل ما فيها ان هو
الا نفاية ما عندهم - وانما هي مجاز يجوزون منها الى الشرق نعم ان
بعضا من المظلومين في ايطاليا وخصوصا صقلية يأتون اليها للاستئمان
وانها لما كان موقعها بين عدة بور شرقية وغربية حصلت على هذه الشهرة
ولا سيما الآن فانه قد يتعذر السفر الى بعض جهات الشرق من دون

المرور بها ـ فاما العرب فربما لا تعجب منهم احدا فما احد ممن الف الحظ في الحمام والبساتين والغياض والمواسم والتأنق في المطاعم يترك بلاده ويأتي الى هذه الصخرة الصمآء *

فصل في فالتة قاعدة جزيرة مالطة

هذه المدينة هي مقر الحاكم الانكليزي واعجب ما فيها حصانة اسوارها وحسن مرساها ـ اما الاسوار فربما كان نصف احدها من صخر وتمامه مبني بنآء ـ واما المرسى فقد مر ذكره ـ والغالب عليها الرونق والبهجة حيث كان بنآؤها من الحجر كما مر وطيقانها مزججة ولا سيما اذا عرضتها من بعد غير انها خالية من المنائر ونحوها فهي بدونها كالهامة القرعآء واحسن ما يستحب من ديارها كونها مبنية من الحجر على صف مستو فلا ترى فيها دارا خارجة عن الخط اصلا غير انها متفاوتة الارتفاع وليست مرتبة في وضع الغرف والمساكن فان الدار الكبيرة تكون عبارة عن علية واسعة طويلة ثم صف حجرات متنافذة المدخل فلا يمكن للانسان ان ينفرد بواحدة منها دون الاخرى فاما الديار الصغيرة ولا سيما القديمة فهي خالية عن الترتيب اصلا وجدرها يصبغ غالبا في كل سنة وحيطانها ملبسة بالورق المنقوش كما في بلاد اوربا الا ان طاقاتها لا تفي بالمراد فان بين الاهلين حقوقا في المطال فلا يمكن فتح الطيقان في جميع الحيطان وما عدا ذلك فان لها رواشن خارجة من الحائط موضوعة بحيث تمنع النور والهواء وهي عالية لا يمكن لمن يكون في الحجرة ان يرى منها شيئا الا اذا كان واقفا فيها او جالسا على كرسي وهي اشبه بما يسميه اهل الشام كشكا ويقال ان وجود هذه الرواشن بمالطة هو احد الادلة على كونهم عربا اذ هي لا توجد في بلاد الافرنج الا في ما فتحته العرب منها وربما كان في الدار الواحدة ثلاثة رواشن وقل ان تجد دارا ذات ثلاث طبقات صالحة للسكنى والاغلب اثنتان وان وجد فالثالثة انما

تكون للوازم الدار وقل ان ترى فيها دارا مبلطة بالرخام حتى ان قصر الحاكم ليس فيه ولا بلاطة منه وانما المستعمل في ديار كبرائهم البلاط المعروف ولكن يدهنونه بالزيت مرارا بعد ان يكشط وجهه فيصير له لون كالكهرباء وكذلك قل ان ترى في الديار التي تكرى خزائن او مخادع او رفوفا وانما يلزم شراء ذلك على حدته وليس فيها ولا في غيرها فوارات ولا ساحات فسيحة كديار دمشق ولا اصطبلات ومن كان عنده فرس ربطه في الخارج واقل من ذلك المعارات فانهم يشترون مؤنتهم يوما فيوما بل ربما اذا ادخروها فسدت كما تقدم ويرون ذلك تخفيفا للكلفة فان صاحب العيلة اذا ربى في منزله الحيوان وخزن المؤنة واتخذ الخبز كان له ولاهله شغل شاغل ولعل سبب ذلك في الاصل عدم انتقال الاسعار وقل ان توجد دار باثاثها وفرشها كما في مدن الافرنج ومن شروط الايجار ان يستأجر الانسان الدار على ثلاثة اشهر فما فوق ذلك ويعطي الاجرة سلفا وقبل انقضاء المدة بايام يؤذن المستأجر ربها بانه يريد ان ينتقل منها او يجدد استئجارها فاذا انقضت المدة ولم ينتقل لزمه اعطاء الاجرة غير انه لا يسوغ للمالك ان يرمي بامتعة المستأجر او يخرجه كرها وانما عليه ان يضرب له اجلا ولو شهرا واذا عرضت دار للكراء كتب صاحبها ورقة تؤذن بذلك والصقها ببابها اذ ليس عندهم شيخ حارة تتجمع عنده المفاتيح كما في مصر * ومن استأجر دارا فلا بد وان يدخلها مبيضة مصبوغة المنجور وصبغ الخشب عادة حميدة فانه ابهى للنظر وابقى للخشب وقد تظهر به الدار بهية في الخارج وربما كان داخلها بخلاف ذلك وهي عكس العادة عندنا فان خارج ديار مصر والشام مظنة للهمجية مع ان داخلها منقوش مزخرف وسبب ذلك ان الحكام في السابق كانت ايديهم ممتدة لاخذ اموال الناس فلم يكن احد من الرعية يتظاهر بالغنى لا في بناء ولا في لباس اما صبغ الزجاج في مالطة فغير مستعمل * ثم ليس على عزب اراد ان يسكن بين المتزوجين من

حرج ولا حرج عليه ايضا في الصعود الى سطحه ولا يطلب منه ضامن من حيث ادبه وحسن تصرفه ولكن من حيث كونه قادرا على الاداء * وللديار آبار يجتمع فيها الماء من المطر فاذا نفد التمس صاحب الدار من ناظر الاقنية فامده بماء من عين جارية وسواء في ذلك القريب والغريب ومن لا بئر له استسقى من العين المشاعة * وكثيرا ما تجعل المطابخ تحت الارض ولها خروق في سطح الطريق ليدخل منها الضوء فتكون سقوفها مساوية لسطح الطريق وكذا هي مطابخ لندرة غالبا * ولا تخلو كل دار عن فسحة صغيرة لقوارير الزهور ومن هذه الزهور ما لا رائحة له ولا وجود له في بلادنا * وفي الديار الكبيرة ولا سيما التي يتبوأها الانكليز اجراس صغيرة مدلاة باسلاك حديد نافذة في الغرف ويتصل بها شرائط من حرير فاذا اراد المخدوم احضار الخادم جبذ الشريطة فسمع الخادم صوت الجرس من كل جهات الدار وهذا اوفق من التصفيق باليدين وربما كتبوا على صفحة الباب اقرع الباب او اطن الجرس وكذا العادة في بلاد الانكليز ولكن ليس في الابواب هنا خروق لوضع المكاتيب كما في ديار لندرة - اما طريق المدينة فان الماشي فيها ابدا يصعد ويهبط كحيزوم السفينة في الامواج غير ان لها درجا يهون من صعبها ويمكن المشي على حافاتها تحت المطر ولكل طريق حافتان عن اليمين والشمال لممر الناس ومرور الخيل والعجلات في الوسط وقد كانت جميعها سابقا مبلطة فكانت قرقعة العجلات عليها لا تطاق فاقتلعت الانكليز بلاطها من الوسط وجعلوا بدله ترابا وحصى فقال اهل مالطة ان الانكليز دابهم ان يخربوا بلادهم كما خربوهم من قبل باخذهم مدافع النحاس ووضعهم مكانها اخرى من حديد والحق يقال ان فرش الطرق بالتراب والحصى يجعلها في الصيف مثارا للنقع وفي الشتاء مناقع للوحل وانما فعلت الانكليز ذلك مراعاة لرضى بعض الاعيان الذين لهم عواجل فلنفع هؤلاء وحدهم اغمضوا عن نفع العامة وهذا دأبهم من انهم يراعون خاطر العلية دون

الجمهور والباقي من الحجر على الحانوتين متى تصبه الشمس في الصيف يصير مسدرا * هذا ولما كان اهل مالطة احرص الناس على ملابسهم واحذيتهم كان خروجهم في الطرق ولا سيما في الشتاء قليلا فتبقى الطرق دائما نظيفة فاما في لندرة فان النسآء يخرجن صيفا وشتاء ويلبسن نحو قباقيب تقيهن من الوحل فلهذا تكون طرقها وسخة جدا وقد رأيت كثيرا من الافرنج يعجبون بنظافة طرق مالطة ويفضلونها على كثير من طرق المدن العظيمة باوربا غير ان زوايا كل منها ممتلئة قذرا ونجاسة ومنها ما لا يمكن لاثنين ان يمشيا فيه معا وفي كل زاوية فانوس مركوز على دعائم من حديد يوقد الليل كله ومثل هذه الفوانيس لا يوجد في لندرة وباريس الا في اضيق الطرق واردئها وقد بلغني بعد تحرير هذا الكتاب ان انوار فالتة تستعمل الآن من الغاز - ثم لا يخفى ان الافرنج دأبهم ان يشنعوا على العرب والترك ان بلادهم غير نظيفة الطرق ولا مرتبة الاسواق وقد ملأوا الكتب بذلك ولم ار منهم من مدح مدينة ما الا انهم قد افرطوا في ذلك فان اكثر هؤلاء يذهب الى بلادنا مستوفزا ويرقد في الخانات فلا تمكن له مشاهدة ما فيها من الديار الرحيبة والمنازل الفسيحة النضيرة فيتأذى مما عاني ويحمل ذلك على مناكب البلاد جزافا ويغض النظر عن سيئات بلاده فان حوانيت اهل الحرف والصنائع في فالتة وغيرها ايضا متفرقة في جميع اطراف المدينة فربما كان دكان الحداد تحت دار قاض او مطران ولا تزال اصوات المطارق بالغة مسامعه وكذا الزواني ففي كل طريق هنا ترى منهن جملة حتى قدام قصري الحاكم والمطران وكثيرا ما يتفق ان صاحب العيلة يستأجر دارا بجانب زانية تكون اذ ذاك غائبة فلا يدري بها حتى اذا تبوأ محله اقبلت تجر ذيول عهرها فمتى قدمت البحرية سمعت لهم ولهن ضجيجا منكرا ولا تزال تسمع سفلة اهل البلد هنا يغنون في الليالي ويزاطون ولا وازع لهم فهل هذا يعد من الترتيب اما اصوات الاجراس من الكنائس فبلية كبرى وبالجملة فانه قلما يتهنأ الانسان هنا

في سكنى دار - ثم انه ليس في فالتة حمام منظور يتطهرون به من نجاستهم فاذا اضطروا الى كشط الوسخ عن ابدانهم استحموا في البحر نعم انه يوجد محل اطلق عليه لفظ الحمام ولكنه ليس في صفة الحمامات التي في بلاد المسلمين اذ هو عبارة عن مغطس فقط من دون تكييس ولا تكبيس ولا عرق على انه غال جدا و نحوه حمامات بلاد الافرنج غالبا من حيث الكيفية لا من حيث الغلاء والمتنكلزون من المالطيين يقلدون مواليهم في اتخاذهم مغاطس من قصدير او خشب في ديارهم ويدعون ان ذلك اسلم للجسم وانظف ولعمري ليس السبب في عدم الحمامات هنا الا رداءة الهواء فان من كان في محل دفيء وخرج منه مقابلا للريح لا يأمن ان يمنى بداء وكنت قد ذكرت يوما لبعض الاطباء علاقتنا على الحمام وتنقصت لفقده فقال لي لو كان عندنا حمامات لما كان من يستحم فيها وقوله هذا يحتمل معنيين فاما ان يكون قد اراد ان المالطيين لا يستعملون ذلك او ان الحمام يميت الناس حتى لا يعود احد يدخله وهذا دأب هؤلاء في الاعتذار عما لا يوجد في بلادهم فانهم يقولون انه غير نافع او غير موافق كجواب آخر وقد سألته عن وجود رفائين للجوخ والشال الكشميري فقال نحن الافرنج لا نعنى بمثل هذه الصنائع مع انهم اعظم الناس اقتصادا وتوفيرا واكبرهم هنا يرقع سراويله من دبر ويمشي كذلك من دون رداء يستر رقعته - وليس في هذه المدينة كلها مصطبة يقعد عليها فلا يمكن للانسان الجلوس الا في بيته او في محل قهوة نعم انه يوجد مصطبة عند قصر الحاكم ولكن لا يقعد عليها الا الاوباش فان القعود عند الانكليز على هذه الصفة عيب وتابعهم المالطيون على هذا ويقال انه كان في المدينة سابقا عدة مصاطب فازالها الانكليز الحاقا لها بلندرة - فاما محال القهوة في فالتة فانها عبارة عن مخازن مظلمة ليس فيها شباك يطل على البحر او على حديقة واذا اطلت الجلوس جاءك الساقي ومسح المائدة قدامك اشارة الى انه ينتظر غيرك او كانه يقول

بلسان الحال لقد ابرمت بي فمتى تفارق - ولا يمكن لاحد ان يقعد ناحية البحر ساعة واحدة لانها جميعها قذرة ولا يمكن له في المطال المرتفعة الكاشفة على البحر ان يأكل او يشرب او يدخن احتراما لنسآء الانكليز - وفي شواطئ البحر حيث يعوم الناس مدة خمسة اشهر لن ترى كنا او عرشا او خيمة وانما ينصب السابح حر وجهه للشمس فيحترق قبل طلوعه من الماء - وفي الحقيقة فان الانكليز جعلوا مالطة خالية عن المنازه والمثابات السارة اصلا - ومن اعظم اسباب الحظ عند المالطيين الذهاب في القوارب ليالي الصيف ليغتسلوا في البحر فتذهب الرجال والنساء معا ويقضون هزيعا من الليل بالسباحة والغناء - و القوارب في مرسى فالتة كثيرة جدا وكلها مصبوغ ظريف ولكن ليس فيها مقاعد كقنج مصر ولا زرابي او زخرفة كقوارب الاستانة الا ان هذه خطر على راكبها فانها لخفتها تميد من ادنى شيء - ولقائل ان يقول ان المالطيين هم مثل الانكليز في كونهم لا يلاحظون في لوازمهم سوى مجرد المصلحة بقطع النظر عن الترفه والطلاوة فان متكآتهم ورواشينهم وكراسيهم وقواربهم وسروج خيلهم ليست مجعولة الا لقضاء الحاجة فقط - و اغرب من ذلك حوانيتهم فان التاجر لا يزال واقفا من الصباح الى المسآء وقل من كان عنده كرسي له او للمشتري وفي هذا الاخير خالفوا الانكليز *

ومن ذلك اي الحظ عندهم التماشي امام قصر الحاكم حين يعزف بآلات الطرب العسكرية فيذهب الى هناك جميع المتشبعين المتكيسين فترنو الرجال الى النساء وتدل النساء على الرجال - و من ذلك الاعياد الكنائسية وهي كثيرة جدا فان لكل قديس عيدا مختصا به في زمن مخصوص ومكان معلوم فيرحل اليه عند اقترابه المتلهون ويقضون ما تيسر لهم من اللذات وسماع الموسيقى ورؤية لعب النار وما اشبه ذلك ولا بد للاوباش في هذه الاعياد ان يسكروا ويفحشوا ما امكن - ومن ذلك حلبة السباق وقد تكون في الخيل والحمير والقوارب والسابق يفوز بالخطر - ومن ذلك زحلوقة

لهم يحضـــرها الوف من الناس وهي انهم يربطون خشبة طويلة كصـــاري المركب الى سفينة ويدهنونها بما تزل عنه القدم وينصبون امامها غرضا ثم يمشون اليه على تلك الخشبة فمن زل عنها وقع في البحر - ومن ذلك ثلاثة ايام في المرفع ويعرف بالكرنيفال وهي الاحد والاثنين والثلاثاء يلبس فيها الرجل كالمرأة والمرأة كالرجل ويتزيون بهيئات متنوعة واشكال مختلفة ويغطون وجوههم بجلود على هيئة الوجه ويطوفون في المدينة حيارى سكارى ويسمون هذا التشكل مسكرة وكأنه محرف عن المسخرة ولا يتحاشون في هذه المدة شيئا من الخلاعة و القصف والمنكرات ويومئذ تغص الطرق بالناس والمراكب فاذا اصبح يوم الاربعاء ذهبوا الى الكنائـــس ونثروا الرماد على رؤسهم اشعـــارا بالانابة ومن ثم يقال لهذا اليوم اربعـــاء الرماد وهذا الاسم باق عند الانكلـــيز مع الغاء هذه العـــادة عندهم ومعنى الكرنيفال رفع اللحم اي ازالته ومما جرت به العادة في هذه الايام ان الحاكم يولم وليمة فاخرة ويدعو اليها وجوه اهل البلد بتذاكر يرسم فيها بقدومهم بملابس مسخرية فيلبونه ويستأجرون هذه الثياب من الحوانيت فيقف لهم في غرفة في قصره وكلما قدمت عليه عياة انحنت له فاحتفل بها فاذا انقضى السلام شرعوا في الرقص وكلما رقصت النساء قليلا اخذهن الرجال الى المائدة ليأكلن او يشربن ما شئن ثم يعدن الى الرقص حتى مطلع الفجر فتتفرق الاصحاب وربما اتخذ بعض جشعي المالطيين من تلك المائدة خبنة وهي ما يحمل من الطعام في الكم وكنت اذهب الى تلك الدعوة بزيي المألوف فيخالونني من الساخرين وكانوا يسألونني هل في بلادكم مثل ذلك فاجيب مغالطا ان لم يكن عندنا هذا فخير منه ولعمري قبيح بالرجل الفاضل ان يرى راقصا كالولد - و من اعظم مواضع الحظ واللذات الملهى وهو المسمى عندهم بلفظة الثياطر او الثياطرو وليس في فالتة كلها سوى ملهى واحد وجل اللاعبين فيه من ايطاليا ولكـــن ليســـوا من الطراز الاول وسيأتي الكلام بالتفصيل على ذلك ان شاء الله تعالى فاني

التزمت ايجاز الكلام على هذه الامور في مالطة ليكون مناسبا لاحوالها
اذ جميع ما فيها ان هو الا مختصر من بلدان اوربا والظاهر ان المسلمين
كانوا يطلقون على هذا الموضع اسم الملهى فقد كتب عمرو بن العاص الى
عمر بن الخطاب ما نصه اني فتحت مدينة المغرب ولا اقدر ان اصف ما فيها
غير ان فيها اربعة آلاف حمام واثني عشر الف بقال يبيعون البقل الاخضر
واربعة آلاف يهودي يؤدون الجزية واربعمائة ملهى الا غير ان هذا القدر
كثير على اي مدينة كانت فان باريس وما ادراك ما باريس لا تحوي الا
ثلاثين ملهى ويحتمل ان المراد بالملهى هنا كل موضع يكون للهو فيدخل
فيه موضع الحكايات والمشي والاجتماع ونحو ذلك ومن الغريب
ان احد المشعوذين الطليانيين ابدى في ملهى فالتة من التمثيل والتخييل
امورا غريبة ثم اراهم ايضا منشورا من البابا بالرخصة له في هذه
الحرفة فصدقه كل من رآه فهلا كان هذا المنشور ايضا من جملة شعوذاته ـ
ومن المباني العظيمة في هذه المدينة الكنائس وهي حسنة البناء متقنة
مزخرفة بالنقوش والدمى والتماثيل والصور مزينة بالارجوان والاستبرق وادوات
الفضة والذهب وفيها عشرون كنيسة على هذا النسق واعظمها كنيسة صانجوان
وهي مبلطة كلها بالرخام المنقش المصور عليه صور اعيان مالطة الاقدمين
المدفونين فيها وفي صدر الكنيسة تمثالان للمسيح ولصان جوان رافعا
يده فوق رأسه (اي رأس المسيح) يعمده وهما من الحجر يراهما الداخل
من الباب اكبر من الرجل الجسيم وبخارج الكنيسة صفحة ساعة يعلم منها
الساعات والايام والشهور والسنون واذا ضرب جرسها سمع صوته كل من
في المدينة فيضبطون ساعاتهم عليها وفي هذه الكنائس من الذهب والفضة
والتحف ما يغني جميع صعاليك مالطة ولكل يوم من الاسبوع بدلة
للقسيس خصوصية وقس على ذلك ايام الاحاد والاعياد والاحوال الطارئة
كالزواج والمعمودية والموت وفي الحقيقة فان كثرة الكنائس الحسنة
في جزيرة مالطة على نحسها امما يعجب منه وفي كل قرية ترى ثلاث

كنائس فاكثر واول افتخار المالطيين انما هو بكثرة كنائسهم اذ ليس عندهم
شيء آخر يتباهى به والتفاخر صفة قائمة في النفوس واذا سرت الى قرية
ما متنزها فلا تكاد تصل الا وتحدق بك جماعة ليروك كنائسهم وجملة
ما يصرف على الكنائس والقسيسين يبلغ ثلاثين الف ليرة في العام
ولا يعرفون ضرب الاجراس بالحبال كما يفعل الانكليز وانما يصعدون الى قبة
الجرس ويحركون مطرقته باليد بما تنقبض منه النفس ويشمئز الطبع -
ومن ذلك مدرسة جامعة يعلم فيها الفنون واللغات وفيها كنت اعلم اللغة
العربية الا ان المالطيين يتعلمون كل شيء ما عدا لغتهم وفي مدة الصيف
يعطل المعلمون نحو ثلاثة اشهر واجرهم غير ممنون وعند انقضائها يعين يوم
لاجتماع التلامذة ومشائخهم في حجرة في المدرسة وفي الصدر مائدة
عليها كتب ثم يقوم احد المشائخ وهو في الغالب صاحب المعاني والبيان
فيلقي على الحاضرين خطبة ثم تقرأ اسماء من نبغوا في العلم من الطلبة
ويعطون من تلك الكتب ما يليق بهم وربما حضر الحاكم بنفسه لهذا
ولا بد من ان يعطى لكل معلم دفتر يكتب فيه اسماء الطلبة وما يحصلونه
من الفنون ويشترط عليه ان لا يعلم تعليما مغايرا للديانة الكاثوليكية
الرومانية - ومن الغريب ان اهل مالطة مع كون لغتهم فرعا عن العربية
فليس منهم من يحسن قراءتها والتكلم بها واذا شاء احد ان يفتح مكتبا
بمالطة تمتحنه علماء هذه المدرسة اولا فاذا رأوه اهلا لذلك اعطي رخصته
من الديوان فيه وجملة ما يصرف على هذه المدرسة وعلى مكاتب
اخرى في القرى في كل سنة نحو ثلاثة آلاف وثلاثمائة ليرة - ومن ذلك
دار كتب موقوفة باللغات الافرنجية فمن شاء ان يطالع كتابا منها ذهب
اليها واستوعبه وان كان من الوجوه يحضره الى منزله وعدة ما فيها ثلاثة
وثلاثون الف سفر وليس فيها من الكتب العربية ما تحته طائل - وفي
المدينة ايضا عدة حوانيت مشحونة باصناف الكتب ليس فيها خرم ولا نقصان
ويمكن ان يقال ان الكتب باوربا ارخص ما يكون لا جرم ان المولع

عندهم بالعلوم مع سعة ذات اليد لاسعد الناس لانه اذا شاء ان يتعلم
اي فن كان وجد له فيه شيخا ولان الكتب والادوات اللازمة لذلك الفن
حاضرة عتيدة يجدها باهون سعي ولا يخشى في الكتاب خرما كما ذكرنا
ولا تحريفا فكل كتبهم مصححة ولان المدارس الوقفية تعلم فيها العلوم
مجانا او يعطى في مقابلة ذلك شيء زهيد فطالب العلم في مالطة يعطي
في الشهر شلينين ونصفا وطالب اللغة شلينا واحدا ولعمري ان طالب
العلم في لغتنا لو لم يصده عن المطالعة الا تعذر وجود نسخة صحيحة لكفاه
ذلك عذرا فضلا عن نصبه وحرمانه وخموله - وفي فالتة سبع مطابع احداها
للميري تطبع فيها الاوامر والنواهي التي تصدر من ديوان الحكم والباقي
للاهلين وفيها ايضا دار لصحف الاخبار الواردة من اوربا وداران للصرف
توضع فيهما الاموال ومنارة فيها فانوس كبير لهداية السفن وعدة مكاتب
للصبيان والبنات يعلم فيها القراءة والكتابة والحساب والتطريز والخياطة
وغير ذلك غير ان الاولاد تغلب عليهم لغتهم وتمنعهم عن التكلم بغيرها
اذ كانت هي اللغة الغالبة والى الآن لم يعلم من نساء مالطة من نبغت
في المعارف والتأليف فغاية ما يتعلمن انما هو ان يقرأن بعض كتب
كنائسية وقد كان في السابق دار معدة لتلقي النغول وتربيتهم وقد بطلت
الدار وبقيت عادة النغول وعادة التبني من اليتامى وفيها ثلاثة مستشفيات
احدها للعسكر والثاني للرجال والثالث للنساء ومن لم يكن لها مأوى
تأوي الى هذا المستشفى وتمكث فيه ما شاءت وبخارجها ايضا اربعة اخرى
احدها للمجانين واكثر جنون اهل مالطة يكون عن وساوس في الدين وقد
رأيت فيه عجوزا تهذي وتقول اليوم عيد كما امر بذلك القسيس
و الثاني للمرضى من العساكر البحرية والثالث للفقراء والرابع للطاعنين
في السن العاجزين عن تحصيل معاشهم المادين لوداع الدنيا يدا
والمغمضين عن درزها ونعيمها عينا قد اصبحوا من هذه الحياة على شفا جرف
هار يعتبر بهم اللبيب ويتعظ بهم المستهتر في حب هذه الدنيا الغرور

اذ تراهم كالاغرار من الاولاد قد انحنت منهم القدود لما استوى عندهم داعي الاجل واظلمت منهم الابصار بعد ان اضاء فيهم صبح المشيب وانحلت منهم القوى بعد ان غلّت منهم الافكار والنهى فهم يقضون ما بقي من ظمء حياتهم بكان وصار - وفي فالتة عدة فنادق للمسافرين بهية ذات حجرات مفـــروشة عتيدة اجـــرة كل منهـــا في اليوم نصف شلين في الاقل - وفي فالتة سوق تباع فيها سائر اصـــناف المأكول فتـــجد فيها جميع انواع السمك واللحم كالبقر والضان والعجل والدجاج والطير اما السمك فانه لذيذ جدا واما اللحم فاطيب انواعه الخروف الصغير يذبحونه وهو دون ثلاثة اشهر فيكون الذ من لحم الطير وهذه الطرفة النفيسة لا وجود لها في لندرة ولا في باريس اما الطير فانه قليل جدا ولا عيب على من يشتري نصف دجاجة بل ربعها او جناحيها او راسها بل مصارينها كل ذلك من اقتصادهم فانهم اعظم الخلق خبرة به ولا عيب ايضا على من يذهب بنفسه و يشتري مؤنة يومه وان يكن قاضيا بل النساء السيدات يفعلن ذلك ايضا ومتى اشترت شيئا تحمله احد الاولاد الذين مهنتهم الحمل وهم كثيرون وكذلك لا عيب على من يشتري من البقول والحليب ما قيمته فلس واحد فقط وليس في المدينة حمير فارهة للركوب كحمير مصر وانما يذهب الناس في عواجل وهي ليست كعواجل الافرنج وليس لسائقها مقعد فيها وانما يمشي بجانبها على رجليه الحافيتين ومتى راى اصحابها احدا مقبلا ازدحموا عليه ولا ازدحام حمارة مصر - وليس في مالطة كلها مصانع للساعات او الزجـــاج او الادوات الحـــديدة والاقمشة وغيـــرها فاشهر الصنائع عندهم النجارة والخيـــاطة والاســـكافة والحـــدادة والنساجة والصياغة واخص اعمـــال النجـــارين الكـــراسي والمتكآت والموائد والخزائن والصناديق والاصونة ونحو ذلك وقد يحسنون ايضا انشاء المراكب وعمل الحـــدادة مقصـــور على سور القوم وما يلزم للبناء وعمل الصياغة من الذهب انما هو الشنوف والخواتم والسلاسل والاسورة

واشكال طيور وزهور والابازيم والابر ونحوها ومن الفضة الملاعق والمغارف واباريق القهوة والشاي والاقداح والاطباق والمدارج واوعية السكر ونحوه فاما النساجة فلا تتعدى شقق القوط واغطية الفرش وقلوع المراكب ومن هذا الاخير يبعث الى بلاد المسلمين مقدار جزيل وليس من اهل هذه الصنائع من يصل الى درجة الانكليز والفرنسيس في الجودة والاتقان الا ان عمل المالطية وثيق متين فاذا اشتريت مثلاً حذاء او ثوبا مخيطا بقي مدة لا يحتاج الى تصليح اما عمل الانكليز منها فحسن في الظاهر لكنه لا يبقى على الاستعمال وعمل الفرنسيس ما بينهما ومن الرسوم الحسنة في مالطة انه اذا اراد احد شراء شيء من الفضة والذهب ذهب الى قيم الصنعة وسأله عن قيمته فيزنه ويكتب له تذكرة بذلك فاما الجعل فموكول الى التراضي والغالب في مشترى الجواهر ان يكون انقص من التثمين - ومما يكره بمالطة كثرة الشحاذين والحافهم بالسؤال حتى انهم يقرعون الابواب وقت الغداء ويجرون مع الماشي ولا يبرحون مستجدين حتى يفوزوا بشيء وهم يرون ان حقا على الموسرين ان يواسوهم باموالهم واذا اعطيت احدهم مرة فكأنما قد دون ذلك عليك في الدستور فاينما يرك يلزمك والاجتداء في باريس ولندرة ممنوع - ومما يكره ايضا ما عدا طنطنة اجراس الكنائس المتتابعة اصوات الباعة الذين يطوفون في الاسواق لبيع الفاكهة والبقول والسمك والحليب والماء فان فغر افواههم وحط اصواتهم وفظاعة لحنهم لمما يستعاذ منه - واشد ما يكره في هذه الجزيرة هو ان الاوباش والاوغاد يترددون حيث تتردد الخاصة وذوو الفضل فقلما رأيت مكانا خاليا منهم واذا لقوا احدا من الوجوه سلقوه بالسنتهم ولمزوه فعلى الكريم ان يجتنب محضرهم ويتباعد عن مثابتهم واسوأ من ذلك ان القضاة يعتبرون هؤلاء الانجاس عند التحاق والتخاصم اعتبار الخيرين من الناس وهذا الذي جرأهم على التمادي في القبائح وهؤلاء الاراذل اذا شربوا قدحا

واحدا من الخمر طافوا الاسواق وهم زائطون ضاجون يظهرون بذلك طاقتهم على الانفاق وفي ليالي الآحاد والاعياد تغص بهم المسالك فلا يطيق احد سماع غنائهم ولغطهم - هذا وكثيرا ما ترى الملاحين والبحريين سكارى في الاسواق حيارى واذا صرعتهم الخمر في الطريق يمر الناس بهم ولا يبالون و ربما سرق منهم وهم على هذه الحالة ما بقي لهم من الحانة او جردوا عن ثيابهم وهم لا يشعرون وربما تقاءى احدهم ثم عاد الى الشرب الا ان منزلة السكارى من عسكر المدينة اجل من العسكر البحرية فان اولئك يجررون الى مقامهم تجريرا وهؤلاء يغادرون صرعى عرضة للذاهبين - ومما يحمد في مالطة عدم العقارب والحيات وسائر الهوام المضرة وان وجدت فلا سم لها واهل مالطة يزعمون ان ذلك من كرامة مار بولس حين القى الثعبان من يده في النار واخبرني ثقة بان الحيات في جزيرة كريد ايضا لا سم لها واهل ايطاليا يقولون ان مار بولس ازال السم من افواه الحيات فانتقل الى افواه اهل مالطة وزعم بعض من الانكليز ان مار بولس لم يمر بمالطة وانما كان مروره بملطية الا انه يكثر عندهم البق والذباب وهذا يوسخ كل شيء ابيض والعناكب تلقي لعابها بين كل شيئين *

فصل

في عادات المالطيين واحوالهم واخلاقهم واطوارهم

عادة اهل مالطة المتشبعين في اللباس كعادة الافرنج الا ان نساءهم يلبسن وشاحا من الحرير الاسود وعلى رؤسهن غطاء منه ايضا من دون برنيطة واقبح شيء في الصيف رؤية هذه الثياب السود وقد يحاكي بعضهن نساء الانكليز في الزي ولكن متى ذهبن الى الكنيسة لبسن زيهن الاصلي توهم ان اللون الاسود اليق بالكنيسة واولى بالقنوت - اما اهل القرى فان الرجال منهم يثقبون آذانهم ويتقرطون باقراط من الذهب ويرخون سوالف مجعدة من افوادهم الى لمالهم وهاتان صفتان من صفات

الاناث ويلبسون طرابيش مختلفة الالوان مسدلة على اكتافهم وهي شبيهة بالاجربة ويمشون حفاة ويتحزمون باحزمة ومنهم من يتختم بعدة خواتم من ذهب ويجعل ازرار صدريته منه او من الفضة ويحمل سترته على كتفه ويمشي حافيا مشية المفراح البطر وان الجزار منهم او الخمار ونحوهما ليخرج في الاعياد وفي اصابعه عشرة خواتم من الذهب ومثلها في سلسلة ساعته وفي صدريته ازرار كثيرة من الذهب او الفضة اما النساء فان من كان لها حذاء لا تلبسه الا اذا جاءت المدينة وهي معجبة به حتى اذا خرجت منها تأبطته وجميع الاعيان في مالطة يخرجون في الصيف من دون اردية تستر ادبارهم خلافا لعادة الافرنج في اوربا وللنساء زهو وعجب اذا مشين اكثر من زهو الرجال فترى المرأة تخطو كالعروس المزفوفة الى بعلها وهي ممسكة بطرف الوشاح باليد اليسرى وبطرف غطاء راسها باليمنى فمتي اوين الى بيوتهن لبسن اخلق ما عندهن من الثياب وسواء في ذلك الفقراء والاغنياء والرجال والنساء وهذا هو احد الاسباب التي حببت الى المالطيين تجنب المعاشرة والمخالطة وربما عدت المرأة التي تبقى في منزلها بلباس حسن من المتبرجات واذا زرت احدهم فلا يستحي ان يقول مهلا فان زوجتي تبدل ثيابها لتحضر بين يديك ومنهن من تبقى في بيتها بغير حذاء ثم اذا خرجت في يوم الاحد لبست جوارب من حرير وكفوفا منه وتبهرجت غاية ما يمكن فان المالطيين يتفخلون في الاعياد كل التفخل بخلاف الانكليز هنا فانهم يبقون على حالة واحدة . وفي الجملة فان هم هؤلاء الناس كله مصروف في التفاخر بالرياش وهو شان حديث النعمة . ومتى كانت احدى نساء مالطة حاملا مشت الخيلاء ورفعت بطنها ليراها كل من مر بها ومتى ابصرت ذا شوهة رسمت شكل الصليب على بطنها تعوذا من سريان الشوهة الى الجنين واذا شمت في الطريق رائحة طبيخ وتوحمت عليه بعثت تستهدي منه . اما حلى النساء فالذهب غالبا للاغنياء والفضة للفقراء الا انه قل ان

ترى امرأة من دون حلي من ذهب واصناف الحلي الشنوف ويقولون
لها مسالت وفي لغة اهل الغرب مصالت والاسورة يلبسنها فوق الاكمام
والابر والخواتم والسلاسل والساعات ويندر جدا تحليهن بالجواهر النفيسة
وانما تتحلى بها الخواتين في الرقص والولائم وقد يجزىء عنها الجزع
وفي الجملة فليس لنساء مالطة ولا لنساء الافرنج جميعا كثير من الحلي
كما لنساء مصر والشام وانما اعجابهن مقصور على نظافة الثياب واتخاذها
بحسب الزي وكما ان لباس رجال الافرنج لا يخلو من اخلال بالحياء
كذلك كان لباس نسائهم ادعى الى الحشمة والتصاون من لباس نسائنا
فاما تغيير الزي عندهم فانه نافع لاصحاب التجارة ومضر بعامة الناس
فانه يقضي بمصاريف حديثة غير ضرورية ومنشأ هذا التغيير يكون في
باريس فتطبع صورته على اوراق وترسل الى جميع البلاد وهذا داب الناس
من انهم اذا رغبوا عن رذيلة اقبلوا على غيرها فان الافرنج لما رغبوا
عن المزركش والمرقش من الثياب وعدوها من داب الصبيان اولعوا بتغيير
الشكل هذا ولما كان لباس الافرنج في الشتاء لا يتعدى اللون الاسود من
الجوخ وغيره وفي الصيف لا يتعدى الثياب البيض لم يكن لاسواقهم
ومواسمهم بهجة وليس ما تسر رؤيته الا ملابس العسكر وبعض النساء
ولا شك ان حب الالوان الزهية طبيعي لانا نراه في الاولاد وهم يقولون ان
الميل اليه من طبع الهمج وانما ميلهم الى الالوان مقصور على فرش ديارهم
واثاثها والحق يقال ان ملابس الافرنج اوفق للعمل وادعى الى قلة
المصروف فانها ما عدا كونها مزنقة وهو اصل في الاقتصاد فهي عارية
عن كلفة الرقم والوشي وربما كانت ادعى الى النظافة ايضا ومن عادة
الانكليز هنا الاكثار من الثياب البيض والاقلال من الجوخ ونحوه فان
الغني منهم لا يكون له اكثر من ثلاث جبات او اربع ولكن قد يكون له
ستون قميصا وعشرون سروالا من الكتان وعشرون ملاءة للفرش وقس على
ذلك - وقد رأيت كثيرا من الاعيان هنا لهم جبب قد تلبد على ازياقها

الوسخ والعرق لا سيما ان منهم لمن يرخي شعر راسه حتى يصل الى قذاله فتراه اذا نزع برنيطته تتطاير هبريته على كتفيه ومع ذلك فهم يحلقون شواربهم بدعوى النظافة - ومن الانكليز من يلبس كل يوم قميصا ويحلق في كل صباح وربما فعل ذلك في النهار مرتين وذلك مطرد سواء كانوا في البر او البحر ومنهم من يجعل صدر القميص او طوقه والطراف كميه منفصلة عنه فيغيرها في كل يوم - ومما يحمد عند الافرنج استعمال النشا في الثياب البيض حين تغسل فانها تأتي بها جديدة والغسالات في مالطة لا يغسلن الا بالماء البارد فان وضع اليد في الماء السخن ومقابلة الريح بعده يعقب ضررا وصابونهم احسن من صابون فرنسا ودونهما صابون الانكليز - وعندي ان احسن صابون في بلاد اوربا هو صابون قسطيلية في اسپانيا والظاهر انه من صنعة العرب فان اهل تونس لا يزالون يصنعون شيئا منه على لونه وهيئته ولكن شتان ما بينهما واجرة غسل القميص بمالطة ملدي واحد وفي باريس ثلاثة وفي لندرة اربعة او خمسة - اما عادة المالطيين في الاكل فللموسرين الشوربة في الغداء واللحم والخضر والخمر وفي العشاء السمك والسلطة وافخر شيء عندهم لحم الخنزير الا انهم لا يكثرون منه ومن غيره كما يكثرون من اكل الخبز بخلاف عادة الانكليز - اما الفقراء فان احدهم لياكل رطلا من الخبز من ارطالهم بخمس حبات من الزيتون او بقطعة من الجبن او بصحناة والرطل المالطي هو نحو رطلين من ارطال مصر وثمنه نحو قرش ولهذا كان المالطيون جميعا كثيري اللهج بذكر الخبز - فاذا زارك احد مثلا وسألته عن اهله قال لك كلهم طيبون يأكلون الخبز - او كأن يقول الطيب هو من يا كل الخبز - واذا اردت ان تشتري شيئا من احد التجار ولم توفه ثمنه قال لك انا قائم بمؤنة عيلة تاكل الخبز - واذا رايت احدا ياكل بعيدا عنك رفع اليك ما في يده وقال لك يعجبك اي ان يك يعجبك وان كان يعلم ان اقترابك منه محال - ثم لا يخفى ان خبز الافرنج يكون

كبيرا جاهضا يقطعونه بالسكين والحكمة في ذلك الاقتصاد فان الآكل
اذا قطع منه شيئا وابقى منه ما ابقى فلا يكون العرض على الباقي
عيبا وربما جيء بالفضلة منه الى المائدة مرات بخلاف عادة الشرقيين
فان الرغيف اذا قطع منه شيء فلا يؤتى به الى السفرة وهو ناقص فذلك
يعد لؤما وبخلا غير ان جعل الرغيف كبيرا يوجب عدم نضج لبه فخبز
اهل مالطة يكاد لبه وهو الجزء الاكبر منه ينعصر فلا يمكن اكله الا بعد
يوم وهو اردأ خبز في بلاد الافرنج فانه ما عدا كونه معجونا بالارجل
حامض وغير مريء غير انه فيما اظن ليس مخلوطا باجزاء كثيرة كخبز
الانكليز - وعامة المالطيين يطبخون الدم ويستبقون الى اكله وكنا اذا
اردنا ان نذبح دجاجة اخذ الذابح دمها وهو لنا من الشاكرين وهم
وجميع الافرنج ياكلون السلاحف البحرية وحيوانات اخر مما نتقزز نحن
منه - وقد بلغني ان من المالطيين من اذا فجع بشيء فجأة اكل فارا
او ضفدعا لازالة الدهشـــة وكيف كان فان اخس الفلاحين بمالطة
يعرف من انواع الطبيخ ما لا يعرفه اكبر تاجر في بلاد الانكليز فانهم
يطبخون اللحم مع جميع البقول والغالب ان الافرنج لا نظافة لهم في
الطبخ لانهم قليلا ما يبيضون آنية الطبخ حتى ان هذه الصنعة في
مالطة تكاد ان تعد من المفقود واكثر آنية الطبخ عند الانكليز من الحديد
وهو اسلم عاقبة واهل مالطة مثل غيرهم من الافرنج في كونهم ياكلون
المخنوق وزادوا عليهم في اكلهم الميتة من الدجاج واذا دعوت احدا
منهم الى مأدبة لم يكن منه في خلال التهامه ما بين يديه الا
الثناء على نفسه بانه قليـــل الاكل وكلهم يأكلون الثوم والبصل نيئا
فلا تزال رائحة افواههم منتشرة - اما مراقدهم فانهم يرقدون غالبا على
سرر من حديد والمتنكلزون منهم يتخذون في الصيف سررا منه وفي
الشتاء من الخشب وفرشهم متعددة وثيرة وقد سمعت ان غير الاغنياء
يتخذون فرشا عالية ولكن لا يرقدون عليها وانما ينضدونها للمفاخرة

والمباهاة والاطباء هنا يقولون ان الرقود على فرش القطن مضعف للجسم وان حبل الليف او التبن اذا نفش كان خيرا منه وفرش الاغنياء من الصوف . فاما الاوباش والسفلة فتراهم راقدين في الهاجرة على حافات الطرق كبا على وجوههم وقد جاء في الحديث نوم الشياطين على وجوههم واذا زرت موسرا منهم بادر الى ان يريك ما عنده من الفرش والاثاث وقبل كل شيء يريك فراشه ولم تجر العادة عندهم ان يتخذوا فرشا للزائرين كما في بلادنا . ومما حرم منه اهل مالطة من اسباب الترفه والاستراحة الاستواء على الارائك والزرابيّ الوثيرة فلا يقعدون الا على الكراسي نعم انهم يتخذون متكآت من خشب ولكن من دون نمرقة عليها ولا حشية وتاهيك بمن يقعد يومه كله على كرسي خارج منزله او يظل واقفا كالتجار ثم يأتي منزله ليقعد على كرسي . اما عادتهم في الزواج فهو ان يعاشر الرجل المرأة قبل ان يتزوجها مدة طويلة وربما اقام على ذلك ثلاث سنين فاكثر . وعندي ان الزواج من دون مشاهدة البنت ومعرفة احوالها من اضر ما يكون ولا سيما عند النصارى لعدم اباحة الطلاق عندهم غير ان طول العشرة ايضا لا خير فيه لان البنت لا تزال مع خطيبها على احسن الاخلاق حتى اذا تزوجت وعرفت ان لا فراق تخلقت بالاخلاق التي تعجبها ولا يخفى ان النساء في بلاد الافرنج هن اللواتي يمهرن الرجال فالاغنياء من المالطيين يعطون الزوج نحو مائتي ليرة والذين هم من الوسط يؤثثون له منزله من فرش وكراسي وموائد وآلات الطبخ وينقدونه شيئا من الدراهم والفلاحون يعطونه دجاجا وبيضا ونحو ذلك وعلى الزوج ان يهادي حماه باحذية . وعندي ان لكل من الغربيين الذين يمهرون الزوج ومن الشرقيين الذين يمهرون المرأة وجها وذلك ان الشرقيين ينهمون على الزواج وهم غير محنكين ولا مادة لهم فيحتاج ابو البنت الى ان يأخذ من الزوج مهرا ثقة بانه قادر على القيام بما تعرض له ولان الرجال هم قوامون على النساء . اما الافرنج

فلان رجالهم غالبا يتحاشون الزواج لما يعقبه من التكاليف الشاقة لان موءنتهم غالية فوجب على المرأة في هذه الحال ان تساعد الرجال - واهل مالطة اشد الخلق تهافتا على الزواج فان الرجل منهم ليتزوج وكسبه في اليوم قرشان وهما لا يشبعانه خبزا واداما وانما يثق بان زوجته تساعده على الشغل وتكسب مثله - وآفة نسائهم خسن الخلق دون حسن الخلق فان المرأة تجري وراء من به صباحة دون مبالاة بالعواقب فلا يهمها كون الرجل فقيرا او جاهلا او شريرا غير ان النساء هنا لا يحتـــرمن ازواجهن فكثيرا ما تعارض المرأة زوجها وتخطئه وتسفهه بحضرة الناس وكلهن اذا تكلمن يرفعن اصواتهن الى حد يبقى الغريب عنده مبهوتا وكانت عادتهن في القديم ان لا يتبرجن للشبان ولا يخطرن في الطرق ولا يتعلمن القراءة والكتابة ومتى خطبن احتجبن عن الاخطاب وربما كان الرجل يخطب بنتا بواسطة امه واخته من دون ان يراها اما الآن فقد تخلقن باخلاق نساء الانكليز في مخالطة الرجال ومماشاتهم والذهاب معهم الى المراقص والملاهي وكثيرا ما تهرب البنت من حجر والديها وتمكث مع من تهوى وكثير من النساء الغنيات الطاعنات في السن يتزوجن الفتيان البطالين فيمكث الرجل مع زوجته طاعما كاسيا والذي عليه حكمة النساء هنا ايثار الاقارب على الزوج فانهن يقلن ان الزوج اذا مات يعوض بمثله ولا كذلك الاقارب وهن كنساء الانكليز في انهن لا يتزوجن الا من كان في سنهن الا انهن يخالفنهن في كونهن يتزوجن على صغر واذا مشى الرجل مع زوجته مشيا متحاذيين لا متماسكين بالاذرع كالافرنج اذ لا بد للمرأة ان تمسك ثيابها كما ذكرنا آنفا - وكثيرا ما تخرج الرجال وحدهم ويغادرون نساءهم في البيوت - اما عادتهم في آداب الجنازة فكعادة الافرنج في انهم لا يقيمون المآتم على الميت فلا تعرف ان احدا من الاهلين مات الا من صحف الاخبار وهي عادة حميدة فان العويل والنعيب فضلا عن كونهما لا يحييان مائتا ولا يردان فائتا او كما قال الشاعر - ولم يرجع الموتى حنين المآتم - يلقيان الهم والرعب في

قلوب السامعين وانما يلبسون الحداد على الميت مدة طويلة ويدفنونه بعد اربع وعشرين ساعة وربما ارسلت الجيران الى اهل الميت وضيمة كما في بر الشام اما علية الانكليز هنا فلا يدفنون الميت الا بعد اسبوع في الاقل كما في بلادهم واذا مات لاحد المالطيين طفل صغير اقبلت عليه الاصحاب تهنئه قائلين نفرح لك بالجنة ومتى ولد لهم ولد وضعوا تحته التبن ليكون سقوطه عليه تشبيها بالمسيح واذا مات احد من ضباط العساكر شيعت جنازته وآلات الموسيقى معزوف بها وراءها والجند مصاحبة لها فاذا فرغوا من دفن الميت .اطلقوا البنادق دفعة واحدة اشارة الى انه مات بعز دولته وسلطانه - اما خلق المالطيين فالغالب عليهم السمرة والربعية في القوام وسواد الشعر والعيون وغلظ الحواجب وشدة البنية وهم في الغالب اجمل من النساء وكثير من النساء هنا لهن شوارب او عوارض او عنافق ومنهن من تحلقها ومن الافرنج من يستحب ذلك فيهن - اما اخلاقهم فالغالب على اعيانهم لين الجانب والبشاشة فاذا سألت احدا منهم عن شيء اجابك وهو باش بك مستأنس اليك - ومن طبعهم جميعا الكدح والتدبير والاقتصاد فلا يتحملون ضنك العيش محافظة على عادات قديمة ضارة - ولا يتجشم احدهم استخدام نفر اظهارا لشانه ورفعته ولا النفقات الزائدة في الاعياد والزواج ولا تتقلد نساء الاغنياء منهم قلائد من الالماس وغيره وان الماجد منهم يزور صاحبه بدون احتفال والغني يذهب الى السوق صباحا ويشتري مؤنة يومه وان الماجدة تزور صاحبتها ولا تلتهي عن الشغل وذلك بان تأخذ معها شيئا تشتغل به وهي التي تقوم بتدبير البيت فلا تكل امره الى الخادمة واكبرهم من عنده خادم وخادمة وقد شاهدت رئيس اطباء المستشفى غير مرة ينصب الحبال على سطحه وينشر عليها الثياب المغسولة قطعة قطعة ومتى نشفت الثياب حلوا الحبال ووضعوها في محل مصون ورايت ايضا بعض القناصل ينصب رايته بيده والفقراء منهم لا يوقدون سراجا في الليالي المقمرة واكثر الرجال يسلمون

مصروفهم لبد نسائهم حتى انهم يحتاجون بعدها الى ان يطلبوا منهن ثمن التبغ ونحوه وجميع نسائهم مقتصدات ونشيطات الى العمل وقل منهن من تتعاطى التجارة - ومن طبعهم جملة وتفصيلا الفضول والتلهي بالإسفاف من القول والعمل فاذا اكب احد مثلا لالتقاط شيء من الارض ازدحمت عليه زمر ولا يزال احدهم يجري من جهة وآخر من اخرى حتى تغص بهم الطريق ولا يبرحون ذاكرين للشيء يحدث اياما حتى يجد غيره ومتى جرى امر عرفت اصله ومبدأه وغايته من الجائين والذاهبين ولا بد لكل من طغامهم ان يقص قبل رقوده كل ما جرى له اثناء النهار وربما اخبر به غير مرة وزور ورقش حتى يخال نفسه بعد ذلك صادقا وان يتطلع وهو سائر في الطريق الى كل من يمر به فتراه كأنما يسلم على الناس ذات اليمين وذات الشمال وكثير منهم دابهم الحضور في المحكمة لاستماع الدعاوى فاذا خرجوا بثوها في كل موضع ولا يمكن ان ينقلوا حديثا الا ويزيدون فيه فاذا الم بعين انسان قذى قال انه عمي ويبدهون الرجل بان يقولوا له قد رأينا زوجتك تنظر من الشباك او تحدث فلانا او فلانة ويقولون للمرأة في حق زوجها مثل ذلك واذا اشتريت من احدهم شيئا يخبر اهلك به ومتى رأوا غريبا نظروا اليه متفرسين وتنصتوا لاستماع كلامه ليعرفوا باي لغة يتكلم ويصفون حاله في وجهه بان يقول احدهم للآخر " هذا الرجل من بلد كذا وقد اطال المكث هنا ولعله لا يمكث بعد فانه كان اولا سليما وكأنه الآن مريض" فيقول الآخر " والى اين يذهب أعساه يجد بلدا خيرا من بلدنا وقد صار مقصد الواردين والصادرين" وربما دعت احدى النساء صواحبها لرؤيته وهي تلكزها وتومىء اليه ولا تكاد تخاطب احدا في الطريق الا وترى زمرة قد احدقت بك ولا يكاد احد يأتي امرا الا وتتناقله الرواة ويسيئون الظن في متزوج عاشر عزبا او في عزب دخل دار متزوج ولا غرو فان هذا شان من لا يرى في بلده شيئا يشغل الخاطر من الامور الخطيرة ويكون محصورا في صخرة قرعاء راسية في

البحر فان حصر الفطن يكون من حصر العطن - ومن طبعهم التكشف وبث ما هم فيه من الاحوال والاستقصاء عن حال المخاطب فاذا صحبت منهم احدا لا يلبث ان يطلعك على كمية دخله وخرجه وكيفية عمله ويقول ليت لي مالا فاتنعم به ولو كنت من المثرين لأكلت اطايب الماكول ولبست افخر الملبوس فيا سعد من عاش عيش المترفهين فاخبرني انت ما دخلك وكيف عيشك ومن اين تشتري ثيابك وحاجتك ومن يزورك وهلم جرا - فاما حبهم لكسب المال فهو بحيث لم يغادر لشيء سواه قيمة ومنهم من يسافر الى البلاد الشاسعة ويعرض نفسه للامتهان والابتذال حتى اذا احرز المال رجع الى وطنه متبذخا متشبعا يمرح في الاسواق مرح من ازدهته النعمة وابطره الحظ - ولا شيء يعجبهم في الدنيا مثل بلادهم ولا تزال تسمعهم يتبجحون بها وباحوالها واذا سألت احدا منهم عنها اجابك بلسان ذلق عما كانت عليه من الغبطة والسعادة وآلت اليه من سوء الحظ وهم في محبتها كاليهود في محبة صهيون - ومن الغريب مع هذا التفاخر انك اذا ذكرت لاحدهم افراد قومه لم تلقه راضيا عن احد منهم فاول نعت ينعته به قوله هو ابله او شحيح فكان قوله نحن المالطيين شاننا كذا يريد به وحدة نفسه - اما مفاخرتهم بالالقاب فاكسى لهم من اللباس فقل ان ترى احدا منهم ممن يقرأ ويكتب الا وله لقب طبيب او فقيه او بارون او مركيز او دكطور على انهم لا يملكون به مسكة من العيش - ومن طبعهم التعقب للزلات والتعنت والاغتياب فيتعقبون الناس في مشيتهم ولبستهم ولهجتهم وسحنتهم فلا يكاد يعجبهم شيء وما من خصلة حميدة الا ويجعلونها قبيحة فاذا كان الانسان كريما قالوا انه مبذر وان كان مقتصدا قالوا انه شحيح - ولا يبرحون متبرمين على الانكليز ومتظلمين منهم ويدعون بانهم من بعد قدومهم الى جزيرتهم ضاقت عليهم مذاهب المعيشة وغلت الاسعار حتى اضطروا الى ان يهاجروا من بلادهم التي يصفونها بانها جنينة مع ان لدولة الانكليز

في هذه الجزيرة عدة سفائن حربية نفقة كل منها في اليوم نحو مائتي ليرة وترى عساكرها لا يبرحون يخرجون من حانة ويدخلون اخرى حتى ينفقوا آخر فلس معهم حتى صار معلوما عند الجميع ان الاسعار انما تغلو بوجود هذه السفن ثم اذا سافرت اخذ الذين الفوا البيع لها في الدمدمة والتسخط من كساد ما عندهم فان الاهلين كلهم لا ينفقون ما تنفق سفينة واحدة منها هذا وان الانكليز قد انشأوا فيها جملة مصالح ومعالم لم تكن للمالطيين في حسبان فقد كان بعض اصحابي بالاسكندرية كلفني بان اسأل ناظر الديوان عن تركة والده وقد توفي بمالطة وهل كان تحت حماية الانكليز او لا فلما سألته اجابني بعد البحث بان ديوان مالطة قبل قدوم الانكليز لم يكن له دفاتر مصححة يرجع اليها وانما كانت عبارة عن اوراق يومية غير منظومة على ان المالطيين انفسهم يقرون بان حكامهم في القديم كانوا ينالون من عرضهم لانهم كانوا قد حرموا الزواج على انفسهم حتى انه تجمع في دار معدة للنغول نحو الف ولد يزنّ في كونهم اولادهم فكانوا يقولون فيهم انهم عل قسيسين يورون بذلك ان الحكام المتشبهين بالقسيسين يكفلونهم لكونهم آباءهم او ان الاولاد يصيرون قسيسين ولكن دأب اهل الجهالة ان يستطيبوا الماضي على الحاضر ويطمعوا في ان الآتي يكون خيرا منهما ومن ذلك كراهيتهم للغرباء ولا سيما العرب ولن يقدر احد ان يستخلص منهم عشيرا وما يكون له بين ظهرانيهم صديق الا اذا كان يربي جرو كلب ولعمري لو ان مالطيا افترى على غريب وخاصمه لتألبوا على الغريب من كل اوب من دون ان يعلموا السبب وهم مائلون بالطبع الى البطش والفتك وان كثيرا منهم لا يمشون الا ومعهم سكاكين يخفونها في ثيابهم ومنهم قوم يتنصتون الى ما يجري بين المرء وصاحبه او زوجته من الحديث فاذا صح لهم جر منفعة من ذلك انتهزوا فرصتها فورا واختلقوا عليه اكذوبة ـ وللمالطيين جميعا لهجة واحدة واشارات واحدة فالرجال اذا وقفوا يهزون افخاذهم من الورك الى القدم واذا وصفوا احدا بالنحول رفعوا

السبابة واما لوها يمينا وشمالا واذا اشاروا الى امر معتدل سوي رفعوا الكف اليمنى ورجفوها واذا ارادوا الكثرة ضموا الاصابع على الابهام وحركوها عليه واذا ارادوا النفي امروا الانامل من تحت الذقن واذا اشاروا الى حسن امرأة جمعوا الكف وامروها على الصدغ اشارة الى تجعيد سوالفها واذا ارادوا وصف شيء بالطيبة ارخوا اليد اليمنى ونفضوها مرات واذا سألوا الرجل عن زوجته قالوا له كيــف المرة واذا زار احدهم صاحبه فاول ما يحيّي به صاحب المنزل ويجعل تحية الصمت الاخيرة واذا ذكروا اسم ولد صغير ذكروا اسم الله عليه واذا اوقدوا المصباح في المساء قالوا تحية المساء والفلاحون لا يصرحون بعدد سني سنهم فيقولون مثلا اربعون وعشرة ولعل ذلك واصل اليهم من اليهود فان العدد عندهم فيما اعلمه مكروه - ومن العجب هنا ان الناس يحبون التكاثر في كل شيء حتى في القبائح والرذائل الا في العمر ولا يتحاشى احدهم اذا زارك ان يجيء معه بواحد او اثنين جريا على عادة العرب ويبادرون الى تهنئة النفساء حال وضعها وتزدحم عليها الجيرة حتى العذارى وتأتي اصحــاب الآلات ويعزفون امام البيت وهي آخذة في الطلق ويزأطون عندها كما يزأطون في الاعراس - اما تحمسهم في الديانة ففوق تحمس اهل ارلاند وقد مر بك عدد الكنائس والقسيسين وثروتهم وملابسهم الكنائسية وكما ان اهل ارلاند يسكرون ويفحشون في عيد صان پاطرك كذلك المالطيون يسكرون ويفحشون في عيد صان پاولو بل في سائر الاعياد واذا استأجر مالطي دارا كان قد سكنها يهودي فلا يدخلها الا اذا رش عليها القسيس الماء المبارك وكذلك لو انتقل مثلا مركب ونحوه من ملك مسلم او انكليزي الى ملك احدهم فلا بد وان يعمده وهم يعمدون ايضا اجراس الكنيسة جميعها وكذا الاجراس الصغيرة التي ينقس بها امام القربان ويقيمون لها كفلاء من الرجال والنساء مما عرف بالاشابين وقد عمدوا مرة جرسا في كنيسة صان پاولو وكان كفيله الحــاكم وزوجته لكونه كان كاثوليكيا ويقولون ان دعوة الجرس مستجابة فاول ما يحدث رعد

او برق يبـادرون الى الضـرب به ويعمدون المولود من اول يوم ولادته ولو كانت في شدة الزمهرير ولا بد من ان يكون ذلك في الكنيسة لا في البيوت ومن يقف ينظر الى القربان وهم طائفون به من دون ان يسجد له فقد عرض نفسه للخطر وقيل انهم قتلوا مرة رجلا من بحرية الانكليز وكان قد مر بهم ولم يسجد له فتنـاولوه ضربا ووخزا فحمل قتيلا ومرة اخرى وقف بهم احد ضباط العسكر وظل واقفا فهجم عليه قسيس ورمى بغطاء رأسه فشكاه للحاكم فاخبر الحاكم الاسقف بذلك فحبس القسيس في داره مدة ثم اطلقه فذهب القسيس الى رومية فاكرمه البابا واعاده الى الاسقف وامره باعلاء درجته فلما بلغ الحـاكم ذلك نفاه من البلد ويقولون ان شكل الصليب مخلوق في جثة كل انسان وذلك بان يبسط يديه وهو رافع رأسه وان اسم مريم العذراء مرسوم ايضا في كل كف فان خطوط الكف الاصلية تشبه حرف الميم باللاتينية ونحو من هذا ما وجدت في بعض الكتب العربية من ان اسم النبي صلى الله عليه وسلم مكتوب في كل جثة فان الميم تشبه الرأس والحاء تشبه الصدر والميم تشبه السرة والدال تشبه الساق - وفي ايام الصيام وفي يومي الاربعاء والسبت لا تصرح باعة الحليب باسم ما يبيعونه وانما يقولون هون تا الابيض ولفظة تا محرفة عن متاع بمعنى صاحب كما يستعملها اهل تونس وطرابلس وفي غير هذه الايام يقولون حليـب ومع شدة تحمسهم هذا فانهم يبيعون ويشترون ايام الآحاد والاعياد كما في غيرها والمتدين منهم من يفتح فيها دكانه الى الظهر فقط وقد رأيت كثيرا من مدن ايطاليا ولم ار فيها تماثيل عديدة في الطريق كما يرى في مدينة فالتة - وقد كانت هذه التماثيل في الزمن القديم ملاذا يعتصم به اهل الجنايات فكان القاتل اذا فر ولطئ تحت تمثال منها ينجو من قصاص الشرع وقد بطلت الآن هذه العادة وينبغي هنا ان نذكر ان المالطيين يأنفون من ان يطلقوا اسم النصارى على الانكليز واذا تزوج انكليزي مالطية على يد قسيس انكليزي فان زواجه غير شرعي *

فصولٌ

من كشف المخبا عن فنون اوربا

اقول بعد الحمد لله انه في الساعة العاشرة من صباح السبت الموافق لثاني يوم من ايلول سنه ١٨٤٨ سافرنا من مالطة الى انكلترة وبعد نحو ساعتين غابت عنا ارضها وبعد خمس ساعات ظهرت لنا ارض جزيرة صقلية وفي نحو الساعة الثامنة من صباح الغد ارسينا في مرسى مسينة وكان فيه يومئذ بوارج ملك ناپولي لحصار البلد فكانت تطلق المدافع عليه وياتيها جوابها من القلعة فلذلك لم نقم بها الا بعض دقائق - و زعم بعض المؤرخين ان صقلية كانت متصلة بالارض ففصلتها الزلازل المتتالية - وفي نحو الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين بلغنا ناپولي وهي مدينة ظريفة مشهورة بكثرة العواجل والملاهي والحظ والمتنـــزهات الزهية والفاكهة الرخيصة الطيبة - وفيها عدة كنائس حسنة واحسن طرقها حيث الحوانيت العظام الطريق المسمى توليدو - ولولا ان مملكة ناپولي عرضة للزلازل لكانت احسن بقاع الارض لخصبها واعتدال هوائها - ثم سافرنا منها في ذلك اليوم فوصلنا الى شيفتا فكيه في صباح الثلاثاء فاقمنا فيها ساعات وليس فيها شيء يقر العين - ثم سافرنا منها يوم الثلاثاء وقد تزودنا بعض فاكهة فوصلنا الى ليفورنو في صباح الاربعاء - وظاهر هذه المدينة للناظر دون ظاهر ناپولي لكنها من داخل اكبر وطرقها اوسع وبناؤها من الاجرّ المحكم وديارها شاهقة الا انها ليس لطرقها ممشى على الجوانب للناس وكذا هي مدينة ناپولي · ومرسى ليفورنو حسن وفيها ملهى وعدة اعلام ومدراس لليهود يقال انه اعظم مدراس لهم في اوربا ومكتبة موقوفة وهي ذات اشغـــال وتجارة واهلها نحو ٧٦٫٠٠٠ وفي القرن الثالث عشر لم تكن الا قرية حقيرة - ثم سافرنا منها الى جينوى فبلغناها فجر الخميس وهذه المدينة مشهورة بكثرة الصروح العالية والديار الشاهقة جدا - وفيها قصور

كثيرة من المرمر وبساتين ناضرة وفاكهة طيبة وهي في نجوة من الارض متفـــاوضة الوضع وطرقها اضيق من طرق ليغورنو ولهذا كانت عواجلها اقل من تلك الا ان الشمس لا تستحكم في مسالكها لكثرة شرفات الديار المائلة فكأنها مبنية من اصلها لحجب الشمس ـ وفيها حوانيت بهيجة ولا سيما حوانيت الصاغة ولها قنطرة قديمة شاهقة جدا اذا نظرت منها الى الحضيض هالك ارتفاعها ـ وفيها الفاكهة الطيبة والخبز النظيف ومحل قهوة في غيضة انيقة وهي في الحقيقـــة نزهة للناظرين وما اشبهها الا بدمشق وليس على من يدخلها ان يدفع شيئا ـ ثم سافرنا منها يوم الخميس بعد الظهر فبلغنا مرسيلية في الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة ولهذه المدينة مرسى عظيم يسع الفا ومائتي سفينة ولا يزال مشحونا بالبواخر ولكثرة ورود المراكب اليها قطعوا خليجا من البحر ووصلوه به وفيها عدة مكاتب وملهى يعد من احسن ملاهي اوربا وبستان للنباتات ومكتبة موقوفة ومصرف فسيح اعني البورس وفي ضواحيها اكثر من خمسة آلاف دار ولها تجارة واسعة مع المشرق وافريقية واميريكا وانكلترة والبحر الاسود كان تأسيسها في سنة ٥٩٩ قبل الميلاد وكانت في الزمن القديم ملحقـــة بولايات الرومانيين ومنها توصلـــوا الى فتـــح فرنسا وفي هذه المدينة محـــال عظيمة للقهوة مغشاة حيطانها وسقوفها بالمرايا والنقوش والتماثيل وامامها مصاطب يقعد عليها الناس وان لم يشتـــروا شيئا منها واهل المدينة يصرفون فيها اكثر اوقاتهم كل طبقة منهم تنتاب منها محلا خاصا وفي بعضها ترى قيانا حسانا يغنين ـ وماؤها في بعض الديار اجاج ولعدم الاكتفاء به نهروا اليها نهرا كبيرا من مسافة نحو ستين ميلا فاحوج ذلك الى ان ينقبوا له بعض الجبال ثم بنوا عليه جسرا عظيما يشتمل على ثلاثة صفوف من القناطر بعضها فوق بعض وفي كل صف خمسون قنطرة وارتفاع اعلاها من الحضيض نحو مائة وعشر اذرع وعرض الماء الجاري فيه تسع اذرع ونصف في علو مثلها وجميع احجار هذا الجسر ضخمة

جزيلة وبعد اجراء هذا النهر كثرت عندهم الغياض والعيون ووفرت
الفاكهة والبقول وصارت بساتينها في غاية الريع والنضارة وفي هذه المدينة
عدة عرصات محفوفة بالشجر يتمشى فيها الناس وتضرب فيها آلات الطرب
العسكرية وفي احد هذه المماشي حوانيت تفتح خمسة عشر يوما في
السنـــة تجمع اليها جميع التحف والطرائف واكثر الباعة فيها بذات حسان
فاذا مررت بحانوت حرت بين ان تنظر الى البائعة او الى البياعة وفيها
يوجد ايضا محال للعب والغناء واللهو ومشاهدة غرائب الاشياء مصورة
على خارج المحل دليلا على وجود اعيانها في داخله وقد اخبرني من
يوثق به انه شاهد فيها امرأة ورجلا قد عصب على عينيها بمنديل لكيلا
تبصر الحاضرين ثم جعل يأخذ من بعضهم خاتما ونحوه ويجعله في
كفه مطبقة عليه ثم يسأل المـــرأة عما بيده فتجيبه ولا تخطئ وانه اخذ
مرة درهما قيمته عشرون فرنكا وسألها فقالت في يدك درهم قيمته عشرون
فرنكا فقال ويحك ليس في هذه البلاد درهم على هذا الضرب فقالت
بلى ولكنه من ضرب الصين وكان كذلك وسألها مرة اخرى عن درهم
فرنساوي فاجابته بانه يساوي كذا وقد ضرب في عام كذا فلما سمعت
ذلك اعظمته لما انه كان اول مرة طرق مسمعي ثم لما شاهدته عدة
مرار بمرأى العين في باريس ولندرة سقط اعتباره من بالي اذ تحققت
ان مع السؤال الذي يلقية الرجل على المغمض العينين ينبهه على نوع
ذلك الشيء المسئول عنه بلحن من القول لا يدركه الا هو وعلى كل حال
ففي التلقين والتلقن حذق ودربة - وفي الجملة فان مرسيلية انما
يستحسنها من قدم اليها من البلاد المشرقية لا من باريس ولندرة - ثم
سافرنا من هذه المدينة في الساعة الرابعة يوم الاحد في سكة الحديد
فكان البحر عن شمالنا والجبال والغياض عن يميننا فلم يكن منظر ابهج
منه واظن ان بلاد فرنسا اكثر بلاد الدنيا غياضا وحدائق وكثيرا ما كنا
نسير في حافلة المجدّ نحو ساعة ونصف بين الاجم والسبب في تكثيرها

احتياجهم الى الوقود بخلاف بلاد الانكليز فان اكثرها سهول ومروج وحقول لاستغنائهم عن الحطب بفحم الحجر وفي فرنسا الجنوبية تنبت جميع الاشجـــار المعروفة عندنا وذلك كالتين والبـــردقان والعنب والزيتون والليمون مما هو معدوم في بلاد الانكليز غير ان كروم العنب عندهم لا تبلغ في النمو والكبر كروم الشام وفي مسافة الطريق دخل الرتل في قبوة مظلمة منقورة في الصخور فسار فيها نحو عشر دقائق فكان امرا عظيما لمن لم ير مثله من قبل ثم بلغنا مدينة ليون بعد سفر نحو اربع ساعات لم يغب فيها عن ابصارنا ذلك المنظر الانيق وهذه المدينة وسخة الطرق والازقة غير انها حسنة الموقع وحوانيتها واسعة عظيمة وفيها معامل لثياب الحرير والقماش وحريرها مشهور فاما الشريط ونحوه فانه يصنع في صنت اتيان ولها مماش حسنة وملهى عظيم ومكاتب عديدة ومدرسة ملوكية ومحكمة جليلة هي من فاخر البناء ومكتبة موقوفة ومتحف وبستان للنباتات وعدد اهلهـــا نحو ٣٣٠ ر ٠٠٠ وفيها يجتاز نهران احدهما يقال له رون والثاني صون تسير فيهما بواخر مشحونة بالبضائع والميرة وتمر على جملة مدن من بلاد فرنسا ثم يلتقيان ويصيران نهرا واحدا ممتدا الى بحر مرسيلية ولا تكاد تمضي سنة من دون ان تزخر شواطئه على الارضين وقد طغى في هذه السنة حتى كانت الناس تسير في شوارع المدينة في قوارب فهدم كثيرا من البيوت والجسور واهلك كثيرا من الماشية والناس واتلف الغلال فيما جاوره فانتخى سائر سكان فرنسا الى امدادهم واغاثتهم واقتدى بهم الانكليز ايضا وعلى هذا النهر جسور من حديد وحجر وعدة مغاسل للنساء - ثم سافرنا منها في الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء في حافلة المجدّ المعروفة بالدليجانس فبلغنا برجا في الساعة السادسة من اليوم الثاني ومنها سافرنا في سكة الحديد الى باريس فوصلنا اليها في الساعة الرابعة من صباح الخميس وسياتي وصف هذه المدينة بعد فراغي من وصف انكلترة ان شاء الله وانما اقول هنا اذا لما

وصلنا اليها كانت السياسة جمهورية اذ كانوا قد خلعوا الملك لوي فيليب عن الملك ففر بنفسه واهله الى بلاد الانكليز ملجأ الفارين ومأمن القارين ومعما حصل فيها وقتئذ من الشغب وسفك الدماء فلم يكد الانســان يميز المفجــوع من اهلها من المغبــوط فان منتزهاتها بقيت غاصة بالناس ثم بعد ان لبثنا يومين في باريس سافرنا في سكة الحديد الى كالي او كالس وذلك في الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الاربعاء الواقع في السابع والعشرين من ايلول فبلغناها بعد الساعة السابعة مساء - واوفق لنا ان وجدنا باخرة معدة للسفر الى لندرة فركبنا فيها وسارت ماخرة بنا واول ما دخلت في نهر التامس انحجبت عنا الشمس واكتسى الجو سحابا وكان يوما ماطرا مظلما يقضي بالاسف على شمس مالطة وهذا النهر يختلط بالبحر الملح وتسير فيه السفن نحو خمس ساعات الى لندرة والسفر فيه بهيج من جهة ان السفينة تسير فيه سيرا خفيفا لا اضطراب فيه وترى فيه من البواخر الصاعدة والمنحدرة ما يشغل الخاطر وله عند الانكليز شان عظم - ويحكى عن الملك جامس الاول الذي الحق حكومة مملكة سكوتلاند بانكلترة انه لما نقم على اهل لندرة اشياء انكرها اراد ان ينقل ديوانه منها فقال له ضابط البلد ويقال له بلغتهم مير اذا كان لا بد من ذلك فلا تنقل نهر التامس معك وهو كلام بليغ يشير الى ان اهل المدينة ربما يستغنون عن الملك بوجود هذا النهر لانه من اعظم الاسباب الميسرة للتجارة ولولاه لما حصلت لندرة على هذه الثروة والسعة - والماكول والمشروب في هذه السفن التي تنقل الركاب من فرضة بلاد فرنسا واكثرها للانكليز غاليان جدا فان قنينة الشراب في تلك الفرض تساوي فرنكا وفي السفن ستة فرنكات وقس على ذلك ثم لما بلغنا لندرة اخذت اثقالنا الى الكمرك وفتشت فلم يجدوا فيها ما يوجب الاداء الا انا ادينا على كل صندوق وكل حاجة مستقلة نحو خرج وغيره نصف شلين ثم تبوأنا محلا في احدى الديار وبعد ان استرحنا سافرنا منها في

سكة الحديد الى بلدة وير بقصد المسير منها الى القرية التي يسكن فيها
الدكطور لي الذي اعتمدته جمعية لان يكون معارضاً ترجمتي بالاصل
الذي اترجم منه وكان المذكور شهرة عظيمة عند الانكليز في معرفة اللغات
الشرقية وكان في مبدأ امره نجارا لكنه اكب على العلم وقد فات الثلاثين
سنة فحصل معلومات غير يسيرة غير انه لم يتمكن من اللغات التي
حاولها ومن ذكره بعد هذا وحيث كان اسم القرية المذكورة مكتوبا
على اثنا فلما بلغ الرتل اليها وضعوها في الموقف ونحن لم نشعر
بذلك فبقينا سائرين فيها حتى اذا وقف الرتل مرة ثانية سألنا عنها فاخبرنا
باننا جاوزناها بنحو ثلاثة اميال فرجعنا اليها مشاة فوجدنا حاجاتنا سالمة
ثم سرنا الى رويستان ومنها الى قرية پارلي وهي على بعد ثلاثة اميال
فبلغناها في الساعة الحادية عشرة ليلاً فتوجهت الى دار الدكطور
فوجدته مستعدا لتلقي الاحلام السعيدة فقال لي قد كتبت الي
جمعية تخبرني بقدومك فينبغي ان تذهب الليلة لتبيت في خان القرية
فنمنا فيها وفي الغد كتب الى الجمعية يخبرهم بانه اكرم مثواي وعني
بانزالي منزلا مريحا فشكروه على عنايته وكانت مدة سفري من مالطة الى
هذا المنفى ثمانية وعشرين يوما ثم اني اخذت في ان اذهب الى الدكطور
لي في كل يوم لاترجم التوراة ثم اعود الى منزلي ملازما له فلم تمض
عليّ ايام حتى عيل صبري لان هذه القرية التي قدر الله ان اسعد الناس
بترجمتي فيها كانت من انحس قرى الانكليز على ان جميع قراهم لا تليط
بقلب الغريب لما سيأتي - ولم يكن فيها للاكل غير اللحم والزبدة
المخلوطة بالجزر والخبز المخلوط بالبطاطس والجبن واللبن المذيق
والبيض والكرنب وذلك يغني عن ذكر ما هو معدوم فيها على ان هذه
اللوازم انما كانت نفاية ما يوجد في المدن ومن عادة الانكليز ان يكون
لهم بالقرب من القرى بليدة يباع فيها ما يلزم لهم من المأكول والمشروب
والملبوس والاثاث فيذهب اليها الفلاحون مرة في الاسبوع ويشترون

ما يلزمهم وقد يمر على البيوت ليلا رجل ينفخ في البوق تنبيها على ذهابه الى تلك البليدة فمن شاء ان يشتري شيئا كلفه به وجزاه على ذلك وقد يمر ايضا تجار بعجلات فيها نحو البن والشاي والسكر او يكون معهم راموز هذه الاشياء ليبعثوا منها للمشتري من حوانيتهم وبمثل هذه الاسباب المتنوعة والصعوبة المبرحة يحصل الانسان ما لا بد له لقوام عيشه - اما محار البحر والسرطان والانكليس وهذا الذي يسمونه لبسترا وهو اطيب ما يؤكل عندهم وهو في شكل البرغوث واكبر من السرطان فلا وجود لها البتة واما السمك فلا يرد منه الا مرة في كل ثلاثة اشهر على ان جميع اصناف سمكهم مسيخة الا صنفا منها يقـــال له سمن وهو طيب لكن لا بالنسبة الى سمك بلادنا وقد يضعونه في الثلج ليلا ويعرضونه للبيع نهارا فربما كان عمر السمكة بعد صيدها اطول منه قبله ولكن ربيب الثلج هذا لا وجود له الا في المدن ومن قدم الى لندرة ورأى فيها تلك الحوانيت العظيمة والاشغال الجمة والغنى والثروة حكم على جميع الانكليز بانهم اغنياء سعداء ولكن هيهات فان اهل القرى هنا كاهل القرى في الشام بل هم اشد قشفا وكثيرا ما تقرأ حكايات تدل على بؤسهم وقشف معيشتهم مما لا يقع في بلاد اخرى وكثيرا ما تقرأ ايضا في صحف الاخبار عن اناس تركوا اولادهم من الاملاق او ماتوا من الجوع والبرد او النوم على الاماكن الندية القذرة او اعتقدوا فماتوا جوعا نعم انه يوجد مستشفيات وملاجئ يقوم بها الاهلون امدادا للفقراء والعاجزين ونحوهم الا انها ربما كان عدد من فيها لا يقبل الزيادة او كان اللبث فيها ضنكا او الدخول اليها صعبا ونحو ذلك - وقد يبلغ من فقرهم انهم يتركون اطفالهم بغير معمودية لئلا يعطوا القسيس مصروفها - واعرف في القرية المذكورة اولادا كثيرين لم يتعمدوا مع انهم من اتباع الكنيسة المتأصلة التي توجب المعمودية ولا تأذن لمن مات غير معمد ان يدفن في مدافنها فتنزله منزلة المنتحر - وسبب فرط فقر الفلاحين هنا هو كون الارض قد دحاها اللّٰه تعالى

لأن تكون ملك الامراء والاشراف فقط فيستأجرها منهم اناس مأمونون ويستخدمون بعض الفلاحين في حرثها واستغلالها فلهذا لن تجد في القرية احدا ذا رواء ورياش الا مستأجر الأرض وقسيس القرية على انه لا يلي شيئا من امور اولاده الروحيين سوى الخطبة فيهم يوم الاحد لانه يستخدم تحت يده قسيسا يعطيه نحو ثمانين ليرة في السنة ويلقي عليه احمال الكنيسة وهذا المبلغ هو دون وظيفة طباخ الاسقف في بلاد الانكليز فعلى هذا القسيس ان يعمد اولاد الرعية وان يدفن الموتى منهم ويزوج احداثهم ويعود مرضاهم وغير ذلك - وعدد ملاك الارض في انكلترة نحو ستين الف عيلة لا غير - وقلما يذوق هؤلاء المساكين اللحم فجل اكلهم الخبز والجبن فجزار القرية لا يذبح شاة او بقرة الا مرة في الاسبوع ولا يبيع من اللحم الا نصف رطل او ربعه واذا ذبح شاة فلا يسلخها ويجزر لحمها الا بعد يوم والبقرة بعد يومين او ثلاثة نعم انه قد يربي احدهم خنزيرا في دويرته ويذبحه ويتخذ لحمه كالقورمة التي تتخذ في بر الشام ويطعم منه في ايام الاحاد ومن كان ذا يسر قليل اشترى قطعة لحم في يوم السبت وطبخها وتبلغ بها عامة الاسبوع باردة اذ ليس تسخين الطعام مألوفا عندهم فهم احرى ان ياكلوه بائتا مذ ايام من ان يسخنوه ولما طلبت من المرأة التي كنت نازلا عندها تسخين طعام بقي لي من الغداء لم تكد تفهم مني الا بعد شرح وتفسير وراح كل منا يتعجب من صاحبه - وليس في القرى مواضع للهو والحظ واذا ارادوا اللهو عمدوا الى اجراس الكنيسة يضربونها فتقوم عندهم مقام آلات الطرب ومن الحظ عندهم ان يجلس الرجل مع امرأته ينظران الى الخوانيص التي يربيانها او الى ما يزرعانه من خسيس البقول في عرصته فان لكل منهم في الغالب بضع اذرع من الارض امام بيته يزرع فيها نحو الفجل والكرنب وما اشبه ذلك ولولا ذلك لكانت عيشتهم شرا من عيشة البهائم وقد ترى في القرية دكانا فيه نفاية ما يباع من الشمع والصابون والسكر

والبن والشاي وبيتا حقيرا يدــاع فيه شيء من البصل والبطاطس والحلويات الرديئة والتفاح المسيخ تنظرها من طاقة البيت ولو اشتريت ذلك جميعه لما بلغت قيمته خمسين قرشــا وفي اوان الشتاء لا يمكن لانسان ان يخرج من منزله لاستنشاق الهواء وذلك لكثرة الوحل في الطريق فقد يمكث عدة ايام رهين بيته وليس في القرى خيل او حمير او بغال او عواجل تكرى فليس الا مركوب النعل وقد يكون لبعض المتشبعين عجلة يحركونها بارجلهم اذا ارادوا ان يذهبوا من قرية الى اخرى فتجري بهم من دون حصان ولا حمار وبعضهم يكون له عاجلة صغيرة مفتوحة يجري بها حصان صغير فمثل ذلك لا يدفع عليه شيء للميري فاما العواجل المعتادة والخيل فلا بد من الاداء عليها كما سيأتي بيانه في محله وكنت كلما اضطررت الى المؤنة ذهبت الى البليدة ماشيا ومرة اضطررت الى ان اذهب في التابوت الذي ينقل فيه الدهان لكنه كان فارغا وعلى فرض ان يسكن غني احدى هذه القرى فلا يمكنه ان يتنعم بغناه اذ لا يجد فيها الا ما يجده الفقير الا ان يجلب مؤنته من لندرة وغيرها ويعلم الله اني مدة اقامتي في تلك القرية المشئومة لم يكن لي هم الا بتحصيل لوازم المعيشة فكنت اجلب بعض القطاني من كمبريج وبعض النقل من رويستان والمزر من لندرة في سكة الحديد ولكن لما وجدته غاليا اقتصرت عن جلبه فاستولى عليّ ضعف المعدة ووهن في ركبي لم احس به في عمري قط فان مزر القرى رديء اذ ليس منه الا ما ينبط بالمنبطة دون المرعي في زجاج وهو كالدواء سواء الا انه غير نافع وقد غشي عليّ مرة في دار الدكطور لي وانا اترجم فامر خادمته بان تتداركني بكسرة خبز مشوية ـ اما الصيف فانه وان يكن غير مزهق الا انه منغص لعدم وجود البقول المرطبة فيه ولعوز الفاكهة كما ستعلم ولا سيما ان اكثر شرب اهل الريف انما هو من مناقع من ماء المطر واكثرها يعلوه الطحلب فاذا نشفت عمدوا الى الآبار وهي قليلة

يدخرونها الى الحاجة وهي ايضا من المطر الا ان الانكليز قلما يشربون الماء فانهم يستغنون عنه بالجعة وقد مضى علينا في الصيف نحو شهرين لا نذوق فيهما شيئا من الفاكهة والخضرة الا ما ندر وفي شهر نيسان انقطع عنا المذيق الذي كنا نشتريه لاجل القهوة لانهم كانوا يسقونه الخنازير ولا يبيعونه فاضطررنا الى ان نتوسل باحدى النساء لتشفع فينا عند صاحبة البقرة في امدادنا كل يوم بما يكفي للقهوة فقط ففعلت ثم جاءت مبشرة لنا بقبول خالص شفاعتها في المذيق وان صاحبة البقرة رضيت بان تبيعنا كل يوم بنصف پني تفضلا وتكرما فاوسعناها شكرا وثناء ومطأطأة رأس وانحناء وفي هذا الشهر المبارك لم يكن يوجد شيء من الفاكهة ولا من البقول وكانت البصلة الصغيرة تباع بپني مع ان الحقول كلها كانت ناضرة زاهية فالمار فيها هو كراكب البحر وهو ظامئ واكثر ما يزرع الانكليز في حقولهم انما هو القمح والشعير واللفت والبطاطس واصل جلب هذه اليهم من اميريكا في سنة ١٥٨٦ فاما البقول فيزرعونها في عرصات الديار لمؤنتهم فقط وهي قليلة جدا ولما كان جل علف البقر من اللفت كان لحمها ولبنها لا يخلوان من طعمه واذا زرعوا البقول فلا بد وان يضعوا معها شيئا من الملح والجير ويكثرون من تدميلها فلهذا لا تكون زكية الا انها تنمو نموا فاحشا فان الفول قد يعلو مقدار قامة الربعة وكذا اللوبياء والقمح والشعير والرشاد يبلغ اطول من ذراع ونحو ذلك الخس والنعناع والكرفس وقد تبلغ الكرنبة قدر الجرة الكبيرة وتكون التفاحة او الاجاصة نحو البطيخة الصغيرة وقس على ذلك البصل والكراث حتى ان الحيوانات البرية والبحرية تكبر عندهم غاية الكبر فان السرطان يكون في قدر رأس الآدمي وقد وزن مرة ديك حبشي فبلغ اربعين رطلا ورطل الانكليز نحو ١٥٠ درهما وكان ارتفاعه ثلاثة اقدام واصل جلب الجزر الى هذه البلاد كان من هولاند ولم ينبت هنا قبل سنه ١٥٤٠ ولكنه لم يكن اولا في هذا الكبر واصل جلب القنبيط كان من جزيرة قبرس وكان منذ ستين

سنة يرسل منه من هنا الى بلاد البورتوغال على سبيل الهدية والطرفة ويحرثون على الخيل والبقر جميعا وحين يزرعون القمح وغيره يمدون خيطا من اول الحقل الى آخره حتى تأتي الاتلام مستقيمة وفي كثير من البقاع يخافون عليه من آفة تعرض له من الدود فيزرعون بينه حشيشا سميا ليقتل الدود فاذا حصدوا القمح حصدوا معه الحشيش ايضا وباعوه على حدته وربما اغفل فبقي مختلطا بالقمح وطحن معه فقد قرأت في كثير من صحف الاخبار ان كثيرا ماتوا من الخبز وهذا هو ايضا سبب وضعهم الملح مع البقول فاعجب لقوم يطبخون طعامهم بلا ملح ويملحون مزروعاتهم ويسمونها ومما لا ينبت عندهم شجر البردقان والليمون الحلو والحامض وقصب السكر والموز واللوز والفستق والتين والمشمش والخوخ والدراق والصنوبر والتمر والرمان وهذا الاخير لا يعرفون ماهيته والصبار والآس والزيتون والبطيخ والقثاء والباذنجان والباميا والملوخية والحمص والعدس والماش وقل وجود الخرشف والخيار والسفرجل وشجر التوت لا يرى الا للفرجة والطيب من فاكهتهم انما هو الاجاص والتفاح وقد يكبران حتى تملأُ الواحدة منهما الكف وهذا الاخير يدوم الشتاء كله في المطامر ولكن يباع في القرى على قلة واصل جلبه اليهم كان من بر الشام وذلك في سنة ١٥٢٢ فاما البردقان فيرد الى المدن الكبيرة من اسپانيا والپرتوغال وكذا العنب وقد يربون شجرهما في بيوت من زجاج ويسخنونهما بالنار لان حرارة هوائهم لا تكفي لانباتهما ولكن يكون سعره اغلى من سعر المجلوب اليهم وما ينبت في غير هذه البيوت من العنب فانه يبقى حصرما وهو ما لا ينع ويبقى حامضا صلبا وعندهم ثلاثة اصناف من الثمار او اربعة كحب الآس عندنا وهي قليلة الجدوى ولا سيما كونها لا تقوى على الرياح فاقل نسمة تذهب بها وكذلك عندهم ثلاثة اصناف او اربعة من البقول لا توجد عندنا وهي ايضا تافهة ـ ويحق لي ان اقول بعد الاختبار والتحري ان جميع ما ينبت

في بلاد الانكليز هو دون ما ينبت في فرنسا في الطيبة والزكاء وجميع ما ينبت في هذه هو دون ما ينبت في بر الشام وما ارى العلة في ذلك سوى كثرة السرقين في الارض وقلة الحرارة في السماء نعم ان جميع ما ينبت عندهم هو اكبر جرما مما ينبت عندنا كما تقدم ولكن شتان ما بين الكبر والطعم الا ان الانكليز يتنافسون في كل شيء ضخم - اما انواع الرياحين والزهور والاشجار غير المثمرة فكثيرة عندهم وعنايتهم بها اشد من عنايتهم بالبقول المأكولة على ان جل ازهارهم لا عرف له غير اني رأيت عندهم جملة انواع من الزهور ذكية الرائحة مما هو في مالطة لا رائحة له اصلا وكثيرا ما يذكرها المؤلفون منهم في كتبهم وتلهج بها النساء في محاوراتهن حتى ان احداهن سجنت مرة فكانت صواحبها يهادينها بباقات من الزهر وفي اعياد ميلادهن يطرفن به فيغني ذلك عن طرف القماش والجواهر فهي في الواقع صلة الرحم وسبب الوداد واذا رقصت امرأة في ملهى واعجبت الحاضرين نقطوها بباقة - اما ارض انكلترة فكلها سهل محروث مزروع تشبه ارض البقاع في الشام فلن ترى فيها بقعة واحدة بورا فكانها جميعها لرجل واحد ذي عيال في كونها لا يغادر منها محط قدم من دون منفعة فلا ترى الا غياضا وحقولا ومزارع ومروجا وديارا والظاهر ان بلاد الانكليز اعظم حرثا واعمر من بلاد فرنسا وكل شيء فيها من نام وحيوان تراه في غاية الريع والنمو وكنت قبل حضوري اليها احسبها كلها جبالا لما كنت اسمع من شدة بردها فاذا هي قاع صفصف وقرأت في بعض الاخبار ان قيمة ما تحصل من غلالها في سنة ١٨٤٧ بلغت ٥٤,٠٠٠,٠٠٠ ليرة وقس على ذلك سائر السنين واحسن بقعة في الارض يغادرونها مرعى للضان ومسرحا فلهذا كان لحم الضان عندهم فاخرا جدا ومع شدة عنايتهم بتربية الماشية فانهم يحتاجون الى جلب الجلود من الروسية والغرب الاقصى وثمن ما يجلبونه منها يبلغ في السنة ١٥,٠٠٠,٠٠٠ ليرة يذهب نحو نصفها في عمل الاحذية والباقي في

غير ذلك ومع خصب ارضهم وكثرة غلالهم كما بيناه آنفا فانهم يجلبون كثيرا من المأكول والمشروب من البلاد الاجنبية فقد قرأت انه في مدة ستة اشهر جلبوا من البقر ١٢٫٢٣٧ رأسا ومن الغنم ٢٩٫٢٦٨ ومن البيض ٧٤٥ , ٤٥٤ , ٥٦ بيضة وفي سنة ١٨٥٠ جلبوا من الجبن ٠٠٠ , ٢٧ طن وفي سنة ١٨٤٨ جلب من ارلاند من البقر اثنان وثمانون الفـا وخمسمائة واثنان وتسعون رأسـا ومن الغنم مائة الف وثلاثمائة وستة وستون ومن الخنزير ثلاثمائة واحد وثمانون الفا وسبعمائة واربعة واربعون وقيمة ما جلب من البطاطس في عام واحد بلغت نحو عشرين الف ليرة وقس على ذلك الزبدة والفاكهة والقطاني وبهذا يتبين لك ما يلزم لاعالي هؤلاء القوم واسافلهم وفي الحقيقة فان انكلترة قد ضاقت باهلها ولهذا يهاجر منها في كل سنة نحو مائتي الف وخمسين الفا واحسن اقاليمها في النضارة والريع اقليم كنت وفي كثرة اشجار الفـاكهة دوفنشير واذا دخلت خمى ششير فهرول - اما حيواناتهم فعلى نسق بقولهم من الكبر والضخامة منها الخيل وهي نوعان ضليع ضخم وهو ما يستعمل في جر الاثقال فترى الحصان كالبرج المرصوص ويحمل اربعمائة رطل من ارطالهم وثمنه مائة ليرة والثاني خفيف ممشوق وهو للركوب والسباق او لجر عواجل العظماء وربما سار في الساعة ثمانية عشر ميلا ويقولون ان خيلهم اعتق من خيل العرب وان يكن اصل بعضها من تلك ويقـال انه في زمن الملكة اليصابت لم يكن في جميع مملكة انكلترة اكثر من الفي فرس وبقرهم تعظم في عظم جواميس مصر ولحمها طيب الا انه كثير الدم وهي حسنة الخلقة والشكل وكذلك غنمهم تسمن سمنا فاحشا وهي ايضا مليحة ولكن ليس لها الايا كغنم الشام ولعلها هي النوع الذي يقال له القهد والهر عندهم ظريف وهو احرى بان تحلق الحواجب على فقده من هر قدماء المصريين اما الحمير فانها قبيحة وغير فارهة على قلة وجودها ولا وجود للبغال عندهم وندر رؤية المعزى - ومما من الله به على هذه البلاد ان

ليس فيها حيات ولا عقارب ولا رتيلاء ولا سوام ابرص ولا ابن آوى يعوي في الليل ولا نمس يأكل الدجاج ولا بعوض يمنع من النوم ولا براغيث في الربيع الا نادرا ويكثر عندهم الجرذان تسمع شقشقتها وهي تجري تحت مخشب البيوت وكذا البق لكثرة الالواح في منازلهم - اما بناؤهم فمن الآجرّ الاحمر والابيض وقد يصبغون خارج الديار او يكلسونه ثم يرسمون عليه خطوطا تبديه كأنه حجارة مربعة متساوية لا يدركها الا من دنا منها وترسمها وتبقى على ذلك سنين بخلاف بيوت لندرة فانها لما كانت هدفا للدخان والضباب لم تلبث ان تسود كما سنذكر ذلك ان شاء الله ولهم في تجديد الابنية مهارة غريبة وذلك انهم اذا ارادوا مثلا هدم دار هدموا اولا اسفل جدرانها واسندوا القائم منها بعضائد ثم بنوا الاسفل فربما نجز الهدم والبناء في وقت واحد وبعض البيوت يبنون خارجها كالسفينة من قطع خشب يعارضون بعضها ببعض ثم يطينونها وربما كانت تلك الاخشـــاب قديمة وفي الجملة فان بيوت الفلاحين حسنة مهندسة غير ان القديم منها ربما يكون اصغر من سطحه فان السطوح عندهم على ثلاثة انواع الاول من الواح المكاتب التي يتعلم عليها الخط وهي للديار الكبيرة والثاني من الخزف وهو للبيوت الوسط والثالث من التبن فهذا يكون قبيح المنظر وهو يرقع كما يرقع الثوب ويقولون انه احسن من غيره شتاء وصيفا فانه في الشتاء يمنع البرد ويرد الثلج وفي الصيف يمنع الحر ولا يكون السطح عندهم الا مسنما والفاصل بين الواح الزجاج في الشبابيك اكثره قضبان رصاص بدلا من الخشب وربما كان الزجاج قطعا صغارا كالكف مربعة ومخمسة فيكون للعين انيقـــا وحيث كان في السابق ضريبة للميري على الطيقان اذا زادت على ثمانية كان الناس يتحاشون من مجاوزة هذا القدر ولكنه الآن ابطل تمتعا بنور الله وهوائه ولكن قام مقامها ضريبة اخرى وكل دار لا بد وان يكون فيها عدة مواقد للنار واسرتهم كلها من خشب لا من حديد والغالب ان ارض منازلهم تكون

مفروشة باللبد او البسط من الزرابي واثاثهم بين بين وقل ان ترى عندهم من الصور الا صورة كبير العائلة وصورة الخيل في السباق او صورة ارانب وكلاب اما بيوت الاغنيـــاء والمترفهين فلا شيء اجمل منها لاحكام بنائها وحسن ترتيبها وحيطانها من داخل مغشّاة بالورق الفاخر المنقش وطيقانها محكمة الوضع كبيرة قطع الزجاج وهو يقارب البلور في الصفاء والبريق ودرجها وارضيتها من الخشب المتين ولهم اسراف زائد في الاثاث فان اســـرتهم وموائدهم واصونتهم وكراسيهم وخزائن كتبهم كلها من الخشب المسمى بالماهيكون وقد تبلغ قيمة ذلك في الجملة نحو ٥٠٠ ليرة ومع ذلك فلن ترى لســـيدة الدار حليا من الالماس او شالا من الكشميري وهي عكس عادتنا ـ ومن اسرافهم ان يغطوا الدرج بالجوخ المنقوش او الزرابي الفاخرة وفوقها الكتان النفيس يدوسون عليه ـ واجارة المسكن للغريب انما تكون بالاســـبوع ولا بد ان يخبر اهل المنزل قبل خروجه باسبوع فاذا علموا ذلك تهاونوا في خدمته واذا استأجر احد مسكنا في دار من مستأجر الدار وفرشه وكان المستأجر لا يؤدي غلة الدار الى مالكها حق للمالك ان يستولي على كل شيء في الدار ومن سوء التدبير في بلاد الفلاحين انه لا يقام في القرية من الشرطة الا واحد فلذلك يكثر فيها الحريق والسرقة فان اهل القرية اذا لم يستخدمهم مستأجر الارض يبقون معطلين متترعين الى ارتكاب كل شر فيعمدون الى احراق اكاديس القمح والحشيش المكدسة في الحقول في ليـــلة ذات ريح فتسري النار الى بعض البيوت وليس من يطفئها ثم لا تلبث ان تلاشيه بالكلية وتسري الى غيره فربما احترقت القرية كلها في ليلة واحد وفي مدة شهرين من اقامتي بتلك القرية وقع خمس عشرة حريقة في كداس الغلال وكان سبب ذلك من هؤلاء المعطلين عن الشغل تشفيا من غيظهم من مستـــأجر الارض ورأيت آثار قرية كانت تشتمل على خمسين بيتا احترقت باجمعها في ليلة واحدة بل ان كثيرا من هؤلاء

الفجار ينهبون الكنائس وقد يدخلون الديار من مداخن المواقد النافذة الى السطح ويسرقون ما قدروا عليه وفي كل ليلة قبل النوم يوصي المخدوم خادمه والمخدومة خادمتها باطفاء النار والنور - اما العاجزون والسقط فانهم يمكثون في المستشفى ويقوم بنفقتهم القادرون من الرعية فان الحكومة لا تنفق شيئا على المستشفيات ولا على تصليح الطرق ولا على ترتيب الشرطة ايضا الا ان اكثر الناس يستنكفون من المكث في المستشفى كما ذكرنا سابقا وقد تقرر عند الانكليز جميعا ان التصدق على الفقراء يحملهم على الكسل والتواني فما يعطون فقيرا اذا مروا به ولو كان عريانا اعتمادا على وجود هذه المستشفيات ويمكن ان يقال ان اكثر فقرهم هو من انهماكهم في شرب المسكرات فانك ترى منهم فقراء كثيرين باخلاق من الثياب ومهما يكسبوه ينفقوه في الجعة ولا يزالون يكرعون منها حتى تجحظ عيونهم وتنعقد السنتهم عن الكلام ولا يزالون يلهجون بذكرها فهي عندهم في الشتاء للتسخين وفي الصيف للترطيب ومع ذلك فهم بالنسبة الى اهل المدن الجامعة اصحى واعف كما انهم اسخى منهم واكرم وهذه خطة عامة في جميع البلاد فان اهل المدن لما كان احتياجهم الى اسباب المعيشة والرفاهية اكثر كان الكرم فيهم اقل وذكر الطبيب بوخان انه عرف في زمانه نساء بعن اولادهن بالجعة - هذا وكما ان ارض انكلترة كلها محروث عامر كذلك كانت شطوطها باجمعها مرصعة بالمنائر والاعلام لهداية السفن فان في سواحلهم مائتي منارة لا تزال انوارها متقدة الليل كله وجملة المنائر التي في سواحل فرنسا الشمالية والغربية ٨٩ والتي في هولاند ٢٦ ومصاريف منائرهم تؤخذ من رسم يجعل على السفائن المشحونة التي تمر بها وهو يختلف وقد يبلغ في السنة مائتين وخمسين الف ليرة ينفق نحو ثلثيه في لوازمها ويدخر الباقي لاجل ترميمها واعظم منارة بنيت في انكلترة مما يجدر بان يعد من عجائب الدنيا منارة ادسطون وذلك في سنة ١٦٧٠ ولكن طم عليها الماء

في احدى السنين فابادها رأسا فلم يبق منها سوى قطعة سلسلة من حديد واول منارة عرفت في الزمان القديم المنارة التي بنيت على صخر فاروس قبالة الاسكندرية وكانت من المرمر الابيض العجيب الصنعة وذلك في عهد بطليموس فيلادلفوس ملك مصر سنة ٢٨٢ قبل الميلاد فكان النور يوقد في قنتـــها دائما لهداية السفـــن الى مرسى المدينة المذكورة حتى قيل انها كانت ترى من مســافة مائة ميل وهو مظنة للانكار ويقال ان مصاريفها بلغت ٣٠٠,٠٠٠ ليرة انكليزية بحساب ان الدراهم كانت من ضرب مصر وقد عدت من عجائب الدنيا السبع وبلغت من الشهرة والعجب بحيث ان اسمها اطلق على كل منارة بنيت بعدها الى يومنا هذا تقريبا وفي تاريخ مصر لعبد اللطيف البغدادي ان بعض ذوي العناية ذكروا ان طولها ٢٥٠ ذراعا وان بعضهم قاسها فوجدها ٢٣٣ ذراعا وهي ثلاث طبقات الطبقة الاولى مربعة وهي مائة ذراع والطبقة الثانية مثمنة وطولها ٨١ ذراعا ونصف ذراع والطبقة الثالثة مدورة وطولها ٣١ ذراعا ونصف ذراع قال وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر اذرع - وعجائب الدنيا فيما عده بعضهم ما عدا ما ذكر هي اهرام مصر والموزليوم وهو قبر بناه ارطيمسيا لموزلوس ملك قاريا وهيكل ديانة ابنة جوپيتر في افسوس واسوار مدينة بابل وحدائقهـــا المتدلية وصنم الشمس من نحاس في رودس ويقال له قولوسوس وصنم جوپيتر وقيل ان جوپيتر هو هبل عند جاهلية العرب قلت ومن العجب في هذه العجائب انهم لم يعدوا منها سد الصين فقد قال فلتير ان دورته مسافة الف وخمسمائة ميل مرتفعا على جبال شامخة ومنحدرا في اماكن وعرة المرتقى وعرضه في جميع هذه المواضع عشرون قدما وارتفاعه اكثر من ثلاثين وهو اعظم من اهرام مصر في القدر والمنفعة بناه اهل الصين حاجزا بينهم وبين التتر وذلك في سنة ١٣٧ قبل الميلاد - اما هواء انكلترة فانه كثير التقلب يختلف في اليوم الواحد مرات وبينمـــا يكون الجو مصحيا

والسماء نقية اذا بالغيم قد طبق الافق وتراكم حتى تحسب انه لم يكن شمس قط وقد يبلغ درجات الهواء في يوم ثلاثين وفي غده خمسين ومع ذلك فلا يصح ان يحكم عليه بانه وخيم ولا سيما على من الفه فان الغالب على بنية الانكليز الضلاعة والشدة وان كثيرا منهم يعمرون فوق المائة سنة وفي مدة ثلاث سنين مات في انكلترة وولس ٢٦٦ شخصا وعمرهم من المائة فصاعدا ومات رجل في كورة هولي وود وقد بلغ من العمر مائة وثلاث عشرة سنة وبقي متمتعا بجميع حواسه واوصى وصية مبينة ولم يعرف المرض الا قبل موته بساعة واحدة - ومتى تم لهم صحو يوم تام رأيت الناس جميعا يلهجون بمحاسنه ويذكرون بهجته فهو عندهم عيد وموسم وفي الحقيقة فانه اذا انجلى الغيم وظهرت الشمس لم يكن شيء ابهج من ذلك فان بلادهم كلها مروج وغياض كما ذكرنا سابقا وقد ترى في الاشجار المتصافة الوانا مختلفة وترى الحقول كأنه بسط من سندس اخضر ولا يخفى ان هواء الرستاق والريف اصح واسلم من هواء المدن الكبار التي يكثر فيها الدخان والعفونات والاقذار الا انه لا يمكن الخروج في الريف شتاء حين تكون المسالك وحلة فلهذا يمكن ان يقال ان اهل المدن اكثر حركة ورياضة من اهل الارياف وبذلك تحصل الموازنة ما بين طيب هواء هؤلاء ووخامته عند اولئك وقد سبقت الاشارة اليه فاما من ابتلي بالسل والربو او ضيق الصدر فلا يصح له مقام في هذه البلاد ايا كان وكما ان لياليهم في الشتاء تكون طويلة جدا فان النهار اذ ذاك عبارة عن ثماني ساعات كذلك تكون في الصيف قصيرة جدا فان النهار في شهر حزيران يكون ست عشرة ساعة ونصفا فيكون الليل كله كالشفق الا ان يلبس الجو الغيم والدكنة ولنذكر لك جملة من الكلام على الهواء هنا لتتخذها قانونا تقيس عليه فاقول انه في الثاني عشر من شهر تشرين الاول احوج البرد الى ايقاد النار وكنا نرى اهل القرية كلهم يصطلون فحذونا حذوهم وبقيت الشمس اياما

عديدة لا ترى الا لمحا وكانت تطلع في الساعة السادسة وتغرب في الخامسة ولا يكاد يكون بعد غروبها شفق وفي الواقع فان النار عندهم تقوم مقام الشمس فانهم ينشفون عليها الثياب ويتلذذون بالنظر اليها ولا سيما اذا كانت ذات لهب وقد بلغت منهم الفتهم بها بحيث اذا جلسوا في الصيف حين يستغنون عنها يطوفون بالموقد ويؤثرونه على الجلوس عند الشبابيك الا انه من يجلس عند الموقد فلا بد له من ان يغسل يديه ووجهه في اليوم مرارا حتى ان غلالته تتسخ من اثر الفحم من تحت ثيابه وفي الرابع والعشرين من الشهر المذكور كانت الشمس تطلع في الساعة السابعة وتغيب قبل الساعة الخامسة وفي السادس من تشرين الثاني كانت تطلع عند الثامنة وتغيب بعد الرابعة وفي هذا الشهر يكثر وقوع الضباب فيأخذ بالكظم ان المشي فيه لا يخلو من بعض اذى بالبصر ويسمون هذا الشهر نحار الاعناق وقبل عيد الميلاد كان صحو عظيم فكانت الشمس ترى عامة النهار ولم يكن البرد يحوج الى الاصطلاء وانما كنا نوقد النار لمجرد الارتياح لرؤيتها كما هي عادتهم وفي السنة الثانية قبل العيد المذكور اصحت السماء مدة يومين كاملين فظهرت الشمس فيها من ساعة شروقها الى غروبها ولكن وقع برد شديد جمدت منه المياه حتى في الآنية فلم يكن كب السلحفاة مانعا له كما قال صاحب القاموس وكانت الاولاد تطفر على المناقع والبرك كما تطفر على الصخرة الصماء واذا كسرتها تشققت عن الواح كلوح الباب والتزحلق على الجليد عادة شائعة عند جميعهم حتى ان البرنس البرت زوج الملكة يطفر مع خواصه في موضع خاص به وحين يتزحلقون يلبسون نعالا كالقباقيب وهو عندهم من الامور الرياضية وكنا نرى الصقيع على وجه الارض كأنه ملح مرشوش وكان الماء يجمد على زجاج الطيقان واذا القيت منه على الارض لم يلبث ان يجمد ايضا اما المطر فلم يقع الى وقت الميلاد الا رذاذا وقلما ينزل في غيره ايضا سحا كما ينزل في بر الشام ومالطة واذا انقطع

عنهم شهرا فاكثر لا يستسقونه بالايدي كما يفعل المالطيون لان ثراهم لا يزال نديا من المطر السابق واكثر وقوعه في الخريف والربيع فاما الرعد فقد مضى الشتاء كله ولم نسمع له قصفة وانما سمعناه في ايار والشمس حارة وكان شهر نيسان ابرد من اذار وفي اواسطه سقط ثلج و برد شديد وكان آخر اذار ابرد من اوله فقد احتجبت فيه الشمس اياما متوالية وفي اوائل العام الثاني غطى الثلج وجه الارض والسطوح وروءوس الشجر ولم يكن البرد شديدا كما يكون عند سقوط الصقيع ويقال ان كثيرا يهلكون في الطريق حينئذ اذا لم يكونوا خبيرين بها فيقعون في مهواة على حين غفلة فيعطبون وربما سقط الثلج على الشاء في الحقول فتضل الطريق وقد سمعت ان امرأة سقط عليها الثلج وهي تحت شجرة تستذري بها فلم يمكنها التحول من موضعها فلبثت فيه بضع ايام حتى جاء من اخرجها منه وقد سقطت اصابع يديها ورجليها وبقيت بعد ذلك حية ويقال ان بقاء الثلج في المزارع اياما نافع للزرع ولا شيء اشق على الماشي من المشي عليه حين يذوب بخلاف ما اذا كان متلبدا - وللانكليز لهج عظيم في محاوراتهم وكتبهم بمحاسن ايار لانكسار حدة البرد فيه الا انه في الواقع من انحس الشهور وذلك لانقطاع الفاكهة والبقول فيه الا ما ندر وفي اوله تدور الصبيان والبنات يغنون ويجتدون من اهل البيوت والمارين في الطرق وكان قدماء الانكليز يرقصون فيه في الحقول والمزارع ويجعلونه يوم مسرة وطرب حتى ان السفلة في لندرة يعيدونه الى الآن فيتخذون نحو شجرة ويرقصون حولها في الشوارع وفي اوائل شباط يطوف الاولاد ايضا يغنون لفالن تين وهو يوم تزاوج الطيور وفيه تتهادى الشبان والشواب بالرسائل والاشعار على طروس مزخرفة - ومن اول شهر حزيران الى العشرين منه حصل حر يقرب من حر مالطة فكانت الشمس تبدو من اول النهار الى آخره ثم اكفهر الجو ودهم البرد ووقع المطر الغزير وحين يشتد الحر يبلغ ثمانين درجة (انكليزية) وغاية البرد عشرون وابرد الرياح عندهم هي الشرقية ثم الشمالية

اما الغربية فلا تكاد تاتي من دون مطر والغالب حينئذ ان تنكسر سورة البرد ويعقبه دفء مغر بالكسل والعجز حتى يود الانسان ان تعود الريح الباردة وان اطارت عنه الثياب - اما معادن انكلترة فاشهرها القصدير والصفر والحديد والفحم وهذان الاخيران اقنى وانفع لهم من سائر المعادن النفيسة اذ لولاهما لم يتأت لهم انشاء الوف من البواخر ومن سكك الحديد والغاز وغير ذلك وليس كل البلاد التي فيها معادن الذهب والفضة اغنى من غيرها فان من المعادن ما تقوم نفقة استخراجه بفائدته فلا يحصل منه نفع الا مجرد الافتخار بوجوده وانما العمدة على سهولة ايشائه وقلة مصروفه - اما مصلحة سكك الحديد في بلاد الانكليز فهي اعظم المصالح التي شغلت منهم خواطر الاغنياء والمستربحين والمستنبطين فان مجموع راس المال الذي وضع فيها يبلغ مائة مليون ليرة ومجموع رأس المال الذي وضع في اشغال القطن اربعون مليونا والذي في اشغال الصوف ثمانية عشر والذي في الحديد احد وعشرون والذي في الحرير ستة عشر مليونا و مجموع راس المال الذي وضع في اشغال الحديد في بلاد الدول المتحدة ثلاثون مليونا - وقد سمعت من غير واحد ان اعظم سكة في انكلترة هي التي يسافر بها من لندرة الى بوستول انفق في انشائها نحو ستة ملايين ليرة وايرادها في كل شهر مائة وخمسون الف ليرة ثم ان الرتل الذي يقف في عدة مواضع يسير في الساعة نحو عشرين ميلا فاما الرتل المخصوص فانه يسير اكثر من خمسين وهو يمر كالبرق الخاطف فاذا نظرت اليه هالك امره وربما وقفت له الارتال البطيئة خشية المصادمة والمحسوب ان الجمل على كل ميل في المحل الاول قرش ونصف وفي الثاني قرش و في الثالث نصف قرش ومما مر تعلم ان منشئي هذه السكك جماعات يخرجون مالا من ملكهم ويشتركون فيها دخلا وخرجا فاذا اراد احد منهم ان يبيع حصته فيها اشتراها آخر والباس المستخدمين فيها كلباس الشرطة بل احسن وفي طول السكة يقيمون رجالا يتعهدون القضبان

ويحافظون على تنظيف الطرق فقد يتفق ان بعض الاعداء يكسر قضيبا منها فيكون في ذلك هلاك نفوس شتى ـ ومما ينبغي ان يلاحظ هنا ان الارتال الفرنساوية اقل عرضة للمصادمة والخطر من الارتال الانكليزية فكل يوم تسمع في بلاد الانكليز عن عطب عرض لاحد الارتال ولهذا كانت الشيوخ والعجائز عندهم يأنفون من السفر فيها ويؤثرون السفر في بعض مراكب البر على قديم عادتهم وسبب كثرة هذه الاخطار عندي هو ان مديري المزجيات كغيرهم من ابناء جنسهم في الانهماك في شرب المسكرات فيشربون وهم مباشروا الآلة حتى يعزب عنهم الرشد والصواب ففي سنة ٥٦ هلك في هذه السكك في بريتانيا مائتان واحد وثمانون نفسا واصيب نحو اربعمائة وذلك ما بين مجروح وارب وقس على ذلك خطر السفن فقد تلف لهم في السنة المذكورة على سواحل المملكة فقط الف وتسعمائة وتسع وخمسون سفينة والمعلوم من مجمل الحساب انه يفقد لهم في كل شهر مائتا سفينة ومع ذلك فهم اغنى الناس جميعا فتعجب ـ والاحظ ايضا ان الانكليز اذا عملوا شيئا فانما يراعون فيه وجه الكسب والمصلحة فقط والفرنساوية يضيفون الى ذلك راحة المسافرين وورنق المحل والتفاخر فان المحل الثاني في ارتال الانكليز لا يشتمل الا على مقاعد من خشب اذا قعد عليها الانسان بضع ساعات الم غاية الالم فاما عند الفرنساوية فانها تكون شبه الاريكة يقعد عليها المسافر ما قعد ولا يمل وقس على ذلك البواخر ومواقف الارتال في فرنسا احسن منها في انكلترة غالبا وابهج وفي بعضها مطاعم عظيمة يجد الانسان فيها كل ما يشتهي بخلاف مواقف الانكليز فان ما في مطاعمها كريه ولا سيما القهوة فانها عبارة عن حسا القطاني ولهذا كان اكثر المسافرين من الانكليز يتزودون من بيوتهم ما يلزم لهم مدة السفر ويأكلون وهم قاعدون في العواجل وقل منهم من يتغدى في المطاعم وما ارى الحق الا معهم فان تلك المطاعم فضلا عن غلائها ربما اورثت الآكل هيضة تمنعه عن السفر ـ وفي كل من هذه المواقف يكون محل للحاجات التي ربما ينساها المسافرون

هناك لسبب العجلة او الذهول فتبقى هناك محفوظة حتى اذا علم صاحبها
ردت عليه في الحال والا ابقيت فيه سنتين ثم تباع ويوزع ثمنها على خدمة
الموقف ولا سيما الذين اصيبوا منهم في ابدانهم واتفق مرة لرجل ان نسي
كواغذ مالية بمائة وخمسين ليرة فلما عرف اسمه ردت عليه واتفق لي ايضا
اني كنت نسيت خرجا في كالي ولما استقر بي المقام في القرية تفقدته
وعلمت بانه بقي هناك فكتبت الى مدير الموقف فيها فلم يلبث ان ارسله
الي ثم ان ما عبت به الانكليز من الاخلاق والعادات مبني على اعتبار
ما وصل اليهم من الفنون والعلوم وعلى كثرة ما عندهم من الوسائل
الجديرة بان تصفي طباعهم عن غلاظة اسلافهم وتقدم بهم الى الكمال فان
ما يطبع عندهم من الكتب وصحف الاخبار وما يلقى عليهم في الملاهي
والملاعب لحري بان يهذب اخشن الاجيال في اعظم المعاهد فاما من
لم تصل اليه هذه الوسائل وبقي على الهمجية والامية فاحرى ان يرثى
لحاله وباله من ان يلام عليها - وما انكرته عليهم وافقني عليه من جال
منهم في بلاد الشرق وجنح الى التطبع بطباع اهلها فكلهم يقر بان هذه
الاحوال التي اتصف بها عامة الانكليز في هذا العصر عصر التأدب والتكيس
شين واي شين وانا اختم هذا الاقرار بان اقول ان عامة الانكليز هم دون
عامة فرنسا ادبا وكياسة كما ان علية اولئك افضل من علية هؤلاء وسيعاد
ذكر ذلك عند الكلام على اخلاق الفرنسيس واقول ايضا في الجملة انه
معما يظن ان دول الافرنج تبغي تعميم المعارف لدى جميع رعاياها فليس
الامر كما يظن اذ ليس من نفع الدولة والكنيسة ان تكون العامة متكيسة
ومتفقهة ولا سيما عامة فرنسا فان معارفهم سبب لتخطئة الدولة ولهذا يقع
فيها من التغيير ما لا يقع في غيرها - ويعجبني من الانكليز خلال منها انه
ليس عندهم فضول وتكليف على الدخيل فيهم بل ولا على من هو منهم
فلا يزورونه في غير وقت الزيارة ولا يستعيرون منه ولا يتعرضون لما يأتيه
فلو رأوه مثلا مضطجعا على قارعة الطريق لم يسألوه لاي سبب تفعل ذلك بل

ربما حسبوا ان اهل بلاده جميعا يضطجعون مثله وان في ذلك مصلحة لهم
واذا زارك احدهم ورأى عندك مثلا امرأة او نساء لم يهمه ان يسألك عن
سبب زيارتهن مما لا بد منه في بلادنا وكذا لو رأوك تماشي امرأة في الطريق
او تخاصرها فكل منهم مشغول بهمه ومهموم بشغله واذا راوا طبقا مغطى
لم يسألوا ما في هذا الطبق كما في الحكاية المشهورة ويمكن ان يقال ان
هذه الخلة هي صنو لاول خلة ذكرتها من معايبهم في كون كل واحد منهم
لا يهتم الا بشأنه ولا غرو ان يكون بعض الخلال ممدوحا من وجه ومذموما
من وجه آخر - ومن ذلك الجد في المساعي وعدم الشماتة وكراهية العبث
الموجب للتنافر والعداوة او لنكاية الخصم في الكتابة ولو كان عندنا بريد على
الصفة التي هي عندهم لكنت ترى في كل يوم اهاجي واحاجي تلقى في
البوسطة ويبعث بها كما يبعث بالرسائل نعم ان عندهم يوما مخصوصا في
السنة يتراسل فيه المعارف برسائل مزحية ولكن من دون اذى وايجاب
تبعة - ومن ذلك عدم التهافت على الحسد فاذا رأوا عندك مثلا متاعا
نفيسا لم يكن عندهم مثله لم ينفسوا عليك في احرازه ولا يقولون يا ليت
كان لنا مثله وخصلة النفاسة والحسد قلما يخلو منها في بلادنا جسد - ومنها
انهـــم يضبـــرون على ما بهم فلا يتظلمون ولا يجدفـــون اي يستقلـــون
عطاء الله ولا يقولون ايس لنا وليس عندنا فكل واحد منهم يريك انه مستغن
عنك ولا تكاد تسمع خادما يطعن في مخدومه او خادمة تعيب مخدومتها وان
كانا يكابدان عندهما اما في بلادنا فقلما تجد خادما راضيا عن سيده بل
يعتقد انه هو اولى بالسيادة او ان شرف مخدومه متوقف على بقائه عنده -
ومن هذا القبيل عدم بخس الناس حقهم فاذا نبغ احد فيهم في فن وصنعة
لم يجد من يتصدى لتجهيله وتخطئته حتى يوقفه عن تقدمه ويطفئ جذوة
قريحته ورب دوحة نشأت عن فرع لا بل يجد من ينشطه وييسر له اسباب
العلم اما في بلادنا فاذا نبغ احد في شيء بادره حساده بقولهم هو مدع هو
حمار هو متطفل - ومن ذلك انهم لا يتشبثون باعقاب الاقاويل ولا يأتون النميمة

والغيبة الا قليلا فاذا سكن ما بينهم غريب وسمعوا عنه ما يكرهونه منه فلا ينقلون اليه ما سمعوا عنه بل لا يهمهم ما قيل فيه وانما يعاملونه بما يظهر لهم من حسن سيرته خلافا للفرنسيس فانهم مثلنا في التعلق بقال وقيل وفي الاستفحاص عن احوال الجيران بل اهل البلد ولما كنت في باريس كنت اتردد على الكونت دكرانج ترجمان الدولة لما كان عنده من البشاشة بالغريب ولين الجانب وكان هو ايضا يتردد عليّ اذا لزمه ترجمة او انشاء رسالة بلغتنا واذ كنت اكلمه ذات يوم في مصلحة لي قال اني ليعجبني حسن تصرفك فينا ونزاهة نفسك وذلك مما يدعوني الى اجابة سؤالك غير اني انكر عليك شيئا شاع عنك قلت اذكره لي حتى اتجنبه قال ان الناس يقولون انك قدمت الينا جاسوسا من طرف الانكليز واذا كان ذلك حقا فلا يسعني اسعافك بحاجتك قلت بودي لو كنت جاسوسا اذن ما كنت لاكلف احدا بشيء فان جاسوس الانكليز يستغني بوظيفته عن ان يتوصل باحد الى نوال اربه ولا شك في ان الموما اليه سمع عني ذلك فان من طبع الفرنسيس ولا سيما شرطة الديوان ان يتجسسوا عن احوال الغريب بينهم فاذا علموا انه يعيش بلا حرفة يتعاطاها حكموا بانه اما مثرٍ يعيش من رزقه او محتال يعيش من حيلته وحيث كانوا يعلمون اني لم اكن اتعاطى حرفة ولست غنيا ذا عواجل وولائم استنتجوا من هاتين المقدمتين اني جاسوس ومثل ذلك لا يشغل به احد من الانكليز بالغ فغاية ما يرومونه من الغريب ان يحسن تصرفه ويقضي دينه الا ان من يسكن عندهم في القرى يلزمه من باب المجاملة والمخالقة ان يذهب الى الكنيسة في يوم الاحد وان نام فيها فاما في المدن الجامعة فلا يلزمه ذلك وقد شهر مرة في صحف الاخبار ان الملكة اهدت الى بعض الجند منديلا قد كف بكف ابنتها فلم يعبأ بهذا الخبر احد ولا ظن بها احد سوءا ولو شهر امر مثل هذا في بلادنا من اميرة لبقي شغل الخواطر والالسن احقابا - ومن ذلك كلامهم بصوت منخفض وهي صفة تكاد ان تكون من خصوصيات نسائهم وفي بعض البلاد قد تسمع للنساء زعيفا وزعيقا كاصوات الجن - ومن ذلك

حسن الترتيب والتدبير في الاشغال والمصالح والتوقيت للعمل فلكل شيء عندهم وقت ولكل وقت شغل فاذا اتفق ان زارهم احد في ساعة الشغل لم يتحاشوا ان يقولوا له مثلا قد انسنا بك ولكن علينا قضاء ما لا بد منه من المصالح فلا تؤاخذنا وزرنا في يوم كذا فينصرف عنهم عاذرا لا عاذلا لانه هو ايضا يعاملهم بمثل ذلك اما عندنا فربما تعطلت مصالح الانسان بكثرة زوارة وهذه الصفة اي حسن الترتيب يظهر اثرها بزيادة من اهل الرئاسة والادارة منهم فان رجال الدولة اذا ارادوا ان يباشروا امرا من الامور الجسيمة فانما يباشرونه بغاية الاحكام والضبط بحيث لا يوجب تغييرا ما في الاحكام ولا ازعاجا بشيء على الرعية فاذا اضطروا مثلا في وقت الحرب الى تجنيد جيوش وتجهيز بوارج وذخائر فلا يكون ذلك موجبا لاضطراب الناس وتغيير احوالهم او لغلاء الاسعار واذا شاؤا ان يجعلوا على الناس ضريبة لسد مصاريف الحرب احيل ذلك على مجلس المشورة النائب عن الجمهور ومعلوم ان الانسان ليهون عليه ان يؤدي شيئا على يد نائبه اكثر من ان يؤديه على يد غالبة قاهرة وفي بعض البلاد اذا شرعت الدولة في تجهيز العساكر للحرب رأيت جميع الناس يموجون في الاراجيف ويخوضون في التهاويل فيظلم اذ ذاك القوي الضعيف ويأخذ المرء بثاره من خصمه وتختل اسباب التجارة ويعدم الامن بين المتعاملين فتكون غائلة الحرب مشعورا بها في داخل المملكـــة اكثر من خارجها وقد كانت مدة اقامتي في هذه البلاد قبل حرب الروس مع الدولة العلية العثمانية وفي خلالها وبعدها فلم يتبين لاحد فرق في شيء ما اصلا * ويلحق بذلك ان تحصيل لوازم المعاش في الصيف والشتـــاء يكون شرعا فلا يتعذر وجود شيء منها باحد الموانع وفي بعض البلاد متى دخل الشتاء وهطلت الامطار تعطلت الطرق وانقطع المجلوب من المأكول والمشروب فترى كل واحد متجحرا في بيته الى ان تتيح له فرصة الخروج فاذا لم يكن الانسان قد حاكى النملة بان اتخذ مؤنته في داره صيفا هلك جوعا ـ ومن اعظم ما يؤول

الى تنظيم الامور ترتيب البوسطة و ضبطها ففي سنة ١٨٥٥ وضع في بوسطات
لندرة وحدها ٠٠٠ , ٠٠٠ , ٤٦ مكتوب وارسل اليها من بوسطات
الممالك في سنة واحدة ٠٠٠ , ٠٠٠ , ١٠٠ ولم يسمع الى الآن ان
مكتوبا واحدا منها فقد اذا كان صاحبه موجودا وسيأتي ذكر ذلك بالتفصيل
عند ذكر لندرة وما فيها وجعل كل مكتوب اذا ارسلته داخل المملكة نصف
قرش ولا فرق في قرب المسافة وبعدها وهذا المبلغ القليل تشتري به طابعا
مصمغا وتلصقه على عنوان الكتاب وقد يبعث بهذه الطوابع من بلد الى آخر
في ضمن الرسائل بدلا من الفلوس فاذا سمع احد مثلا بذكر كتاب طبع
حديثا ارسل الى بائع الكتاب ثمنه من هذه الطوابع فانها خفية خفيفة بخلاف
ما اذا ارسل اليه ثلاثة شلينات مثلا فانها تثقل حجم الرسالة ولا يخفى
امرها واذا بعث احد بمكتوب ولم يجد البريد صاحبها بحث عن الموسل
والموسل اليه فان تعذرت معرفة هذا رده الى المرسل والا ابقي في البوسطة
مدة معلومة ثم يحرق واذا شئت ان تبعث بكواغذ مالية اخبرت صاحب
البوسطة بذلك فيجعل على ظرف الكتاب طابعا آخر انذارا للبريد من ان
يطمع فيه فيفتحه وهناك طريقة اخرى وهو ان ترسل هذه الكواغذ انصافا
اعني ان تقطعها انصافا وترسل في اول مرة نصفا فاذا جاءك علم وصوله
ارسلت النصف الآخر فيلصقها المبعوث اليه بالاخرى وينتفع بها واذا اشتريت
من تاجر ما قيمته نصف شلين فقط وناولته كاغذا بخمس ليرات صرفه لك
فورا وربما تزيد قيمتها في باريس وغيرها على قيمة الذهب وذلك يدل على
ما لبنك الانكليز من المتانة والمكانة . ومن ذلك الامن في الخروج ليلا من
دون فانوس ولا باب يقفل على الساري والامن للمسافر ايضا في البلاد فان
الانسان ليسافر فيها ليلا وهو آمن حالا واصفى بالا مما لو سافر في بلادنا
نهارا وترى الولد يمشي في المدن الكبار وحده ليلا ولا يخشى شيئا . ولا هيبة
لذوي المراتب والمناصب منهم او للعسكر والشرطة عند المارين بهم وان
البنت التي لم تبلغ عشر سنين لتسعى بعد نصف الليل وتمر بالشرطة فكأنها

مرت على بعض اقاربها فتسألهم ويجاوبونها وتسترشدهم بغير حشمة ولا انقباض فيرشدونها ويذهبون معها وليس للشرطي حق ان يدخل بيت احد الا باذن الديوان لسبب خطير ولا ياخذ غريما محققا الا من الطريق وفي البلاد الشرقية اذا كلمت المرأة بعض الشرطة او العسس ليلا لم يلبث ان يمد اليها يده ويهتك حجابها وهيهات ان ينتقم منه منتقم وعندي ان عدم الهيبة والخوف على صغر هو الذي يورث جيل الافرنج جميعا الاقدام والجرأة على الامور والكلام ويزيدهم بسطة في الجسم والعقل ويبطئ بهم عن الشيب والهرم فان القاء الرعب في قلب الصغير كلوافح الرياح العاصفة على الغرس فمتى تمكن منه جعله بعد ذلك غير صالح للمساعي الجليلة وما عدا خوف الحكام والظلام ورؤساء الديانة في بعض البلاد الشرقية فان الامهات يزرعن في قلوب اطفالهن الخوف من العفريت والروح الشرير والخيال والظلام وغير ذلك فتثبت العادتان - ومن ذلك اي من الخصال المحمودة الحرص على ما يؤتمنون عليه فاذا سلمت لاحدهم مثلا طرسا فانه يصونه عنده بمنزلة طرس نفسه حتى اذا استرجعته بعد سنين اعاده عليك كما تسلمه بل ربما ازال عنه الوسخ ورده اليك نظيفا وقال لك وهو معتذر قد تجاسرت على ان ازلت الطبـــع عن الطرس وارجو اني لم اسئ فيما فعلت وقس على هذا سائر ما تأتمنهم عليه وينضم الى ذلك احترامهم للرسائل فلا يفتح احدهم كتابا جاءه باسم غيره بل يبذل جهده في ايصاله اليه واذا زارك منهم زائر فلا يمد يده ولا طرفه الى ما بين يديك من الصحف فاذا اراد ان ينظر في كتاب لم يلمسه الا بعد ان يستأذنك وفي بلادنا اذا اعرت احدا كتابا اعاره هو الى آخر والآخر الى آخر وهلم جرا فربما لم يعد اليك منه عين ولا اثر بل يرى نفسه اولى به وان لم يستفد منه اما لعدم قدرته على فهمه او لكثرة اشغاله بل القسيسون ايضا لا يتورعون من هذا واذا شرفك احدهم بزيارته فاول ما يطمح نظره فانما هو الى اوراقك وحالا يمد يده و يخطف منها ما شاء فكأنما هو جاسوس جاءك ليطلع على اسرارك لا ليأنس بحديثك - ومن ذلك ان اصحاب المراتب

عندهم لا يقبلون المصانعة والرشوة من احد لتنويل اربة وان علم انه ارتكب ذلك اقتص منه كما يقتص من السارق ولم ينفعه ان يؤدي الرشوة التي اخذها مضاعفة نعم ان المراتب هنا انما تعطى غالبا بالمحاباة والاستحباب لا بالاستحقاق والاستيجاب فان الامير اذا نوه بشخص من اقاربه او معارفه عند ذي مرتبة وسيادة نفذت كلمته عنده ولو ان شخصا متصفا باحسن الاخلاق ومتحليا بالعلم والفضل حاول بنفسه ان ينال تلك الرتبة لم يلتفت اليه الا ان هذا الداء عام في جميع الممالك ـ ومن ذلك تنشيط اولادهم الى الاشغال وتمرينهم على ما يكسبهم واياهم الرزق الكافي والمواظبة على الاعمال والصبر على ما يتعاطونه جل او حقر فانهم لا يملون من السعي ولا يرون في الكسل راحة ولا يقول احدهم اني كبرت عن تعلم شيء فلا يزالون دائبين كالنمل ما دامت فيهم نسمة تتحرك ومع كل هذا التجلد والتحمل فمتى ضيم احدهم او سقط شرفه او مال نجمه فاهون شيء عليه نحر عنقه وذلك عندي من جملة الافعال المتناقضة في الطبع البشري وجل سعيهم في شبابهم انما هو لتحصيل ما ينفعهم في شيخوختهم حتى يمكن لهم تربية اولادهم فلا يحتاجون الى التكفف او الى ملازمة المستشفيات والملاجيء المعدة للعاجزين غير ان حب التناهي غلط فان تعليق العبد توفيقه ونجاحه بالكلية على سعيه وكده لا يخلو من ازدراء بعناية المولى وفيه من وجه آخر تقسية للقلب فان الانسان والحالة هذه يهون عليه ان يفارق وطنه وسكنه لاجل المال وهذا الداء فاش ايضا عند المثرين والموسرين هنا اذ الغني منهم قد يكون له ابن وحيد فيبعثه الى الهند او غيرها طلبا لوظيفة سامية وربما فجع به بعد قليل وهذا يعد من وجه انه ناشيء عن كبر همة وسمو مطمح ومن وجه لك ان تعده من الحرص والطمع فوفق بينهما ان استطعت ـ ثم انه وان يكن قد غرس في طبع كل انسان ان يحب وطنه ويفضله على غيره ولا سيما اذا سافر الى بلد هو دون بلده في طيب الهواء ورغد العيش وحسن الاحكام الا ان هذه الخلة تكاد ان تكون من خصوصيات الانكليز فانهم اينما يتغربوا

يظلوا لهجين بذكر بلادهم وما فيها من المحاسن واللذات وقد رأيت كثيرا ممن سافروا منهم الى بلادنا والى مصر والغرب وباريس وغيرها فاثنوا على تلك البلاد بشيء وافق طباعهم منها الا انهم عند ختم الكلام يقولون لا شيء مثل انكلترة القديمة وانما يصفونها بالقدم لعدم تحول احوالها وتغير عاداتها كما ان اهل باريس يقولون ليس الا باريس ومع ذلك فانك لا تزال ترى الانكليز طوافين في جميع البلاد وراكبين متني البحر والبر معا ولكن لا تكاد ترى احدا منهم يسافر الى البلاد الاجنبية لاجل ان يعلم التصوير او الرقص والغناء كعادة غيرهم من الافرنج وانما هو للتجارة اما الامراء والاغنياء فانهم يسافرون للتنزه واحيانا لاجل تخفيف المصاريف فانهم مهما يصرفوا في غير بلادهم فلن يبلغ ذلك نصف ما يصرفونه وهم في اوطانهم ورب وليمة عندهم ينفق فيها نحو مائتي ليرة فترى منهم في كل قصبة من بلاد اوربا الوفا ـ ولا شيء يعجبهم مثل ان تمدح بلادهم وعاداتهم ـ ومن طبع الانكليز ولا سيما كبراؤهم ان ينفروا من الرخيص وان يكن نفيسا وان يتهافتوا على الغالي وان يكن خسيسا وعلى ذلك يحكى ان رجلين كانا يتحدثان في هذا المعنى فقال احدهما لصاحبه ألا اني فاعل بهؤلاء القوم امرا يسخر منه كل من يسمع به ثم عمد الى كيس وجعل فيه دنانير من ذهبهم وقعد على قارعة الطريق وجعل ينادي من اعطاني شلينا اعطيته دينارا من هذه الدنانير بدلا منه فجعل المارون يتضاحكون منه ويقولون لعمر الله ما قصد بذلك الا غبن الناس فطفق يصرخ باعلى صوته ويقول يا ايها الناس هاؤكم الذهب بدل الفضة وعليكم بالنقاد فلم يكترث له احد ـ واعرف بعض الجهلة كان يقرأ النحو على رجل من ذوي القناعة والنزاهة ثم يعلم جماعة من اعيانهم ويتقاضى كلا منهم على تعليم ساعة واحدة نصف ليرة فكان الناس يهرعون اليه ويعرضون عن معلمه لانه كان يقاضاهم ربع هذا المبلغ تذمما وتورعا واذا كان احد مثلا متوظفا في وظيفة سنية وقصدوه ان يقضي لهم امرا اعطوه اضعاف ما يعطونه لمن ليس له شغل

الا قضاء تلك الحاجة بعينها ومن كان معاشه من حرفة له وان تكن تلك الحرفة عقلية لا يدوية لم يكن له مقام من لا حرفة له سوى الخرق والبطالة وقد يتفق مثلا ان يكون طبيب نطاسيّ وآخر متطبب فاذا كان لهذا عاجلة ودار رحيبة وخدم اقبلت عليه جميع الامراء والعظماء وادبروا عن ذلك لكونه ممن يمشي على رجليه ما لم يؤلف كتابا ويظهر فيه براعته فكم من ملكات جليلة تبقى في زوايا الخمول بسبب هذا الترجيح الزائغ نعم ان زيادة شلين واحد في ثمن المتاع عندهم يوجب فرقا عظيما الا انه ليس من العدل ان تقاس الناس بالبياعات فكم من عالم عاقل وليس عنده اكتاب وجاهل غبي ولديه اضابير كتب نفيسة ۔ ومن طبع الخاصة منهم ان يتجنبوا معاشرة العامة ما امكن ولذلك سببان احدهما وهو المشهور عند الناس عظم الفرق الحاصل بين الفريقين في الاطوار والاخلاق فان العامة في هذه البلاد ليس لهم حظ من الكياسة كما عرفت مما مر بك ولا تكاد خلائقهم وعاداتهم ترضي احدا من البشر ممن كان ذا ذوق سليـــم وطبع مستقيم فالاوباشية ظاهرة عليهم في كلامهم وحركاتهم وتغييرهم للالوان وفي تصرفهم وغنائهم وضحكهم ومعلوم انه من يكون قد قرأ ودرى يستنكف من مخالطة امثال هؤلاء والسبب الثاني وهو ما خطر لي ان اصل علية الناس هنا من اجيال مختلفة فان الذين فتحوا هذه الجزيرة كانوا من فرنسا وشمالي اوربا ومعلوم ان هؤلاء الفاتحين هم الذين استولوا على ارض الجزيرة وعلى المراتب والالقاب الشريفـــة وان الانكليز القح بقوا بينهم مسودين مرؤوسين فبقي هذا الفرق في اعقابهم ۔ ولهؤلاء الكبراء حب للسمعة يفضي الى قسوة القلب فان احدهم قد يهون عليه مثلا ان يعطي الجمعيات الدينية ثلاثمائة ليرة في السنة وان كان لا يعلم باي وجه من وجوه البر تصرف او لاي مقصد تستعمل واذا مرت به امرأة فقيرة حافية تحمل رضيعين وعلى وجوههم سمة الانكسار والجوع لم يختلج قلبه لان يجود عليها بدرهم واحد حيث يعلم ان المرأة لا دفتر لها تكتب فيه اسمه وتنشره على الملأ كما تفعل الجمعيات ۔ وهنا فليفرح الوادون وليكمد الشامتون فان الدكطر لي

عزم على التوجه الى برستول ليقضي فيها وظائفه الكنائسية مدة شهرين ومن
ثم وجب عليّ ان الحق به ففصلت من تلك القرية المشئومة الى لندرة
ومنها الى المدينة المذكورة فبلغتها في نحو خمس ساعات في خلالها وقف
الرتل في عدة مواقف وكان قد اخبر صاحبة المحل بقدومي وحالي
واوصاها بان تطبخ لي طبيخا فرنساويا اي ان يكون كثير البقول قليل اللحم
فلما كان المساء احضرت لي طعاما مطبوخا من دون ملح على عادتهم
لكنها احتفلت بي غاية الاحتفال حتى استحييت من ان اذكر لها الملح
وفضلا عن ذلك فان فرحي برؤية الاسواق والديار والمواجل انسانيه ثم لما
قابلت الدكتور لي في الغد يسألني عن الطعام فقلت له انه كان بغير ملح
قال كيف ألم تحضر لك ملحا على المائدة فلم لم تملحه انت فانها
خشيت ان تضع فيه ما تعافه فقلت لو احضرت لي اللحم نيئا لكنت
اطبخه بانفاسي واملحه بدموعي وكان خيرا من عادتكم هذه المنغصة
قال لا بأس بين لها المرة الثانية قدر ما تريد من الملح تفعل ثم لمت
صاحبة المنزل على طبخها الطعام غير مملوح فقالت هذا دابنا أرأيت
ذلك المخلل الذي اكلته البارحة لو انك اعطيت زوجي خمسين ليرة
لما اكله مع انه كان خسا بالخل . ثم ان برستول هي من المدن القديمة
لا بهجة لها ولا رونق وهي ضيقة الطرقات قذرتها وليس لها مماش رحيبة
ولا ساحات فسيحة ولا مقاعد ولا منتزهات ولا محال للقهوة او الحظ
سوى ملهى واحد وعدد اهلها مئة وخمسون الفا وقل فيها وجود غريب
وبيوتها الجديدة حسنة واما القديمة فلا تصلح لشيء ونساؤها يشبهن نساء
الفرنسيس في استدارة الوجه ولها نهر صغير فيه بواخر وغيرها مسافته
نحو سبعة اميال يأتيه الجزر والمد في اليوم مرتين ومنه تسافر البواخر
الى والس وقد شرع في بناء جسر عليه من حديد ولم يتم لكثرة مصروفه
وعند هذا الجسر كانت محلة للرومانيين لما افتتحوا بريتانيا وقد بقي
من آثارهم حائط كانوا يتترسون به واتفق بعد نزولي في ذلك المحل

ان قدم القاضي ونزل فيه وفي الغد حضر نحو اربعين رجلا من شرطة البلد واصطفوا لدى الباب و وقف اثنان ينفخان في ابواق من فضة ثم جاء ضابط متزديا بلباس احمر وكان القاضي قد لبس ايضا لباسا احمر وعلى رأسه شعر عارية ابيض فدخلا في عاجلة نفيسة وقف عليها رجلان لابسان كسوة مزركشة بالذهب كما هي عادة خدام الامراء ثم دخل معهما رجل حامل سيفا طويلا في كعبه صورة تاج وله ثلاثمائة ليرة في العام لعمل السيف ثم ذهبوا الى دار الحكومة وكان عن شمال العاجلة ثمانية من الشرطة يحملون عصيا من فضة رؤوسها كالمباخر واثنان يحملان مزاريق قد غشيت اعاليها بالفضة وفي كل سنة يحتفلون به هذا الاحتفال فان القاضي لا يستقر في البلدة وانما يأتي اليها اربع مرات في السنة لفصل الدعاوي الخطيرة في ايام معدودات وفي مدة غيابه ينوب عنه اناس في فصل غير المهم - ثم سافرت من برستول قصد ان ارى بعض جبال والس فينشرح صدري لان بلاد الانكليز كلها كما ذكرت سابقا عبارة عن حقـــول ومروج وهي وان تكـــن ناضرة الا انه لا شيء يبعث على ادارة الفكر واجالة الخاطر كرؤية الاماكن المختلفة نحو ان يكون فيها سهل وجبال واكام واودية وغياض فكلما تعددت المناظر للعين كثرت الخواطر في الذهن وتنوعت الهواجس في الصدر فسافرت في الباخرة فبلغت فرضة تسمى نيوبورت اي المرسى الجـــديد في نحو ساعتين ونصف فبت هناك تلك الليلة وفي الغد سألت عن اقرب الجبال فقيل لي اذا طلعت هذه العقبة ظهر لك فطلعتها ودللت على جبل يسمى لندوغو وهي كلمة والسية لانه لا يوجد في لغة الانكليز كلمة تنتهي بحرف الواو فسرت اليه ماشيا اذ لم اجد راحلة تبلغني اليه فكنت اسأل المارين عن مقدار بعده فكان بعضهم يقول سبعة اميال وبعضهم خمسة وبعضهم ستة فسألت عن بلدة استريح فيها فدللت على قرية بعضهم يسميها مدينة وبعضهم قرية وبعضهم بلدا وهي عبارة عن ستين بيتا فسألت عن مطعم فدللت على

بيت مشهور عندهم فاردت ان آكل بيضا لعدم وجود اللحم والسمك عندهم فقلت لصاحبة المحل اني اريد بيضا فقالت لاي سبب قلت للاكل قالت ما ثم بيض في هذا الاوان مع انه كان في الصيف فالححت عليها فبعثت من طوف في القرية حتى جاء ببيضتين بعد الجهد فقلت اقليهما بالسمن فلم تفهم فاعدت عليها الكلام فقالت تريد ان تكسر البيض في السمن قلت نعم قالت فما يكون هذا اعلاء قلت بل هو قلي قالت هذا مما لم افعله في عمري قط فصفه لي قلت تضعين المقلاة اولا على النار ثم تصبين فيها السمن حتى يذوب ثم تكسرين البيضتين فيه وانا اتولى بعد ذلك امرهما قالت فالاولى ان تتولاه من الآن وتقليهما كما تشاء وانما اوردت هذه الواقعة اشعارا بجهل هؤلاء القوم ادنى انواع الطبخ والمتفننون منهم يقلون البيض بمائه ومن تحته لباب الخبز. ثم ان هذا الجبل وان يكن منظره في الحقيقة مما تسرح فيه العين وينشرح به الصدر بالنسبة الى بلاد الانكليز المحتقنة الا انه بالنسبة الى بلادنا يعد دكا او اكمة . ثم رجعت الى بوستول وتعرفت باحد افاضل الانكليز الذين اولعوا بحب اللغات لا للتفاخر ولا للتكسب ويقال له دكطر جون نيكلسن وانما لقب بدكطر لانه كان درس الفلسفة في بلاد النمسا ونال هذه الدرجة فان لفظة الدكطر يوصف بها كل من الطبيب والرباني والفيلسوف على حد سوى وكان قد تعلم ايضا لغتنا ولكن لم يكن سمعها قط من اهلها ولما كنت انشده منها كان يطرب غاية الطرب فدعاني الى ان ازوره في محله الكائن في بلدة بنريث من شمالي انكلترة فلما رأيت ان مسامرته غنم واجابته حتم وعدته بذلك ثم لما فرغت مدة الدكطر لي من بوستول عزم على الرجوع الى القرية المشئومة فسافر قبلي بايام فسرت لارى بلدة باث فبلغتها في نحو عشرين دقيقة فاول ما دخلتها رأيت امرأة تغني وغلاما يضرب بالسنطير المعروف عندنا ولكن على الحانهم فسألت بعضا عن اسم الآلة فلم يعرفها فسألت العازف به فقال اسمه دلسمر وهو من اللاتينية مشتق من

الحلاوة وباث هذه بلدة ظريفة بناؤها من الحجر وموقعها بين اودية ناضرة وتلال بهيجة وهي مشهورة بماء معدني يستحم فيه ولهذا سميت باثا اي حماما وهي مقر الكبراء والاغنياء ولا سيما المتقاعدين من الضباط وغيرهم ممن كانوا في الهند واهلها ينفرون من الغريب ويسلقونه بالسنتهم وكذا هي سائر بلدان الانكليز غير المطروقة من الغرباء ثم رجعت الى برستول وسافرت الى چلتنهام فبلغتها في ساعتين وهذه المدينة معدودة عند الانكليز من اظرف المدن لحسن بنائها فانه من الحجر ولنظافة طرقها وكثرة الاشجار في ضواحيها ولكن ليس فيها محال للهو والقهوة ولا مطاعم حسنة وقد اردت ان اتغدى في الظهر فلم اجد شيئا عتيدا فاضطررت الى الشواء من الضان واشترط عليّ ان لا ادخن ثم اردت ان اسافر الى اكسفورد فقيل لي انه لا يمكن ذلك الا اذا رجعت الى كلوستر فعدت ولما دخلت البلد اذا بزحام وخلق كثير فسألت عن سبب ذلك فقيل لي انه عيد استئجار الخادمين والخادمات وذلك ان المخدوم يستأجر خادمه الى اجل فلا يمكن للاجير ان يخليه الا لاسباب وهذه البلدة هي محل صنع الحديد وهي قديمة قذرة كاظمة للقلب ثم اجتزت بعدة بلدان منها استورد فيها معامل الجوخ ثم الى اكسفورد وقد تقدم ذكر ذلك ثم الى القرية وكنت قد استأجرت بيتا فيها يشتمل على اربعة مساكن وفرشته على قدر ما اقتضى الحال واستخدمت رجلا يزرع في حديقته ما لا بد منه من البقول اولها البطاطس واخذت اتشاغل بذلك تنفيسا للكرب وتسلية للهم فلم البث ان فجعت بولد لي وحيث لم يكن في القرية ولا فيما يليها طبيب يوثق بعلمه فان المتطببين في بلاد الفلاحين انما هم نفاية اطباء المدن اشفقت على الباقي فرحلت من القرية قاصدا لندرة وغادرت البيت كما هو وكان عليّ بادي بدء ان اكلم كاتب الجمعية واخبره بما اصابني فلما قابلته غلبني النحيب والبكاء حتى انقطعت عن الكلام فاستعظم ذلك مني على صنى فان الانكليز قلما يبكون على فائت ثم لما اعلمته بالسبب وشكوت له ما لاقيت في القرية

واني اخشى ان اموت قبل نجاز الترجمة رأى ان الأبقاء على حياتي هو
الصواب وان الاوفق لي وللتوراة ان امكث في كمبريج لاكون غير بعيد عن
الدكطر لي واتفق مدة مكثي في لندرة ان وقع ضباب كثيف دام سبعة عشر
يوما حتى احتجنا في بعضها الى ايقاد المصباح نهارا لتهتدي ايدينا الى
افواهنا فرأيت الجلاء اجلى واولى فمن ثم سرت اليها فبلغتها بعد نحو اربع
ساعات وهذه المدينة لا ملهى بها ولا حظ سوى مشاهدة المدارس والاساتذة
والمتعلمين وهم من التكبر والصلف بمكان اخوانهم طلبة العلم في اكسفورد
وبعد وصولي بيوم جرى النزاع واللكام ما بين اهل المدارس واهل البلدة كما
جرى في اكسفورد وفيها تعرفت ببعض فضلاء الانكليز ممن عنوا بالعربية ثم لما
حان وقت تعطيل المدارس قبل عيد الميلاد تذكرت ما وعدت به صديقي الدكطر
نيكلسن فمن ثم سافرت الى لندرة ومنها الى دارنكطون فبلغتها بعد نحو اثنتي
عشرة ساعة قاسيت فيها من البرد والتعب ما لم اقاسه في عمري كله ـ وهنا
ينبغي ان يلاحظ ان السفر في سكة الحديد وان يكن اسرع واسهل الا انه في
بلاد الانكليز محنت مكمد لان الغريب لا يجد من الركاب من يدل عليه بحرمة
السفر والتعب فيكالمه فترى كل واحد بيده صحيفة الاخبار يطالعها مسافة سفره
كلهـــا واذا وقف الرتل لا يجد من المأكول والمشروب ما يفثأ تسخطـه
وليست القهوة عندهم الا ماء دخن سخن ولهذا كان اكثر الانكليز يسافرون
النهار كله ولا يأكلون شيئا من حوانيت المواقف . وانما يتزودون الطعام
والشراب من ديارهم وهو في الحقيقة اولى فاما مواقف فرنسا فان فيها كل
ما الفه الانسان في بيته على ان باعة المأكول والمشروب في بلاد الانكليز
اشد خلق الله شططا فانهم يتقاضون على فنجان قهوة الدخن نصف شلين
ثم سافرت من دارنكطون في الساعة الثامنة صباحا فوصلت الى بنريث
في الحادية بعد الظهر ومررنا في خلال ذلك بعدة قرى ومدن من
اعظمها برسطون سكانها نحو مائة الف نفس وهي مدينة شغل ومتجر
شهيرة بملتقى الارتال فيها يمر بها في كل يوم اكثر من مائتي رتل وهو

عبارة عن صف عواجل متناسقة بعضها الى بعض وكان البرد وقتئذ عارما والثلج متساقطا فلما بلغت بنريث سألت عن مقام الدكطر نيكلسن فارشدت اليه لكونه شهيرا في البلدة فلما رآني رحب بي غاية الترحيب وانزلني في داره خير منزل واكرمني بما لا مزيد عليه فجزاه الله عني خيرا ثم ان اقليم بنريث حسن جدا لانه يحوي جبالا واودية واعظم جباله هل فلن ارتفاعه نحو ثلاثة آلاف قدم وهو مخصوص بمعادن الفحم واهل البلد نحو سبعة آلاف واهل ذلك الصقع يلتحفون بشملة على اكتافهم للتدفي ونعال فلاحيهم من خشب وعيشهم اجهد من عيش غيرهم وانحسهم من يعمل في المعادن - ثم عنّ لي ان اسافر الى سكوتلاند لارى قاعدتها وهي ايدنبورغ اذ كنت غير بعيد عنها فودعت مضيفي وسافرت الى ليفربول فوصلت اليها بعد سفر نحو ست ساعات وهذه المدينة هي من اعمر مدن انكلترة بعد لندرة ومنشستر فلا يزال مرساها مشحونا بالسفن وسفنها مشحونة بالبضائع ومنه تسافر الى جميع الاقطار وهي تقابل مرسيلية في فرنسا كما ان منشستر تقابل ليون في كونها ذات معامل للحرير والثياب ولندرة تقابل باريس - وفي ليفربول عدة ملاه وملاعب وحوانيت بهيجة وابنية حسنة من اعظمها المحل الذي يقال له قاعة البلد واهل المدينة لا يسخرون من الغريب وذلك لكثرة اختلاطهم بالغرباء - ثم سافرت منها الى منشستر فبلغتها في نحو ساعة وهذه المدينة اشهر مدينة في الدنيا بكثرة المناسج والانوال وعدد الصناع فيها نحو ثمانين الفا فاذا اعتبرت ان معظم الآلات يدور بالبخار ظهر لك ان هذا القدر يقوم مقام اربعمائة الف صانع - وفي هذه المدينة اسواق ظريفة وحوانيت بهيجة وفيها تعرفت بالفاضل الكريم عبدالله افندي الادلبي قنصل الدولة العلية ولم يكن لتعارفنا من سبب سوى حمرة رأسينا فانه اول ما رأى طربوشي اقبل اليّ متبسما باشّا ودعاني الى منزله من دون ان ابرز اليه كتاب وصاة على عادة القوم ولم يكتف بهذا حتى اخذ عنوان مقامي في كمبريج قصد ان يبعث اليّ بهدية من

طرف المدينة وقد فعل جزاه الله خيرا وله مساع عند الدولة المشار اليها محمودة وذكر حسن عند اهل البلدة وعند اهل الشام ايضا - ثم سافرت من منشستر الى ايدنبرغ قاعدة سكوتلاند وهي مدينة بهيجة جدا مبنية من الحجر الصلب على عدة نجوات وهي شطران احدهما جديد والثاني قديم اما القديم فان دياره عالية جدا فقد تشتمل الدار على ثماني طبقات الا ان فيه ازقة قذرة ضيقة جدا واما الجديد فانه يشتمل على طرق واسعة وديار حسنة وحوانيت عظيمة ومبايت للمسافرين رحيبة وفيه مدرسة جامعة تحوي نحو ستمائة طالب وهي شهيرة بعلم الطب وفيها مكتبة موقوفة تحوي ثمانين الف كتاب ما عدا كتب خط اليد - وهناك قبة جليلة فيها تمثال سر ولتر سكوت شاعرهم الشهير ولها مرقب عال مطل على الخليج الداخل من البحر وسعته عدة اميال وهذا المطل يكاد ان يكون كمطال جبل لبنان - وقد كان الفاصل بين الشطرين خليجا والآن جعل ممرا للارتال - اما ارض سكوتلاند فهي دون ارض انكلترة في الخصب والريع وذلك لكثرة الجبال فيها الا ان اهلها اصحاب جد وداب في الصنائع وشانهم التغرب في جميع البلاد فهم كاهل حلب في سورية وكل سنة يهاجر منهم اكثر من ثمانية عشر الفا وهم اكثر شقرة وصهوبة من الانكليز وعدتهم نحو ٣,٠٠٠,٠٠٠ ولهم لغة خاصة بهم غير ان لغة الانكليز غلبت عليهم الآن وحاكمهم منهم ولكنه تحت طاعة الدولة وهم اشد تحمسا في الدين من الانكليز فان اصحاب الفنادق يضعون في كل غرفة للمسافر كتابي العهد القديم والجديد وكثيرا ما ترى نساء يبعن الفاكهة في الطريق وبين ايديهن كتاب الانجيل وهم مثل الانكليز في كونهم يشغفون الغريب فاني حين كنت امر في الطريق كان يجري ورائي جمع غفير من الرجال والنساء والاولاد ينظرون الى طربوشي ويتعجبون حتى اضطررت مرة الى ان اتوارى منهم في دكان - وقد رأيت في هذه المدينة القصر الذي كانت تسكنه الملكة ماري استوارت المشهورة بالجمال والنجابة وهو في خفض من الارض وفيه

شاهدت صورتها وسريرها الذي كانت تنام عليه وصورة الطلياني الذي اتهمت بحبه وهو يقاربها في الجمال وصورته باقية في الموضع الذي قتل فيه غيلة . ثم رأيت صورتها ايضا في القلعة التي حبست فيها بعد ان اتهمها حسادها بالفحش وهي اجمل من صورتها في القصر - ولما كانت محبوسة هناك اخذها الطلق فولدت جامس الاول وهو الذي صير مملكتي سكوتلاند وانكلترة مملكة واحدة - وشاهدت ايضا في القلعة تاج الملك والسيف والصولجان والنيشان وخاتما من ذهب فصه ياقوتة اكبر من الفولة والشباك الذي تدلت منه فنجت وهو عال جدا وفيها ايضا كنيسة صغيرة يقال انها اول كنيسة اقيمت فيها فرائض النصرانية في تلك البلاد وكانوا حينئذ يرمونها وهذه القلعة مبنية على صخر ارتفاعه ثلاثمائة قدم - فاما ما كان من امر الملكة ماري ففي محفوظي انها بعد ان يئست من الملك بعد وقائع طويلة جرت بينها وبين اعدائها فرت من دار المملكة وكتبت الى ابنة عمها وقيل اختها اليصابت ملكة الانكليز تستجير بها فكتبت اليها ان اقدمي عليّ ولك الامان فلما قدمت عليها اضمرت لها شرا حسدا لها على جمالها ومحاسنها فصدق المثل حيث قال - ان من الحسن لشقوة - ثم تجنت عليها امورا كثيرة من جملتها انها قتلت زوجها فاودعتها السجن ثم خفرت ذمتها معها ونقضت عهدها وعقدت عليها مجلسا حكموا بقتلها فقتلت - ومع ان الانكليز ينوهون باسم الملكة اليصابت لاجارتها مذهب البروتستانط فلا ينفون عنها هذا الغدر الشنيع الذي رضيته لنفسها بعد التأمين فهو طبع يصدأ به ذكرها على ممر الدهور - ومن قرأ قصة الملكة ماري وهي مسجونة وما لقيت من الضـــر والنكد فلا يملك عبراته عليها لعمري انه لم يشقني شيء الى رؤية سكوتلاند غير صورتها وقصرها وذكر ايامها *

ثم عدت الى كمبريج وبعد ان انهيت ترجمة التوراة وذلك في اقل من عشرين شهرا سرت الى لندرة وفاوضت كاتب الجمعية في ذلك فقال ان كنت تقيم في هذه البلاد فان الجمعية تعين لك شيئا في

مقابلة تصحيح الطبع فقلت على شرط ان اقيم بباريس ويبعث اليّ بالمطبوع الى هناك واصححه فاني طالما هممت بان اتعلم اللغة الفرنساوية لما اني ارى في كتب الانكليز جملا وعبارات منها مما يحرض على تعلمها فقال لك ذلك فمن ثم كتبت الى كاتب حاكم مالطة اخبره باني عدلت عن الرجوع اليها - ثم تأهبت للسفر الى باريس وركبت الباخرة التي تسافر من لندرة الى بولون بعد نصف الليل الواقع في السادس من كانون الاول وكنت ارجو انها تقلع في تلك الليلة فوقع الضباب الكثيف حتى تعذر السفر الى الصباح فلما دنونا من المدينة المذكورة صادفنا الجزر في البحر فانتظرنا نحو اربع ساعات حتى جاء المد فبلغنا المدينة في الفجر فاخرجت امتعتنا وفتحت في الكمرك وكان معي عدة صناديق من جملتها صندوقا كتب فلم يأخذوا عليها شيئا وسمعت بعضهم يقول هذا مرسل اي قسيس مبعوث من طرف الانكليز لهداية بعض الضالين الا انهم وجدوا في احدها رطلا من الشاي فقالوا اما ان تؤدي عليه شلينين ونصفا واما ان تتركه هنا فقلت لا بل اودي عليه ما تطلبون وفرحت بذلك غاية الفرح لاني كنت موجسا من انهم يتقاضون على الكتب كثيرا لا سيما و ان كثيرا منها كان جديدا كما جلده المجلد - وهنا نصيحة او شبه نصيحة لاخواني من المسافرين وهي ان من تصدى منهم الى فتح صندوقه اولا يلقى المفتش في عرام نشاطه وظمائه الى ان يجد عنده حاجة جديدة فيضبطها منه اظهارا لحذقه في صنعة التفتيش فاما من يأتي آخر القوم فانه يلقاه قد كلّ وضجر فاول ما يفتح الصندوق ويتلمسه يطبقه وربما اجتزأ عن ذلك بسؤال واحد يلقيه عليه كأن يقول له هل عندك شيء يؤدى عليه مكس ولا بد بالضرورة ان يكون الجواب بالسلب غير ان جل الناس يحبون التقدم والتصدر في كل شيء فتراهم يتزاحمون على فتح صناديقهم واخراجهم وعيابهم كأنما هم في حلبة السباق - وفي بولون هذه وفي سائر فرض فرنسا

المقابلة لانكلترة يزدحم الحمالون وخدام المطاعم على المسافرين ولا ازدحام حمارة مصر - واعلم ايضا انه من يدخل فرنسا وغيرها من بلاد الافرنج فلا بد له من ان يبرز جوازه في الثغور اي الپاسپورت والا فلا يدعونه يدخل واقبح من ذلك انه لا يمكن للغريب ان يخرج من بلاد فرنسا الا اذا ادى في ديوان الجواز عشرة فرنكات اما من يقدم الى بلاد الانكليز فليس عليه ان يبرز الجواز كما ان الخارج منها ايضا ليس عليه ان يؤدي شيئا ولذلك يقال ان بلاد الانكليز بلاد الحرية وسببه عندي والله اعلم ان الانكليز لما كانوا في الزمن القديم متخلفين عن سائر الافرنج في اسباب التمدن والعلوم احتاجوا الى ان يتساهلوا مع جيرانهم في اشياء تستميلهم الى زيارتهم وذلك ان اول ظهور التمدن والفنون في اوربا انما كان في اسپانيا حين كان المسلمون مستولين على الاندلس - ثم ان بولون هي مثل غيرها من فرض فرنسا المقابلة لانكلترة في كونها موردا للتجارة بين المملكتين واكثر ديارها منازل للمسافرين وثلث سكانها انكليز واحسن ما فيها متحفهـــا فيه من غرائب انواع الطير والسمك وسائر الحيوانات ومن الجواهر المعدنية وانواع الورق الذي كانوا يكتبون عليه في الزمان القديم ومن الصور وآلات الطرب لجميع الامم ما هو عبرة للمعتبر ومن رأى عظام السمك والوحوش الضخمة فلا يكذب شيأ مما قاله الاولون ثم سافرنا منها فبلغنا باريس ليلا فدهشت لما رأيت فاني وجدت جميع الحوانيت مفتوحة في الساعة التي لا يفتح فيها شيء في لندرة غير حانات المزر وحين مررنا بالبلفـــار رأينا من الانوار في الديار من فوق وفي محال القهوة من تحتها وفي فوانيس الطرق من بين الاشجار وفي فوانيس العواجل الواقفة عن اليمين والشمال ما خيل لي اني في جنات النعيم ثم لبثنا اربعة ايام في مبيت الى ان تيسر لنا استئجار محل في دار على حدته وكان الضباب في خلالهـــا كثيفا والبرد شديدا اما البرد فلا ينقص عن برد لندرة نقيرا بل هو اشد واما الضباب فكان ابيض بخلاف ضباب لندرة فانه يقـــع اسحم

فطفقت اشكو من الانتقال من ضباب الى ضباب فقال لي احد اصحابي
ان هذا الضباب انما قدم الينــا معك من لندرة فان باريس ليست
مضبة ووقوعه فيهــا نادر جدا لكني وجدت قوله بعد ذلك غير الحق
فانه وقع ايضا في السنة الثانية وانا مقيم فيها من دون ان يعلق
باذيالي من قطرٍ آخر الا انه لا يدوم طويلا كما يدوم ضباب لندرة
وقد حان الآن ان اشرع في وصف باريس واهلها فاقول *

وصف باريس

ان باريس تشبــه لندرة في كونها شطرين يفصــل بينهما نهر الا ان
نهر باريس صغيــر لا يسع المراكب الكبيرة و تخالفها في احوال كثيــرة
(احدها) ان ديار باريس من الحجــر فلا يزال ظاهرها ابيــض انيقا
بخلاف ديار لندرة فانها مبنية من الاجرّ فلا يأتي عليه سنتان او ثلاث
الا ويسود من كثرة الدخان والضباب بل المنازل المبنية فيهــا من حجر
تسود ايضا (الثاني) ان ديار باريس متناسقــة الارتفاع في الغالب
متناسقة الظاهر فانها كلها بيضاء متناسقة وضع الشبابيك اما ارتفاعها فان
بعضها يشتمل على سبع طبقات فربما ارتقى فيهــا الانسان مائة وثلاثين
درجة حتى يصل الى غرفته فهي من هذا القبيل متعبة ولكل طبقة فانوس
يشعل بالغاز ولكل دار رتاج كبير لا يزال مفتــوحا الى نصف الليل وبواب
يتبوأ كنا بالقرب منه فاذا خرج احد السكان اعطاه مفتاح غرفته ومتى رجع
اخذه منه واذا غاب بعد نصف الليل اطن الجرس فيقوم البواب من فراشه
ويفتح له ولا بد ان يعطيه شيئا في مقابلة ذلك هذا اذا كان ساكنا في دار
مفروشة فاما اذا كترى شقة من دار تشتمل على مبيت ومقعد ومطبخ فله
ان يأخذ مفتاحه معه وعند ذلك يحتاج الى ان يستخدم امرأة لتصلح
له مسكنه او يستأجرها ساعة او ساعتين في النهار وربما كانت هذه المرأة
اجيرة عدة اشخاص فتذهب الى كل منهم في ساعة معلومة ولا يمكن

لغريب بل لاهلي ان يستأجر دارا من بابها بجميع مرافقها وذلك لكبرها وغلائها فكل دار في باريس عبارة عن قصر فاما ديار لندرة فلا تزيد غالبا على اربع طبقات ثلاث ظاهرة وواحدة تحت الارض لادخار الفحم وغسل الثياب وما اشبه ذلك وبعضها كبير وبعضها صغير ومن ثم يمكن للانسان ان يستقل بدار منها (الثالث) ان درج باريس متين جدا ومبلط الغرف التي بنيت من عهد حديث من خشب متين جلي بهي ومبلط الديار القديمة من الاجرّ الاحمر وفرش المبلط بالبسط او الزرابي غير مطرد وانما يجتزؤن عن ذلك بنحو سجادة يجعلونها عند الموقد اما في لندرة فان جميع المساكن مفروشة بالبسط ولذلك سببان احدهما انّ البسط فيها رخيصة وفي باريس غالية والثاني ان خشب المبلط في لندرة قبيح وسخ فكان لا بد من سترة (الرابع) ان جميع طيقان باريس تنفتح على مصراعين كالباب فيسهل غسلها وتنظيفها باهون سعي وطيقان لندرة لا يفتح الا نصفها الادنى صعدا ويبقـى الاعلى مطبقا فلا يمكن تنظيفه فيكون لا بد من استخدام من ينظفه من الخارج وهو معنت شـاق (الخامس) ان مواقد ديار باريس هي في موازاة المبلط ولا يمكن طبخ شيء عليها وجل وقودهم انما هو الحطب لا الفحم المعدني فانهم يكرهونه غاية الكراهية لرائحته وتوسيخه الثياب ولا يطبخون عليه اصلا وحين كنا نوقده للاستـدفاء على عادة الانكليز كانت خادمتنا تتأفف منه وغير مرة غشي عليها منه وفي بعض الغرف والدكاكين يوقدون ما اطفيء من الفحم او الفحم مع الحطب في كوانين عالية من الحجر القيشاني الظريف او من الحديد وقد تكون متصلة بقصبة من حديد نافذة في الحائط ليخرج منها الدخان وقد لا تكون وفي الجملة فان مواقد لندرة احسن فانها مجعولة لان يوقد فيها فحم الحجر ولان يطبخ عليها وذلك لارتفاعها عن المبلط هذا في الديار الصغيرة فاما في ديار الكبراء فتكون ايضا في حيز المبلط كما هي في باريس والحكمة في ذلك عندهم وعند اولئك

يصال الحرارة الى الارجل فانها احق الاعضاء بالدفء والحاصل ان الشتاء
داخل الديار في لندرة اهنأ واهون وذلك لاعتنائهم بفرش المساكن
والدرج وبكون المواقد قابلة لوقيد الفحم كما مر وانت خبير بان
بناء الحجر يحدث رطوبة اكثر من الآجرّ (السادس) ان لكل طبقة من
ديار باريس مرحاضا ووراءه مصب للماء وفي ديار لندرة لا يكون الا مرحاض
او اثنان فهي من هذا القبيل انظف وادنى الى الصحة (السابع) ان
مداخن باريس الخارجة من السطوح تكون غالبا من الحديد وفي لندرة
من الخزف فتلك ابهج منظرا والحاصل انه لما كان النظر في امور
المدينة والديار بباريس موكولا الى ارباب السياسة كانت الديار وحدها
تؤذن بابهة المكان وجلاله فضلا عن الدكاكين والدواوين الملكية فكم
فيها من رواشن حديد مذهبة ومن جدران مزخرفة وابواب مؤزجة
مما يستوقف المجتاز وكذلك الدكاكين فانك تراها وضيئة بهيجة
والحاجات فيها زهية ناضرة فيود الانسان لو يشتري كل ما فيها فكأن
في ربيع المدينة نورا يلقي شعاعه على المرئيات فيكسبها بهجة وطلاوة
وكأن القاعد على كرسي في بيته انما هو قاعد على شوك القتاد ابدا يتحلحل
ويتحرك للخروج ليري الديار والحوانيت مما يشوق ويروق اما اثاث
الديار وفرشها فالغالب انه في باريس انفس واغلى واكثر ما يحمل
على العجب منها سررهم التي يرقدون عليها فانهم ينضدون عليها عدة
من الفرش حتى انهم يصعدون اليها على درج وذلك مطرد للغني
والفقير وخشبها في الغالب من النوع الكابلي ويجعلون فوقها اطارا من
خشب مذهب على هيئة التاج ومنه يسدلون الناموسية ولا بد وان يكون
في البيت مرآة كبيرة وساعة دقاقة يضعونها فوق رف الموقد وتفضل
باريس لندرة ايضا في كثرة العيون الجارية في الطريق وفي كثرة الحمامات
واذا شاء الانسان ان يستحم في بيته اوعز الى قيم الحمام في ان يبعث
له بمغطس وماء حميم وهذا يكاد ان يكون معدوما في لندرة - ومن ذلك

الكتابة التي تكون فوق الحوانيت والرواشن فان جلها مكتوب بماء الذهب وفي لندرة جلها بالحبر واذا كان بماء الذهب فلا يلبث ان يسود - ومن ذلك ابواب الدكاكين والقضبان الفاصلة بين الواح الزجاج فانها هنا اكثر رونقا فاما من حيث السعة فدكاكين لندرة اعظم - ومن ذلك الرصف التي على جانبي نهر السين فانها مبلطة نظيفة بحيث يمكن للانسان ان يقعد عندها و يسرح ناظره في النهر وهو يشتمل على عدة حمامات ومغاسل كالبيوت تغسل فيها النساء ثياب السكان - ومن ذلك وجود دكاكين اخرى في الطرق للغسالات فانك في كل طريق تجد منها واحدا او اثنين وذلك نادر في لندرة جدا وانما يغسل النزيل ثيابه عند غسالة الدار التي يسكنها سواء كانت نظيفة او وسخة وهي غالبا في الريف ومن الغريب ان غسالات باريس يغسلن الثياب بالمطـــارق وكل عنهن راض - وتفضل باريس لندرة من حيث النظر لا من حيث الفائدة بكثرة العساكر فان فيها وفي ضواحيها نحو مائة وخمسين الفا فلا تزال تسمـــع منهم الموسيقى وتنظر منهم الملابس الحسنة وهي احسن من ملابس عسكر الانكليز وقد جرت العادة بان يكون مع العساكر نساء للخدمة يتبعنهم وهن متزديات بلباسهم اما المعيشة فحيث كانت المطاعم عندهم كثيرة وكل ما يشتهونه من المأكول والمشروب يجدونه فيها لم يكن احد يتكلف الطبخ في بيته اما اصحاب العيال الذين يكون لهم مطبخ ومحل للمؤنة في منازلهم فلا ينتابون تلك المطاعم الا في الاعياد وهي نظيفة للغاية واول ما يجلس المستطعم ياتيه الخادم بدفتر فيه اسماء الطعام وبفوطة فيختار ما يشاء اما في لندرة فحين يجلس احد في مطعم ياتيه الخادم ويصرخ في اذنيه شواء لحم بقر شواء ضان كرنب جزر بطاطة وهنا تنتهي الفهرسة ولا يقدم له فوطة واي مطعم دخلت في باريس رأيت فيه الرجال والنساء والاولاد ولا بد من ان يوضع امام الاكل نبخات من الكبريت لاشعال السيكار وخلال لتنظيف اسنانه والخاصة من اهل باريس يأكلون مرتين فقط الفطور او الغداء وهو في الساعة الحادية عشرة والغداء

او العشاء في الخامسة ويفطرون على شواء الضان والمحار والعامة يأكلون ثلاث مرات اما طعامهم فانه وان كانوا يتفننون فيه كثيرا فلا يستطيبه الا من الفه وذلك لانهم يسلقون اللحم اشد السلق ليتخذوا منه نوعا من الرعديد ثم يطبخونه بالشحم بدل السمن فياتي مسيخا وفي الجملـــة فانه الذ من طعام الانكليز كما ستعـــرف ذلك في بابه غير ان الشواء عند الانكليز الذ منه عند الفرنسيس وهناك طريقة اخرى للمعيشة وهي ان بعض الديار يصنعون مائدة عمومية يسمونها تابل دوت اي مائدة الضيوف فمن شاء ان يأكل فيها لزمه ان يذهب في ساعة معينة ولعلها ارخص من المطاعم العمومية واطيب وثمن الغداء في هذه نحو فرنك ونصف وثمن العشاء نحو فرنكين وهو يبتدئ غالبا بالشوربة ويختم بالسلاطة ثم بشيء من الحلو او الفاكهة وفي البلفـــار مطاعم لا يتنابها الا الاغنياء والمسرفون فان ثمن العشاء فيها اربعون فرنكا او خمسون اما القهوة فاذا دخلت محلها جاءك الخادم بكوب سميك كالذي يشرب فيه الشوربة وبسكر جزيل وصب القهوة بمرأى منك ثم اتبعها الحليب المسخن وقد رأيت كثيرا من ذوي السمت والرواء يضعون نصف السكر في الفنجان ويختبئون النصف الآخر والمطاعم ومحال القهوة في هذه المدينة لا تحصى كثرة وهناك محال للقهوة تغني فيها الرجال والنساء يدخلها الناس مجانا ولكن بشرط ان يشربوا شيئا يقوم عليهم قيمة شيئين ـ ومما يعجب منه في باريس الدكاكين التي يباع فيها المربيات والشراب وذلك لنظافتها وانوارها وربما كانت سقوفها من مرايا وعندهم من اصناف المربيات والمعجنات والحلويات ما يزيد على ما عند الانكليز عشرة اضعاف الا انهم مثل الانكليز في ان حلوياتهم جميعها معمولة بالسكر لا بالعسل ـ واعلم ان ارباب الرئاسة هنا يتعهدون صحة الرعية فيما يباع من المأكول والمشروب فلا يسمحون للباعة بان يبيعوا شيئا فاسدا او مضرا بالابدان او مغشوشا وكأن الخمر مستثناة من ذلك

فلهذا كان كل ما يوكل ويشرب هنا الذ وازكى مما يوجد بلندرة بل البقول والفاكهة هنا اطيب والذ فمن ذلك الخبز وهو الزم ما يكون للمعيشة فانه في غاية الطيبة وهو من محض الحنطة غير مخلوط بشيء من الشب او البطاطس كخبز الانكليز وقد يصنعون منه شكلا في طول قامة الرجل واللحم على ان الانكليز يدعون بان لحمهم اطيب ويعجبني هنا نظافة دكاكين اللحامين فلا يمكن ان تشم منها رائحة كريهة بخلاف دكاكين لندرة وهم يقفلون دكاكينهم قبل ان يوقدوا الغاز فانهم يقولون انه يغير طعم اللحم ومن ذلك الزبدة والجبن ومحار البحر على انواعه والزيت والخل والخردل واللبن وقد يصنعون منه الرائب والقريشة كالموجود في بلادنا سواء وكذا الصابون والشمع بل الكبريت وحطب الوقود هنا احسن مما يوجد بلندرة وعندهم كثير من البقول والفوائه مما لا وجود له في تلك فاما جعتهم فغير طيبة ولكن قلما يشربونها لاستغنائهم عنها بالخمر اما الهواء فبرد باريس ولندرة صنوان غير انه لما كانت الديار كلها مبنية هنا من الحجر وكانت مواقدها غير صالحة لوقود الفحم المعدني كما مر كان البرد اشق وابلغ وزد على ذلك توالي الامطار شتاء وصيفا وقد شاهدت جما غفيرا حضروا من باريس الى لندرة وسألتهم عن الهواء فكلهم اجاب بان المطر لم ينقطع مدة اقامته وكان فيها بلندرة صحو الا ان الناس لا يشعرون في باريس بعنت المطر او الثلج لكثرة ما فيها من السقائف والمنتزهات ومحال القهوة مما يذهب بالكرب اما في لندرة فلن يجد الانسان من ذلك مهربا الا في بيته وهذا حسب *

وفي باريس عدة مواضع لا نظير لها في الدنيا باسرها (احدها) البلفار وهو طريق واسع طويل ممتد يحيط بباريس كالمنطقة للخصر كلا جانبيه محفوف بالشجر المتوازي الوضع وبالدكاكين الظريفة والديار الشاهقة ومواضع القهوة الانيقة الحافلة فلا تزال ترى امامها الوفا من الكراسي يجلس عليها الرجال والنساء وهناك يقرؤون صحف الاخبار

ويتفاوضون في ادارة المصالح والاشغال وقد تكون حيطان المحل كلها مراء وسقفه كسقف الكنائس مزخرفة منقوشة وفيها متكآت ومقاعد ومواقد نفيسة ولا تزال غاصة بالناس الى نصف الليل وقد يكون لها رواشن او مشربيات فيها مقاعد يرى الانسان منها جميع ما يمر في الطريق واكثر الملاهي هناك وثم اظرف المحال للقهوة وفي طرف البلفار عمود شاهق من المرمر في قنته تمثال ملك من نحاس واقف على كرة وهو يلمع في مقابلة الشمس له كانه ذهب ويقال للملك ملك الحرية وعلى العمود اسماء الذين قتلوا من كبار الامة في سجن باستيل مكتوبة بالذهب وتحته حوض يستقى منه وكان انشاء البلفار في سنة ١٥٣٦ (الثاني) الموضع الذي يقال له پالي روايال اي القصر الملوكي وانما سمي كذلك لمجاورته قصرا كان مقر الملوك وهو عبارة عن صفي دكاكين متقابلين فوقها منازل ومطاعم وحمامات ومحال للقهوة وبينهما اشجار وحوض ومقاعد وممشى للناس ففي الدكاكين ترى احسن الملبوس وانفس الحليّ والتحف من المعادن والجواهر وهي وان كانت دون دكاكين البلفار في الكبر الا ان حسن تنضيد ما فيها وبراعة ترصيفه وبهجة ذلك المكان يكسبها سعة في النظر ومن رأى كثرة الجواهر والالماس في هذا الموضع وفي غيره ايضا حكم بان اهل باريس اغنى من اهل لندرة الا ان الجوهريين من الانكليز لا يبرزون ما عندهم من الجواهر في وجه الدكاكين وانما يخبئونها في خزانة فلهذا لا يكاد الناظر يرى عندهم من خارج الدكان غير الذهب والفضة وفي تلك المطاعم جميع ما تشتهيه النفس فاذا قعدت للغداء رأيت الرجال والنساء والاولاد يمرحون في تلك الروضة وصفة الحمامات صفة المطاعم وفي الروضة ايضا موضع قهوة عنده كراسي عديدة بعضها عند الحوض وبعضها تحت الشجر وثم تضرب العسكر بآلات الطرب ثلاث مرات في الاسبوع وطول هذه الحديقة سبعمائة قدم وعرضها ثلاثمائة وكان انشاء هذا المحل البديع في سنة ١٧٢٩ (الثالث) الموضع المسمى

شانزلزي اى روضة الاصفياء وهو غيضة طويلة ذات شطرين طولها الى
حد الازج اكثر من ثمانمائة ذراع وعرضها في الاقل مائة وستون
ولها مقاعد من خشب وكراسي على طول جهتي الطريق وبين الشطرين
طريق واسع لمرور الخيل والعوامل والعواجل ففي ايام الاعياد
ترى هذا الممر ملآن من تلك المراكب فان اهل الثروة يذهبون الى
هناك متفاخرين بما فوقهم من اللباس وبما تحتهم من المركوب وترى
النساء في العواجل المفتوحة متكئات كأنما هن على نمارق وفرش
والعجب والتيه يلمعان من جنبهن وكثيرا ما تراهن راكبات على هذه
الصفة ودخان التبغ خارج من افواههن ومن العجب ان اهل باريس
يخرجون الى هذا الموضع والى بوا دو بولون في ايام الاربعاء والخميس
والجمعة من جمعة الآلام قصد المباهاة والمفاخرة فيما يلبسون ويركبون
فهي عندهم موسم التأنق والتظرف ومع ذلك فان الجزارين يتحرجون
من بيع اللحم يوم الجمعة اما احتراما له او حياء من الناس - وفي هذه
الغيضة جاردن مابيل وهو بستان بهيج تنتابه الرجال والنساء للرقص فيه
خمسة آلاف نور وبستان الشتاء ولا يمكن ان يكون في العالم بستان اجمل
منه على صغره فانه راموز الجنة وفيه عين فوارة يصعد الماء منها
علو قامات وفيها قصر للزهور وموضع واسع ترمح فيه الخيل وخيام لا تحصى
يباع فيها الشراب والنقل والحلواء وفيها زمر شتى كزمر باب الرميلة بمصر
فمن بين مشعوذ ومغن وعازف ومحدث ومحنبش وغير ذلك وفيها ثلاث
قبب مزخرفة ذات بهجة وانوار يجلس في كل منها ست نساء او خمس
من القيان الحسان ويغنين على آلات الطرب وهن كاشفات عن الصدور
والاكتاف ولكن لا يكون ذلك الا في فصل الصيف فمن شاء ان يقعد على
كرسي ويسمع الغناء لزمه ان يشرب شيئا من محل القهوة ويدفع ثمنه
ضعفين واذا انتقل من كرسي الى غيره وجب عليه تجديد الشرب ومن
وقف يستمع فلا تكليف عليه وهناك من الحياض والتماثيل والملاعب

والملاهي والصروح والاعلام مـــا ينسي الغـــريب وطنه وكان غرس هذه الغيضة في سنة ١٦٧٠ ويقـــال ان في باريس ثلاثة عشر الف شجرة من غرس سنة الى عشر سنين وعشرة آلاف شجرة من عشر سنين الى ثلاثين سنة واكثر من اربع وثلاثين الفا من ثلاثين سنة فصاعدا وغالبها من شجر الميس (الرابع) الساحة المسماة پلاس دو لاكنكورد وهي بين الغيضة المذكورة وبين حديقة التولري يجوز الناس من هذه الى تلك ومن تلك الى هذه وفي هذه الساحة حوضان كبيران وسع كل منهما خمسون قدما و فيهما تماثيل من نحاس تقذف بالماء صعدا فيقع على شبه جرن عليه تماثيل اربعة اولاد وبطة يخرج الماء من افواهها فيلتقي كلا المائين وينحدران الى الحوض و بينهما عمود جلب من مصر عليه حروف بلسان قدماء مصر ـ وفيها تمثال لويس الرابع عشر على جواد وعلى قاعدته تماثيل القدرة والحزم والعدل والسلم وفي هذه الساحة نحو خمسة وعشرين عمودا لها قبب في اعلاها وهي مضلعة مذهبة ولكل منها جناح يقل فانوسين مذهبين وهي تظهـــر للناظر في الليل كأنها ابراج نجوم وطول هذه الساحة ٣٤٨ مترا وعرضها ١٦٩ فاما حديقة القصر الامپراطوري فلا يحكم لها بالفضل لسعتها وعظمها وان تكن انيقة زهية وانما لكونها مجتمعا للناس فتراها مشحونة بالكراسي والمقاعد ينتابها المتكيسون والمتكيسات عند العصر وخصوصا في الاعياد و فيها تماثيل عديدة ومحل ينال فيه الطعام والشراب ولهذه الحديقة درابزين من حديد جلي يطيف بها رؤوس رماحه مذهبة وقيل ان الكراسي التي فيه مضمنة بمائة الف فرنك في العام فاذا لم تقصد هذه الحديقة لتسرح ناظرك في محاسنها فذلك دليل على فساد مزاجك (الخامس) عمود ناپوليون الاول صنع على مثال عمود تراجان في رومية من الف ومائتي مدفع من نحاس كان قد غنمها الامپراطور المشار اليه من عساكر النمسا والروس وقد نقش خارجه بصور الوقائع التي انتصر فيها وصور آلات الحرب يصعد الناس الى اعلاه لرؤية المدينة في مائة وست وسبعين درجة وفي قنته تمثال ناپوليون

طوله احدى عشرة قدما وارتفاع العمود مائة وخمس وثلاثون وزنته ٣٦٠,٠٠٠ ليبرة ويقال لهذه الساحة پلاس فندوم باسم دوك فندوم ابن الملك هنري الرابع لزنية بدىء بها في ايام لويس الرابع عشر وفي يوم ميلاد ناپوليون الواقع في الخامس عشر من آب تأتي الناس باكاليل من زهر ويضعونها على الدرابزين المطيف بالعمود تذكارا لمآثره ولما دخلت عساكر الدول الاجنبية مدينة باريس كان من همهم بادي بدء ان يزيحوه فلم يقدروا وكان من قبله تمثال من نحاس للويس الرابع عشر فازيح في سنة ١٧٩٢ قيل وكان اعظم تمثال صنع فان زنته بلغت ٦٠,٠٠٠ ليبرة (السادس) السقائف او المعابر المسماة بالپاساج وهي اسواق مسقفة بالزجاج ومبلطة بالرخام وعلى كلا الجانبين دكاكين بهية متناسقة الوضع يوجد فيها للبيع اغرب التحف واعجب الطرف والغالب ان ما يباع فيها يكون اغلى مما يباع في غيرها ومنها ما حيطانه مرصعة بالمرايا فيرى المار فيها شخصه ذات اليمين وذات الشمال وفي زمن الشتاء تغص بالرجال والنساء فهي ملجأ لهم من المطر والبرد (السابع) الغيضة المسماة بوا دو بولون وهي عبارة عن ندحة من الارض واسعة ممتدة كلها شجر وحياض وفيها طرق رحيبة للعواجل يخرج اليها اهل الثروة والجمال في عواجلهم الفاخرة ولا سيما في الآحاد والاعياد والايام الثلاثة التي مر ذكرها في جمعة الآلام وفي هذه الغيضة حلت عساكر الانكليز عند فشل ناپوليون واعلم ان الغيضة في مفهوم الفرنساوية هي الارض التي تكون اشجارها متماسة الرؤوس بحيث انك اذا جلست تحتها وقتك من المطر والشمس فاما عند الانكليز فهي قطعة من الارض يكون فيها شجرات معدودات ومرج تمرح فيه الماشية *

فاما ما في باريس من الصروح الفاخرة والمباني السنية فمما لا يعد ولا يحصى ولكني اذكر منها اشهرها - فمن ذلك القصر المسمى باللوفر وهو منقسم الى عدة اقسام الاول للتصاوير وهو يشتمل على الف واربعمائة وست صور من صنع اهل ايطاليا واسپانيا وفرنسا وهناك محل آخر يحوي اربعمائة

وستا واربعين تصويرة من صنع مصوري اسپانيا خاصة ومن تلك التصاوير ما يبلغ طوله اكثــــر من عشر اذرع ومنه ما هو بديع الصنعة حتى لا يمكن للناظر ان يكف عن الرنو اليه وجميع سقوف هذه المحال مزخرفة منقوشة وترى هناك كثيرا من الرجال والنساء يصورون عن بعض الصور المشهورة وقسته بخطواتي فكان طوله نحو سبعمائة وثمانين خطوة معتدلة وقست ما يشبهه بلندرة فلم يزد على مائتي خطوة ولم ار هناك الا مصورة واحدة القسم الثاني للرسم وهو يشتمل على الف ومائتين وثمانية وتسعين رسما الثالث للاشياء العادية وهو يشتمل على الف ومائة تمثال وصنم الرابع للتماثيل الحديثة الخامس للمنقوشات السادس للادوات البحرية كالسفن والمدافع وترى كل سفينة موضوعة في بيت من زجاج على مائدة من خشب نفيس وهناك صور مدن وقلاع بارزة مجسمة السابع للدراهم الثامن متحف لبدائع مصر التاسع متحف الاثوريين العاشر متحف لبدائع اميريكا الحادي عشر متحف لبدائع الجزائر ورأيت من جملة تلك الغرائب ملابس الملوك وسلاحهم من جملتهـــا عدة اردية مطرزة وغير مطـــرزة كان يلبسها ناپوليون الاكبر وسروج خيله منها سرجان عربيان كان يركب عليهما بمصر ومن ذلك كتاب في الهندسة كان يطالع فيه دائما وهو بلا جلد و ادوات كان يستصحبها في اسفاره ومن جملة هذه الغرائب ايضا سيف كان لشارلمان وطست غريب الصنعة جيء به من بلاد المسلمين وهذا القصر كان دائما منفردا عن قصر الملك المسمى بقصر التولري وكان في عزم الملك لويس فيليب ان يصله به فلم يتهيأ له الى ان قام ناپوليون الثالث فجعلهما متصلين ومن ذلك قصر التولري وتفصيل ما فيه يغني عنه قولنا انه مقر لملوك فرنسا وانه فيه سرر مرفوعة واكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ومبلطه كله من خشب الجوز المحكم الصنعة والالصاق بنته كاترين دمديسي واتمه لويس الرابع عشر ثم سكنه لويس السادس عشر في سنة ١٧٨٧ وفي سنة ١٧٩٢ اقتحمه الناس والسلاح بايديهم ليقدموا عرضا للملك وهم على اهبة الفتنة وافضى

الامر اخيرا الى ان قضوا عليه بالقتل ثم تبوأه ناپوليون قبل ان لقب امپراطورا وبعده ايضا ثم عائلة البربون ولما كان لويس العاشر قارا فيه هجم الناس عليه وغلبوا على عساكره والجأوه الى النفي وذلك في سنة ١٨٣٠ وفي سنة ١٨٤٠ هجموا فيه على لويس فيليب والجأوه الى الفرار فلحق باسلافه وهو آخر من ملك من البربون ودام ملكه ثماني عشرة سنة ـ وقرأت في بعض الاخبار انه لما هجم الناس عليه وجدوا في دهليز القصر المذكور خمسة وثمانين الف زجاجة مملوة من الخمر الفاخر ـ ومن ذلك قصر لوكزمبور بني في سنة ١٥٩٤ وهو وان لم يكن بناؤه بديع الصنعة الا انه متين مهندم وكان مقرا للويس الثامن عشر ثم جعل في زمن الفتنة سجنا ثم جعله ناپوليون مجلسا خاصا وهو الان كذلك ويحضره الملك بنفسه وعنده حديقة عظيمة ينتابها اهل تلك الناحية وهي اكبر من حديقة الملك وفي طرفه رصد الكواكب بني في سنة ١٦٦٧ وحديقة صغيرة تجتمع فيها الرجال والنساء في الصيف للرقص ـ ومن ذلك القصر المعروف بقصر الصنائع الظريفة والمحكمة الكبرى بني منها قسم من عهد صان لويس ثم زيد فيها مبان كثيرة حتى صارت من احسن ما يرى اليه طولها ٢١٦ قدما وعرضها ٢٨ ودار مجتمع العلماء ويقال له الانستتيو اسسه الكردينال مازارين ووقف عليه مكتبة عظيمة ورزقا يبلغ في كل عام ٤٥,٠٠٠ وهؤلاء العلماء هم الذين ينقحون كتب اللغة والنحو ويذكرون المرذول من الكلام ويثبتون الفصيح فان للفرنساوية اعتناء عظيما بفن الادب بخلاف الانكليز ـ ومن ذلك دار السكة اتم انشاؤها في سنة ١٧٧١ وهي تحوي اثني عشر دولابا زنة كل منها ثمانون الف رطل وتضرب في كل دقيقة ستين دينارا وثمانين ريالا وفيها دنانير من عهد جميع ملوك فرنسا وفيها ايضا يطبع على المصوغات من الفضة والذهب ـ ومن ذلك المصر اي مجتمع التجار طوله ٧١ ذراعا في عرض ٤٩ او ٢١٢ قدما في عرض ١٤٦ يحيط به ٦٦ عمودا ونصف سقفه من بلور وهو مقبب

وصحنه كله مبلط بالرخام يسع الفي رجل بدئ به سنة ١٨٠٨ وبلغت نفقته ٨,١٤٩,٠٠٠ وهو من المباني البديعة . ومن ذلك المصرف اي البنك انشئ في سنة ١٨٠٣ قيمة ما فيه من الكواغد التي بالف فرنك وبخمسمائة ٢٣٣ مليونا والحاصل في خزينته ٢٢٨ مليونا وكان رأس المال الذي وضع فيه اول انشائه خمسة واربعين مليونا - ومن الازاج العظيمة الازج الذي يقال له ارك دوطريونف اي قنطرة النصر او الظفـــر صور عليه الوقائع التي انتصر فيها ناپوليون وآخر امام قصر الملك من جهة اللوفر وفي البلفار وغيره ازاج كثيرة اضربنا عن ذكرها - ومن الكنائس العظيمة كنيسة نوطردام وقد مر ذكرها طولها ٣٩٠ قدما وعرضها ١٤٤ وارتفاعها ١٠٢ وعلو صومعتها ٢٠٤ فيها ارغن ارتفاعه ٤٥ قدما وعرضه ٣٦ يشتمل على ٣,٤٨٤ قصبة وهي ام كنائس باريس وفيها تتوج الملوك واول حجر جعل في اساسها وضعه البابا اسكندر الثالث في سنة ١,١٦٣ ولم يتم انشاؤها الا بعد ثلاثة قرون ومن ذلك كنيسة لا مدلين اي المجدلانية وهي كنيسة ذات بهجـــة ورونق وصنع بديع داخلها مزخرف بالنقش والعمد من المرمر النفيس ومبلطها من الرخام وسطحها من حديد ونحاس طولها مائة ذراع وعرضها اثنتان واربعون ويحيط بها اثنان وخمسون عمودا ويصعد الى بابها في ثلاثين درجة وكان في عزم ناپوليون ان يسميها هيكل الفخر تذكارا لفخر فرنسا وان يصور على اعمدتها جميع الذين حاربوا معه من الابطال المظفرين ولذلك بنيت على شبه هياكل اليونانيين ولم يبق نقاش ولا مصور في المدينة الا واشتغل بها واول حجر وضع في اساسها وضعه لويس الخامس عشر وكان في قصد ناپوليون ان يخصصها للعسكر ولم تتم الا في ايام لويس فيليب وهو الذي خصها بمريم المجدلانية بعد ان كان الناس يظنون انها تخصص لجوپيتر ومن ذلك الكنيسة التي يقال لها الپنثيون بنيت في سنة ١٧٦٤ على اسم مار جينيفيف ثم جعلت مدفنا لمشاهير الفرنساوية في العلم او الحرب وفيها دفن فلتير وجان جاك روسو وغيرهما ثم حولت كنيسة في داخلها مائة وثلاثون عمودا وبخارجها نحو من ذلك

وبلغت مصاريف نقش قبتها مائة الف فرنك ورقي ناقشها الى مرتبة بارون ودورتها ٦٢ قدما ودورة الكنيسة كلها ٣,٢٥٦ قدما مربعا وطولها ٢٨٨ قدما ومن ذلك كنيسة صان صلبيس وهي في حارة النبلاء يقال ان كراسيها مضمنة بستين الف فرنك في العام بنيت سنة ١٦٤٦ ولها صومعة عالية جدا ومن ذلك كنيسة نوطردام دلورت بلغت نفقتها ٢,٠٥٠,٠٠٠ ووظيفة قسيسيها في السنة ٣٠,٠٠٠ فرنك وقس الباقي على ما ذكرناه واهل باريس يذهبون الى الكنائس صباحا وفي المساء الى الملاهي وهو عند الانكليز من اعجب العجب . ومن المواضع المشهورة المقصودة مارستان السقط بني في ايام لويس الرابع عشر وهو يحوي ٢,٠٠٠ نفر ما بين مرضى وخدمة وتخدم فيه ٢٥ راهبة ويسع ١٠,٠٠٠ نفس وهو مخصوص بالعساكر وكل من قضى في الخدمة العسكرية ٣٠ سنة فله حق ان يدخله ومرتب مديره ٤٠,٠٠٠ فرنك ويعين لمن فيه في كل يوم رطل من اللحم وليتر من الخمر طول حديقته ١,٤٤٠ قدما وعرضها ٧٨٠ وعنده مدافع غنمها الفرنساوية من پروسية والجزائر وعنابه وطول المارستان ٦١٢ قدما وفيه مكتبة نفيسة وكنيسة طويلة نصب على مشرفتها جميع الرايات التي اخذها ناپوليون من جيوش الدول التي انتصر عليها احسبها تبلغ ٢٠٠ ومن جملتها عدة رايات من عساكر المسلميـــن وكان في الكنيســـة ٤,٠٠٠ راية وسيف لفريدريك الكبير فلما دخلت عساكر الدول المتفقة باريس صدر امر من وزير الحرب من لسان يوسف بوناپارته بان تحرق الرايات ويكسر السيف فخشي المأمورون تبعة ذلك ولم يحرقوها الا بعد ان راجعوه في امرها ثلاث مرات وفي هذه الكنيسة دفن نابوليون وامراء عسكره ووضع على قبره تاجه ونيشانه وسيفه وصرف في القبر مليون ونصف - ومن ذلك بستان النباتات تنبت فيه جميع النباتات وتحفظ فيه سائر الحيوانات وهو يشتمل على عدة مواضع الاول للنبات فيه بيوت من زجاج لتنبيت ما لا ينبت في البلاد الباردة الثاني مشرفيات فيها اشياء عديدة تعين على

علم حيوة الحيوان المسمى عند الافرنج تاريخ الطبيعيات الثالث مشرفية للتشريح الرابع مربض الحيوانات ومحل مونتها الخامس مكتبة تشتمل على كتب في تاريخ الطبيعيات السادس محل يلقى فيه التدريس في العلوم يسع ١,٢٠٠ شخص وجملة انواع النبات التي في البستان ١٢,٠٠٠ نوع والتي في المشرفية ٥,٠٠٠ وعدد الطيور ستة آلاف وعدد السمك خمسة آلاف وعدد الاعضاء للتشريح ١٥,٠٠٠ وجملة النباتات المجففة المحفوظة ٣٥,٠٠٠ ومن الشجر والحب اكثر من اربعة آلاف ولما دخلت عساكر الدول الاجنبية باريس كان من هم الدولة ان تحميه من غوائلهم فبقي مصونا الا ان كثيرا مما جلب اليه من البلاد الخارجية رد على اصحابه وفيه شجرة من ارز لبنان اهداها طبيب انكليزي اسمه غولنصون الى الدولة وقد رأيت فيه عظام حيوانات عادية طول الواحد منها نحو عشر اذرع وجثة سمكة وكأنها هي الذي يقال له بلغتنا الجمل طولها من الرأس الى الذنب نحو خمس وعشرين ذراعا وفي ظهرها سبع و اربعون فقرة كل واحدة كأنها رفش ولها ثلاث عشرة ضلعا عند رأسها كأنها توائبهـا طول كل ضلع نحو اربع اذرع من كل جانب وراسها نحو قارب وفي فكها الاسفل من كلا طرفيه ثلاث وعشرون سنا قدر كل سن كالموزة وغاية الكلام ان باريس تفضل لندرة في المباني والمطاعم والمتنزهات ومحال العلم فهي معدن العلوم واللذات ولذلك ترى الوفا من عيال الانكليز الاغنياء يأتونها مستوطنين وما احد من اغنياء الفرنسيس يذهب الى لندرة ليتخذها له وطنا وانما يذهب اليها اهل الحرف والصنائع تحصيلا لمعيشتهم - ومن مواسم الحظ والفرج عندهم ثلاثة ايام في المرفع وهي التي يسمونها الكرنيفال وقد ذكرناها في الكلام على مالطة فلا ينبغي اعادتها وانما نقول هنا انه في هذه الليالي يدومون في المراقص حتى الصباح وفي يوم خميس السكارى يطوفون بثور مسمن وامامه طائفة الجزارين بلباس السخرية ويغطون الثور بثوب مزركش وعلى رأسه اكليل من الزهر وكانت العادة سابقا ان يقعد على ظهره ولد يسمونه ملك

الجزارين ويمسك باحدى يديه سيفا وبالاخرى صولجانا فاما الآن فانه يقعد في نحو محفة ويتبع الثور بلا سيف ولا صولجان - ومن ذلك عيد رأس السنة وهو ثلاثة ايام ترى فيها جانبي البلفار مشمولا بالخيام لبيع التحف والطرف التي يتهادى بها وترى ايضا غيضة شانزلزيي مشحونة بظلل وقبب واخبية فيها جميع انواع الطرب والشعوذة والرقص على الحبال وثم ترى من بدائع المصنوعات والمخلوقات ما لا تراه في المملكة كلها وقد رأيت مرة امرأة جميلة ذات لحية وشوارب وعلى قفاها وذراعيها من الشعر ما لم يكن على رجل وفي الخامس عشر من اغسطوس تصنع الدولة عيدا حافلا يحشد اليه مئات الوف لرؤية الانوار وشهب البارود - وفي الجملة فان ايام باريس كلها مواسم واعياد وان ليلها ابهج من نهارها هذا وعلى قدر ما فيها من المحاسن الفائقة والارناء الشائقة فان ضواحيها ابهى واشهى - فمن ذلك صان كلو وهو على بعد نصف ساعة من باريس فيه قصر يصيف فيه الملك وغيضة غضة انيقة دورتها اربعة فراسخ وهذا القصر كان اشتراه لويس الرابع عشر وسكنه ناپوليون الاول وشارلس العاشر بني في سنة ١٥٧٢ واثاثه اجد من اثاث قصر فرصايي وفي الغيضة مياه خرارة ولعلها هي الشلالات وبالقرب منـــه قصر فرصايي الذي كان مقرا للويس الرابع عشر وهو يشتمـــل على تصاوير بديعة لا نظير لها من جملتها صور جميع ملوك الافرنج من مات منهم ومن هو حي وصور وقائع ناپوليون وصور سائر الملوك والسلاطين وفي الشقة التي كان يسكنها الملك تحف غريبة كان يستعملهـــا هو وآله وسرير فراشه وهو نحو صفة وفيه ملهى كان اذا امر الملك باجراء التمثيل فيه ينور بعشرة آلاف شمعة ويصرف عليه في تلك الليلة مائة الف فرنك وفي القصر ديوان فسيح كان يجتمع فيه رجال دولته ولم يكد مع رحبه يسعهم وبعد ان تنقضي فرجة الناس من القصر وذلك نحو الساعة الرابعة تطلق مياه الغيضة صعدا وتضرب آلات الطرب فيقعد الناس على الكراسي للسماع والنظر وهو منظر يسحر فان الحديقـــة ناضرة زاهية والعيون غزيرة ووسع الغيضة الكبرى عشرون فرسخا وقد انفق على

حوض فيها مليون ونصف فاما جملة ما انفق في القصر وفرشه وفي الغيضة فقد اختلفت الاقوال والذي صح انه بلغ نحو اربعين مليون ليرة انكليزية فاما بلد فرصاي فانه كان قبل الفتنة عامرا فكان اهلــه مائة الف والآن ليس فيه اكثر من ثلاثين الفا - ومن ذلك صان جرمان وهو على بعد خمسة فراسخ من باريس اوسفر ساعة في سكة الحديد وهي بلدة مشهورة من القديم لها غيضة فسيحة ناضرة في ربوة من الارض يسرح الناظر منها نظره في مدى مديد كله خضرة ما بين كروم وبساتين وغياض ورياض وقصور واعلام حتى يود لو يرى في جملتها صخرا من صخور مالطة وفي هذه البلدة قصر كان في الاصل مقرا لفرنسيس الاول وكان هنري الرابع يستطيـــب المقام فيه وكذا لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر وفيه اقام جامس الثاني ملك الانكليز ديوانه اثنتي عشرة سنة ثم صار في زمن الفتنة محلا للعساكر ثم جعل الآن سجنا لهم وهذه المواضع يقصدها اهل باريس في ايام الاحاد والاعياد في ارتال لها مقاعد في سطوحها مكشوفة فترى وانت في رتل منها عدة ارتال سابقة ولاحقة ولا يمكن استيفاء الكلام على هذه المحاسن من دون روءيتها عيانا وكل ما تراه في باريس وضواحيها من المحسنات والمنتزهات فانما تم بعناية صاحب الملك لا بعناية جمـــاعات على عدتها كما هي العادة في لندرة فان الملك هنا لا يغفل شيئا مما يؤول الى ابهة الملك وشرف المدينة ورونقها واذا علم مثلا ان في بعض الشوارع ديارا قديمة متهدمة اشتراها من اصحابها من دون غبن وجدد بناءها وفي ايام ملكها الآن هدمت حارة كبيرة برمتها ثم بني في مواضعها ديار حسنة شاهقة تضاهي ديار البلفار فاما في لندرة فان جميع الانشاءات والتنظيمات موكولة الى جماعات من الاهلين وليس على الدولة الا ضرب المكس والطسق وتجهيز الجيوش - اما ملابس اهل باريس فانها في الجملة وضيئة فاخرة واكثر انواع الثياب التي تباع عنـــد البزازين ولا سيما الحرير احسن مما يوجد بلندرة الا الكتان فاما الملابس المخيطة فليس لعمري من مناسبة بين ما يباع هنا وما يباع هناك فان من

يشتري ثوبا مخيطا في لندرة يلزمه ان يستأجر معه خياطا ليصلحه له في
كل يوم ولاهل باريس تنطس زائد في اشياء كثيرة مما لا يعبأ به الانكليز الا
ان نساءها اللواتي يعشن من كد ايديهن يلبسن احذية كاحذية الرجال وذلك
منكر في لندرة واذا خرجن في الاسواق خرجن من دون برنيطة ولا شال
وللاكتفاء عن البرنيطة سببان الاول الزهو والعجب فانهن يعرضن شعورهن
واعناقهن للرنو والتعجب والثاني غلاء سعرها حيث كانت اجر اللائي يصنعنها
كثيرة فان صناع باريس تكسب اكثر من صناع لندرة وبعكس ذلك الرجال وهاتان
الصفتان من المنكر ايضا عند نساء لندرة ولنساء الفرنسيس نظافة زائدة على
الملبوس والمفروش فكل ما كان لونه البياض يبقى كذلك الى ان يبلى ولكن
ليس لهن من الطهارة نصيب ولهن ايضا عناية بليغة بتنضيد اثاث البيت وبهن
تليق جميع الاعمال وفي الواقع فانهن ازكن والقن من سائر نساء الافرنج وما
من امرأة في باريس الا وتعرف شيئا من المداواة ومن طبعهن التبكير في القيام
وتنظيف مراقدهن بخلاف نساء لندرة فان الغالب عليهن الكسل والتواني
والاضجاع في النوم ولهن ايضا حرص على تربية اولادهن وتنظيفهم فلا
تكاد ترى في اسواق المدينة اطفالا يمشون وحدهم او يطوفون في الليل
ويعرضون انفسهم لخطر العجلات وسائر المراكب كما ترى في لندرة
وهن اللائي يتولين الدخل والخرج فلا يمكن لاحد ان يشتري شيئا
من المأكول والمشروب ما عدا الخمر الا من ايديهن وان تكن بعولتهن
حاضرة ولهن مزية مشهورة بين الناس في النطق بالمغيبات كما يزعمون
واذا استنطقت واحدة منهن لزمك ان تعطيها عشرة فرنكات ولم اسمع
عن نساء لندرة هذه الدعوى الشائعة عن نساء باريس وقد اتفق لي
مرة ان سرقت لي كراريس من كتاب الفقه وعزمت على عدم انشائه
فقلقت لذلك كل القلق ثم رد عليّ بعضها من لندرة فاخذني الذهول
فلما اطلعت بعض اصحابي على ذلك قال لي عليك بالسمنمبول فذهبت
معه الى واحدة من اعرفهن وكان هو ايضا يريد ان يسألها عن حاجة

مهمة له وتبعنا آخر لم يكن له مأرب سوى الامتحان فقط فلما سألناها حضرت امرأة اخرى وجلست بين يديها وامسكت يدها اليمنى ثم جعلت فيها كرة صغيرة من بلور وجعلت تحدق النظر في المرأة وبعد عدة دقائق غمضت المسؤلة عينيها ثم تنفست الصعداء واشارت الينا بالجلوس وعيناها مطبقتان فناولتها حينئذ قطعة من الورق واخبرتها بما جرى من السرقة فشمتها وقالت هذه القطعة ارسلت اليك من بلاد بعيدة مع اوراق اخرى يخالف لون بعضها بعضا واصل شرائها كان من تلك البلاد قلت نعم ولكن اريد ان اعرف من سرقها قالت اين كان مسكنك حين سرقت قلت في روبلانش قالت نعم في الطبقة الثالثة وقد سرقها رجل كان كثير التردد عليك قلت من هو وكيف هو قالت ليس هو بفرنساوي بل غريب مثلك قلت ما زيه قالت ليس كزينا ولا كزيك وانما يلبس رداء طويلا قلت ما سنه قالت في حد الثلاثين قلت بل اكثر من ذلك بثماني سنين ففكرت هنيهة ثم قالت لست اراه الا كما قلت لك فكانت صادقة في كل ما قالت الا في السن ويمكن ان يقال ان ذلك الشخص لم يكن يظن فيه ناظره انه جاوز الثلاثين ويقال ان هؤلاء المنبئات انما ينبئن كما يضمره السائل فاني كنت اضمرت شخصا كان على تلك الصفة وكان يتردد عليّ كثيرا وجزمت بانه هو الذي فعل الفعلة ثم سألها صاحبي القلق بعد ان ناولها اثرا من المسئول عنه فقالت له انك تقيم في باريس سنتين بعد ثم تسافر الى بلادك وكذا وقع له اما الثالث فانه سألها عما في جيبه فقالت له ورق قال على اي شيء يشتمل قالت انا لا احسن القراءة حتى انبئك بما اشتملت عليه قال منذ كم قدمت الى باريس وما اشبه ذلك قالت قد استحوذ عليّ صداع ولم تجاوبه باكثر من ذلك وخرجنا من عندها وهي على تلك الحالة ـ ويقال انه حين تكثر السؤال على المسؤلة تضعف قوتها ويخدر ادراكها ثم انه لما كانت هذه الحـرفة مضادة للديانة وللطب كان القسيسون والاطباء اشد الناس مقاومة لها ولقد عجبت كيف ان الدولة تسوغ

معاطاتها ان لم تكن حقا فانا اذا اعتقدنا بصدق ما تقوله هؤلاء النساء لم يكن بينهن وبين الانبياء من فرق اللهم الا ان نقول ان انباءهن غير وارد في الالهيات وان يكن تدجيلا وتمويها فلم لم تمنعهن الدولة من غبن الناس واختلاس اموالهم وتحكم بخروجهن من الجماعة اخذا بنص التوراة على ان بعض المتفلسفين في باريس يدعون ايضا بان في الانسان خاصية او جاذبية تسري منه حتى الى الجماد فينفعل بها فضلا عن تأثيره في انسان نظيره وعلى ذلك شاعت الاخبار بان الموائد تميد بلمس عدة رجال لها وان الكراسي تمشي والسكاكين ترقص الى غير ذلك والذي يخطر لي على قدر ما ادركه انه كان ينبغي امتحان هؤلاء النساء وبعد ذلك اما ان يحظرن او يقررن على صنعتهن وقيل انهن امتحن فوجدن صادقات في امور كثيرة حتى لم يمكن حظرهن وانه انما رخص لهن في الانباء رجاء ان تظهر وسيلة اخرى لاتقان هذه الحرفة حيث لم يستبعد ذلك على تمادي الزمن - اما اخلاق الفرنساوية فالكلام عليها يستغرق زمنا طويلا لان الطبيعة البشرية فيهم لحمتها من نوع وسداها من نوع اما اولا فلأن سحنهم وبنية اجسامهم متفاوتة جدا فاهل جنوب فرنسا سمر كاهل البلاد الحارة واهل شماليها بيض شقر والثاني ان ما يظهر منهم للغريب اولا انما هو الانس وحسن المعاشرة فاذا رأى ذلك منهم اول وهلة ظن انهم يزدادون من موانسته والفته وان هذا الانس لا بد وان يتبعه كرم وصداقة ويزيد تعجبه من ذلك على الخصوص ما اذا واجههم على هذه الصفة المستحبة بعد مفارقته الانكليز على حالة الانقباض والعبيس ولكن هيهات فان انيسك منهم اليوم اذا رآك غدا ظننت ان ملاقاتكما انما كانت حلما وعلى فرض استمرار الالفة بينك وبينه فلا يدعوك الى منزله ولا يعرفك باهله - ومن ذلك ان اهل البلاد الباردة كباريس وغيرها تراهم اخف حركة واحفد الى الاشغال من اهل البلاد الحارة او المعتدلة كمرسيلية ونحوها فان الناس هنا لا حركة لهم ولا

نبض فمن قدم اليها من باريس ورأى بلادة اهلها عجب كل العجب
فاين هم من اهل مالطة الذين يبادرون الى العمل بادني اشارة - ومن
ذلك ان لهم عناية بتربية اولادهم اكثر من الانكليز اذ لا يغادرونهم وحدهم
في الشوارع والطرق عرضة للاخطار او يهملون تعليمهم حرفة من الحرف
تغنيهم عن المكث في المستشفى او عن الطر والاختلاس في الشوارع
كما هي العادة في لندرة غالبا ومع هذا فانهم عقب ولادهم يبعثونهم
الى الريف ليتربوا عند المراضع والانكليز على خلاف ذلك - ومنها انهم
على بلادهم وجنسهم اغير من الرجل على امرأته فلا يسلمون بان في
الدنيا بلادا تشبه بلادهم او جيلا يضارعهم ومع ذلك فانهم يسافرون عنها
لغير موجب وحيثما ساروا بثوا وسائل التمدن والعلوم وجادوا بما خصهم
الله به من البراعة والحكمة على من لبثوا بينهم وربما كانوا لهم اعداء
لعمري اني ارى طريقة ملك الصين في منعه مخالطة رعيته بغيرهم
اولى اوليس ان الدولة حين تنصب الحرب لدولة اخرى تمنع اخراج
كل ما يتعلق بالمهمات الحربية من بلادها الى بلاد تلك الدولة فاي
الخارجين انفع لها وافضل الرجل ام الاداة - ومن ذلك انهم حين يكونون
متغربين في بلاد الناس يختلطون بهم ويجانسونهم ويخالقونهم حتى
يصيروا كأنهم منهم واذا تغرب احد بينهم لم يختلطوا به فغاية ما يخصونه
به من الاكرام انما هو ان يسألوه من اين قدمت واين تقصد وكيف
اعجبتك باريس - ومن ذلك ان نساء عامة الفرنسيس مع زهوهن
واعجابهن اذ الزهو صفة عامة لجميع اناث هذا الجيل تراهن يتعاطين
من الاعمال الخسيسة ما تأنف منه اخس نساء الانكليز كتكنيس الطرق
وحمل الاحمال وتنظيف الاحذية وصيد السمك والمناظرة على المراحيض
ونحو ذلك ولا بد من ان تخاطب كل واحدة من هؤلاء الخسيسات
المبتذلات بلفظة مادام فاما الستات المترفات من هذا الجيل والعزة
لله الواحد القهار فان ما نقص من مترفية سادة الانكليز وجلالهم ومجدهم

تلقاه فيهن وافيا . فهن نساء صورة وشكلا ورجال امرا ونهيا - فقد يحكى عن احدى الخواتين انها استأجرت مقعدا في بعض الملاهي حيث اريد اجراء التمثيلة المعروفة بالپروفت ي النبي وكان الناس يتزاحمون الى رؤيتها لانها كانت اول ليلة فاتفق ان مرض زوجها بغتة فاقبل اليها بعض اصحابها ليبدوا لها التأسف على حرمانها من الذهاب وهي في خلال ذلك تتأوه وتفرك يديها ثم قالت ان هذا المخلوق لم يأت في عمره كله الا ما يغيظني وسترون الآن انه يموت عمدا ليحرمني من الخروج الى الملهى الا وفي الجملة فان كل ما تفعله احدى هؤلاء الخواتين فانه يعجبها واهلها وجيرتها واهل المملكة اجمعين - ولا شيء يعجبني من احوال الفرنسيس اكثر من معرفتهم للناس فان هؤلاء الذين يخرقون على الانكليز لو اقاموا بين الفرنسيس سنين لم تكدبهم مخاريقهم خرقة يسترون بها عورتهم او رغيفا يفثأ صفرهم واعلم ان امة الفرنسيس امة قديمة مشهورة مشهود لها بالفضل والتقدم في المعارف والمساعي العظيمة حتى ان اهل المشرق اطلقوا اسمهم اعني الافرنج على سائر سكان اوربا وكما ان بلادهم ولا سيما باريس لم تزل مقصدا للناس في الكياسة والحضارة كذلك ما برحت الممالك المشرقية منتابا لهم ولم تكن دولة من دول الافرنج قبل استعمال البواخر تذكر بالنسبة اليهم نعم ان الانكليز اشتهروا في الهند منذ اكثر من قرنين الا انهم لم يكونوا يجولون في بلادنا ولم يكن يرد اليها منهم غير القناصل ولكن لم تكد خاصية البخار تعرف عند الكيمياويين حتى ملأت سفائنهم البحار وامتعتهم وبضاعتهم جميع الحوانيت والاسواق وحينئذ عرف انهم ذووا كد واجتهاد فادركوا من تقدمهم في متقادم الزمن وقد جرت العادة بان سكان الجزر ابدا يكونون ناشطين الى التجارة والاسفار ضرورة انهم لا يستغنون عن البرور الفسيحة الا ان الانكليز لا يتطبعون بطباع اهل البلاد التي ينتابونها ولا يتساهلون فيما يجدونه هناك من الاحوال المغايرة لاحوالهم والمباينة لطباعهم بخلاف الفرنسيس فان بلاد الله كلها لهم بلاد

ثم اقول ايضا انه قد ظهر لي على قدر ما ادركته ان كثيرا من المصالح في باريس احسن استتبابا وانتظاما منها في لندرة اما (اولا) فاني مكثت في هذه نحو ثلاثين شهرا ولم اسمع عن بيت فيها انه احترق الا مرة فقط وفي لندرة لا تكاد النار تخمد عن احراق دار او دكان او معمل ونحو ذلك ففي سنة ١٨٥٦ وقع فيها وفي ضواحيها ٩٥٧ حريقة منها ٣٩٣ حريقة كانت متلفة جدا وبلغ عدد الحرائق في فرنسا كلها في مدة ثلاث سنين وذلك من سنة ١٨٦٤ الى آخر سنة ١٨٥٦ ٢٢,٠٣٨ نعم ان ديار باريس هي من الحجر وديار لندرة من الآجرّ غير ان اثاثهما من جوهر واحد (الثاني) انه لا يعرف في باريس تداول نقود زائفة او كواغد بنك مزورة وفي لندرة كثيرا ما يقع ذلك واذا دفعت الى تاجر فيها قطعة من الفضة او الذهب فلا بد وان يختبرها (الثالث) ان ارتكاب القتل في باريس بالنسبة الى لندرة نادر جدا لا سيما الآن حيث اجازت دولة انكلترة للخلعاء والمنفيين ان يرجعوا الى بلادهم بعد انقضاء مدتهم (الرابع) ثقب الديار والحوانيت والطر والاختلاس من الديار والمحترفات والدواوين ولا سيما البوسطة فهو على نسبة القتل (الخامس) العوارض التي تحدث للمسافرين في الارتال فانها في بلاد الانكليز كثيرة والحق بها ايضا العوارض التي تقع في طرق المدينة بمرور الحوافل والعواجل وسائر انواع المراكب (السادس) المضار التي تحدث من بيع السم والمسبت والمأكولات المنتنة والمشروبات الكريهة فانها في لندرة بلية من بلايا الله والحق بذلك رخصة العطارين والصنادلة في بيع الادوية من دون وصف الطبيب وبيع المفاتيح لايّ ما كان وفي باريس يجب على المحتسبين ان يسعروا الاصناف ويختبروا الحليب والخمر والدقيق واللحم والسمك وما اشبه ذلك على حين غفلة من الباعة فاذا وجدوها مغشوشة او فاسدة غرموهم وشهروهم في صحف الاخبار ولا يباح ايضا بيع الفاكهة فجة وذلك كله في لندرة موكول الى ارادة الباعة فلا تكاد تجد شيئا خالصا حتى ان الجنازة في باريس مسعرة من الديوان فاقلها خمسة

فرنكات واغلاها ٣,٣٦٨ (السابع) تولية المراتب من يستحقها فان دولة فرنسا لا تولي جاهلا مرتبة الا ما ندر فاما عند الانكليز فتولية المراتب اما تكون بالمحاباة والاختصاص او بتعريضها للبيع وهذا الاخير مستفيض في مراتب العساكر البرية وما زال الناس يمذون انفسهم باصلاح هذا الخلل وما برح كتاب الاخبار يندّدون به وينصحون ارباب الامر والنهي بتلافيه (الثامن) ترتيب الشرطة حيث يزدحم الناس كالملاهي والمراقص ومواقف سكة الحديد فان اكثر هذه الاماكن في لندرة لا يكون فيها شرطي او يكون وراء الباب فترى الناس يضغط بعضهم بعضا عند دخولهم الملهى وغير مرة رأيت نساء يغشى عليهن في الزحام وغير مرة يموت عدة اولاد ومنهم من يستهـــزئ ومنهم من يضحك وفي داخل الملهى ترى الاوباش يصفرون ويزيطون ولا وازع يردهم فاما في باريس فلا يخلو مكان من احد هؤلاء الشرطة وترى الناس في الملاهي ساكتين منصتين فكأنما هم في الكنيسة ومع ذلك فان الانكليز يفتخرون بقولهم ان جون بول لا حاجة له بالشرطة لانه مطبوع على الترتيب وهيهـــات فان اوباشهم ارذل خلق الله (التاسع) تعهد ديوان المدينة بما فيه حفظ الصحة وبسط النفس وراحة العباد فيدخل في ذلك ترتيب المستشفيات فهي في باريس احسن وانظف والمقابر فهي هناك لا تكون الا خارج البلد وفي لندرة كانوا يدفنون الموتى في ساحات الكنائس ولم تبطل هذه العادة الا منذ ثلاث سنين فقط ثم المخاصع وهي المواضع التي يتخلى فيها الانسان للبول او لقضاء الحاجة فالاولى في لندرة قليلة جدا على رداءتها والثانية معدومة رأسا ثم تنظيف الطرق فان طرق لندرة عند وقوع الامطار تكون لكثرة المارين وحلة للغاية وليس من يرى في ذلك مشقة ولا شينا ثم وجود مقاعد يستراح عليها ففي باريس كلما اعيا الماشي وجد دكة او مصطبة يجلس عليها وفي لندرة لا يمكن للانسان ان يقعد الا في بيته او في محل قهوة وبئس ذلك مقعدا ثم التطريب بآلات الموسيقى ففي باريس تضرب العساكر بهذه الآلات في عدة مواضع

وخصوصا في الآحاد والاعياد وفي لندرة لا شيء من ذلك وقد عزف بها بعض ايام في احدى الغياض المنتابة فابطلها رئيس المطارنة بدعوى انها مناقضة لنص الانجيل (العاشر) وجود دكاكين في باريس في اي موضع كان سواء كانت للاكل او الشرب او غير ذلك وفي لندرة جميع العمارات التي يسكنها الكبراء والاغنياء خالية من الدكاكين فانهم يرسلون خدمتهم الى الاسواق ليشتروا منها ما يلزم او تأتيهم المؤنة مرتبة من عند اصحاب الدكاكين (الحادي عشر) اباحة استعارة الكتب من المكاتب الملكية في باريس فان المعروفين عند ناظر المكتبة يمكن لهم ان يستعيروا كتابا ليطالعوه في بيوتهم ويستفيدوا منه وفي لندرة لا يباح ذلك (الثاني عشر) سهولة تحصيل العلم والصنائع اما الاول فلكثرة المدارس وحسن ترتيبها ورخصها بالنسبة الى غيرها حتى ان الانكليز يبعثون اولادهم الى باريس ليتعلموا فيها ما يعسر عليهم تحصيله في بلادهم واما الثاني فلان الاب اذا شاء ان يعلم ابنه حرفة هنا اتفق مع احد الصناع على ان يبقيه عنده ثلاث سنين ففي اول سنة يعطيه شيئا في مقابلة التعليم وفي الثانية يكون شغل الولد مقابلا لتعليمه وفي الثالثة يبتدئ ان يكسب شيئا وفي لندرة يلزم المتعلم ان يبقى عند معلمه سبع سنين ومصروفه في خلال ذلك ثقيل على والده (الثالث عشر) الحماية الجنسية فقد اسلفت لك ان حماية الانكليز لا تفيد الا لشراء الاملاك وهناك امور اخر غير هذه تراها في باريس على احسن انتظام وذلك ككيفية تبليغ البريد الرسائل وكيفية ايقاد الغاز وتسعيــر المأكول والمشــروب وترتيب الحمالين مما هو في لندرة مغفل او مضيــع - هذا ولما كنت ذات يوم مفكــرا في وحشة الغــربة ومقاساة تعلم اللغة بعد ان ولى عني نشاط الشباب والاهلية الى الاحتكال اذا بالخوري غبرائيل جباره دخل عليّ وفي طلعته من البشر والطلاقة ما يترجم عما انطوى عليه من حسن الاخلاق فان الخلق كثيرا ما يدل على الخلق ثم بعد ان دارت بيننا كؤوس المنافثة قال لي اني اود ان اذهب الى انكلترة فهل لك ان تكون لي رفيقا فاني اجهل لغة القوم و احوالهم

وآلان يذهب الناس اليها من جميع الاقطار لمشاهدة معرض التحف بلندرة وهو المسمى عند الفرنسيس اكسپوزسيون فاجبته الى ذلك وسافرنا من باريس الى كالي وذلك في تاسع شهر جون ومنها الى دوفر ويومئذ طلب منا ابراز الجواز وذلك لكثرة الذين كانوا يردون الى بلاد الانكليز ثم سرنا الى لندرة فوجدت اجرة المساكن وثمن المأكول والمشروب على ضعفي ما كنت اعهده وثاني يوم وصولنا وقع من المطر والبرد ما لا يقع في الشتاء حتى زعمنا الغزالة من طول المدى خرفت ثم توجهنا الى معرض التحف وكان سبب انشائه ان الفرنسيس كانوا عقدوا مجلسا في باريس لاجل عرض بدائع الصنائع ثم تكرر ذلك مرارا حتى اغرى الانكليز بمحاكاتهم في انشاء موضع تجلب فيه التحف والغرائب من جميع البلاد وذلك في سنة ١٨٥١ وكان قد استقر الرأي اولا على ان يبنوه من الآجرّ ولكن لما كان مقصودهم به انما هو الى مدة قصيرة ارتأوا ان يبنوه من الزجاج فحسبوا ان نفقته تبلغ سبعين الف ليرة اذا كان ينقل وينتفع به والا فنحو ١٥٠,٠٠٠ فتبرع في العطاء لانشائه اكثر من ١٠٠,٠٠٠ من الانكليز بدىء به في جولاي سنة ١٨٥٠ وفتح في اول ماي سنة ٥١ وجعل طوله ١٨٥١ قدما على مقدار عدد السنين وعرضه ٤٠٨ اقدام وفي اول شهر ماي دخلته الملكة وزوجها وقد جعل نصفه لبضائع بلاد الانكليز وارلاند وسكوتلاند والنصف الثاني لسائر الدول وكان يعطى لكل وكيل دولة موضع وهم يعنون بوضع الاصونة والمخادع لصون بضائعهم وتحفهم واذا اشترى احد شيئا منها لم يكن يخرج الا بعد انقضاء المدة وكان في بنائه من الحديد ٣,٠٠٠ طن و ١٧ من الزجاج في سقفه ما عدا ١,٥٠٠ طاقة وبعد انقضاء مدته بيع بسبعين الف ليرة ونقل الى سدنام وجميع لتنظيمه وتركيبه هناك ٥٠٠,٠٠٠ ليرة ثم زادت حتى بلغت ١,٠٠٠,٠٠٠ وكان يشتغل به من العملة نحو ٦,٤٠٠ وقد رأيت في هذا المعرض حلى الملكة من جملتها ثلاثة حجارة من الالماس قدر الكبير منها نحو الجوزة تبلغ قيمته فيما قيل ٣,٠٠٠,٠٠٠ وكان

فيه ايضا صوان لحلي ملكة اسپانيا وتحف اخرى بديعة لم ير مثلها قط من جملتهــا فرو لقيصر الروس قيمته ٣,٠٠٠ ليرة ومرآة لم يصنع اكبر منها في العالم باسره واول من صنع المرآة كما هي الان اهل فينيسيا وذلك في سنة ١٣٠٠ وكانت تصنع قبل ذلك من النحاس ولم تعرف في انكلترة الا في سنة ١٦٧٣ فانظر الى التمدن كيف يفعل والى الايام كيف يداولها الله بين الناس وكان فيه آلة تصنع ٢,٨٠٠ مغلف للكتب مصمغــة مطوية في ساعة واحدة وآلة تصف حروف الطبع بنفسها ونحو ١٧٠ نوعا من التوراة والانجيل وكان يجتمع في هذا المحــل كل يوم نحو ٦٠,٠٠٠ يؤدي كل شلينا وكان يوما الجمعة والسبت مختصيــن بالكبراء والاعيان ومن الديار العظيمة التي فتحت للمتفرجين اوان المعرض دار دوق نرثمبلاند وهي دار عظيمة البناء والفرش والاثاث فيها تصاوير نفيسة وتحف غريبة حتى ان اطر مواقدها كانت من فضة بدل الحديد ثم ان هذا المعرض لم يفد الانكليز فائدة مال الغرباء فقط بل افاد ايضا اهل الفظاظة منهم حسن المعــاشرة والمجاملة نوعا ما فانهم كانوا قبل ذلك على غاية النفور من لحى الغرباء وشواربهم ثم سرت الى حديقة فكس هال المشهــورة ورأيت المنطاد وهو المعروف باسم البالون وهو قبة في كبر الخيمة على شكل الاجاصة يصنع من الحرير المدهن ببعض الادهان ويملأ داخله غازا وذلك بان يجعلوا باسفله قربة من جلد متصلة بانبوبة من حديد يدخل فيها الغاز من موضعه ويجعلون له مثل الشبكة شاملة له وبها ينوطون اكياسا ثقيلة فكلما امتلأ جانب منه من الغاز خففوا الاكياس حتى يرتفع فمتى امتلأ كله زموا فمه من اسفل وربطوا به نحو ناووس من خشب او غيره ليقعد عليه من يتولى امره ومن شاء ان يسافر معه ثم يزيحون الاكياس ويطلقونه فيندفع صعدا ومديره تحته وربما اقتضى لملئه عدة ساعات فاذا اراد مديره ان يخفضه اداره بحبلين متصلين به هما كالعنان له فينزله حيث شاء اللهم اذا كانت الريح عاصفة تغلبه فربما القته على محل غير مقصود الا انهم لا يصعدونه

غالبا الا في يوم ذي سكون وقد ظهر في باريس من ادعى بانه يقـــدر ان يصنع منطادا من الخشب على شكل سفينة ليكون اوعب للناس واسلم عاقبة وبعد ان تصدى لذلك وركب الالواح لم تأذن له الدولة في ان يجري ذلك فعلا بالقرب من باريس مخافة ان تقع السفينة على الناس فتعطبهم وحيث لم يكن غاز الا فيها وليها حبط عمله وقد رأيت هذه السفينة وظهر لي ولغيري عدم امكان اصعادها بالغاز لطولها وضخامتها غير ان منشئها كان ذا لسان ذلق فكان يموه على السامعين احتمال ذلك واظن ان ما خسره في صنعها ربحه من المتفرجين . فاما كيفية ادخال الغاز في انبوبة المنطاد وكذا في الانابيب التي توصل الانوار في المدن فهو ان يوقد الفحم في موقد مخصوص ويجعل فيه قصب من حديد متصلة بالديار والدكاكين فينحصر روح الفحم في تلك الانابيب فاذا ادنيت نارا من رأسها اشتعلت وبقيت كذلك الا ان تطفئها ونورها اشد سطوعا من نور الزيت والنفط والشمع وليس له دخان لكنه قوي مضر بالعين وقد ارى ان غاز باريس اشد صفاء وبياضا من غاز لندرة ويمكن ان يكون ذلك لصفاء جوّ تلك ثم خطر ببالي ان اطلب من وزير الامور الداخلية بلندرة حماية جنسية لكوني اقمت في مالطة عدة سنين وفي بلاد الانكليز بضعها فكتبت اليه عرضا فجاء الجواب مؤذنا بان اكل ذلك الى فقيه من فقهاء الشرع اذ لا يصح معاطاة امر من الامور الشرعية الا بهم كما انه لا يصح معاطاة مصلحة كبيرة من المصالح المتجرية الا بواسطة السماسرة وكان مما لزمني مباشرته في ذلك ان اخرج للفقيه اربع شهادات ممن لهم بيوت وملك من الانكليز تؤذن بصحة ما اقول ففعلت . واعلم ان الحصول على نوع هذه الحماية لا يتوقف عند الانكليز على عدد سنين يلبثها الغريب في بلادهم وانما هي منة من قبل مخولها ولو ان انسانا لبث في بلادهم عشرين سنة ولم يكن حسن التصرف والسيرة لم يستحقها وجل نفعها انما هو تأهيل صاحبها لان يشتري املاكا كالدار والعقار والسفينة وما اشبه ذلك وعليه ان يحلف ان يتخذ دارهم وطنا له فاذا استوطن غيرها فللقنصل المقيم هناك

ان يذكره اما حماية فرنسا الجنسية فتتوقف على عشر سنين ولكنها تكون بعد ذلك حماية ووقاية لصاحبها في كل مكان وزمان ـ ثم اني لما رأيت ان الفقيه لا يقدر على اخراجها الا بعد مدة ولزمني العود الى باريس طلبت منه انه اذا حان انجاز هذه الطلبة يعلم بها كاتب الجمعية ورجوت من هذا ان يبعث بها اليّ في باريس وسافرت وبعد ايام ورد خبر بقبول ملتمسي ولزوم حضوري لاجراء اليمين فسافرت الى مدينة هاور فبلغتها بعد نحو سبع ساعات ومنها الى سوث امبطون وكانت ليلة مشؤمة فقد ثار علينا النوء حتى كانت السفينة تتقلب في البحر كالسمكة مع ان الوقت كان في صميم الحر وكان من همي قبل كل شيء اجراء اليمين ـ ثم لما فتح معرض التحف في باريس وذلك في ١٥ ايار سنة ١٨٥٥ سافرت ايضا لاشاهده وهو بناء جليل من حجر لكنه ليس في كبر معرض تحف لندرة ولم يكن يحوي بضائع متنوعة مثل ما حوى ذاك الا ان من حذق الفرنسيس انهم ينضدون الامتعة بنوع تبدو به للعين رائعة فائقة وفضلا عن ذلك فان الناس كان همهم في تلك السنة اتقاء مضار الحرب وغوائلها وكان الذين عرضوا بضائعهم فيه خمسة وعشرين الفا منهم عشرة آلاف من الغرباء وقد رأيت فيه حلي الملكة زوجة الملك وهي مما يفوق الوصف ثم عدت الى لندرة ثم سافرت بعدها مرتين الى باريس ثم عدت وكانت عودتي هذه المتممة للعشرين مرة من زيارتي لندرة وحيث وجدت نفسي هذه المرة قارا فيها وجب عليّ ان اصف ما فيها مما يحمد ويذم وصفا تاما وافيا ويجب قبل الشروع في الوصف ان تعلم ان ما قيمته من المأكول والمشروب في باريس فرنك ففي لندرة شلين غالبا وان نفقة السفر من لندرة الى باريس في المحل الثاني من الوتل لا تزيد على احد وعشرين شلينا سواء كان على طريق هافر او ديان او بولون او كالي وذلك في ظرف خمس عشرة ساعة بعضها في سكة الحديد وبعضها في البواخر وهذه الباخرة التي تجري ما بين سواحل انكلترة وفرنسا ليست كتلك التي تجري في بحر الروم فانها قذرة وقل ان تجد

فيها فراشا للنوم فان قصر المسافة بين الارضين قصرها على ان تكون للتجارة اولى من ان تكون للركاب واقصر المسافات هي التي يسافر فيها من دوفر الى كالي والاوفق لمن يجهل احوال لندرة اذا سافر من باريس ان يجعل قدومه اليها في النهار لانه يصعب عليه في الليل وجدان محل يبيت فيه لما ان الحوانيت والمبدايت كلها تقفل في الساعة الثامنة ليلا فاما في باريس فلا يعدم ان يصادف مبيتا في اي وقت واي منزل شاء *

الكلام على لندن او لندرة

ان هذه المدينة شطران يخترقهما نهر التيمس احدهما ليس فيه شيء يسر الناظر فانه عبارة عن ديار وطرق وحوانيت والثاني وهو الذي تقيم فيه الاشراف والاعيان يشتمل على اشياء كثيرة بديعة سيمر ذكرها بك ان شاء الله وهذا النهر مبني عليه عدة جسور (احدها) وهو اول ما يراه القادم الى لندرة الجسر الذي يقال له جسر لندن طوله ٩٢٨ قدما وهو مبني من حجر صلب ويشتمل على خمس قناطر علو كل منها ٢٨ قدما بدئ به سنة ١٨٢٥ وفتح في سنة ١٨٣١ وانفق فيه نحو مايوني ليرة عليه فوانيس للتنوير صنعت من مدفع اخذ في حرب اسپانيا ولا يزال مزدحما للناس والخيل والحوافل والعواجل حتى ان من يشاء ان يمر فيه من جهة الى اخرى يعرض نفسه للخطر فيلزمه ان يسير على سمت واحد ومن يرى ازدحام الناس عنده ولم يكن قد الف احوال البلد يظن ان الناس متأهبون للخروج الى الحرب والقتال اذ يمر عليه في كل دقيقة نحو عشرين مركبا ما بين عاجلة وحافلة وعجلة وما اشبه ذلك وعنده عمود شاهق من حجر وتمثال للملك وليم الرابع من رخام قال بعضهم يرد في كل يوم الى السِتي ستون الفا من مراكب البر على اختلاف انواعها في نحو خمسين شارعا منها اثنا عشر الف مركب يمر على جسر لندن في ظرف اربع وعشرين ساعة فاذا حسبت رجوعها عليه كان لكل ساعة الف مركب (الثاني) الجسر المسمى صوث ورك طوله ٧٠٨ اقدام وله ثلاث قناطر من حديد بدئ

به سنة ١٨١٥ وفتح في سنة ١٨١٩ وبلغت نفقته ٨,٠٠٠ ليرة (الثالث) الجسر المسمى بلاك فريير بدئ به في سنة ١٧٦٠ وفتح في سنة ١٧٧٠ وهو يشتمل على تسع قناطر طوله ٩٩٥ قدما وبلغت مصاريفه ١٥٢,٨٤٠ ليرة (الرابع) جسر واطرلو وهو اعظم جسر في المسكونة بدئ به سنة ١٨١١ وفتح سنة ١٨١٧ وبلغت مصاريفه اكثر من مليون ليرة ما عدا القرض الذي اخذ من الدولة وقدره ستون الف ليرة وهو بديع الصنعة كله من حجر المرمر يشتمل على تسع قناطر سعة كل منها ١٢٠ قدما وارتفاعها خمس وثلاثون وطول الجسر ١٣٨٠ قدما وقد جعل على كل مار به پني فجاء المجموع من ذلك في سنة واحدة ١٤,٦٧٦ ليرة وعده بعضهم من عجائب الدنيا ـ قلت وكانت واقعة واطرلو المشهورة في سنة ١٨١٥ قال بعض المؤلفين زحف ناپوليون على الانكليز ومعه من الجيش احد وسبعون الفا وكان يرجو ان يفشلهم بكثرة العدد اذ لم تكن عساكرهم تنيف على ثمانية وخمسين الفا لكنهم صابروا ودافعوا عساكره من الساعة التاسعة صباحا الى السابعة ليلا فلما رأى منهم الجلادة والثبات ابتدأت عساكره ان تتراخى ثم اتصـــل بالانكليز بولو ومعه خمسة عشر الفا وحينئذ امر دوك ويلنكنطـــون بالاطلاق عليهم فاحتدمت نار القتال بينهم اي احتدام فقتل من الانكليز مائة وعشرون ضابطا والف وستمائة واحد وخمسون نفرا وجرح ٤٣٦ ضابطا وخمسة آلاف واربعمائة وستة وخمسون نفرا ولكن قتلى الفرنسيس كانوا اكثر ويومئذ اضطر ناپوليون الى الرجوع الى باريس ليجند جيشا آخر فلم يوافقه اهل الشورى لانه كان قد تلف معه اربعة جيوش من قبل فاضطر الى ان يخلع نفسه (الخامس) الجسر الحديد المسمى بالمعلق لانه غير مبني على قناطر له ثلاث فتحات واسعات جدا وهو اعلى جسر في الدنيا من هذا الطرز بدئ به سنة ١٨١٢ وفتح سنة ١٨١٩ زنة ما فيه من الحديد ٥,٥٠٨ اطنان (السادس) جسر وستمينستر بدئ به سنة ١٧٣٨ وتم في سنة ١٧٥٠ طوله ١,٢٢٨ قدما وعرضه ٤٤ وله ١٥ قنطـــرة وبلغت نفقته ٣٨٩,٥٠٠ ولما شرع في بنائه حسبـــه

المهندسون من احسن جسور الدنيا (السابع) جسر فكسهال صنع من حديد صب بدئ به في سنة ١٨١١ وفتح في سنة ١٨١٦ طوله ٧٩٨ قدما وهو يشتمل على تسع قناطر (الثامن) جسر همر سميث طوله مائة واثنتان وثمانون قدما وغير ذلك مما ذكره يطول - ومن اعجب ما بني على هذا النهر والاحرى تحته المجاز المعروف بتيمس طنل وهو موضع انشئ تحت الماء طوله ١,٣٠٠ قدم لرتوئي انشاؤه في سنة ١٨٢٥ ثم اغلق لطمو المياه عليه ثم استؤنف العمل فيه وفتح سنة ١٨٤٣ بلغت نفقته ٦١٤,٠٠٠ ليرة وجملة ما يؤخذ له من المتفرجين عليه في كل سنة نحو خمسة آلاف ليرة وينزل اليه في نحو مائة درجة من الحديد ويدفع على ذلك پني واحد انشأته جماعة تعرف بجماعة الطنل ومعنى الطنل القبو او السرب او النفق ويقال ان نقر ذراع واحد منه في بعض المواضع انفق فيه الف ومائتا ليرة وبعضه ١٢٠ ليرة والفائدة من انشائه مرور الناس فيه من جهة لندرة الاولى الى جهتها الاخرى فهو بمنزلة الجسر الا اني ذهبت اليه غير مرة فلم ار فيه الا المتفرجين وقيل ان الغرض منه ذكر شرف للدولة - وترى البواخر تجري منحدرة وصاعدة في هذا النهر مشحونة بالرجال والنساء كما تجري العوافل والعواجل في الطرق وحين تمر تحت القناطر تميل قصب الحديد التي هي مداخنها ليمكنها الدخول فاذا جاوزتها اعادتها كأنها قطعة واحدة وعدة المراكب المنسوبة الى هذا النهر بلغت في سنة ١٨٥٠ ٢,٧٣٥ وعدة البواخر ٣١٨ يستخدم فيها ٣٥,٠٠٠ نفس من الرجال والغلمان وفي سنة ٤٨ ورد الى مرساه ٤٢,١٤٥ سفينة ورد من المكس عليها الى الكمرك ١,١٩٣,٠٧٧ ليرة وكانت قيمة الخارج منه ١١,٠٠٠ ليرة وعدة المراكب التي تسير في المدينة ما بين كبيرة وصغيرة نحو سبعة آلاف وعدة الصنف المسمى هكني كرج ٤,٣٥٠ وعلى الكبيرة وهي المعروفة باسم امنيبوس ترى اسماء الحارات والاماكن التي تسير اليها ولا بد ان يكون مكتوبا عليها اسم البنك فانها كلها تمر به الا ما قل وكل منها يسع اثني عشر شخصا بداخلها وتسعة

بخارجها ومن هذه الحوافل نحو ستمائة حافلة اشترتها جمعية واحدة مع لوازمها من الخيل وغيرها باربعمائة الف ليرة فتكون كل واحدة منها بنحو سبعمائة ليرة وهي بالنسبة الى حوافل باريس معنتة من وجوه (احدها) انه ليس في داخلها شيء يتمسك به الانسان فاول ما يدخلها يستمر سائقها في السير فيترنح الداخل يمنة ويسرة وربما وقع على بعض الجلوس وكثيرا ما يعجل البواب الى اطباق الباب على يد الداخل وكثيرا ما وردت شكاوى الركاب في هذه الى القضاة فمنهم من حصل ارشا ومنهم من خاب (الثاني) انه اذا كان بين الستة رجلان سمينان ضاق الموضع بالباقي اذ لا يكاد يسع هذا العدد الا باللز والتضام وقد وقع غير مرة نزاع افضى الى الشرع ما بين هؤلاء السواق وبين الرجال السمان فان السائق يأبى ان يأذن للسمين في ان يتبوأ موضعين ويدفع عليهما اجرة واحد فاما في باريس فبين كل قاعدين فاصل من قضيب نحاس فالقاعد فيها مقعدا لا يكاد يمس جاره وكأنما هو قاعد على كرسي بداره (الثالث) انه قد يتفق ان يكون اليوم باردا ويبتدر احد الجلوس الى فتح احدى الطيقان من دون ان يسأل جاره هل يستطيب ذلك او لا فان كل واحد من الناس عموما ومن الانكليز خصوصا يرى ان في صلاح نفسه صلاح غيره (الرابع) ان الداخلين لا يدفعون الجعل عند الدخول كما يفعل في باريس بل عند الخروج فيدفع الخارج الاجرة الى السائق ويذهب في خلال ذلك الوقت عبثا ما بين تصريف الدراهم والقال والقيل والبواب هنا ابدا معرض رأسه للمطر والشمس اذ لا جنة تقيه بخلاف البواب في باريس ولبوابي حوافل باريس شريط من قصب على اطواق ملابسهم وصفحة على صدورهم تؤذن بمهنتهم ومتى وجد احدهم موضعا فارغا عند باب الحافلة قعد فيه وافاض في الحديث مع جاره وعد نفسه من جملة الركاب بلا محاشاة وهناك فرقان آخران بين حوافل لندرة وباريس وهو ان حوافل باريس ليس لها مقاعد على ظهورها فكل ركابها يقعدون في داخلها فلهذا كانت اطول واوسع من حوافل

لندرة وهي اشق على الخيل غير ان الفرنسيس لما كان دأبهم وولعهم التبديل والتغيير صاروا الآن يصنعون حوافلهم كحوافل الانكليز في الصغر وفي جعل مقاعد لها على ظهرها وسواق العواجل في لندرة ذوو شطط وجفاء فانهم يتقاضون الغرباء اكثر من الموسوم عليهم من الميري وحيث انهم يعلمون ان اصغر القضايا لا تفصل الا بحضرة القاضي بعد قال وقيل وانه ليس كل احد يروم التشرف بمجلس الاحكام فلا يألون جهدا في غبن الراكب واخذ شيء منه زائد على المرتب ومن لؤمهم ايضا انهم قلما ينبهون الماشين في الطريق قبل ان يدركوهم واذا تكلفوا ذلك نبهوهم بنوع من الشتم اما في باريس فان للسواقين شيخا في كل خط فمتى حصل بين احدهم وبين المستأجر نزاع فصله الشيخ ومتى دخلت العاجلة اعطاك السائق ورقة مطبوعة فيها عدد عاجلته لتهديك الى معرفته عند الاقتضاء والجعل على المضمار في باريس بعيدا كان او قريبا نحو شلين ولا فرق في عدد الركاب فاما في لندرة فعلى كل ميل نصف شلين اذا كان راكب واحد ولكن اذا كانت المسافة مثلا ميلين وادعى السائق انها ثلاثة لم يفصل بينك وبينه غير البأس والبطش فان رآك اضعف منه الزمك ثلاثة فاما اذا اكتريت بالساعة فسير ساعة في لندرة جعله شلينان وفي باريس فرنكان غير انه يوجد في هذه عواجل مفتوحة تشبه عواجل الامراء والكبراء وربما جرها حصانان وفي لندرة لا وجود لها ومن الغريب ان الحوافل التي جعلها في لندرة اغلى تكون ابدا مشحونة بالركاب والرخيصة يعرض عنها . وفي لندرة تسع جمعيات لامداد سكانها وما يليها بالماء ينفد منه في كل يوم ستة واربعون مليون كالن منها عشرون مليونا من نهر التامس وستة وعشـــرون مليونا من النهر الجـــديد . ومن موارد اخرى وهذا النافد مواز لنهر عرضه تســـع اقدام وعمقه ثلاث وجريه في كل ســـاعة قدر ميلين ومشروب السكان كله من النهـــر الجـــديد ومن نهر آخر يسمى « لي » لا من نهر التامس وطول النهر الذي حفر حديثا ثمانية

وثمانون ميلا وقد تم حفره في سنة ١٦٢٠ واسم من نهره سر هيو ميدلطون ـ قال وكان سير مراكب البر في انكلترة بطيئا جدا حتى ان احد المؤلفين قال ان الخوري آدمز على ترهله كان يمشي اسرع منها وكانت كثيرا ما تنشب في الوحل وتقرقع وقال آخر لم تكن الحوافل من قبل سنة ١٨٢٨ معروفة عند الانكليز فقدم اليهم في التاريخ المذكور رجل من فرنسا اسمه شليبير فاستعملها عندهم والآن يوجد لها جمعية ايرادها نصف مليون ليرة في العام ورأس مالها نحو ٣،٠٠٠،٠٠٠ وعدد الحوافل التي لها رخصة ٣،٠٠٠ وكل جافلة في لندرة يلزم لها عشرة رؤوس من الخيل وعلف الحصان يقوم في اليوم بنحو شلينين ويوجد ايضا في لندرة ٧٦ جمعية لضمان الحريق والغرق والمعيشة وغير ذلك وقل ان يوجد دار عظيمة او حانوت كبير او شيء آخر نفيس من دون ضمان وصورتها اذا خاف انسان على داره او سفينته او امتعته من النار او السرقة ذهب الى جمعية منها والزم نفسه ان يدفع لهم في المائة شيئا معلوما الى اجل مسمى فاذا هلك ماله غرمت الجمعية قيمته فاما ضمان المعيشة فهو ان الانسان يلزم نفسه ان يدفع في كل سنة شيئا حتى اذا مات قامت الجمعية بمؤنة عياله ولكل سن مبلغ فان القوي المظنون تعميره يدفع اقل مما يدفع الطاعن في السن وقبل تدوين اسمه في دفتر الضمان يكشف الطبيب عن بدنه ليعلم هل فيه داء خفيّ اولا فان علم ان به علة لم يقبل او يكلف دفع مبلغ وافر وللميري ايضا شيء مما تأخذه الجمعية اذ لا يصح انعقاد جمعية شرعية او احداث شيء شرعي في بلاد الانكليز من دون غرم للخزنة وفي المحترفات الكبيرة والديار العظيمة يتخذون اصونة من حديد لصون المال والحلي وكواغد المصرف وغيرها ـ وعن بعض المؤلفين لم تعقد جمعية ضمان الحريق من قبل ١٧٠ سنة فكان من يرزأ بالنار يجمع له مدد من الناس الى ان انعقدت الجمعية المسماة اليد باليد في سنة ١٦٩٦ ثم اقتدى بها جمعيتان اخريان فاما ان نجحت مساعيهما تابعتهما على ذلك اخرى حتى بلغت الآن

في المملكة ٧٤ جمعية وفي سنة ١٨٠٥ قومت الاملاك التي ضمنت من خطر الحريق بمائة واحد وثمانين مليون ليرة وفي سنة ٥٥ بلغت ٩٢٧,٠٠٠,٠٠٠ وقد اطفؤوا في سنة واحدة ٢٩٠ حريقة وانجوا ٧٠ نفسا وفي لندرة ٨٨ محلا للصيارفة ولكن لا ينبغي ان تفهم من لفظة الصيرفي هنا ما تفهمه منها في البلاد الشرقية فتظن انه يصرف الليرة مثلا بشلينات ويأخذ عليها فلسا او فلسين وانما الصراف هنا هو من تأتمنه الاغنياء والكبراء على اموالهم فيدفعونها ويأخذون منه فائدتها في العام وكل واحد من هؤلاء الصيارفة عنده عدة من الكتاب والحساب والخدمة فمحترفه عبارة عن ديوان يدخل فيه الناس افواجا افواجا وفي لندرة من المواضع المنشأة للبر وفعل الخير ما يصعب عده ويعسر حده قال بعض المطرين على الانكليز واظنه امرسون الاميريكاني المشهور ان الانكليز اكثر الخلق فعل خيرات واظن ذلك يصدق عليهم من دون مراء وها انا ابين ذلك بوجيز من القول عظم ما تفعله هذه الامة من البر والاحسان فاذا سمعته فاقض لنفسك بما تراه الحق فاقول ان في لندرة مستشفيات للمجانين والجذمى وناقصي الاعضاء وللمرضى والجرحى والسقط والصم والبكم والعمي والمحتاجين والاشقياء ولسائر من حلت به نكبة وفدحته مصيبة وللمحرومين من الرزق وللعاجزين من الشيوخ وللايتام والمنغول وللغرقى والارامل ولارشاد الضالين وتحرير الرقيق والرفق بالحيوان ما عدا محال التعليم والعبادة ونشر التوراة والانجيل وغير ذلك مما يبلغ مئات ففي مستشفى صانت برثولومي ٥٨٠ فراشا وتوزع منه ادوية وغيرها على سبعين الف شخص في كل سنة منهم اربعة آلاف بداخله وفي مستشفى آخر ٥٣٠ فراشا وتوزع منه ادوية وغيرها قدر ما يوزع من ذلك وفي مستشفى صانت جورج ٣١٧ فراشا ويوزع منه ادوية وغيرها على كثير من المرضى والزمنى ويوجد مثلها ستة اخرى لشفاء الامراض والجراح وآخر لتربية المنغول يربى فيه نحو ٤٠٠ ولد وآخر لاجل تربية اولاد

العساكر البحرية واولاد اهل سكوتلاند وآخر لتربية اولاد العساكر البرية فيه الف ولد ومحال اخرى للايتام اكثر من ان تعد - هذا وللجمعية الانسانية مساع حميدة لاستنقاذ الغرقى فانها تستخدم اناسا لاستخراج الغارقين بآلات مخصوصة وتبذل جهدها في مداواتهم وشفائهم وتجود بالجوائز على كل من ينقذ اخاه في البشرية وكذلك يوجد جمعية لاغاثة الذين يصابون بالنار وفي كريست هسبيتال يربى اكثر من الف ولد وقل كذلك في الباقي الخ - قال صاحب الكتاب الذي منه نقلت ان جملة المستشفيات والمنشآت الخيرية من عند لندرة وما يليها الى حد كرينتش وهي على عشرين دقيقة من لندرة لا تنقص عن اربعمـــائة واحد وتسعين محلا وتفصيلها كما يأتي *

	عـــدد
مستشفيات عمومية	١٢
موزعات مخصوصة لادواء كالجدري والسل ونحوهما	٥٠
موزعات عمومية (وهي المواضع يعطى منها الدواء)	٣٥
جمعيات ومنشآت لحفظ الحياة والادب وحسن السيرة	١٢
جمعيات لمنع الجرائم والشر	١٨
جمعيات لاغاثة الذين هم في الضيق والفاقة على العموم	١٤
جمعيات نظيرها على الخصوص	١٢
جمعيات لمساعدة ذوي الكد والكدح	١٤
جمعيات للصم والبكم والعمي	١٦
مدارس ومستشفيات ومحال للصدقة على العاجزين من الهرم	١٠٣
جمعيات خيرية تجري ارزاقا عمومية مما يعرف عند العامة بالموقوفة	١٦
جمعيات خيرية خاصة بطبقات من الناس مخصوصة	٧٤
مستشفيات للايتام ولغيرهم من الاولاد المخذولين	٣١
محال للتربية والتعليم	١٠
محال اخرى مثلها	٤

عــدد

جمعيات للمدارس والكتب الدينية ومساعدة الكنائس وعيادة المرضى ٤٠

جمعيات للتوراة والانجيل والمرسلين ٣٥

تبلغ مصاريفها في وجوه مساعيها المتنوعة في كل سنة ١,٧٧٤,٧٣٣ يجمع منها اكثر من مليون من المتطوعين لفعل الخير اه ويقال ايضا ان جملة ما فرق على الفقراء في بلاد الانكليز من سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٤٩ بلغ مائتي مليون ليرة وايراد المستشفيات الكبار من الوقف وعدتها اربعة عشر يبلغ ١٠٩,٦٨٧ وجميع الجمعيات تنال مددا من الملكة ومن زوجها وعلى قدر هذه الجمعيات المتواطئة على البر والاحسان فاذا رأيت الفقراء في لندرة توهمت ان ليس احد فيها يعمل الخير فانك ترى نساء يمشين على الثلج حافيات باخلاق ثياب يظهر منها مواضع كثيرة من ابدانهن وكثيرا ما تراهن يلتقطن الجذور من الطرق ونفاية ما يرمى به من الطعام من الديار ولا يباح للفقير هنا ان يتكفف واذا وجد احد الشرطة انسانا مادا كفه اخذه واودعه السجن غير ان بعضهم لا يتحرج من ذلك ليلا اذا علم ان الشرطي لن يبصره واكثر من يفعل ذلك النساء وخصوصا نساء ارلاند فهن يجرين مع المارين ويلحفن في الطلب الحاف الغريم فاذا لم تنل احداهن شيئا من غريمها لعنته وانصرفت وكذلك لا يباح لاحد ان يكسب مالا بغير الوجه الذي يؤهله الى ذلك فلا يسوغ مثلا لاحد ان يتعاطى الطب وهو جاهل به او صنعة من الصنائع من دون ان يأخذها عن آخر ويشهد له استاذه انه اتقنها ولكن هم في ذلك اقل ضبطا وتحرزا من الفرنسيس واكثر عرضة للتدجيل والمخرقة . وبقي لي هنا ان اقول ان زي الاولاد الذين في المدارس والمستشفيات الخيرية بهذه المدينة من اقبح ما يكون فان الاولاد الذين في بلوكوت سكول اعني مدرسة الرداء الكحلي وهي من اشهر المدارس يلبسون اردية من هذا اللون طويلة الى اوساط سوقهم ويتحزمون بالجلد كالرهبان عندنا ولهم جوارب صفر ولا تزال رؤوسهم مكشوفة صيفا وشتاء مع انهم من ابناء الوسط فاين هم من اولاد

مدارس باريس الذين يلبسون لباس ضباط العسكر فتحسب كلا منهم ضابطا او ضويبطا ويقال ان اللون الكحلي في بلاد الانكليز كان في السابق خاصا بالخدمة والصبيان فلم يكن احد من الخاصة يستليقه لنفسه حتى استعملته ضباط العساكر البحرية اولا فصار مرغوبا فيه ثم استعمله الوكس وهم فرقة من الاشراف من اهل المجلس فصار الآن خاصا بالعظماء والنبلاء - و ذكر مؤلف ابجدية الاوقات جماعة تعرف بجمعية الببل قال من شان هذه الجمعية في فرنسا وانكلترة جمع الاموال لمقاصد خيالية على اي وجه من السحت كان وغير مرة تقع في العنت وسوء العاقبة وقد انهمكت بانكلترة في هذه الايام في رأس مال بلغ ثلاثمائة مليون ليرة اه - والحاصل ان في لندرة جمعيات كثيرة للخير والشر وكل ما يدار فيها من المصالح الجسيمة والمساعي الجليلة فانه يكون بواسطة جماعة لا بواسطة الدولة بخلاف مصالح باريس كما سبقت الاشارة اليه واقدم جمعية للتجارة هي الجمعية المسماة ستيل يارد كان انعقادها في سنة ١٢٣٢ واقدمهن في المساعي الدينية جمعية انتشار المعارف المسيحية كان انعقادها في سنة ١٦٩٨ و في الستي وحدها احدى وتسعون لجنة اي كومپانية لاصناف التجارة والمبايعة منها اثنتا عشرة لجنة تنعت بالاونورابل اي المكرمة - وفي لندرة نحو سبعة آلاف شرطي وهم يتناوبون عس المدينة ليلا ونهارا وفي كل طريق شرطيان منهم في كل طرف واحد وهم على غاية من النظافة والوضاءة ولا يكون مع الشرطي سلاح بخلاف شرطة باريس وانما يكون بيده عصا قصيرة عليها صورة التاج فاذا عصاه احد من ذوي الشرور القاها عليه ايجابا للطاعة فلا يمكن بعدها الخلاف ويكون معه فانوس مضاء فاذا اراد ان يتعرف شخصا عن بعد اداره فوقع النور على وجهه حتى يراه كانه بجنبه ولا يسمح للشرطي بان يتعاطى الدخان في حال مباشرته الخدمة خلافا لشرطة مرسيلية وغيرها ولا ان يلطو من المطر او الثلج ولا ان يرفع فوق رأسه ظلة تقيه منهما او من الشمس ومن هؤلاء الشرطة من يتزيا بزي العـــامة حتى لا يكون معروفا ويسمى الثقف و يجب على كل منهم ان يتعهد ابواب الديار والحوانيت

ليلا ليعلم هل هي محكمة القفل او لا فاذا رأى احدهـا غيـر مقفل نبه مالكهـا عليه وان ينظر الى انوار الغـاز في المواضع المذكورة وينبه على اطفائها بعد فوات الوقت وان يمنع من رمي المياه القذرة وغيرهـا من الشبابيك وييسر المرور في الطرق للماشين والراكبين وان يبذل جهده في فض الجموع ومنع الخصام في الطرق وفي ازالة كل ما يخل بالحياء والادب وليس له ان يدخل البيوت الا باستدعاء سكانها وقد يدخلها في بعض الاحوال بامر رئيس الديوان وذلك عند التفتيش على اشياء مهمة واذا طلب منه احد ان يدله على طريق او دار فلا يألو جهدا في ارشاده ويجب عليه ان يتعرف اهل الشرور والمساوي ويراقبهم ولا سيما اذا اجتمع منهم اثنان او ثلاثة واذا اراد احد مثلا ان يشتري شيئا من حانوت او يستكري عاجلة فامتنع مالك الشيء من بيعه او اكرائه فللشرطي ان يلزمه بذلك نفيا للمحاباة ويجب حضور واحد او اكثر من الشرطة في جميع المحال التي يكثر انتياب الناس اليها منعا لما عسى ان يحدث من الجلبة والخصام اما في باريس فان الشرطي يتبوأ موضعا في داخل المحل واما في لندرة فانه يقف خارجا او في دهليز المحل وربما دخل ايضا للتفرج كاحاد الناس ولكن حده في ذلك معروف عند المنتابين ويجب على الشرطي ايضا ان يمنع الفقراء من التكفف في الطرق او من الاضطجاع امام الابواب وفي الاماكن المطروقة واذا وجد ولدا تائها عن مأواه ارشده فان لم يعلم له مأوى آواه في ديوان الشرطة وكتب اسمه وصفته في صحف الاخبار حتى يأتي من ينشده واذا بلغه احد الاهلين شكوى عن لص او ذي عدوان تتبع اللص والمتعدي حتى يثقفهما فاذا وجد المذنب ساقه الى الديوان برفق الا اذا كان شرسا فحينئذ يستدعي بشرطي آخر لاعانته ويكون معه آلة يصوت بها لاحضار من استدعى به وعليه ايضا ان يرى الكلاب مقيدة ولا سيما في زمن الصيف وان يمنع الرعية من حمل السلاح ظاهرا او خفية ومن اذى الحيوانات وتحميلها ما لا تطيق ويجب على كل منهم ان يكون معه كتاب فيه اسماء الطرق المسلوكة

والمواضع المشهورة وحد اجرة العواجل حتى يفصل ما بين الغريمين وان يعرف قدر المسافة من طريق الى غيرها وفي كل يوم صباحا ينظر رئيس الشرطة في ملبوس المستخدمين في هذا الديوان وفيما يلزم ابقاؤه نظيفا فاذا رأى احدا منهم قد اهمل نظافة شيء اوتصابيحه غرمه على ذلك وفي يوم الاربعاء يكون تفتيش عام على الملابس ومرتب الشرطي في لندرة من ستة عشر شلينا في الاسبوع الى خمسة وثلاثين واكثرهم يموت بداء الصدر من طول الوقوف وهم انفع طائفة للمدينة والناس - وفي الجملة فان شرطة لندرة خير من شرطة باريس فان جل هؤلاء من الفلاحين وهم على غاية من الفظاظة والتكبر ولا سيما الذين يلبسون برنيطة ناپوليون وفي لندرة ثلاث فرق من المشاة وكتيبتان من الفرسان وهؤلاء الفرسان نخبة من جميع المملكة فهم على غاية من الجمال والاعتدال فاذا رأيت منهم نفرا حسبته رئيس عسكــــر ولهم سراويل من جلد ابيض وجزم طويلة تفوت ركبهم وفيهـــا ٦٠٠ موضع للاكل و ٩٠٠ موضع للقهـــوة و ١٨ ملهى وهو المسمى عندهم تياطرا اعظمها الملهى الكائن في " هاي ماركت " يقال انه اكبر ملهى في الدنيا ومثله او اكبر منه ملهى بميلان في ايطاليا يسمى " لاسكالا " كان بناؤه في سنة ١٧٩٠ عن رسم رجل من النمسا ثم غير بعض التغيير في سنة ١٨١٨ واكري بعض اكنانه العليا بثمانية آلاف ليرة وبعض مقاعده في الحضيض باربعة آلاف ومن ذلك الاوپرة الطاليانية الملوكية في كافن كاردن اسست في سنة ١٨٠٨ وفتحت في سنة ١٨٠٩ واقتضى لانشائها وتهيآتها مبالغ وافرة وبلغ مصروف محل الغناء فيها في سنة ٤٨ ٣٣،٣٥٩ ليرة ومحل الرقص ٨،١٠٥ ليرات ومحل الموسيقى ١٠،٠٤٨ ليرة وصرف على الآلاتية ٧،٠٠٠ ليرة واجارته في العام ٦،٠٠٠ ليرة واستخدمت فيه امرأة لاعبة من الفرنسيس على ثمانية اشهر بمبلغ ١٢،٥٠٠ ليرة وحسب ان نفقته في كل ليلة بلغت ٨٤٥ ليرة وقد احترق الآن ثم بني واقدم ملهى بلندرة هو المسمى " دروري لان تياطر " ولكنّ بناءه غير قديم فانه احرق

مرتين وهدم مرة واحدة واخسها المحل المسمى فيكطوريا ثياطر كما ان فيكطوريا پارك هو اخس الغياض وفيكطوريا كافي هوس اخس محال القهوة واكثر مواضع اللهو هذه تشرف بحضرة الملكة وحينئذ يمكن للغني والصعلوك ان يراها وزوجها واولادها الا ان الغالب انه متى ذهبت الى ملهى ما تنافس الناس في الوهاب اليه فتغلق المقاعد بحيث لا يعود يتبوؤها الا اهل الاستطاعة وربما ارخيت ستارة المحل الذي تقعد فيه وليس حضورها بمانع مما الفه اللاعبون والمتفرجون فقد شاهدت مرة بحضرة زوجها واولادها زمرة اللاعبين مقبلين بعصي عليها اصناف كثيرة خسيسة من جملتها زوج نعال واعلم ان التمثيل في الملهى يتجاذبه نوعان من التاريخ والادب وفيه تمثل الحوادث والوقائع الماضية فتصير كأنها مشاهدة بالعيان وفيه تنشد الاشعار الرائقة والقصائد البليغة ويقع من المحاورات الادبية جدا وهزلا ما يسرى به عن الثكلى حزنها وكل ما يقال فيه فهو من الكلام الفصيح الذي تستعمله علماؤهم وادباؤهم فان اعظم شعراء الافرنج الفوا فيه وما من خطيب مصقع او اديب بارع الا ودون شيئا من هذه المحاورات ومن طريقة اللاعبين فيه ان يخصصوا كل شخص منهم بحال فمن كان مديد القامة جهير الصوت ابتع خصصوه بان يمثل الامور التي فيها حماسة ووعيد وتدمير ومن كان لطيفا رخصا خص بما شانه الاستشفاع والملاطفة والتملق ومن كان حزقة خص بالامور السخرية المضحكة وقس على ذلك ولو عرفت قدر ما يسرده هؤلاء اللاعبون عن ظهر القلب لاعظمته جدا فان كلا منهم يحفظ من القصص والنوادر ما يكون اكبر حجما من ديوان المتنبي ولا يكاد احدهم يتلعثم في عبارة وقد يوارون شخصا بيده الكتاب الذي تحفظ منه تلك الحكايات في مكان حتى اذا ذهل المتكلم عن شيء رده ولكن وقوع ذلك نادر ويقال ان هؤلاء الفصحاء في ملعبهم اولو عيّ في غيره وفي هذه المواضع من الآلات والادوات والمناظر ما يحير الناظر لانه على قدر اختلاف الوقائع والحوادث ينبغي ان يكون اختلاف الادوات اللازمة لتمثيلها مثال ذلك اذا اريد تمثيل

ما جرى بين السموأل وبين الحارث بن ظالم حين طلب منه ان يسلمه الدروع التي كان اودعها عنده امرؤ القيس نصبوا مكانا شبيها بالقلعة وجاؤا بدروع وسيوف وشخصين ممثلي امرئ القيس والسموأل فيكون هذا لابسا لباس الملازم لبيته المشتغل بامور نفسه وذاك بلباس البطل المحارب المزمع على السفر ويشرع الشخص الممثل لامرئ القيس في ان يخاطب الآخر بانه قام له هم في النفس اضطره الى مفارقة الوطن ومباينة السكن فان المعالي لا تدرك الا بجهد النفس والمخاطرة وازالة المصون من النفائس والرغائب وما اشبه ذلك من الكلام الحكمي وينشد في خلال ذلك ابياتا يتمثل بها ويتأوه في اثناء الخطـــاب ويحرك رأسه وينظر نظر المبتئس الشافن الى ان يفرغ من الانشاد والناس منصتون لا تسمع لاحد منهم نأمة ثم يأتي بالادرع والسلاح ويسلمهـــا للسموأل فيأخذها منه وبعد ان يتوادعا وينشد كل منهما ابياتا دعاء لصاحبه على ما يقتضيه المقام يدخل السموأل حصنه و يرخى الحجاب وبعد قليل يرفع ويأتي الشخص الممثل به الحارث بلباس فاخر يدل على صفته ومعه جند واعوان شاكي السلاح ويطلب الدروع من السموأل وهو متهدد له ومتوعد ويتمثل بابيات تدل على شدة بطشه وسطوته بين اقرانه فيجيبه السموأل من حصنه بالمنع وينشد ابياتا تدل على وفائه وصدق نيته وشرف نفسه ثم تدور بينهما المحاورة الى ان يقنط الحارث من اخذ الدروع فيعمد الى ابن السموأل فيأخذه ويذبحه بمرأى منه وهنا يرخى السجف وبعد قليل يظهر السموأل وبيده الدروع ويذهب بها الى اقارب امرىء القيس ويسلمها لهم وينشد ابياته المشهورة وهنا يتم الفصل وهذا التمثيل يجري في اكثر من ساعة لما يتخلله من المحاورات كما ذكرنا وليس الخبر كالعيان - ثم ان التمثيل عندهم على نوعين الاول تمثيل ما يحزن من نحـــو الحروب واخذ الثار ويقال له عندهم " تراجيدي " والثاني وهو عكســـه ويقـــال له " كوميدي " وكلاهما يعدان من الادبيات غير ان النوع الثاني يكثر فيه التوريات والمواربات والتجنيس

ولغة الانكليز فيما اظن اطوع على ذلك من غيرها وان اللغات في هذه الملاعب وان اختلفت وفضل بعضها بعضا الا ان الحركات والاشارات جميعها واحدة واشهر اللاعبين عند الافرنج اهل ايطاليا واهل ذلك بالنظر الى الانشاد والغناء فان اللغة الطليانية اطوع على الغناء من غيرها لكثرة ما فيها من الحركات وهم اول من احيا طريقة التراجيدي وذلك في القرن السادس عشر ولكنهم كانوا يحفظون النغم عن ظهر القلب كما هي العادة عندنا آلان ثم اقتدى بهم اهل فرنسا لكن الحلوق وقتئذ كانت مثل العقول غليظة جافية واول من الف في هذا الفن من اليونان اوروبيدوس وذلك قبل الميلاد باربعمائة وثمانين سنة فاما في تمثيل المحزنات ونحوها وفي خفة الحركات واللباقة فالمزية لاهل فرنسا والانكليز تبع لهم فاما في المضحكات فهؤلاء هم المتبوعون وذلك لسعة لغتهم ومن العجب هنا انه مع ما يظهر في وجوه الانكليز من العبوس والانقباض فان لسانهم ادعى الى البسط والضحك من السنة سائر الافرنج ومن الطليانيين من ينشد في هذه المواضع ابياتا بل قصائد على البديه بان يختار احد الحاضرين لفظة ويقول للاعب انشد ابياتا على هذا الروي فينشده دون توقف وقد سمعت احد الانكليز ينشد ابياتا زعم انه مرتجلها وذلك بان يصف مثلا احد الحاضرين بانه لابس لباسا بلون كذا او ان بيده عصا او انه متكئ وعند التحقيق علم انه انما كان راويا لها فقط على ان ارتجال الشعر عند اي جيل كان من الافرنج هين لان كلامهم كله مجزوم اي خال عن الاعراب وليس بين الكلام المتعارف عند خاصتهم وبين كلام الكتب من فرق كبير الا ان يقال ان مهابة الجمع تفحم الشاعر غير ان من الف رؤية الجموع في كل ليلة تساوى عنده قلهم وكثرهم فمثله كمثل العائم في البحر يستوي عنده قاموسه وضحضاحه وعلى كل حال لهم المزية الكبرى في كثرة الحفظ وفي حسن الاداء ثم انه كما يتعلم من هذه المشاهد كثير من المحامد والمكارم والفصاحة والخطابة كذلك يتعلم المترددون عليها

ولا سيما النساء كثيرا من الحيل والاسباب الموصلة الى الوصال وتبديل البعولة بالعشاق لما يرين من فتور الزوج وحرارة العاشق الممثلين نصب اعينهن وخصوصا تكلف العجب والتيه من اللاعبات على الرجال فانهن يبدين من هذه الحركات والصفات ما يغري كل امرأة بمحاكاتهن وكذلك اللاعبون يبدون من الحماسة والتجبر ما يشوق كل امرأة الى ان يكون لها بعل او عاشق نظيره ولا سيما حين يلبسون الديباج ويتقلدون السيوف و يأمرون وينهون واعظم ما يعجب النساء من تلك المناظر هو ان يرين الرجال يتضاربون بالسيـــوف ونحوها او ان يأخذوا ثارهم ممن افتـــرى على حرمهم وقد تلبس الرجال في هذه الملاعب ملابس النساء والنساء ملابس الرجال واحسن ما تبدو المرأة به ما اذا لبست لباس الكميّ وعلى رأسها خوذة وفي الوقع فان كل ما يلبسن هذك يليق بهن ومن اعجب ما يرى من احوال هؤلاء اللاعبين واللاعبات هو ان الشيخ منهم يتفتى في زيه واطواره وكلامه حتى لا تحسبه الا فتى والفتى يتشيخ بحيث تحسبه هما هرما خلو ظهرا في المرة الآتية ما عرفت منهم احدا بل يغيرون ايضا اصواتهم ولهجتهم وسحنتهم و شعورهم ويتحادبون ويتعارجون ويتمارضون ويتناومون ويتعامون ويتساكرون ويتباكون ويتضاحكون ويتحامقون ويتجانون ويحاكون الملوك والقضاة والعلماء والاطباء والفقهاء والمتحذلقين والحمقى وكل صنف من الناس ومن اعظم ما اضحكني من محاكاة التثاؤب تمثيلهم اميرا من امراء باريس قدم الى لندرة واستوخم هواءها فكان كلما قال كلمة تثاءب وتناعس اشارة الى ان هواء البلاد قد ثقل عليه وان جميع الانكليز ذوو وجوه كالحة - ومن يرهم اول وهلة فربما حسدهم او تمنى ان يكون في زمرتهم اذ يراهم مغازلين للنساء الحسان ومتردين باللباس الفاخر وربما اكلوا في الملعب الطعام القدي وشربوا الشراب اللذيذ الا انه عند التروي يعلم ان حرفتهم لمن اشقى الحرف لان اللاعب يلزمه ان يعيد لعبته عدة ليال متتالية كما هي وكذا المغني والمنشد والشيء اذا تكرر تكرج وربما لزمهم

في الليالي الباردة ان يلبسوا الثياب الرقيقة وفي الصيف عكس ذلك وخصوصا انهم يعلمون من انفسهم انهم ان هم الا مستأجرون وان استبرقهم ان هو الا عارية وهي عار وحيث قد جرت العادة بان ابتداء اللعب يكون غالبا في الساعة السابعة وختامه بعد الحادية عشرة كان كثير من العابهم سخيفا فلو قصروا الوقت واجادوا اللعب لكان اولى وهذا كالتزام بعض المؤلفين عندهم لنوع يسمى نوفل وهو ان يجعلوا الكتاب ثلاثة مجلدات فيسفسفون ويدنقون ويأتون بالغث والسمين وقد رأيت غير مرة امرأة تبرز في ثياب رثة ثم تغسل وجهها وتمشط شعرها والناس يغربون من ذلك في الضحك واعرف اناسا كثيرين يحرمون انفسهم من لذة الاكل والشرب حتى يمكنهم مشاهدة هذه الملاهي ولا يملون من ان ينظروا تمثيل واقعة واحدة عدة مرار وفي الواقع فان نصف تمثيلهم انما هو هزء بالمتزوجين وكذلك اكره من تمثيلهم انهم يجعلون المرأة الضعيفة الصوت تنشد اشعارا فيها حماسة ووعيد وكذا يجعلون الانسان مشتركا اي يحدث نفسه فيقول المحب مثلا وقد اعيته الحيلة في وصال محبوبته كيف افعل الآن وقد سدت عليّ مذاهب الآمال فلم يبق لي الا هذه الوسيلة وهي كذا وكذا او يقول انا لا استحم الليلة قبل ان انام وكذلك استحمق بروز المرأة مثلا في الملعب وبيدها كذارة او آلة اخرى للطرب ولا تعزف بها وانما يعزف عنها بعض العارفين من تحت الملعب وهي مع ذلك تمر يدها على الآلة وتوهم الناس ان الصوت خارج من آلتها - وبودي لو كانت العرب نقلت عن اليونانيين شيئا من هذه المحاورات كما نقلوا عنهم الفلسفة او انهم الفوا فيها ولا يبعد عندي ان شعراء العرب حين كانوا يتناشدون الاشعار في عكاظ كانوا يجرونها على وجه يكسبها حوكا في النفوس مع اقترانها بالحركات والاشارات ولا شك ان في هذا التمثيل يكتسب كلام الشاعر رونقا اكثر مما لو بقي في الكتب او انشد مجرد انشاد ولا شك ان مبدأ الملاهي عند اليونانيين كان مثل اجتماع العرب في عكاظ ثم توسعوا بها فان جميع العلوم والفنون

بل الاديان نفسها تكون في مبدأها ضعيفة ومن انواع هذه الالعاب اللعب الذي يقال له پنطوميم وهو لعب بالاشارة والحركة من دون محاورة ولا يلعب فيه الرجال والنساء الا بما يضحك ويسر والواقع ان للاشارات شجونا وفنونا اكثر من الكلام ولا تكاد تدخل تحت حد وتعريف ولا تنتهي الى مدى واحسن هذه الاضاحيك ما وقع بعد عيد الميلاد وصفتها ان يبرز رجلان او اكثر بلباس سخرية وآخرون عليهم لباس مذهب في هيئة الجسم ونساء بايديهن شبه عصا الساحر وهن بلباس الرقص فكلما ضربت المرأة بالعصا على الحائط خرج منه شيء او انشق او على صندوق انفتح واستحال الى هيئة اخرى وقد جيء مرة بقفص كبير فيه صورة ديكين فضربته امرأة بالعصا فاذا هو قد استحال الى عاجلة مليحة مزخرفة فسارت فيها وربما انقلب المكان كله بسقفه وحيطانه واثاثه فصار بيتا بديع الاستحكام وربما رأيت كل ما فيه يدور ويتحرك او يصعد في الجو ويغيب عن النظر ومن احسن ما رأيته في هذه المواضع على كثرة ترددي اليها تمثيلهم فتح الاسپانيوليين مدينة پيرو في اميريكا واجتماع اهلها في هيكل لهم يسمى هيكل الشمس للاستغاثة بها على العدو فجعلوا دائرة جهة المشرق شبيهة بالشمس ولها شعاع بهي وبين يديها مذبح عليه شعلة نار سنية وقام كاهنهم يحضهم على القتال ثم اندفعت الرجال والنساء يرتلون لها ترتيلا مطربا وكانوا جمعا عظيما حتى كاد المكان يتزلزل لاصواتهم ثم جعلوا محلا يأتي عليه ضوء القمر وجاء نحو ستين جارية من الحسان بلباس الكماة وعلى رؤوسهن اكاليل وكان يرى لهن ظل في ضوء القمر ثم اطلعوا شجرة نخل من وسط الملعب ثم رمت بما كان يرى في جمتها شبيها بالسعف فصارت كالشرائط فامسكت كل جارية بشريطة وجعلن يرقصن بالتقابل والتدابر والتزاوج والانفراد وبكل شكل من الاشكال بما يدهش الناظر ومن ذلك انه برز في الملعب مائة وثلاثون جارية بلباس الرقص الشفاف وبعد ان رقصن هنيهة ارخي الحجاب ثم فتح واذا بهيكل سنيع يتلألا بالانوار الملونة البهيجة الساطعة وقد وقف عشر

جوار من هذا الجانب وعشر من الجانب الآخر باثواب من الخز شفافة بلون القرنفل وبدت رؤوس ست جوار من فوق حيز فصفقت الناس تعجبا واستحسانا ثم اصعدت هؤلاء الست وظهر صف آخر من فوقهن بثياب من قصب مرصعة بحجارة تلمع وعدتهن اثنتا عشرة جارية فزاد تعجب الحاضرين فلما تكامل الاصعاد اذا بالجواري الست متكئات كل اثنتين منهن متقابلتان ثم اصعد ثلاث جوار ووقفن بين الصفين بلباس مذهب وبايديهن صوالج تلمع ثم زادت الانوار تدبجا وسنا وزاد تعجب الناس ثم اصعدت ثلاث جوار اخر ووقفن فوق الصف الثاني وبايديهن صفائح لماعة ثم ادلي ثمان جوار من كل جانب اربع وكن يدرن متدليات في الهواء المنير وبعضهن اعلى من بعض ثم اصعدت جارية واقفة على شبه قبة مرصعة بقطع من جواهر تتألق كأنها الثريا التي تعلق في السقف وهي في داخل الهيكل وبيدها صولجان فكانت اعلى من الجميع وكانت ثيابها تتألق تألق القبة وكان على حائط الهيكل صورة امرأتين ايضا بصفة هؤلاء الجواري فلم يكن الناظر يميزهما من النساء وحينئذ بلغ العجب اقصاه واخذ اصحاب البنطوميم يلعبون بالنساء على تلك الحالة وقد يصعدون النساء والاشجار من اسفل الملعب اصعادا وينزلونهن من السقف انزالا ويجعلون جميع الحجب والحيطان تتحرك بنفسها ويمثلون الشمس والقمر والبحر والشجر والجبال والضباب والثلج والمياه وسائر المخلوقات والمصنوعات ومرة اخرى رأيت سفينة في بحر او شيء شبيه بالبحر ثم اخذت الامواج ترتفع وتتلاطم حتى علت على السفينة فغرقت فيها اصلا ويطلعون قببا مذهبة محفوفة بالانوار المتألقة والبرق يحفها ثم تنشق عن رؤوس نساء ثم تأخذ في النزول والنساء في الظهور الى ان تغيب القبب بالكلية وتبرز النساء في الملعب ويلبس الرجل هيئة ديك والمرأة هيئة دجاجة وترى شيئا يستحيل طاووسا يمشي وآخر بقرة تتحرك وغير ذلك مما يقصر الوصف عنه ومما اعجبني ايضا تمثيل عرس بعض ملوك الهند بان زينوا فيلين احدهما كبير والآخر صغير وعلى كل منهما

قبة مزخرفة فدخل الملك في قبة الفيل الاكبر ودخلت الملكة في قبة الآخر
وامام الفيلين ووراءهما جمع لا يحصى ومرة اخرى مثلوا حالة المتزوج
مع امرأته بعد عقد الزواج بيوم واحد وذلك ان رجلا غضوبا تزوج امرأة
مثله وكل منهما كان يعلم حال صاحبه وكان في نوبة غضبه يركس من امتعة
البيت ما يمكن ركسه ويكسر ما يمكن كسره ثم يدعو خادمه ويعبث به
ويؤذيه وكذلك المرأة كانت تركس وتكسر وتفعل بخادمتها فلم تأت عليهما
ليلة الا وقد اتلفا جميع ما في الدار فكنا نرى اوراق الكتب تتناثر في الجو
والقماش يمزق والكراسي والموائد تركس وكان مرة اخرى يؤتى لرجل آخر
غضوب بطبق فيه طعام فيرمي به في الملعب فحيث انتهى الطبق يطلع
رأس انسان من كوة في الملعب ويدخل فيه واعلم ان الرقص في هذه
الملاهي مخالف للرقص المعهود في المراقص فانه هنا اكثر خفة وصنعة
وموازنة فقد ترقص المرأة على رؤوس اصابعها عدة دقائق وتمشي كذلك
القهقرى وقد تتخلع وتتفكك تخلع الراقصات في بلادنا تقريبا بحيث
لا يبدين شيئا مخلا بالحياء وتعلم الرقص في بلاد الانكليز اصله
من بلاد ايطاليا وذلك في سنة ١٥٤١ - وفي لندرة اثنان وعشرون
موضعا يرى فيها صور البلاد والمدن والاشخاص من وراء الزجاج ويقال لها
پانوراما اعظمها المحل الذي يسمى كوليسيوم يصعد الى قبته في
درج او في قبة صغيرة مزخرفة على شكل بيوت الصين لا تسع اكثر من
اثنين فاذا استقرا فيها حركت بآلة من تحتها كآلة الباخرة فتنبعث صعدا
فاذا بلغ الانسان القبة وهي ذروة المحل رأى صورة لندرة او باريس بكل ما
فيهما من الديار والطرق والانوار والمواضع المرتفعة والمنخفضة حتى يظن ان
المرئي شيء محسوس ويتخيل له ان المسافة التي بينه وبين اطراف المدينة
بعيدة كمسافة المصور ويرى ايضا القمر يسير والنجوم تنقض وتزمهر والثلج
يتساقط ويسمع زمزمة الرعد وغير ذلك مما يذهله - ومن المواضع الشهيرة دار
الاختبارات العلمية وهو موضع يشرح فيه خواص الاشياء وكيفية العلوم والصنائع

ومن اعظم الآلات فيها جرس كبير ينزل الناس فيه في حوض ماء وهناك ماء رأيت الناس يغمسون فيه اصابعهم وينزعونها بعجلة لان فيه خاصية الارجاف الكهربائية - واعظم بناء في لندرة بل في الدنيا كلها مجلس المشورة اول حجر وضع في اساسه كان في السابع والعشرين من نيسان سنة ١٨٤٠ ودام بناؤه عشرين سنة ومساحته اكثر من ثمانية جربان فيه اكثر من ١١٨٠ حجرة و ١٩ ديوانا و١٢٦ مرقى وبلغت نفقته ٣,٥٠٠,٠٠٠ ليرة طول مجلس الاعيان فيه ٩٧ قدما وعرضه ٤٥ وارتفاعه كذلك فيه عرش تجلس عليه الملكة وكرسيان عن يمينه وشماله احدهما لزوجها والثاني لولدها وهو يشبه كنيسة صغيرة لكنه من دون كوى وعلى مدار حيطانه زجاج ملون عليه صور ملوك الانكليز وارتفاع مجلس النواب ٤٥ قدما وعرضه كذلك وطوله ٦٢ وهو يفتتح في شهر شباط ويغلق في تموز فتكون مدة انعقاده ستة اشهر وقبل الشروع في المذاكرة والنظر في المصالح تقام الصلاة وكذا هي العادة عند الانكليز قبل كل امر ذي بال ولا سيما قبل القتال وحين تحضر الملكة لفتحه او لاغلاقه يقدم لها احد ارباب المناصب العلية خطابا وهو جاث على ركبتيه فتأخذه منه وتتلوه ايذانا بما ذكر وقبل حضورها بساعتين تفتش اسرابه ودهاليزه جريا على العادة من سنة ١٦٠٥ وذلك ان اهل مجلس المشورة حين كانوا مجتمعين يوما وكان دين البروتستانت قد استتب حديثا حاول بعض من الكاثوليكيين ان يحرق المجلس واهله ببارود كان قد خزنه تحت اسسه فانتبه لهذه المكيدة بعض الحاضرين وفسدت على الرجل حيلته وقد فرضت كنيسة الانكليز المتأصلة صلاة معينة لذلك اليوم وهو الخامس من شهر نوفمبر وفيه يخرج رعاع الناس بتصاوير وتماثيل كثيرة يمثلون بها ذلك الرجل والبابا وغيرهما ممن يحسبه الانكليز عدوا لهم وبعد ان يطوفوا بها المدينة بضجة و زأط يحرقونها عند برج لندن ويسمون هذا اليوم كي فكس ٭ واعلم ان اهل المجلس ينقسمون الى قسمين الاول يقال له مجلس الاعيان والثاني مجلس النواب اما اعضاء مجلس الاعيان فقد يكونون من اصحاب الوظائف العالية

سواء كانت دينية او دنيوية وعدتهم ٤٦٢ منهم ٢٦ من مطارنة ارلاند و ٢٨ من اعيانها وما حكم به هؤلاء السائدون لا ينقضه اصحاب مجلس النواب الا في امور مخصوصة ولكل منهم ان يحتج عن نفسه حين تقام عليه الدعوى ويبدي الاسباب التي يستصوبها خطا واذا لزم اثبات ما قرره يكتفي بمجرد قوله على شرفي وفي غير ذلك يحلف واذا قضى اهل مجلس النواب بشيء فلا بد وان يعرضوه على مجلس الاعيان وللملكة ان تبطل حكم المجلسين ولكن قلما تتجرأ على ذلك ولكل من الوزراء ٥,٠٠٠ ليرة في السنة ولاحد الدوكات من رزقه في كل يوم الف ليرة ولرئيس المجلس ٨,٠٠٠ ليرة ودار يسكنها وعدة اعضاء مجلس النواب ٦٥٨ ينتخبهم اهل اقاليم انكلترة وهي ٥٢ اقليما واهل المدن والمدارس ولا بد من ان يكون لنائب الاقليم ايراد ٦٠٠ ليرة في العام من رزقه ولنائب المدينة ٣٠٠ والحكمة في ذلك ان يكونوا قادرين على التفرغ للنظر في مصالح الرعية واول مجلس مشورة عرف للانكليز كان في عهد هنري الثالث سنة ١٢٦٦ وفي سنة ١٣٤٠ انقسم الى مجلس الاعيان ومجلس النواب كما تقدم ومصاريف المجلس تبلغ في السنة نحو ١٦٢,٢٣٠ ليرة منها مصروف الطبع يبلغ ٧٥,٩٥٤ - وعروض الحال التي تقدم لمجلس المشورة يبلغ عددها في السنة نحو ١٠,١٢٨ وعدد التوقيع او الامضاء ٣٣ ,١,٦٨٧-ومن المباني العظيمة في لندرة المتحف البريتاني وهو الموضع الذي فيه التحـــف الغريبـــة والاشياء العادية والحجارة المعدنية ويقال له بريتش موز يوم بني من سنة ١٨٢٣ الى سنة ١٨٥١ واصل انشائه ان رجلا من الاعيان اسمه هانس سلون توفي سنة ١٧٥٣ واوصى بعشرين الف ليرة لمشترى تحف توضع في محل مخصوص للتفرج عليها فاعجب ذلك مجلس المشورة وفي ذلك التاريخ جمع ٣٠٠,٠٠٠ بامر المجلس لانشاء ذلك الموضع وفيه من الغرائب حجر يقال انه سقط من الجو في ولاية الساس حين كان الامپـــراطور مكسيمليـــان عازما علـــى ان يوقع بالفرنسيس فحفظ في كنيسة انسسهم الى اوائل فتنة الفرنسيس

ثم نقل بعد ذلك الى مكتبة كلمار زنته ٢٧٠ رطلا انكليزيا ويوجد فيه ايضا حجارة اخرى سقطت من الجو بعضها سقط في سنة ١٧٩٠ وبعضها بعد ذلك باربع سنين وبخمس وفيه جميع الحيوانات مصبرة وصور وتماثيل وكسى اهل البلاد الاجنبية وآلات طربهم واثاثهم والعصافير المصبرة والطيور والوزغ والاسماك والاصداف والعظام والقرون والجماجم واسنان الفيلة والبيض ومن هذه الحيوانات ما انقرض نسله من جملتها سلحفاة جلبت من الهند وقد دفع في ثمنها ١,٠٠٠ ليرة وفيه موضع آخر لجميع اصنـاف الجواهر المعدنية وآخر لاصناف الدراهـم والدنانير القديمة رأيت في جملتها دنانير ضـربت على عهد هـارون الـرشيد بالخـط الكوفي وهي كبيرة رقيقة وفيه موضع آخر للكتب تبلغ اكثر من ٦٥٠,٠٠٠ كتاب واذا اعتبرتها بحسب الاجزاء تبلغ اكثر من ٩٠٠,٠٠٠ وهذا القدر يساوي مقدار كتب برلين وويانه ولكن دون القدر الموجود في باريس ومونيش وهذه الكتب موضوعة على رفوف تشغل مسافة ١٥ ميلا من جملتها الكتب التي كانت لملوك الانكليز تبرعوا بوقفها على المحل المذكور منها كتب مجلدة بالمخمل كانت للملكة اليصابت ولجامس الاول ولشارلس الاول وغيرهم وكتب كانت لجورج الثالث وهي ٨٠,٠٠٠ واعظم موضع في هذه المكتبة هو ما وقفه الملك جورج الرابع يبلغ ثمنه ١٣٠,٠٠٠ ليرة فيه تورية قديمة طبعت في منس سنة ١٤٥٥ وامثال لقمان الحكيم طبعت في ميلان سنة ١٤٨٠ واول نسخة طبعت من اشعار اوميروس طبعت في فلورانس سنة ١٤٨٨ ونسخة اشعار فرجيل طبعت في فينيسيا سنة ١٥٠١ وفيها صوانان قيمة ما فيهما من الكتب ربع مليون وهذه المكتبة يدخلها الناس باذن من ناظرها لاجل المطالعة والمراجعة وفي كل نصف سنة يتجدد الاذن ولا يؤذن للمطالع ان ينسخ كتابا منها برمته وانما ينسخ منه جملا ولا ان يستصحبه ولا ان يطلب كتابين في تذكرة واحدة وقد بلغ عدد المطالعين في سنة واحدة ٧٠,٠٠٠ وعدد كتب الخط ٣٠,٠٠٠ وثمن خزانتين منها فقط ٢٥٠,٠٠٠ في جملتها كتاب

توراة كتب لشارلمان وكتاب صلوات للملكة اليصابت غشاؤه من صنع الابرة عملته بيدها وفيها ٣١٧ كتابا باللغة السريانية - قلت لم يذكر المؤلف عدد الكتب العربية جريا على عادة اهل بلاده من عدم المبالاة بلغتنا وان يكن قد دون بها من العلوم والفنون ما لم يدون في لغة شرقية قط وحين كنت اذهب الى هذا الموضع للمطالعة لم يتهيأ لي ان اعرف اسماء الكتب العربية بجملتها لان اكثرها مكتوب بالحروف اللاتينية ومعلوم ان الاسم العربي لا يظهر بها حق الظهور وهذا المتحف هو من بعض ما تمكن رؤيته مجانا بلندرة يفتح ثلاثة ايام في الاسبوع وهي الاثنين والاربعاء والجمعة من السابع من سبتمبر الى اول شهر ماي ولا يدخله من الاولاد من كان سنه دون ثماني سنين وعند بابه عسكريان بالسلاح اعتبارا للمحل وقد ضمن بعض الكتب بلندرة بثلاثة آلاف ليرة وبيعت نسخة من بوكاتشو بالفين ومائتين وستين ليرة وقومت نسخة من توراة مكاين بخمسمائة وكسور - ومن ذلك متحف آخر يعرف بمتحف الخدمة المتحدة بني في سنة ١٨٣٠ وهو يشتمل على تحف نفيسة من جملتها سيف كان يتقلده اكرامول المشهور وجثة الحصان الذي كان يركبه ناپوليون الاول في حرب واطرلو يقال له مارنغو ذو اللحية وفيه ايضا صورة تلك الواقعة ولوح من وجه السفينة التي انتصر فيها نلسون - وآخر يعرف بمتحف خصائص الجيولوجيا بني في سنة ١٨٣٥ وفتح في سنة ١٨٥١ بلغت نفقته ٣٠,٠٠٠ ليرة وهو يشتمل على الجواهر المعدنية وعلى ما يوجد من اصناف الحجر في بلاد الانكليز وغيرها من البلاد وعلى الآلات المتعلقة بهذا العلم - وآخر يعرف بمتحف المرسلين يشتمل على اشياء كثيرة مما يتعلق بعلم حياة الحيوان وعلى مشاهير آلهة الوثنيين - واشياء اخرى عديدة جلبها هؤلاء المرسلون من البلاد التي جالوا فيها وآخر يعرف بمدرسة الجراحين بني في سنة ١٨٣٥ وبلغت نفقته ٤٠,٠٠٠ ليرة يفتح لاهل المدرسة ولمن يكون له اجازة من احدهم وذلك في ايام معلومة من الاسبوع وهو يشتمل على ٢٣,٠٠٠ قطعة من الاجسام المصبرة ومن الاعضاء والآراب وعلى جثة جبار من اهل

ارلاند طولها ثماني اقدام مات وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وذلك سنة ١٧٨٣ ولما مات قيست فكانت ثماني اقدام وربعا وفيه جثة رجل حزقة من صقلية طولها عشرون اصبعا . قلت ومن مشاهير القصار فيليطوس الكوسي كان من صغره اذا خرج يضع في جيبه كرات من الرصاص خيفة ان تطيره الريح وكان شهيرا ايضا في عصره بالعلم ونظم الشعر وآخر يسمى البيوس الاسكندري كان طوله قدما وخمس اصابع ونصف اصبع وكان له شهرة ايضا بالمنطق والفلسفة قال وفيه جثة جبار آخر من ارلاند طولها ثماني اقدام وسبع اصابع ونصف وقدر ذراع من جثة جبار فرنساوي كان طولها سبع اقدام واربع اصابع وجثة فيل جلب من الهند وكان يؤذي الناس لداء اعتراه فكان لا بد من قتله برشق من الرصاص ولما اريد قتله اناخ على صوت قائده ليصوب بعض المقاتل في جسمه فلم يمت الا بعد ان اطلق عليه مائة رصاصة وثم جثث اجنة اسقاط واختان توأمان ولدتهما امهما وهي بنت سبع عشرة سنة من دون مقاساة الم ولم تزل اجسامهما متحدة وفيه شكل احشاء ناپوليون مظهرة لانتشار الداء الذي اودى به - وآخر يقال له متحف صون بالقرب منه بني في سنة ١٨١٢ يشتمل على اربع وعشرين مقصورة فيها تماثيل وتصاوير وحجارة ثمينة وغير ثمينة وتحف وكتب فمن جملة تماثيله تمثال احد آلهة المصريين المسمى ازيس ثمنه ٢,٠٠٠ ليرة وفيه فرد مرصع (طبنجة) كان الملك بطرس الاكبر اخذه من قائد الجيوش التركية في بحر الخزر سنة ١٦٩٦ ثم اهداه الملك الكسندر الى ناپوليون عند الهدنة التي وقعت في تلسيت سنة ١٨٠٧ واستصحبه ناپوليون الى جزيرة صانت هيلان ثم جاد به على بعض ضباطه وانتقل اخيرا الى لندرة - ومن ذلك الموضع الذي يقال له روشن الامة بني في سنة ١٨٢٤ وبلغــت نفقتــه ٩٦,٠٠٠ ليــرة وهو دون نظرائه في بلاد اوربا - ويوجد ايضا محال اخرى عدتها خمسة عشر محلا لجماعات الجغرافية والبناء ومعرفة المعادن والتصوير ولالقاء الخطب وغير ذلك - ومن المباني

الجليلة البنك انشئ في سنة ١٦٩٤ مرتب ناظره في السنة اربعة آلاف ليرة وللوكيل ٣,٠٠٠ ليرة ولكل من المباشرين وهم ٢٤ رجلا ٢,٠٠٠ ليرة وعدد المستخدمين فيه ١,٠١٦ منهم ٨١٤ كتاب وسنويتهم من الخمسين ليرة الى الالفين فجملة مرتبهم في السنة ١٩٠,٠٠٠ ليرة وكل كاغد يعاد اليه يلاشى ودين الدولة للبنك يبلغ ١١,٠١٥,١٠٠ ولا يسمح بان كواغده تزيد على ١٤,٠٠٠,٠٠٠ ليرة وقيمة ما يتداول منها في ثلاثة اشهر تزيد على ثمانية عشر مليونا ومن هذه الكواغد ما تساوي قيمته الف ليرة واظن ان اغلى كواغد فرنسا لا يساوي اكثر من الف فرنك وفيه سبائك ذهب منها ما وزنه ستة عشر رطلا وقيمته ثمانمائة ليرة وفيه عدة موازين من جملتها ميزان يزن من سبائك الفضة من خمسين رطلا الى ثمانين وآخر يزن في كل دقيقة ٣٣ ليرة وقد جعل بحيث يزن الدينار الرائج ويرميه في صندوق والزائف في صندوق آخر وفيه آلة لطبع الكواغد ورسم اعدادها من الواحد الى مائة الف بغاية ما يكون من الضبط والاحكام وبجانب هذا المحل الدار التي تجتمع فيها التجار فتحتها الملكة في سنة ١٨٤٤ وبلغت نفقتها ١٨٠,٠٠٠ ليرة وفي وسطها تمثال الملكة وعلى حيطانها رواميز ما عند اصحاب الصنائع والتجارة من الادوات والتحف وامامها ساحة مبلطة فيها تمثال ويلنكطون من نحاس راكبا على فرس فوق عمود من المرمر. ومن ذلك المألك العام اي البوسطة بني من سنة ١٨٢٥ الى ٢٩ يبلغ عدد المستخدمين فيه ٢,٠٠٠ وعدد المستخدمين في ضواحي لندرة ١,٢٠٠ وعدد مراكز البوسطة في المملكـــة كلها يبلغ ١,٨٦٦ منها ٨٤٥ اصول والباقي فروع وفي لندن وحدها يوضع في كل يوم نحو ٥٠٠,٠٠٠ رسالة. قال بعضهم وما يفرق الآن من الرسائل في مسافة ١٢ ميلا حول عموم مركز البوسطة الاصلي يكون قدر ما كان يوزع منها في الزمن القديم في جميع جهات المملكة قال والمحسوب انه من كل ٢٠٠ رسالة ترجع واحدة الى مرسلها لعدم العلم بمقر المرسل اليه فاذا وقع امر مثل هذا ابقيت الرسالة في المحل

واول من رتب البريد لويس الحادي عشر ملك فرنسا ولكن ليس على هذا المنوال الذي نراه الآن وانما كانت الكتب تبلغ الى اصحابها على يد رسل من الملك من بلد الى آخر وبقي هذا الترتيب مجهولاً عند غيره من الملوك مدة طويلة وهو الذي عدل الميزان والكيل واول من نعت بنعت ماجستي اي عظمة . واول من اخترع هذا الطابع الذي يلصق بالرسائل رجل من اهل السويد اسمه تريكنبو وذلك في سنة ١٨٢٢ وفي لندرة ٢٦ منتدى ويقال لها الكلوب وهي ديار رحيبة يجتمع فيها اغنياء الانكليز للمذاكرة والمعاملة والمطالعة والاكل والشرب منها ما يجتمع فيه ٣٠٠ ومنها ١,٠٠٠ واكثر ولا يدخل فيها احد الا بشهادة بعض من اهلها واداء الدخول من ٩ ليرات الى ٣٢ ليرة وفي كل سنة يدفعون ايضا شيئا لمصاريف خدمتها وفرشها وانوارها وذلك من خمس ليرات الى اثنتي عشرة ليرة وكلها حديثة عهد بالبناء وهذه المحال لا يدخلها النساء واذا رضي احد من اهل هذه المواضع عن احد من الغرباء ادخله في زمرتها اكراما له - وفيها عدة كنائس عظام اقدمها وستمينستر ابي كانت في الاصل ديرا للرهبان الباندكتيين اسست في سنة ٦١٦ ثم وسعـــت وجددت وفيها تتوج ملوك الانكليز وملكاتهم من عهد ادورد الملقب المعترف الى عهد الملكة فكطوريا وقد جلست على الكرسي الذي تتوج عليه الملوك وهو كرسي عال قديم مغشى بالجلد ككراسي الكنائس والاديار في الزمن القديم خال عن الزخرفة مطلقا وكثير من ملوك الانكليز واعيانهم وعلمائهم قد دفنوا في هذه الكنيسة من جملتهم هنري الثالث وماري ملكة سكوتلاند وكنكريف الشاعر صنع له قبر فبلغت نفقته عشرة آلاف ليرة صرفتها هانرته زوجة الدوك او دتشس مالبورو وفيها قبر لسر اسحاق نيوطون كلف خمسمائة ليرة وآخر لشكسبير - ومن ذلك كنيسة صان پول اي ماربولس وقد تقدم ذكرها اول حجر وضع في اساسها كان في سنة ١٦٧٥ وآخر حجر في سنة ١٧١٠ وذلك بعد ٣٥ سنة في عهد اسقف واحد وبلغت نفقتها ٧٤٧,٩٥٤ ليرة و ٢ شلين و ٩ پنس جمعت من مكس جعل على الفحم ولذلك يقال انها تردت بلباس اسود كما نراها الآن قلت

بل جميع مباني لندرة مترديه بهذا الرياش حتى ان مجلس المشورة مع كون البناء فيه متواصلا يظنه الناظر قد مضى عليه احقاب من الدهر قال وشكلها على شكل صليب لاتيني طولها من الشرق الى الغرب ٥٠٠ قدم وعرضها ١٠٠ وطول صومعتها ٢٢٢ قدما وارتفاعها من الحضيض الى ذروة الصليب ٤٠٤ اقدام وعدد قضبان درابزينها المحيطة بها ٢,٥٠٠ بلغت نفقتها ١١,٢٠٢ ليرة ونصف شلين ودورتها ثلاثة ارباع ميل - قلت جميع التربيعات والحدائق والغياض بلندرة ومعظم الديار محاطة بدرابزين من حديد لعل ثمنها يوازي ثمن مدينة باسرها - وداخل الكنيسة مبلط بالرخام الاسود والابيض وسقفها عقد من دون زخرفة ولها قبة عظيمة دورتها من داخل ٣١٦ قدما واذا طلعت الى اعلاها من داخل الكنيسة خطوت ٦١٦ درجة ومن شان هذه القبة انه اذا وقف رجل في جهة منها ووقف آخر في جهته المقابلة واسر اليه كلاما بان يضع فمه على حائط القبة سمعه الآخر وفي داخل الكنيسة تماثيل الملوك والمشاهير من الانكليز وابطالهم عندها تماثيل ملائكة بصورة نساء يقدمون لهم الاكاليل اشارة الى انهم ماتوا في سبيل اللّه وثم ايضا تماثيل نساء بارزة نهودها ولها اربعة ابواب في كل جهة باب وقدام الباب الاكبر ١٢ عمودا من اسفل و ٨ في الطبقة الثانية ولكل من الباقي ٤ اعمدة ولها قبتان متقابلتان في كل منها ساعة دقاقة وفي يوم معلوم من السنة يهيئون موضعا فيها لترتيل الاولاد تبلغ نفقته ٣٠٠ ليرة وفي اليوم الثاني يزاح وهذه الكنيسة هي اكبر كنيسة للپروتستانت في الدنيا ودون كنيسة رومية وهي تشبه بعض الملاهي في انها لا تفتح الا في ساعة معلومة من النهار ولا يمكن رؤية جميع ما فيها الا باداء نحو خمسة شلينات - وايراد رئيس اساقفة كنتربوري في السنة ٢٥,٠٠٠ ليرة وايراد رئيس اساقفة يورك ١٥,٠٠٠ وليس لمطران باريس من الايراد ثلث ما لمطران لندرة وجملة ما يصرف على الكنائس نحو ٥٠٠,٠٠٠ ليرة وايراد اسقف لندرة في السنة ١٥,٠٠٠ ليرة ولكن خليفته يكون له ١٠,٠٠٠ فقط وايراد باقي الاساقفة من

٣٠٠٠٠ ليرة فصاعدا فهم بمثابة وزراء الدولة فان مذوية اول لورد في ديوان نظارة البحرية ٤٥٠٠ ليرة ثم انه كما ان هؤلاء الرعاة المتبتلين الى الله تعالى ماثلوا الوزراء والامراء في اخذ الارزاق والوظائف كذلك ماثلوهم في الرفعة والشان والانفراد عن الرعية فان مواجهة رئيس اساقفة الانكليز اصعب من مواجهة البرنس البرت زوج الملكة وقد اضطررت مرة الى ان اكتب اليه في امر ما فورد الجواب منه في رقعة قدر نصف الكف وكان خطابه بضمير الغائب ونفى فيه ما لم يكن محله النفي احترازا من ان اكلفه بخطاب آخر ولكن اي لوم عليه اذا لم يجاوب احدا لان رئيس الكنيسة الذي ايراده ٢٥٠٠٠ ليرة في السنة ليس عليه ان يجاوب من ليس له صلدي واحد من كل ليرة تدخل خزانته الرسولية وقد كان الخوري ميخائيل شاهيات حضر الى الطرف وكتب ثلاث رسائل احدها الى البرنس البرت والثانية الى اللورد پلمسطون والثالثة الى المطران المشار اليه فجاءه الجواب من الاولين ومن الاخير لم يرد سلب ولا ايجاب واقسم لو ان يهوديا غنيا من امستردام وفد عليه في عاجلة ورواء لاحتفل به واكرمه غاية الاكرام ولكن ليت شعري ما معنى كلام من قال اما الذين يرومون الغنى فانهم يقعون في المحنة والفخ وفي شهوات كثيرة سفيهة ضارة تغرق الناس في العطب والهلاك لان حب المال اصل كل شر وهو الذي اشتهاه قوم فضلوا عن الايمان وطعنوا انفسهم برزايا كثيرة فاما انت يا رجل الله فاهرب من هذه الاشياء واقتف البر والتقوى والايمان والمحبة الخ وقال ايضا من حيث ان لنا القوت والكسوة فلنقتنع بهما اما التقوى مع القناعة فانها مكسب عظيم ورب معترض هنا يقول ان الكنيسة الآن ليست كالكنيسة في مبدا النصرانية اذ لم يكن للنصارى وقتئذ دولة ولا سطوة فاما الآن فان عزها يرجع الى عز الدولة وان رئيس الاساقفة الآن يلزمه ان يكون من اهل مجلس المشورة وان يزور الوزراء ويكون مزورا منهم وان يصنع مآدب للاعيان ويتكلف نفقات كثيرة فلا بد له والحالة هذه من رزق وافر يجري عليه ومن صرح وعاجلة وخدم واواني فضة ونفيس اثاث ـ قلت اذا كان الاسقف تزوره ارباب الدولة وتدعوه

الى الولائم مع اقتصاد حاله او بالحري مع تقشفه كان ذلك ادعى الى كرامته وتعظيمه فاما تكلفه للنفقات والولائم وغير ذلك فانه شاغل له عن اداء ما يجب عليه من تعهد الرعية وتفقد احوالهم وهذا هو اصل معنى الاسقف فان قيل امور الكنيسة الآن قد استتبت وانتظمت فلم يبق حاجة الى تكاليف الاسقف او رئيس الاساقفة النظر فيها والتعهد لها قلت اذن هو اقرار على انفسهم بعدم لزومهم على اني لا اتعرض لمثل هذه المسائل فان لكل كنيسة اساقفة وبطارنة وحيث ان امامهم قد ذكر اسم الاسقف فلا بد من وجود مسماه ولكني ارى شيئا على من يعير غيره شيئا وهو متلبس به فان الانكليز ينسبون الكنائس الشرقية الى العظمة والتبذخ والسرف والشطط مع ان رؤية بطاركة انطاكية ممكنة لكل احد ولا يخفى ان انطاكية في الدين اشرف من لندرة - ومن المباني العظيمة بيت الهند اي بيت الجماعة التي بيدها تدبير مملكة الهند بني في سنة ١٧٩٩ وفي سنة ١٨٣٣ حصل فيه تغييرات جمة وحينئذ صدر امر من مجلس المشورة باقرارها على حالها وفيه متحف واصنام من فضة وذهب جلبت من تلك البلاد وكتب وسلاح ودنانير وغير ذلك ونقلت من بعض الكتب ان جمعية الهند استتبت للتجارة في تلك البلاد سنة ١٦٠٠ ثم صارت تاجرة ومحاربة معا فطردت الجمعية الفرنساوية وذلك سنة ١٧٥٠ حتى تغلبت على اكثر البلاد وقال آخر ان اول سعي ابدته الانكليز فيما يخص الهند كان تجهيز ثلاث سفائن وذلك في سنة ١٥٩١ ولكن لم يصل منها الا واحدة فقط وبعد سفر ثلاث سنين رجع الربان في سفينة اخرى لان الملاحين غلبوه على سفينته فلما ان رجع اخبر الاهلين بما جرى له وبما رأى فجد بهم الحرص لارسال سفن اخرى تجارية وتم انعقاد ذلك في سنة ١٦٠٠ فجمعوا ٧٢,٠٠٠ ليرة جهزوا بها اربعة مراكب ونالوا اربهم واستمروا يتجارون ويتاجرون هكذا وفي سنة ١٦٩٨ عقدت جمعية اخرى ثم التحمت مع الاولى فصارتا جمعية واحدة وذلك في سنة ١٧٠٢ ثم بني

بيت الهند في سنة ١٧٢٦ وفي سنة ١٧٩٩ وسع وكبر وفي سنة ١٧٨٤ استقر ديوان جماعة الهند الا ـ قال فلتير ان براهمة هذا العصر ما زالوا على مذهب اسلافهم الذميم من اغراء النساء باحراق انفسهن بعد موت بعولتهن والعجب ان هؤلاء الناس الذين لا يستحلون دم الانسان او البهيمة يرون ان ابر المناسك هو احراق نسائهم ولكن هذا شان الوساوس والاضاليل ابدا تأتي بافعال متناقضة ومن زعمهم انهم يقولون ان برهام هو ابن الله نزل الى الارض واتخذ ازواجا كثيرة فلما مات تطوعت احب ازواجه له الى ان تحرق نفسها رجاء ان تلحقه في نعيم السماء ومذ ذلك الوقت سرت هذه العادة السمجة ولكن ليت شعري كيف يتأتى للنساء ان يعرفن بعولتهن وقد صار بعضهم خيلا وبعضهم فيلة وبعضهم بوما وكيف يمكن لهن ان يميزن الحيوان الذي دخل فيه روح الميت غير ان هذا الاشكال لا يعسر على هؤلاء الكهان فان التناسخ عندهم انما يكون للعامة فقط فاما ارواح الخاصة فمن حيث انها كانت من جملة الملائكة الذين مردوا فلا بد من انها تسعى في التنقي والتطهر وكذا ارواح النساء اللائي احرقن انفسهن تنعم بالنعيم السماوي حتى يجدن بعولتهن على حال الطهارة والغبطة وهذا المذهب القبيح قد عرف عندهم منذ اربعة آلاف سنة مع كونهم قوما ودعاء لا يتجرأون على قتل الجرادة ولكن لا يمكنهم ان يجبروا الارملة على الاحتراق لان سر الشريعة انما هو ان تتقدم المرأة الى ذلك عن طيب نفس والتي تكون اقدم عند زوجها لها ان تأبى الاحتراق وكذا التي بعدها الى الاخيرة ويحكى ان سبع عشرة امرأة دخلن النار مرة بعد موت رجل واحد وكان من الرجاة ثم من بعد استيلاء المسلمين على بعض بلادهم قل استعمال هذه العادة ثم قلت ايضا بمخالطة الافرنج لهم الا ان هذا المنظر السيئ المحزن قل ان فات واحدا من حكام مدراس وبنديشري فقد قال مستر هلول ان ارملة لم يزد سنها على تسع عشرة سنة احرقت نفسها بمرأى من زوجة الاميرال

رسل وكانت بديعة في الحسن ولها ثلاثة اولاد ولم تلن لدموع الباكين عليها ولم تقبل طلبتهم فاقسمت عليها الست المذكورة لتعدلن عما نوته شفقة على اولادها فما كان منها الا ان قالت ان الله الذي خلقهم لا يتركهم ثم شرعت في تنضيد الحطب بيديها فلما احتدمت النار دخلت فيها حتى احترقت وهي صابرة متجلدة ورأى احد الانكليز مرة اخرى فتاة حسناء سائرة الى النار فلما كادت تضرمها اجتذبها قسرا وساعده على ذلك بعض اصحابه ثم سار بها الى منزله وتزوجها فكان ذلك عند الهنود بمنزلة انتهاك المحارم ولكني اقول ما بال الرجال لا يحرقون انفسهم ليلحقوا بازواجهم ولم وقعت هذه القرعة على هذا الجنس الضعيف الهيوب أفكان ذلك لان الرواية لم تذكر ان بعض الرجال تزوج ابنة برهام بل ذكرت ان برهام تزوج امرأة هندية نعم ان قدماء البراهمة كانوا يحرقون انفسهم ولكن انما كان ذلك ليتخلصوا من مضض الهرم وطوله بل بالحري ليعجب منهم الناس ولعل كالانوس لم يكن يدنو من النار لولا ان الاسكندر كان ناظرا اليه ولو ان شرع البراهمة حكم بان المرأة لا تحرق نفسها الا ومعها واحدة من العجائز لبطلت هذه العادة من قبل الآن اه - قلت زعم الذين لهم معرفة بلغة البراهمة ويسمونها صانسكريت انها افصح اللغات واوسعها اساليب في التعبير وانها ام للغة اليونان فلا يبعد اذا ان تكون محاسن هذه اللغة هي التي مهدت الطريق للبراهمة حتى سادوا على العامة فان اهل البلاد الشرقية ابدا عبيد الفصاحة والبلاغة فاما قول فلتير انهم قوم ودعاء لا يتجرأون على قتل الجرادة فما وقع في هذه الايام الاخيرة يناقضه وهو كثيرا ما يتعصب لهم ولاهل الصين ايضا - فاما عدد المسلمين في بلاد الهند فقيل ٣٥,٠٠٠,٠٠٠ وقيل اكثر - قال في الابجدية اول من كشف السفـــر الى الهند على طريق الرجاء الصالح فاسكو داكاما وذلك في سنة ١٤٩٧ وبعد ان استولت عليه دولة هولاند ضبطته دولة الانكليز ثم رد ثم قر الرأي على ان يبقى في ملكها وذلك في سنة ١٨١٤ وذكر في تاريخ مصر انه في حدود العشرين

بعد التسعمائة ظهرت الفرنج البورتغال على بلاد الهند استطرقوا اليها من بحر الظلمات من وراء جبال القمر بمنبع النيل وغاصوا في ارض الهند فوصل اذاهم وفسادهم الى جزيرة العرب وبنادر اليمـن وجدة فلما بلغ ملك مصر ذلك جهز اليهم خمسين غرابا مع الامير حسين الكردي وارسل معه عسكرا عظيما من الترك والمغاربة وجعل له جدة اقطاعا وامره بتحصينها الى ان قال ثم توجه بعساكره الى الهند في حدود احدى وعشرين وتسعمائة فهربت الفرنج من البنادر حين سمعوا بوصوله اه - وعلم من خلاصة حديثة ان عدد ضباط الانكليز في بلاد الهند يبلغ ٥,٢٤٩ وعدد عساكر الانكليز وغيرهم من الافرنج ٤٣,١٤٢ وعدد عساكر الاهلين ومن جملتهم الشرطة ٢٨٨,٥٩٦ واذا اضفت اليهم عدد العساكر القائمة التي جرى عليها شروط بين الاهلين والدولة يبلغ العدد ٣٩٧,٩١٨ وفي الجملة فكل عسكري واحد من الانكليز لخمسة عشر من الهنود - ومن العجب ان اهل هذه الدار الذين يحكمون على مبالغ عظيمة من الناس والبلاد والعساكر ليس يبالون بان يعينوا عسكريا واحدا امام الباب كما يفعل اسائر الدواوين الميرية ولو كانت هذه الدار في باريس لكنت ترى عنـدها جوقا من العسكـر يحرسونها ليلا ونهارا - ومن ذلك اي من المباني العظيمـة بيت ضابط البلد في السـتي ويقال له منشن هوس بني في سنـة ١٧٣٩ وبلغت مصاريفه ٧١,٠٠٠ ليرة وبعـض اثاثه من ١٠٠ سنة وبعضه من ستين وهذا الضابط تنتخبه الجماعة المنوط بها تدبير هذه المحلة في كل سنة وذلك في التاسع من تشرين الثاني ويوم انتخابه يجعل في الطرق حواجز لمنع مرور الحوافل وتغص المدينة بالزحام فيضغط الناس بعضهم بعضا فلا يبقى احد من اهل البطالة الا ويخرج للتفرج او بالحري للتلزز فيخرج الضابط من الديوان المسمى كلدهال في موكب عظيم ويجلس في عاجلة مذهبة فاخرة تجرها ستة افراس ثمنها في الاصل ١,٠٦٥ ليرة ويصرف على زينتها في كل سنة ١٠٠ ليرة ويجلس معه رئيس المحاكم بقباء احمر وهو متقلد سيفه وشعار سلطته

وتقف في ذلك اليوم شرطة الديوان لمحافظة الطرق وتمشي صفوف شتى وهم يحملون اعلاما مختلفة وآخرون يضربون بالات الطرب وآخرون ينفخون في الابواق وآخرون متكمون بالدروع على منوال المجاهدين الاقدمين وتوضع امامه آلات الحرث على عجلة مزينة وما تنبت الارض وسفينة ذات قلوع تجرها ستة افراس ويسير معه اصحاب المراتب السنية والمناصب العلية وضابط البلد المعزول وعند وصولهم الى محل معلوم تلاقيه سفراء الدول ووزراء الدولة ورؤساء المحاكم واركان مجلس الشورى وغيرهم من ذوي الشان حتى اذا رجع الى مقره دعا اولئك النبلاء الى وليمة فاخرة تشتمل على ٢,٦٣٧ صحفة كبيرة وصغيرة ولا بد من ان يوضع امامه صحفة فيها نوع من السمك الصغير اشارة الى انه ضابط نهر التامس الذي هو عند الانكليز اعز من نهر كنكا عند الهنود وعلى ذكر الوليمة يحسن هنا ايراد ما وجدته مكتوبا في اوراق تسمى تعليقات ومسائل من ان ضابط نوريش من اعمال انكلترة صنع مادبة فاخرة في عهد الملكة اليصابت سنة ١٥٦١ ودعا اليها جماعة من اعيان ذلك الصقع وكبرائه فبلغت مصاريفها ليرتين و ١٣ شلينا و ١١ پنسا كان ثمن الوزة فيها ثلث شلين وفخذ الضان ربعه وكذا ثمن الدجاجة و ١٢ بيضة وثمن ١٦ رغيفا ثلث شلين وثمن برميل من الجعة شلينان وثمن ٤ ارطال من السكر سدس شلين وفواكه ولوز ٧ پنس وقس على ذلك والولائم التي يصنعها اهل الستي تكون فاخرة جدا تشتمل على صحاف من الذهب واكواب من الفضة وسنوية الضابط ٨,٠٠٠ ليرة ولكنه يصرف في مدة ولايته اكثر من هذا القدر وايراد تلك الجماعة ١٥٦,٠٠٠ ليرة يستوردونها من ضرائب على الفحم والاسواق والديار والسماسرة وهذه الجماعة ينتخبهم الاهلون الذين لهم عقار وديار ومن خصائص الضابط مدة ولايته ان يتولى امور المدينة غير معارض وقد نازع الملك جورج الرابع في هذه السلطة وحاول ابطالها غير ان الانكليز كما ذكرنا سابقا لا يحبون تغيير العادات

القديمة فمن ثم بقي الحال كما كان واذا اتفق موت الملك في ايامه فله ان يجلس في ديوان الشورى الخاص ويوقع قبل اربابه وله ايضا ان يغلق باب الموضع المعروف بتمپل بار وهو اول خط المدينة في وجه الملكة حين تذهب الى المدينة ولكن ليس بقصد ردها عن الدخول بل بقصد ادخالها جريا على العادة وتفصيل ذلك ان صاحب الملك اذا اراد التوجه الى المدينة يصل الى ذلك الباب فيجده مغلقا فينفخ بين يديه رجل في البوق ويقرع الباب آخر ويقع بينه وبين الضابط محاورة وكلام هنيهة ثم ينفتح الباب ويدنو الضابط من صاحب الملك ويقدم له سيف المدينة فيأخذه منه الملك ثم يعيده اليه ثم يدخل ومعه الضابط سائرا بركابه وهذا الباب هو مبدأ خط الستي بني في سنة ١٦٧٠ وعنده تمثال الملكة اليصابت والملك جامس الاول وكرلوس الاول وكرلوس الثاني وهو لا يغلق الا في ذلك اليوم غير ان توجه صاحب الملك الى المدينة لا يقع الا نادرا وذلك كأن يذهب الى كنيسة مار بولس ليهدي الشكر لله على فتح او ظفر بالعدو او ليفتتح بناء عموميا كدار مجتمع التجار او البنك ونحو ذلك والحاصل ان تدبير هذا الخط الذي يقال له ستي وهو عبارة عن اول ما انشئ في لندرة من الابنية والحوانيت والمعتـــرفات مفوض بالاستقلال الى الضابط واولئك المديرين وشعار المدينة هو سيف مار بولس وصليب مار جرجس وفي العام الماضي كان الضابط يهوديا وقيل ان الضابط الذي نصب في هذه السنة كان نفرا من العسكر ومن الغريب هنا ان الضابط يعزل في كل سنة وخدمته يبقون الى ما شاء الله وسيأتي بقية الكلام على الستي ـ ومن ذلك كلدهال وقد تقدم ذكره وهو ديوان احـــكام الستي فيه توقيع بخط شكسبير من شعراء الانكلـــيز اشتـــراه المديرون بمـــائة وسبع واربعين ليرة وبالقـــرب منه دار عظيمة ايضا لختم ما يصاغ من الذهب والفضة

---

(١) جميع هذه المصاريف زادت الآن اضعافا *

فيها الكاس التي شربت بها الملكة اليصابت عند تتويجها . ومن ذلك
البرج الذي يقال له تور اف لندن اي برج لندرة وهو اعظم برج في
بريتانيا وهو حصن للمدينة ومقر لصاحب الملك عند عقد هدنة ونحوها
وسجن للمجرمين من ارباب الدولة لا يعلــم متى كان انشاؤه وانمــا
يظن انه بني في سنــة ١٠٧٨ وهو يشتمل على الدروع والسلاح التي
كانت تستعمل في الزمن القديم وعلى مدافع ثمينة من جملتها مدفع
اخذ من نابوليون الاول وكان هو قد اخذه من مالطة وهو بديع الصنعة
ومدفعان عظيمان اخذا من البلاد الاسلامية طول كل ٢٣ شبرا وفيه دروع
جامس الاول وهنري الرابع وادورد الرابع والملكة اليصابت وغيرهم وتاج يقال
له تاج صانت ادورد صنع لتتويج كرلوس الثاني ثم توارثه جميع الملوك
بعده وهو التاج الذي يضعه رئيس الاساقفة على رأس صاحب الملك عند
المذبح وفيه ايضا تاج جديد صنع للملكة وهو نحو طربوش من مخمل احمر
يحيط به اطار من فضة مرصع بالالماس زنته رطل وثلاثة ارباع وفي التاج
ياقوتة غير مجلوة يقال انها كانت في تاج الملك ادورد الملقب بالاسود
وقيمة التاج كله ١١١,٩٠٠ ليرة وفيه تاج لامير والس من ذهب غير مرصع
بالجواهر وآخر لزوج الملكة مرصع بالالماس والدر وغيرهما من الجواهر
وفيه صولجان يسمى صولجان العدل او صولجان الحمامة لان فيه حمامة
وطوله ثلاث اقدام وسبع اصابع وهو من ذهب مرصع بالالماس وغيره وآخر
للملكة عليه صليب بديع الصنعة مرصع بالالماس وآخر يسمى صولجان الملك
عليه تفاحة مرصعة بالياقوت والزمرد والالماس طوله قدمان وتسع اصابع وفيه
صليب من ذهب مرصع بالجواهر المتنوعة وآخر يسمى قضيب صانت ادورد
من ذهب مطرق طوله اربع اقدام وسبع اصابع في اعلاه دائرة وصليب ويقال
ان في الدائرة قطعــة من صليب المسيــح وفيه ايضا سيوف العدل
الكنائسية والمدنية ورُكُب من ذهب تستعمــل يوم تتويج الملك او
الملكة ووعاء للماء المبارك في شكل نسر وملعقة من ذهب للمناولة يوم

التنويج وطست من فضة مذهب يستعمل يوم معمودية ولد صاحب الملك وغير ذلك من التحف مما يطول شرحه . قلت لما رأيت هذا الموضع اخبرني الدليل بان الياقوتة الحمراء التي في مقدم تاج الملكة وهي نحو البيضة الصغيرة تساوي ٥٠,٠٠٠ ليرة وثمن التاج كله مليون وثمن التيجان الاخرى مليونان والله اعلم . وقد جرت العادة بان تاج الملكة يودع في هذا الحصن وعند الحاجة اليه يؤخذ منه ثم يرد اليه وقد سرق مرة مع سائر الجواهر وذلك سنة ١٦٧٨ واعجب من جميع ما ذكرت ان هذا البرج الاميري الملكي التاجي لا تمكن رؤيته الا بعد اداء شلين - وفي لندرة اربعة قصور لصاحب الملك اعظمها وهو الذي تسكنه الملكة الان في الشتاء القصر المسمى باكنهام في اسطبله عاجلة لها تساوي نحو ثمانية آلاف ليرة وطول حديقة القصر ٣٤٥ قدما قال فيه بعضهم قد لزم لترميمه وتصليحه ٥٠,٠٠٠ ليرة مع انه لا يصلح لسكنى الملوك وبني فيه قنطرة من رخام صرف فيها ثمانون الف ليرة مع انه لا يمكن ابقاؤها حيث هي وقبلا صرف على القصر نحو سبعمائة وخمسين الف ليرة ما عدا ما لزم له من الفرش والاثاث وكان يمكن ان ينشأ بهذا المبلغ قصر جديد فاخر خير من هذا القصر الذي ان هو الا عبارة عن مواضع ملفقة وبعد ان صرف ذلك المبلغ المذكور على القنطرة لزم الآن صرف مبلغ عظيم والله يعلم الى اين وصرف ايضا على قصرها الذي تسكنه في الصيف في ونصر وهو على مسافة نحو اربع ساعات من لندرة ١٠,٠٠٠ ليرة وذلك لاجراء الماء اليه وثاني مرة صرف عليه ٦,٥٠٠ ليرة لوقايته من النار وقد تبين من دفاتر المصروف انه من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٣١ بلغ المصروف على هذا القصر ١,٤٩٨,٥١٦ ليرة فاذا اضفتها الى المبالغ اللازم الآن بلغت جملة ذلك ١,٥١٥,٠٠٠ ما عدا ما يصرف على الغياض والشجر الملحقة به وبلغ مصروف الاثاث ٢١٦,٠٠٠ ومصروف التحف ٣,٠٠٠ قال فهذان مليونان صرفا على قصرين هما مسخرة وهزء لاهل

اوربا جميعا ويقال انه يصرف في السنة على ترميم القصور والمباني الميرية ١٧٠,٧٨٠ ليرة والقصر الثاني ويسمى قصر صان جامس اصله مستشفى للبرص ثم صار مقرا للملك هنري الثامن ومنه تصدر الآن الاوامر الملكية وهو مبني من الآجر وما تحتـــه طائل ونحـــوه الباقي - وفي التاريخ انه لما مات هنري الخامس احبت زوجته الملكة كاثرين رجلا والسيا من العسكر الذين يحرسون الملك اسمه اوين تودور فتزوجته سرا فهو ابو ملوك الانكليز من بعده وكانت وفاتها في سنة ١٤٣٧ واول اولاده قيل له اولا ادمند ارل رشموند ثم عرف باسم هنري السابع - وفي لندرة ست غياض اعظمها الغيضة التي يقال لها هيد پارك اي غيضة لهو وهي فسيحة عظيمة مساحتها من الارض عبارة عن ٣٨٧ فدانا باسفلها قنطرة باغ مصروفها ١٧,٠٦٩ ليرة وباعلاها قنطرة اخرى انفق فيها ٨,٠٠٠ وكانت اولا في غيضة صان جامس فنقلت وبلغت مصاريف نقلها ١١,٠٠٠ وفي هذه الغيضة ترى كبراءها وعظماءها في احسن المركوب والملبوس والحشم وخصوصا من شهر نيسان الى تموز واكثر النبلاء يسكنون هناك - قال فيها بعض الفرنسيس صور لنفسك سهلا فسيحا ذا اشجار وبرك وحقول ومرج تمرح فيه الثيران والشاء سربا كأنك في اقليم دوفنشير الانيق فتلك صفة هيد پارك - ثم صان جامس پارك وهو المتصل بقصر الملكة ومع ان المظنون من وضعه وصفته ان يكون منتاب ذوي الفضل والشان فهو مجمع الخدمة والحرافيش والاولاد ثم كرين پارك وريجنت پارك وپاترسي پارك وفكطوريا پارك وهو احسها كما ان فكطوريا تياطر هو اخس الملاهي وما عدا هذه الغياض فثم حديقتان احداهما لتنبيت النباتات كبستان النباتات في باريس غير ان دخولها مقصور على اصحابها او على من يؤذنون له - والثانية للحيوانات الحية والميتة والاداء على دخولها شلين وفي ضواحي لندرة ايضا متنزهات ينتابها الناس في الصيف وذلك كريتشموند وكيو وهمستد وكرافزان وهمبطون كورت واحسنها كريستل پالس في سدنام وهو القصر الذي نقل

من غيضة هيد پارك وهو يعز عن النظير - واعظم طريق في هذه المدينة هي ريجنت سركوس ويذكر غالبا باسم ريجنت ستريت وهو على خط منحن نحو نصف دائرة طوله ١,٧٣٠ ذراعا وهو يشتمل على دكاكين فاخرة بهية اكثرها مشرف بشعار الملك وذلك ان الملكة اذا اشترت شيئا من صاحب الدكان ساغ له ان يضع عليه صورة الاسد ووحيد القرن وادى الى الميري شيئا عليه في كل سنـــة وثم ترى الثياب الفاخرة من كل صنف ولون ومن كل صقع ومكان وقد يكون طول لوح الزجاج في عرض الحانوت نحو ست اذرع فاكثر وعرضه نحو ذراعين فيكون العرض كله من اعلاه الى اسفله لوحين او ثلاثة وثمن اللوح نحو عشر ليرات وديار هذه الطريق مبيضة الخارج او يقال نصفها ابيض ونصفها اسود وثم ترى اجمل نساء لندرة يخطرن بالديباج والثياب الفاخرة ويجررن اذيالهن على الارض جرا ولا سيما ليلة الاحد وهي ليلة السبت عندهم فاذا رأيت واحدة منهن جزمت بانها اجمل من رأيت ثم ترى اخرى فتجزم بانها اجمل من تلك وهلم جرا وكذلك هن في كاون ستريت وهاي ماركت والواقع ان هذه الليلـــة في جميع اسواق لندرة هي ليلة البهجـــة والقصـــوف والفرح وهي ابهج الليالي اما عند العلية فلعلمهم ان اليـــوم القابل هو يوم الانقباض فينصبون فيها الى اللهو والخلاعة في جميـــع الاماكن المقصـــودة واما عند السفلة والفعلة فلكونهم يأخذون اجرتهم في مساء كل سبت فمتى انصرفوا من المشاغل اقبلوا على الحانات والحوانيت لشراء مونة يوم الاحد فترى جميع الدكاكين غاصة بالرجال والنساء وكثيرا ما يتفق ان الرجل حين يقبض اجرته يذهب الى الحانة وينفقها فيها فيرجع الى اهله صفر اليدين فيقوم النقار بينه وبين زوجته او ان يعطيها لزوجته فتذهب هي وتنفقها في المسكرات ففي هذه الليلة ترى النساء يتضاربن بعضهن مع بعض او مع بعولتهن او مع غيرهم وكذا شان الرجال وكثيرا ما رأيت النساء يغلبن الرجال ويجررنهم بنواصيهم وكثيرا ما ترى امرأة مشرومة الانف او ملموقة العين او مخلوعة

الين او صرعى في الطريق من الخمر والضرب كل ذلك من بركات هذه الليلة ولولا ان اصحاب الحانات مشروع عليهم ان يقفلوا حوانيتهم في نصف الليل ومن خالف ذلك يغرم خمس ليرات لبقوا وبقين على الجن والروم والجعة الى الصباح والواقع ان العملة من الانكليز وذوي الحرف اقرب الى مزية الكرم منهم الى البخل فانهم في تلك الليلة ينفقون انفاق من لا يخاف الفقر ويشترون قطع لحم كبيرة ويتخذون حلواء من الفاكهة وغيرها وفي يوم الاحد يشربون القهوة بفناجين مخصوصة وبالسكر الابيض المكرر وهلم جرا واما عند اصحاب الدكاكين فلعلمهم ان يوم الاحد ليس فيه بيع ولا شراء فيطيلون المكث في دكاكينهم رجاء ان يكسبوا شيئا زائدا يكون عوضا عن بطالة الاحد فلهذا ترى للطرق والاسواق في تلك الليلة بهجة لا تراها في سائر الليالي وكذلك ليلة عيد الميلاد وبعض ليالي قبلها فان الدكاكين تبقى فيها مفتوحة وبعضها يكون مزينا وفيها تسمع آلات الطرب من جهات شتى وترى الناس في اقبال وادبار ومرح وارتياح - ودون الطريق الذي مر ذكره في الغنى والرونق طريق اكسفـــورد الا انه اطول واقدم وهو يفضي الى هيد پارك وطوله ٢,٣٠٤ اذرع وقد ترى في هذا الطريق وفي غيره عشرين دكانا للبرانيـــط ومثلهـــا للنعال ومثلهـــا للكتب ونحـــوها للخبز ولا ترى من مطعم واحد او نصف محل للقهوة - ثم الطريق الذي يقال له استراند طوله ١,٣٦٩ ذراعا وهو اكثر الطرق ملاهي فيه فرع من المألك الكبير عنده جرس ذو مادة كهربائية يدل على اوقات البلدة وعليه تضبط مواقف سكك الحديد الساعات والاوقات وفي الساعة الحادية بعد الظهر يهبط عن مركزه بنفسه - ثم پيكاديلي طوله ١,٦٩٤ ذراعا ثم نيوروود اي الطريق الجديد طوله ٥,١١٥ ولكنه ليس من الطرق المنتابة ونحوه ستي رود وطوله ١,٦٩٠ ثم نيوبوند ستريت فيه دكان جوهري رأس ماله خمسمائة الف ليرة وتحت يده من الصاغة والصنائعيين ما يزيد على خمسمائة رجل وهو اغنى جميع صاغة المملكة وكثيرا ما تستخدمه ملوك الافرنج من جميع الاقطار في

صوغ آنية لقصورهم ثم هوبرن وهو اوسع الطرق لكنه غير طويل فيه دكانان
للبز والحرير لا ينقص عدد المستخدمين في احدهما عن مائة نفس ومن
هوبرن فصاعدا نحو الشمال بني في سنة ١٦٠٧ وفي زمن الملكة اليصابت
منع من تكثير البيوت وامر بان كل عيلة تسكن في بيت واحد . ثم هلوي
ول ستريت مشهورة بالدكاكين التي يباع فيها كتب الفسق وصور النساء وما
اشبه هذا ثم طرق اخرى حسنة ايضا ولكنها ليست نظير هذه وعدد الطرق
المبلطة في لندرة يبلغ ٥,٠٠٠ وتمتد اكثر من ٢,٠٠٠ ميل ويوجد فيها نحو
٥٠ طريقا باسم كنگ ستريت اي طريق الملك ومثلها كوين ستريت اي طريق
الملكة ونحو ٦٠ طريقا باسم وليام ستريت ومثلها جون ستريت واكثر من ٤٠
طريقا باسم نيو ستريت . وقد تذاكر الناس هذه السنة في انشاء سكك الحديد
في قلب لندرة بدل الحوافل فان جعل هذه يبلغ في السنة ٣٠٠,٠٠٠ ليرة
والسير في الاول لا ينفق فيه اكثر من ٣٠,٠٠٠ ليرة فقط . ولكثرة الانوار
في الدكاكين والطرق تكون المدينة في الليل شتاء ادفأ منها في النهار وكذلك
مدينة باريس والغاز في طرق لندرة يوضع في فوانيس على عمد قائمة من
حديد فهي من هذا القبيل احسن من باريس لان كثيرا من فوانيس هذه
تجعل في الحائط الا انه ليس في طرق لندرة شجر ولا محل للقهوة على
نسق ما في باريس لان الشرطة لا يأذنون لاحد في ان يضع كرسيا في الطريق
ويقعد عليه . ثم ان اختراع الغاز هو من اعظم البركات التي يتنعم بها الانسان
في الليل ومن اقوى الوسائل المعينة على الامن والسلامة ولا سيما في
المدن الكبار فان لندرة منذ مائة سنة كانت ممنية باللصوص والنهاب في
مسالكها بعد العتمة حتى ان السالك فيها كان يعرض نفسه اما للقتل واما
للسلب وكانت الاولاد تحمل بايديهم مشاعيل ويجرون بها بين يدي المارين
ويأخذون منهم شيئا وفي ايام الملكة ماري كان العسس يستصحبون اجراسا
يضربون بها للتنبيه والتحذير وذلك لقلة الانوار وفي سنة ١٧٦٢ وضعت
الفوانيس واوقدت بالزيت فقلت اللصوص واول من جرب استخراج الغاز

قسيس اسمه كـلاطون وذلك في سنة ١٧٣٩ الا ان تجربتـه هذه لم يعمل بها وفي سنة ١٧٩٢ تصدى لهذه العملية رجل من كرنوال اسمه مردوك وفكر في انه اذا صان الغاز المستخرج من الفحم او الحطب في وعاء ثم اجراه في قصب من الحديد يكون مغنيا عن المصابيح والشمع وفي سنة ١٧٩٨ اتم تجربته هذه واجراها في بعض المعامل في برمنهام الا انه كان يعرض لها بعض الخلل احيانا وفي سنة ١٨٠٢ انتبه الناس الى احكام ذلك وتعميم منفعته وبعد هذا التاريخ بسنة واحدة نور ملهى ليسيوم في لندرة بنور الغاز وفي سنة ١٨٠٤ وما بعدها وسع مردوك دائرة مشروعه هذا في منشستر وزعم الفرنسيس انهم مخترعوه الا ان هذا النور لم يعرف عندهم الا في سنة ١٨٠٢ وكان ذلك في باريس وقد عرفت ان مردوك صنعه قبل هذا الوقت بعدة سنين ومن سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٢٢ اشتهر استعمال الغاز واعجب جميع الناس حتى ان رأس المال الذي جمع لتنوير لندرة فقط بلغ ازيد من ١,٠٠٠,٠٠٠ ليرة وشغلت قصبات الغاز في ايصال النور الى محال مختلفة مسافة ١٥٠ ميلا وبعد ذلك بسنين قليلـة اشتهـر في سائر مدن المملكة لتنوير الطرق والحوانيت والديار وهو علـى بقائه وعدم نقصه خلافا لنور الشمع والزيت ارخص سعرا واخف كلفة فان رطل الشمع الدون مثلا يساوي ثلاثة ارباع شلين ومدة اتقاده لا تزيد على اربعين ساعة وان غالونا من الزيت يساوي شلينين وينير ما تنير ستمائة شمعة في ساعة واحدة والشمع العال اغلى من الشحمي بثلاثة اضعاف والف مكعب من الغاز يساوي تسعة شلينات فتحصل من ذلك ان ما قيمته مائة من الشمع العال يكون خمسة وعشرين من الشحمي وما قيمته خمسة من الزيت يكون من الغاز ثلاثة وبالجملة فانه من الزم الاشياء ولا يعلو عليه نور الا نـور الشمس (١) واذا اوقدت نورا منـه فلا ينطفيء الا اذا

---

(١) في سنة ١٨٨٠ نور كثير من طرق باريس ولندرة وغيرهما من طرق مدن اوربا بالنور الكهربائي *

اطفائه وذلك بان تدير لولبه الى جهة الشمال واذا اردت ايقاده ادرته الى اليمين وادنيت النار من فوهته فيبقى كذلك الى ما شاء الله وكيفية تنوير الطرق في لندرة هو ان يرتقي الرجل في سلم الى الفانوس وفي باريس يحمل الرجل النور في عود طويل ثم يدنيه من فوهة الفانوس من دون ان يرتقي اليه ولا يخفى ان ذلك اسهل واسرع *

